الجمهورية الجزائرية الديمقراطية والشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية — كليةالآداب والحضارة الإسلامية

قسنطينة — قسم التاريخ

السيرة النبوية عند المستشرقين الإنجليز المعاصرين

–كارين أرمسترونغ نموذجا–

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب: — تحت إشراف:

دوادي فرادي — د/ عبد العزيز فيلالي

الاسم و اللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
إبراهيم بحاز بكير	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة غرداية
عبد العزيز فيلالي	أستاذ محاضر	مشرفا ومقررا	جامعة قسنطينة –02–
محمد فرقاني	أستاذ التعليم العالي	عضوا	جامعة الأمير عبد القادر
يوسف عابد	أستاذ التعليم العالي	عضوا	جامعة الأمير عبد القادر
كمال بن مارس	أستاذ التعليم العالي	عضوا	جامعة قالمة
محمد أوسكورت	أستاذ محاضر	عضوا	جامعة الأمير عبد القادر

السنة الجامعية 1435–1436هـ/2014–2015 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى الذي أحببته حباً يفوق وصفي له وعشت بمعيَّته أياماً مباركات، ولازلت أهيم بحبه في دنيا النّاس هذه وأدعو الله ألاّ يحرمني رفقته غداً يوم القيامة؛

إلى الحبيب محمد ﷺ

ثم إلى الذين أحببتهم بحبي له ﷺ دون تحديد أو تمييز.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

الشكرلله أوّلاً وأخيراً، ثم للذين كانوا عوناً لي في طلب العلم، وبلوغ هذا المستوى سواء كانوا في ذلك أشخاصاً أو مؤسسات، داخل الجزائر وخارجها، فلهم مني جميعاً جزيل الشكر وفائق التقدير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على خير البرية والنور الذي تبدّدت به حوالك الجاهلية، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الكرام الغر المحجّلين وعلى من اهتدى بهديه واقتفى أثره إلى يوم الدين وبعد؛

فإنّ الله قد خلق الخلق وبسط لهم الرزق، وأرسل إليهم أنبياءه من أنفسهم يهدونهم سبيل الحق، وجعل الأنبياء قِمَماً يُهتدى بهم، وأتمّ النعمة عليهم بأن جعلهم أكمل الخلق أدباً وأوفرهم عقلاً وأزكاهم نفساً، وجعلهم نماذج الكمال والهدى بين خلقه بما أوحى إليهم فعل الخيرات والأعمال الصالحات، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء:73]، وختم قائمتهم بمحمد ﷺ ونسبه إلى نفسه تعظيما لقدره وتشريفاً لمقامه فقال عز من قائل:﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب:40].

فلم يحفل التاريخ الإنساني منذ فجر الخليقة لا في سير الأنبياء عليهم السلام ولا في سير العظماء ولا المصلحين ولا الزعماء، بأن استجمع أحد منهم في شخصه وشخصيته من الصفات الذاتية والخَلقية والخُلقية والنفسية والتربوية وجميع صفات الكمال مجتمعة مثل ما استجمع ذلك في شخص نبيِّنا محمد ﷺ، فلا غرو في ذلك فذو العرش محمود وهذا محمد ﷺ.

ولقد حظيت سيرته العطرة ﷺ على مرِّ الأزمان وفي كل المراحل التي مرّت بها بالعناية الكافية والكبيرة من قِبل الأمة الإسلامية عامة والدارسين لها بصفة خاصة، سواء كان ذلك من حيث الجمع والتوثيق والتحقيق أو من حيث التدريس والتعليم، حتى غدت تخصّصاً وعلماً قائماً بذاته.

كما ظلت سيرة رسول الله ﷺ النموذج المثالي للحياة الإنسانية الحقة بكل أبعادها، والمعين العذب الذي لا ينضب على مر العصور والأجيال، ونالت من عناية العلماء قديما وحديثا مسلمين وغير مسلمين ما لم تنله سيرة نبي ولا مصلح ولا زعيم، وتفنن المسلمون في كتابتها والتصنيف في جزئياتها أيما تفنن، كيف لا وهي سيرة أعظم رسول ﷺ وأكرم الخلق على الله تعالى، يقول ابن

حزم رحمه الله:" **إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبَّرها تقتضي تصديقه ضرورةً، وتشهد له بأنه رسول الله ﷺ حقاً، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى**"[1]

فإن السيرة النبوية السجل الأمين لحياة النبي ﷺ، والمرآة الصافية لأخلاقه وأحواله وشمائله، والسراج المنير الذي أقامه اللّه على الأرض ليضيء للبشرية طريقها القويم، على صفحاتها يطالع المسلم والناس أجمعين، المثل الأعلى للكمال البشري مشخصاً في حياة رجل يمشي على الأرض ويعيش حياته الواقعية بين الناس.

وعلى هذا الأساس فمن أراد أن يعرف المنهج العملي للإسلام بخصائصه وأركانه فليلتمس تلك المعرفة مفصَّلة ومجسَّدة في سيرة الرسول ﷺ وسنته القولية والعملية والتقريرية.

وكما هو معلوم لدى علماء التربية والأخلاق والسلوك أن الإنسان لا يتأثر ولا يسمو في سلوكه وأخلاقه، إذا قدمت إليه الفضائل الخلقية والمثل العليا في صورةٍ مثالية أو نظريات مجردة، وإنما يتأثر بها عندما يشاهدها مجسمة في صور واقعية ومواقف إنسانية.

من هنا كان للسيرة النبوية التي تعرض بين صفحاتها الواقعية العطرة، ومواقفها الإنسانية المضيئة، القدوة الحسنة، والأنموذج العالي للكمال البشري.

ولمن أراد أن يكتب في السيرة النبوية فعليه أن يأخذ نفسه ويحملها على التحلي بشروط ثلاثة لا إخلال فيها ولا اعوجاج وإلا عدَّت كتاباته ضرباً من التسلي التاريخي وفناً من فنون الكتابة الشخصية على ما يقوم به عامة الناس في كتاباتهم؛ هذه الشروط هي:

1_ الإيمان المطلق برسالة محمد ﷺ والتصديق الكلي بمصدرية الوحي والغيب.

2_ تتبع أحداث السيرة النبوية على أساس أنها نسيج موحَّد لا يقبل التجزئة ولا الإسقاطات، وأي شيء خالف هذا سيحدث تشوهات أو انكسارات في النسيج العام.

3_ امتلاك الأدوات والوسائل البحثية الموصلة إلى النتيجة الحتمية المتمثِّلة في الحقيقة من لغة ومادة خبرية أصيلة أصلية حتى يتسنى للباحث أن يتعمَّق في بحرها ليكتشف الدرر ولا يرضى إلا بها.

---

(1) أبو محمد علي بن حزم(384-456هـ/995-1063م): الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: د. محمّد إبراهيم نصر، ود. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل بيروت، 1405هـ/ 1985م، ج2 ص90.

ولم تبق هذه الدراسة حكراً على أبناء الأمة الإسلامية وحدهم بل تعدّت ذلك إلى غيرهم، وحتى إلى أعدائهم، الذين كسروا شوكة المسلمين السياسية والعسكرية، وقد صاحب هذا الإنكسار إنكسار على المستوى العلمي في جميع فروعه وتخصّصاته تقريباً.

وهؤلاء الذين كتبوا في السيرة النبوية لم تكن طريقتهم واحدة، بل تفرقوا مذاهب وأحزاباً ثم كانت نتائج أبحاثهم بعد ذلك طرائق قدداً.

والملاحظ أن السيرة النبوية في عصرنا لم تكتب فيها الأقلام الإسلامية فحسب، بل كتب فيها غير المسلمين أيضا، وفي هؤلاء وأولئك المنصف في البحث المخلص في طلب الحقيقة وفيهم الحاقد على الإسلام المنحرف عن سواء السبيل العلمي.

وهذا الاختلاف في الكتابة مرده إلى ما يدين به كل كاتب من عقيدة وما يعتقده في حياة الممارسة اليومية من آراء وأفكار، ومن ثم تتعدد النتائج التي يتوصل إليها الكاتبون في السيرة وكذلك تبعا للمنهج المتبع في دراستها.

وإذا كان عموم المتقدمين من الكتَّاب يكتفون بسرد أحداث السيرة النبوية ولا يهتمون بالتحليل والاستنباط إلا القليل منهم، فعلى العكس من ذلك كثير من الكتَّاب المعاصرين الذين قطعوا أشواطا بعيدة في تحليل أحداث السيرة النبوية واستنباط الدروس والعبر منها، ومناقشة الكثير من قضاياها، وتفكيك مراحلها الزمانية والمكانية.

ومن هؤلاء الكتَّاب المعاصرين المستشرقون، فقد أظهر المستشرقون اهتماماً كبيراً بحياة النبي ﷺ وسيرته، وألَّفوا وكتبوا لأهداف متباينة، وكان منهم المنصفون، وهم قلة قليلة وكتبهم وآثارهم تشهد بذلك، والمتعسفون وهم الكثرة الكثيرة وتكفي شهادة الواحد منهم على نفسه أو شهادة بعضهم على بعض في كتاباتهم أو مواقفهم.

والحقيقة الماثلة في كتابة الكثير من المستشرقين للسيرة النبوية على اختلاف جنسياتهم وأوطانهم هي الطعن والكيد والمكر، فلم يدَّخر هؤلاء جهداً في النيل من حياة صاحب النبوة ﷺ وفي ادعاء الكثير من الأراجيف والافتراءات عليه، فنسبوا له كل منقصة ووصفوه بكل دَنِيَّةٍ وألصقوا به كل خرافة وفظاظة في القول والعمل، ورسموه في مخيِّلاتهم ثم على أوراقهم وكتبهم ومجلَّاتهم في صور كاريكاتورية قبيحة لا تليق حتى بإنسان سوي في مجتمعاتهم، فكيف يكون ذلك في حق النبوة

والأنبياء الذين وُصِفوا في قوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء:73].

ثم كيف يكون ذلك في حق من قال فيه رب العالمين:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:04]، وليس هذا فحسب، فكيف يكون ذلك في حق من قد نسبه ربه إليه سبحانه تعظيماً وتشريفاً لمقامه ﷺ مثلما هو مذكور في سورة الأحزاب.

ولكن النفوس المريضة، والعقول الكليلة، والأفئدة العليلة التي ما برحت آفاقُها الحمأ الآسن، الذي كان أصلاً في النشأة البشرية و لم تسمُ عنه إلى آفاق الكمال البشري والتفكير السوي وتمتلئ بالنور السرمدي نور الإيمان والفطرة السوية، لا ترى غير ذلك ولا يرتفع مستوى تفكيرها عن ذلك المستوى المنحط، ولا ترى أفقدها النور الذي جاء به محمد ﷺ لأنها أسيرة ظلام الجهل والحقد والكراهية نتيجة ثقافة التعالي والتمييز والتحيّز الغربي.

وفي أحسن الأحوال في دراسة السيرة النبوية لدى المستشرقين عامة، ومنهم المدرسة الإستشراقية الإنجليزية، أن يرفعوا مستواهم البشري العقلي العلمي النفسي والثقافي، بأن يصفوا الرسول ﷺ بأنه عظيم مصلح عبقري مجدد لعصره وموحِّد لقبيلته والعرب بعد ذلك، ومكرهم في ذلك وكيدهم حتى ينفوا عنه أصل الأصول في العقيدة والإيمان وهو أنه نبيٌّ ورسول من رب العالمين للناس كافة ﷺ.

وفي مقابل ذلك بزغ فجر جديد عند أولئك في عطائهم العلمي بعد توسّعهم في أرجاء المعمورة، وواكب هذا التوسّع حركة أو ظاهرة علمية لم تكن لها سابقة في تاريخهم ولا تاريخ آبائهم اصطلحوا على تسميتها بالإستشراق.

التعريف بالموضوع.

ظهر الإستشراق مع الصحوة الفكرية الأوروبية وغفوة المسلمين، وذلك لَمّا شعرت أوروبا كاملة بالخطر الذي كان يهدِّدها شرقاً من منافذ تركيا وبلاد البلقان عموماً وغرباً من منافذ الأندلس، ذلك الخطر هو الإسلام[1].

وإهتم الدارسون الغربيون-الذين اصطلح على تسميتهم فيما بعد بالمستشرقين- في بادئ الأمر بالإسلام كله وبأمّته، للحد من زحفه أولاً وتوقيفه عند أبعد نقطة ممكنة من حدوده الجغرافية بإقامة جميع أنواع السدود الممكنة المادية منها والمعنوية[2]، ثم للكيد له ثانياً وتدميره وتدمير أمّته؛ ثم انصبّ اهتمامهم على بعض الفروع على ما وجدوا من ثغرات في كتابات المؤلفين المسلمين[3]،

---

(1) يقول د. أكرم ضياء العمري:" إن بدايات الإستشراق الأولى ترجع إلى فترات مبكرة وترتبط بقصة الصراع بين المسلمين والغرب من خلال فتح الأندلس ومن خلال الحروب الصليبية ومن خلال الصراع في صقلية وجنوب أوروبا، وهذا الأمر كان يجعل الإسلام يحتك بصورة مباشرة بالنصرانية التي كانت مؤسساتها الكنيسة التي تسود العالم الغربي... ومن ثم اندفعت أعداد من القسس لدراسة الإسلام. فهذه البدايات الدينية كانت تتّسِم بالتشنج والعاطفية والدراسات فيها اتهامات ممجوجة...البعض يرى أن أوروبا كانت تخشى من غزو إسلامي فكري في تلك الفترة... وكان البابوات يرصدون هذه الحركة ويرون أنّها خطرة على أوروبا، وأنها تمثّل غزوا حضارياً فكرياً إسلامياً". موقف الإستشراق من السيرة والسنة النبوية، دار إشبيليا للنشر والتوزيع الرياض، ط1، 1417هـ/1997م، ص10-11.

(2) يقول عبد المتعال محمد الجبري:" في العصور الوسطى، وذلك بدء عهد الاستشراق، وقد جنح الكتاب في تلكم الآونة وعلى رأسهم قادتهم من الرهبان والقساوسة يصورون الإسلام ورسوله في صورة مشوَّهة تقبِّح الإسلام ورسوله في نظر القراء فهي كتابة تستهدف إقامة السدود النفسية والوجدانية حول المسيحيين حماية لهم من التفكير في الإسلام والبحث عنه في مراجعه الأصلية الصحيحة". الإستشراق وجه للاستعمار الفكري، مكتبة وهبة القاهرة، ط1، 1416هـ/ 1995م، ص219.

(3) مثال ذلك ما أشار إليه مجموعة من المؤرخين والدارسين والمحقِّقين المتأخرين من أنّ الأوائل من هذه الأمة قد تركوا تراثاً كبيراً أغنوا به معارف الإنسانية جميعها فضلاً عمّا قدّموه لأمة الإسلام، لكنّه يحتاج إلى بعض التحقيق والتنقيح في بعض جوانبه وخاصة التاريخية منها ليتماشى ومتطلّبات الواقع والبحث العلمي، حتى قال بعضهم:" ينبغي أن ننظر إلى أعمالنا التراثية بشيئ من الجدية، فنقر ما هو صحيح من مضامينها ونفنِّد ما هو غير صحيح ولا ينسجم مع طبيعة الرؤية الإسلامية من حيث المنهج ... من هنا يجدر بنا أن نعمل جاهدين حول محور واحد يتصل بتغيير مسار التاريخ الإسلامي وفق منهجنا القويم". أ.د/ محمد أحمد محمد أحمد: الإستشراق في التاريخ، بحث ضمن كتاب دراسات إستشراقية وحضارية، مركز الدراسات الإستشراقية والحضارية، المدينة المنورة، 1993م، ص195.وللمزيد ينظر: د.حسين مؤنس: تنقية أصول التاريخ الإسلامي، دار الرشاد القاهرة، ط3، 2005م كل فصول الكتاب. د. خالد كبير علاّل: أخطاء المؤرخ ابن خلدون في كتابه المقدّمة، دار الإمام مالك للكتاب الجزائر، ط1، 1426هـ/2005م كل فصول الكتاب. د. صالح زهر الدين: الإسلام والإستشراق، دار الندوة الجديدة بيروت، ط1، 1412هـ/ 1991م، ص8-10. د.فاروق عمر فوزي: الإستشراق والتاريخ الإسلامي، الأهلية

فاستغلّوها واشتغلوا بها، وحرّفوا وزيّفوا كثيراً منها، ثم صدّروها للعالم الإسلامي من جديد على شكل أفكار ومناهج حتى غدت عند كليلي الفكر والعقل عندنا، حقائق لا تقبل المناقشة ولا الدراسة، وبخاصة في التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية[1]، وما راعوا في ذلك المنهج العلمي الذي يدّعونه وما التزموا بضوابطه التي كانت من وضعهم.

ومع مرور السنوات والقرون وما صاحب ذلك من تبلور في مراحل الإستشراق[2]، ظهرت نزعة إستشراقية جديدة تدّعي العلم وتدّعي الالتزام بالمنهج العلمي في دراساتها حول الإسلام عامة بما في ذلك السيرة النبوية؛ وبخاصة بعد ظهور المدارس الغربية[3]، وانفصالها شكلياً عن بعضها إلا أنّها حقيقةً متلاحمة ومتكاملة.

وقد وقع الاختيار على أحد أهم تلك المدارس ألا وهي المدرسة الإنجليزية، لِما كان لها من إسهامات في العلوم الإسلامية عامة والتاريخ الإسلامي خاصة والسيرة النبوية على وجه أخصّ، وبما

للنشر والتوزيع عمان الأردن، ط1، 1998م، ص9. د. منذر معاليقي: الإستشراق في الميزان، المكتب الإسلامي دمشق، ط1، 1997م، ص15.

(1) يقول د. فاروق عمر فوزي:" لقد أشرنا سابقاً بأن سياسة الكنيسة في أوروبا ومن والاها من المفكرين الأوروبيين بدأت بعد فشل الحروب الصليبية في تحقيق هدفها، وعلى مدى قرنين من الزمان (493-653هـ/ 1099-1254م)، قرّرت تحويل الصراع إلى فكري وثقافي فبدأت بنشر وإشاعة سلسلة من الأكاذيب والمفتريات على الإسلام ونبيِّه... إنّ القلم لا يستطيع أن يكتب ما أذاعه هؤلاء القسسة والرهبان حول الرسول محمد ﷺ أو القرآن أو التعاليم الإسلامية". الإستشراق والتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص52.

(2) يرى بعض الدارسين بأن حركة الإستشراق قد مرّت بمجموعة مراحل أهمها: مرحلة البدء حيث كان الصراع بين المسلمين والغرب من خلال الحروب، ثم مرحلة الاحتكاك بين الإسلام والنصرانية حيث كانت الزعامة في الغرب للكنيسة والقساوسة، ثم مرحلة الصراع الفكري الديني حين نقل المسلمون علوم اليونان وفكرهم إلى العربية، ومرحلة تالية اقترن فيها الإستشراق بالتوسع الإستعماري. د. أكرم ضياد العمري: موقف الإستشراق، مرجع سابق، ص 10-11. ويرى البعض الآخر تقسيماً قريباً من سابقه مع اختلاف في تحديد المصطلحات والتسميات حيث بدأ الإستشراق بمرحلة دينية تبشيرية، ثم مرحلة عسكرية (فترة الحروب الصليبية)، ثم مرحلة السياسة الإستعمارية وأخيرا المرحلة العلمية. د. ساسي سالم الحاج: نقد الظاهرة الإستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، دار المدار الإسلامي بيروت، ط1، 2002م، ج1، ص36-37.

(3) والمقصود بالمدارس الغربية هي المدارس الإستشراقية الكبرى التي كان لها تأثير كبير في واقع الحركة الإستشراقية الغربية بما أنتجت من دراسات وبحوث وبما أنجبت من رواد، ثم بُعدُها الزمني من حيث التأسيس والظهور، وأخيرا تأثير هذه المدارس في واقع المسلمين وفي منحنى خط سير المجتمعات العربية والإسلامية. وأهم هذه المدارس من حيث الحيِّز الجغرافي: فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، إسبانيا، ألمانيا، هولندا والنمسا؛ وقد تضاف لهم الولايات المتحدة الأمريكية وكذا روسيا وخاصة بعد الثورة البلشفية (1917م). وللمزيد حول تاريخ هذه المدارس وروادها ومميزاتها ينظر: د. ساسي سالم الحاج: نقد الظاهرة الإستشراقية، مرجع سابق ج1، ص106-158. د. صالح زهر الدين: الإسلام والإستشراق، مرجع سابق، ص90-200.

أنجبت من أسماء كبيرة لامعة في عالم الإستشراق كما سيأتي بيانه في طيّات البحث وفصوله، وبما خلّفته تلك الأسماء من إنتاج علمي ولِما كان لذلك الإنتاج العلمي من أثر في توجيه الفكر الإنساني عامة.

وبعد القراءة والبحث وقع الاختيار على واحدة من المستشرقين والتي بزغ إسمها في هذا الميدان ألا وهي: **كارين أرمسترونغ Karen Armstrong**، والتي لقيت كتاباتها عموماً إستحساناً من طرف الدارسين الغربيين وكذلك من قِبل العرب والمسلمين، والتي تدّعي في كتاباتها ومواقفها أنها من معتنقي النزعة الجديدة التي أساسها العلمية والمنهج العلمي.

إشكالية البحث.

لعلَّ البعض يسأل قائلاً: إن موضوع الإستشراق قد تمَّ بحثه، وتمَّ بيان كل أصوله وفروعه تقريباً، وأن الغرب في حد ذاته قد تخلّى عن هذا المصطلح لأنّه استنفذ أغراضه[1] وكان ذلك بمؤتمر المستشرقين بفرنسا عام 1973م[2]، ولم يعد لمثل هذا البحث حاجة ماسة؛ زد على ذلك أنّ التآليف فيه وبخاصّة من جهة العرب والمسلمين قد أخذت في تزايد مستمر بداية من خمسينيات القرن الماضي(القرن العشرين الميلادي)، فما الداعي لذلك إذن؟

إنّ نظرة متفحِّصة فيما كتبه العرب والمسلمون عن الإستشراق إلى حد الساعة لا يمثِّل إلا النِزْر القليل إذا ما قيس بما أنتجه الآخر[3].

---

(1) علَّل بعض المستشرقين في ردهم حول هذا الموضوع بقول أحدهم:" تقدمت الاكتشافات وتقدمت الدراسات الأكاديمية، وبذلك لم يعد اصطلاح (الاستشراق) وافيا بالغرض، وطلاب العلوم الشرقية لم يعودوا مرتبطين بفرع واحد، بل تفرعت المسألة إلى فروع عديدة، كما أن المنطقة التي يدرسونها (الشرق) قد امتدت كثيرا وراء منطقة الشرق الأوسط". برنارد لويس: الإسلام والغرب، ترجمة قسم التأليف والترجمة بدار الرشيد دمشق، ط1، 1994م، ص 43. ويقول ذات المصدر في حديثه عن المستشرق:" لقد صار اصطلاح (المستشرق) ملوثا أيضا ولا يمكن إنقاذه، وذلك لم يعد مشكلة لأن الكلمة ذاتها فقدت قيمتها وقد نبذها الأشخاص الذين حملوها على عاتقهم في السابق". برنارد لويس: المرجع السابق، ص19.

(2) كان هذا المؤتمر الإستشراقي الأخير تحت رعاية المنظمة الدولية للمستشرقين، وبمناسبة مرور مائة سنة على بداية عقد المستشرقين لمؤتمراتهم العالمية، وللمزيد ينظر: د. مازن مطبقاني: الإستشراق المعاصر في منظور الإسلام، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض السعودية، ط1، 1421هـ/2000م، ص12-20.

(3) جاء في بعض الإحصائيات أنّه و" منذ مائة وخمسين سنة وحتى الوقت الحاضر يصدر في أوروبا بلغاتها المختلفة كتاب كل يوم عن الإسلام، هذه الإحصائية التي ننتهي إليها عندما نعرف أن ستين ألف كتاب قد صدرت بين 1800-1950م أي عبر قرن ونصف". د. أكرم ضياء العمري: موقف الإستشراق من السيرة والسنة النبوية، مرجع سابق، ص6-7، بالإضافة إلى أن

بالإضافة إلى أنّ أكثر ما كُتِب لا يعدو أن يكون إلاّ ردة فعل[1]، وردة الفعل هذه ليست مساوية للفعل في حدِّ ذاته، وأنّ هذه الكتابات هي محاولات فردية إجتهد أصحابها كل واحد منهم من منظور ما رآه أو ما قرأه وتوصّل إليه أو بحسب تجربة ميدانية خاضها[2].

بعض المستشرقين المعاصرين قد حاولوا تتبع ما كُتب من دراسات وأبحاث في هذا الموضوع من قبل المستشرقين أنفسهم وجمعوا فيها الشيئ الكثير، ومن تلك المحاولات ما قام به:

W.M.Watt:The Biography of The Prophet in Recent Research, Islamic Quartery, London, 1954.

Rudi Parret: European Research on Life and Work of Prophet Muhammad. JPHS.Pakistan,1958.

(1) مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مكتبة عمار القاهرة، ط1، 1970م، ص13.

(2) ينظر في ذلك ما قام به الدكتور مصطفى السباعي من لقاءات ومحاورات وزيارات ميدانية لبعض المستشرقين ولمراكز الإستشراق في البلاد العربية والغربية، ودوّن كل ذلك في كتابه: الإستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المكتب الإسلامي دمشق، ط3، 1405هـ/1985م، ص9-12و51-59. وتجربة الطيباوي والتي تكاد تكون فريدة من نوعها حيث كشف خبايا الإستشراق وخطط المستشرقين وأساليبهم في التأليف والتعليم، فقد طالت معايشته للإستشراق الإنجليزي تحديداً ودارت بينه وبينهم مطاحنات فكرية وجدالات وكشف حتى عن المؤامرات التي حاكوها ضده وما ذلك إلا أنه قال كلمة الحق فيهم. د. عبد اللطيف الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، دراسة نقدية، ترجمة: د. قاسم السمرائي، إدارة الثقافة والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود الرياض 1411هـ/1991م، ص5 وما بعدها. ومثال ذلك كذلك ما قام به الدكتور مازن المطبقاني من لقاءات ومحاورات وزيارات ميدانية لبعض المستشرقين ولمراكز الإستشراق في البلاد الغربية في كتابه: الإستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، 1416 هـ/1995م، الملحق 1-3، ص 586-608.

ولم يلق هذا النوع من المعرفة الاهتمام اللائق به من حيث البحث على مستوى الدول العربية والإسلامية في شكل مؤسسات إلا عند البعض[1]، وهو لا يزال في مراحله الأولى، ولذا يجد الباحث في هذا الميدان الدّعوة الملحَّة، من عموم مَن كَتَب فيه من العرب والمسلمين، إلى كافة المهتمين والباحثين في شكل أشخاص أو إلى إقامة مؤسسات للتصدِّي والرد،كمرحلة أولية، ثم في مرحلة لاحقة للتقعيد والتأصيل[2]، لأن الآخر يعمل في شكل تكتّلات ومراكز ومؤسسات عالمية[3].

وإذا كان الأمر على هذا الشكل، فما هو الإستشراق وأين ومتى نشأ؟ وما دوافعه وأهدافه؟ وما هي مناهجه؟ ومَن يقف خلفه في تمويله؟ وما هي أهم مدارسه؟ ومن هم رواده؟ وهل كان هؤلاء منصفون أم مجحفون فيما كتبوا وعن مَن كتبوا؟

وإذا لقيت بعض مصنّفات هؤلاء الإستحسان في دوائرهم أو عند بعض الباحثين العرب والمسلمين، فهل أدَّت تلك المصنّفات ما عليها وأثبتت الحقيقة واتُبِع فيها المنهج العلمي الرصين؟

وما موقع كارين أرمسترونغ في المدرسة الإستشراقية الغربية الإنجليزية خصوصاً من خلال كتاباتها عن السيرة النبوية؟

---

(1) مثال ذلك ما تقوم به وزارة التعليم العالي السعودية من دور ريادي بإنشائها لأقسام ومعاهد ووحدات للبحوث، حيث تم إنشاء أول وحدة سنة (1401هـ/1991م) في مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية باسم وحدة الاستشراق والتنصير بالرياض، ليصبح هذا التخصّص فيما بعد قسماً أكاديمياً (قسم الإستشراق) في المدينة المنورة ضمن كلية الدعوة؛. ينظر: د. قاسم السمرائي: الاهتمام بالاستشراق في السعودية في العصر الحاضر، تر: مازن المطبقاني، مجلة عالم الكتب، مجلد 14، عدد 4، محرم-صفر 1414هـ، يوليو-أغسطس 1993م. ص 422-431. وما تقيمه من ندوات ومهرجانات علمية مثل: مهرجان الجنادرية الذي تقوم بتنظيمه والإشراف عليه مؤسسة الحرس الوطني السعودي بالرياض بالتعاون مع وزارة التعليم العالي، ومثاله: المهرجان الحادي عشر في الرياض عام 1416هـ، والذي كان بعنوان "الإسلام والغرب".

(2) مصطفى السباعي: الإستشراق والمستشرقون، مرجع سابق، ص65.

(3) يقول رودي بارت:"الإستشراق مسألة عالمية مسألة تهم أوروبا بأسرها لهذا كان من التعسف حيال الموضوع أن يظن المرء أن في إمكانه أن يعالج جهود الألمان على أنها مطلقة وأن يفصلها عن ارتباطها بالأوشاج والأربطة العالمية". الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية(المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه) ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي القاهرة [د ت ط]، ص29.

وهل التزمت كارين حقيقة بالمنهج العلمي الذي تدّعيه المدرسة الإستشراقية الغربية؟

وما طبيعة المنهج الذي اعتمدته في كتاباتها؟

وما هي الترسّبات الفكرية الإستشراقية التي ورثتها كارين من تلك المدرسة الغربية؟

وهل كان لكارين من محطّات جعلتها مفترق طرق بينها وبين المدرسة الإستشراقية حين كتابتها للسيرة النبوية؟

وما الجديد الذي قدّمته كارين في هذا المجال العلمي والفن المعرفي؟ سواء من حيث المنهج البحثي أو مصدر المعلومة أو الإستشراف المستقبلي؟

أسباب ودوافع الدراسة.

من خلال ما كتبه بعض الدارسين في ميدان الإستشراق – من الغربيين والعرب– عموماً ومن خلال كتابات كارين أرمسترونغ خصوصاً، تبدَّت لي بعض أسباب ودوافع هذا البحث أُجملها فيما يلي:

1. الكم الهائل للمؤلّفات التي أُلِّفت حول تاريخ الأمة وحضارتها عموماً وسيرة نبينا محمد ﷺ خصوصاً من قِبل المستشرقين قديماً وحديثاً، وميزة تلك المؤلّفات ما اشتملت عليه من روح التعصّب[1].
2. ظهور النزعة العلمية في الأبحاث الإستشراقية الحديثة والمعاصرة، وادِّعاء أصحابها امتثالهم بالمنهج العلمي والموضوعية والروح العلمية فيما يكتبونه عن الشرق الإسلامي عموماً وعن النبي محمد ﷺ على وجه الخصوص[1].

---

(1) وقد شهد شاهد منهم على ذلك، فيقول رودي بارت:" حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعا ما كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للمسيحية لا يمكن أن يكون فيه خير، وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا تلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل، وكانوا يتلقفون منهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام". الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، مرجع سابق، ص9-10.

ثم يدلِّل بارت بمثال لتأكيد ما قاله بدراسة أحد المستشرقين وهو شبرنجر فيقول:" وكان المتوقع أن يكتب شبرنجر بما بين يديه من مصادر كثيرة كثرةً كبيرة، من كتابة سيرة لمحمد لا تدع مجالا للنقد أو الأخذ، ولكن السيرة التي ألفها خيبت الظنون في أكثر من ناحية و لم ترع شروط ومتطلبات التقرير العلمي. فقد ضلله اتجاهه على النظر إلى الإسلام باعتباره وليد روح عصره وحمله على التقليل من شأن شخصية النبي ومن أهمية جهوده التاريخية". المرجع السابق، ص23.

3. محاولة الوصول إلى الكشف عن السر الكامن وراء الاهتمام المبالغ فيه في بعض الأحيان حول الدراسات الإستشراقية في السيرة النبوية، وما هي الأسباب الحقيقية في ذلك؟
4. تتبع المناهج المتبعة في كتابة المستشرقين حول السيرة النبوية، ومحاولة الكشف عن المناهج الحقيقية التاريخية – العلمية– المتبعة من طرف المدرسة الإستشراقية الإنجليزية الحديثة والمعاصرة ومن ورائها كارين أرمسترونغ.
5. الإطراء المبالغ فيه في بعض الأحيان والذي لقيته تآليف كارين أرمسترونغ من قِبل الدارسين والباحثين، وحتى من بعض النقاد الغربيين والمستشرقين، وتميّز تلك التآليف بحسب الذين قالوا بذلك، عن كتب المستشرقين الآخَرين بالموضوعية العلمية والمنهجية، وكذلك الجدِّية في طرحها لقضايا وحوادث السيرة النبوية مع التزامها – فيما تذهب إليه من آراء– بمنهج الاعتدال[2].

---

(1) يقول رودي بارت:"لم يتبع الاستشراق من مراحله الأولى في العصر الوسيط إلى مرحلة التحول النهائي إلى علم قائم على النقد التاريخي طريقا مباشرة مستقيمة، ولم يتم للاشتغال بالشرق وبمحمد وبالدين الذي نشره، التحرر من طريقة البحث اللاهوتية المبنية على الدفع والمشاحنة إلا في العصر الحديث وتدريجيا". الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، مرجع سابق، ص15.

(2) جاء ذلك كتعليقات على لسان الغربيين المهتمين في المجلاّت والجرائد والمترجمين العرب لكتبها، وقد جُمِعت تلك الأقوال كملخصات في بداية ونهاية كتبها، مثالُه قول محرر مجلة:Muslim News في كتاب:
Muhammad. A Biography of the Prophet:
« Not just a sympathic book that would dispel the misconceptions and misgivings of its western readers, but also a book that is of considerable importance to muslims ».
وقول محرر جريدة: The Economist الأمريكية:
« Respectiful without being reverential, knowledgeable without being pedantic and above all readable. It succeeds because Armstrong brings Muhammad to life as a fully rounded human being »
وتم نقل القول نفسه على كتابها: Muhammad A Prophet for our time وعلى الكتاب ذاته جاء تعليق محرر جريدة نيو يورك تايمز بقوله:"
«To glimpse how the vaste majority of the world's muslims understand their prophet and their faith, karen Armstrong's short biography is a good place to start».

6. بيان وردُّ الادِّعاءات والافتراءات الإستشراقية-الواقعة ضمن إطار البحث زمانياً ومكانياً- ثم تصحيح وتثبيت الصورة الحقيقية لسيرة نبي الإسلام محمد ﷺ للوصول إلى مقاربة فكرية وقواسم مشتركة إنسانية تخدم الفكر الإنساني عامة دون تحيّز أو تمييز.

أهداف البحث.

لعل الأسباب ودوافع البحث التي ذكرتها قد اشتملت على بعض التلميح لما يكتسيه هذا البحث من أهمية، وعلى هذا فيمكن استخلاص أهداف البحث وتوضيحها فيما يلي:

1-يُعدُّ هذا المشروع العلمي **محاولة** – نحسبها- جادة للوصول إلى التعريف بالإستشراق عامة وكشف حقيقته، وبخاصة المدرسة الإستشراقية الإنجليزية الحديثة والمعاصرة، وإبراز مناهج العاملين فيها وأهدافهم وتفسيراتهم.

2- توضيح وبيان الأخطاء التي يصرّون على ارتكابها وتوريثها إلى أقوامهم وأبنائهم في محاولة منهم تصوير الإسلام تصويراً خاطئاً، لمنعهم من الاحتكاك به مخافة أن يلامس مشاعرهم أو يفتح مغاليق عقولهم فيسلموا.

3-كشف محاولاتهم لتوريث تلك الأخطاء وتثبيتها في عقول المسلمين، بما يُلقَّن في المناهج التعليمية والتربوية على جميع المستويات، وتصحيح تلك المفاهيم التي يدعون إليها من منظورهم كالتجديد ونقد الذات ومد جسور التواصل الحضاري وحوار الحضارات والأديان وإنصاف الإسلام وأهله.

4-كما يهدف هذا البحث أيضا إلى كشف مواطن الحق والصواب في كتب المستشرقين عموماً وعيِّنة الدراسة على الخصوص، وإنصافهم مع الإشادة بتلك المواطن والتأكيد عليها وبالمقابل فإن البحث كذلك يهدف إلى بيان مواطن مجانبة الحقيقة التاريخية والموضوعية والردّ عليها بأسلوب علمي، أكاديميّ، هادئ، رصين وموضوعي.

وما جاء على لسان العرب مثاله، قول ناشر كتاب: الإسلام في مرآة الغرب لدار الحصاد للطباعة والنشر بدمشق على الغلاف:"كارين آرمسترونغ واحدة من مفكري الغرب القلائل الذين ينتصرون للقضايا الإنسانية ويحكمون العقل في العلاقة بين الغرب والشرق العربي والإسلامي ويشكل عمل الكاتبة-حسبما نرى- مسعى جديرا بالاهتمام ويمكن عدّه شاهداً من أهله".

وقول المترجمة لكتاب محمد ﷺ نبي لزماننا على الغلاف:" وغني عن الذكر أن هذا لا يعني أننا نتفق مع المؤلفة في كل ما قالته، ولكن صوتها ومادتها في الكتاب تعدُّ من الأكثر إنصافاً للعرب والمسلمين في عالم الغرب اليوم".

منهج البحث.

في مثل هذا النوع من الأبحاث الأكاديمية يجد الباحث نفسه ملزماً باتباع نوعين من المناهج البحثية الظاهرة البيِّنة، المنهج التاريخي والمنهج التحليلي النقدي، واللذان يفرضان نفسيهما لعرض وتحقيق الكثير من الروايات والأحداث التاريخية، مع أن هذا لا ينفي كليةً المناهج البحثية الأخرى مثل المنهج الإستقرائي أوالمقارن.

لكن الذي يجب التأكيد عليه هو أن استعمال هذا المنهج أو ذاك من المناهج الأخرى يخضع لحاجة البحث وكذا ما هو مرجو من أهداف ونتائج علمية وموضوعية.

خطة البحث.

تتضمّن خطة البحث مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة وملاحق توضيحية وهي مبيّنة كالتالي:

إشتملت المقدّمة على تعريف موجز بموضوع الدراسة وبالأهمية التي يكتسيها الموضوع مع ذكر أسباب اختياره وذكر إشكالية البحث الأساسية والإشكليات الفرعية، مع توضيح لأهداف البحث ومناهجه مع ذكر الخطّة ثم عرض ونقد المصادر والمراجع وذكر الصعوبات التي تواجه البحث والباحث في مثل هذا الموضوع.

أما الباب الأول فكان عنوانه مسحة تاريخية حول الإستشراق، وقد تم تقسيمه إلى فصلين، وتم الحديث في **الفصل الأول** عن الإستشراق عامة من حيث أصله والتعريف به لغة واصطلاحا مع ما يلحق به من مصطلحي الإستعراب والإستغراب، ونشأته عامة ثم من حيث الزمان والمكان وأخيرا النشأة في إنجلترا، ودوافعه والتي فصّلت فيها الدافع الديني، والعلمي، والاقتصادي، والاستعماري، والسياسي ثم التاريخي؛ وأهدافه والتي تمثّلت في الهدف الديني، والعلمي والاقتصادي والاستعماري، والسياسي والتاريخي ثم الذاتي أو الاغترابي. وفي **الفصل الثاني** تكلمت فيه عن الإستشراق في الميزان والذي احتوى على تفصيلِ الحديث عن الإستشراق بين الإنصاف والإجحاف وتم فيه عرض القسم المفرط في المدح ثم المفرط في القدح وأخيرا القسم الوسط؛ ووسائل الإستشراق وأساليبه وفيه تبين أن للمستشرقين وسائل عديدة ومتجدِّدة وهي مذكورة في سياقها مجملة؛ ومناهج الإستشراق وقد تبيّن كذلك أنّها عديدة وغير ثابتة وأن المستشرقين قد بنوا مناهجهم على الشك والظن والدس والتجريح والقدح، مع المدح في بعض الأحيان باستثناء القلة منهم؛ ثم تمويل الإستشراق والذي وقفنا فيه على عدة أشكال من التمويل منها التمويل المالي وتمويل المجتمع لتلك المؤسسات الإستشراقية، وتمويل المؤسسات العلمية والتعليمية، ثم التمويل بنظام إعارة الكتب.

والباب الثاني والذي أسميته: رواد المدرسة الإستشراقية الإنجليزية الحديثة وأهم مصنّفاتهم في السيرة النبوية، فقد قُسِّم إلى فصلين؛ **الفصل الأول**: تحدّثت فيه عن المستشرقين الإنجليز غير المنصفين وكانت عيّنة البحث فيه المستشرق **مونتغمري واط** مع بيان منهجه في دراسة السيرة النبوية وعرض لمؤلّفاته، ثم المستشرق **برنارد لويس** وما كان له في السيرة النبوية من إسهامات مع عرض لمنهجه. أما **الفصل الثاني** فعنونته بـــ: المستشرقون الإنجليز المنصفون وذلك مقارنة بما كتبه غيرهم، وتمت فيه دراسة إسهامات المستشرق **بودلي** في السيرة النبوية وإن كانت فيها من الهنّات ما تَمّ توضيحه مع تفصيل لمنهجه، ودراسة إسهامات المستشرق **هيدلي** والذي أسلم فيما بعد مع شرح منهجه وكيف هي النظرة تختلف من قبل ومن بعد.

ثم الباب الثالث والموسوم بـــ: كارين أرمسترونغ وكتاباتها في السيرة النبوية، فقد احتوى على ثلاثة فصول؛ **الفصل الأول** وتَمّ فيه التعريف بكارين أرمسترونغ من حيث المولد والنشأة والحياة العلمية، ودراسة وصفية لِمنتوجها العلمي الخاص بالسيرة النبوية أو التي له علاقة بذلك؛ **والفصل الثاني** تناولت فيه ترسبات الموروث الحضاري الإستشراقي في فكر أرمسترونغ والذي جاء على المناهج الإستشراقية في كتابات كارين والتي تأثّرت بهم أيُّما تأثر؛ أما **الفصل الثالث** المعنون بمفترق الطرق بين أرمسترونغ وبين المدرسة الإستشراقية الإنجليزية المعاصرة فقد وضَّحت فيه نقاط الاختلاف التي تميّزت بها كارين عن غيرها والتي التزمت فيها بالمنهجية أو قاربت ذلك بشيء من الموضوعية.

وأخيراً **الخاتمة** فهي حصيلة ومجموع النتائج التي توصلت إليها بعد بسط الدراسة في جميع مراحل البحث من أبواب وفصول ومباحث.

أهم المصادر والمراجع المعتمدة في البحث.

يعتمد البحث مهما كان حجمه أو كان توجّهه على مجموعة من المصادر والمراجع على اختلاف فنونها وفروعها، لذلك كان نصيب هذه الدراسة من المصادر والمراجع الكم الكافي لإتمامها وإخراجها بالشكل الذي يليق بها، وقد تنوّعت تنوّعاً متميّزاً حتى يكاد يكون متبايناً في بعض الأحيان.

والمصدر الرئيس الذي كان لا غنىً عنه في كل الفصول هو القرآن الكريم الذي كان السند والموجِّه حتى أنه كان في بعض المحطات من البحث الحَكَم الفصل فيما كان فيه الاختلاف، رغم أن

البعض من الدارسين والباحثين الأكاديميين لا يعدّونه كذلك، إلا أنه في مثل هذا البحث كان الأمر مختلفاً، **فالذي نبحث سيرته هو من نزل عليه القرآن والذي كان له الموجِّه حيناً والآمر له حيناً آخر والناهي له في أحايين أخرى، كما كان المجيب في بعض الأوقات عن سؤالات السائلين، والمبرئ له مما يقول شانئوه في أخرى والمثبت له في مواضع ومواطن أُخَر، كما كان له الأساس في التشريع في العبادات والمعاملات، واستنباط الأحكام والعبر والعظات.**

وأما كتب السيرة النبوية والتي تمثّل الركيزة الثانية من حيث المصادر التي اعتمد عليها البحث في جل الفصول والمباحث فقد كانت كثيرة ومتعدّدة **وكان استعمالها بحسب الحاجة إليها وبحسب الحادثة التاريخية المرجو تأكيدها أو نفيها أو تثبيتها**، واختلفت في ذلك من حجمها وتاريخها وحتى بين قِدمها وحداثتها، إلا أن المصدر الذي كان رئيساً فيها فهو **كتاب الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**[1] والذي غطى معظم مساحة التخريج لحوادث السيرة النبوية العطرة، وهو لمؤلفه أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله **السهيلي** (ت581هـ/1185م) وذلك لأن صاحبه قد جمع فيه – ما أمكنه– بين الرواية التاريخية والتحليل لحوادث السيرة النبوية.

أما **كتب تخريج الأعلام والرجال سواء كانوا من المستشرقين أو من غيرهم** فقد كانت كثيرة كذلك منها **موسوعة المستشرقين للعقيقي، وموسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، ومعجم المستشرقين ليحي مراد، وكتاب الأعلام**[2] وهو عمل موسوعي جمع فيه صاحبه ما استطاع من أسماء الرجال والنساء من الأعصر الماضية إلى زمانه، وهو لمؤلفه خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس **الزركلي** (ت 1396هـ/1976م) وميزة هذا الكتاب أنه جامع شامل وأسلوبه سهل وتخريجاته موثّقة وهو قريب عهد بزماننا.

وحين تحدّثنا عن الإستشراق وبخاصة في الباب الأول **كانت نوعية الكتب متداخلة ومُشَكَّلة من مجموع لا يمكن أن يعتمد على كتاب بعينه لأن المعلومات حول هذا الموضوع كانت مفرّقة شذر مذر بين كتاب إستشراقي في أصله وآخر مترجم والثالث عربي أصيل**، مِمّا منع التواصل بين المادة الخبرية ومنه منع الاعتماد على كتاب واحد أو على وجهة نظر محدّدة سواء كان ذلك

---

(1) تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، نشر دار إحياء التراث العربي بيروت، ط1، 1421هـ/2000م، 07مجلدات.

(2) دارالعلم للملايين بيروت، ط15، 2002م، 08مجلدات.

من جهة المدرسة الإستشراقية الغربية أو من جهة الدارسين لها والمادحين أو من جهة الدارسين الناقدين أو حتى الناقمين عليها.

أما بخصوص الفصول التي جاء التفصيل فيها عن عيِّنات الدراسة من المستشرقين الذين تَمَّ عرض كتبهم وأعمالهم في السيرة النبوية والتي أثبتناها في طيّات البحث فقد **تمت الإشارة إليها حين الدراسة إما نقداً لها أو تنويهاً بها أو إستئناساً بها وكل واحد منها في بابه وفصله الخاص به بدءً بمونتغمري واط، فبرنارد لويس، وبودلي ثم اللورد هيدلي وأخيراً صاحبة الترجمة الأساسية في البحث كارين أرمسترونغ**، وسواء كانت **بالإنجليزية** – وهي الغالب الأعم– أو كانت مترجمة إلى العربية.

غير أنّه يجب التنويه بمصادر وأعمال **كارين أرمسترونغ** ولو بشكل موجز لأنها المصدر الأساس في بابها، فهي قد خصَّت السيرة النبوية بكتابين منفصلين، هما: محمد [ﷺ]محاولة غربية لفهم الإسلام **Muhammad: A Western Attemp to Understand Islam**؛ ومحمد [ﷺ] نبي لزماننا **Muhammad: Prophet For Our Time**، كما أنّها ضمنت مجموع ما كتبت إشارات حول الإسلام ونبي الإسلام ﷺ؛ وبخاصة كتبها: الحرب المقدَّسة **Holy War**، تاريخ الإله من إبراهيم إلى وقتنا **A Histotory of God: From Abraham to The Present**، القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد **Jerusalem,One city three feaths**، الإسلام تاريخ مختصر **Islam, a Short History**، والتاريخ المختصر للأسطورة **A Short History of Myth** مع مجموعة أبحاث خارجية، سواء تلك الموجودة في الموسوعات العالمية أو غيرها من البحوث والتي نشرتها في المجلاّت والدوريات والجرائد.

وإذا لم نذكر جميع ما اعتمدناه في بحثنا من مصادر ومراجع سواء كانت موسوعات أو كتب تاريخية أو علمية أو أدبية أو حتى مجلاّت أو ندوات علمية وسواء كانت باللغة العربية أو بغيرها فهي مثبتة حيث العزو العلمي في متن البحث وفي حواشيه وفي قائمة المصادر والمراجع.

الدراسات العلمية السابقة في الموضوع.

لا أدّعي في بحثي هذا أنه الأول والفريد من حيث أنه الدراسة المبتدئة في ميدان الإستشراق، بل لقد كانت محاولات سابقة بعضها كان جاداً فأثمرت الجهود والبعض الآخر يكفيه في جهده المحاولة.

وقد أفدت من بعض الدراسات التي كانت في نفس التوجّه والفن العلمي منها دراسة في السيرة النبوية قام بها الباحث **عبد الله محمد الأمين النّعيم**، وكان عنوانها: **الإستشراق في السيرة النبوية (دراسة تاريخية لآراء وات، بروكلمان وفلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية**[1]، **وقد أفدت منها فيما يخص التقعيد الفكري لهؤلاء- وهم يمثّلون المثال المحتذى لكل مستشرق بالغرب- في الدراسات الإسلامية عامة والسيرة النبوية بصفة خاصة حين الكتابة.**

ودراسة قريبة من بحثنا وفي نفس التوجه قام بها الباحث **مازن صالح المطبقاني**، حول **المستشرق برنارد لويس** وكتابته حول الإسلام عامة بجميع فروعه[2]، وقد خصّ السيرة النبوية بفصل يفوق الأربعين صفحة، **وقد أخذت منه تقنية التعامل مع تجزئة الفكر الإستشراقي عموماً وفكر برنارد لويس خصوصاً فيما يخص السيرة النبوية تحديداً من حيث المناهج العملية المتَّبعة**، وكذا بعض ملاحق رسالته في كيفية تعامله ومراسلاته مع عيِّنة دراسته- المستشرق برنارد لويس- والحقائق التي أثبتها، والتي أشرت إليها في موضعها من بحثي حين استعنت بها.

غير أن الذي يجب التنويه به هو أن دراسة خاصة بصاحبة الترجمة والتي هي عيّنة البحث مع مجموعة المستشرقين الآخرين مثل بودلي وهيدلي لم أقف على دراسة مركّزة لهم لا في شكل بحوث موسّعة أو في شكل أبحاث مختصرة وهذا ما أعطى للبحث صبغة خاصة به، وسبقاً، وطعماً علمياً متفرِّداً أرجو أن تعمَّ الفائدة به.

صعوبات البحث.

لعلّه من قول النافلة، أن المشتغل بالقلم والبحث العلمي في الوطن العربي والإسلامي عامة يعاني من صعوبات قد تكون في بعض الأحيان عقبات كؤود قد تفلّ من عزيمة الباحث فينهار جزئياً أو

---

(1) قام بطبعها (طبعة أولى عام 1417هـ/1997م) المعهد العالمي للفكر الإسلامي وتقع الدراسة في 344 صفحة.

(2) قامت بطبع بحثه ونشره مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض عام 1416هـ/1995م وتقع الدراسة في 553 صفحة عدا الفهارس والملاحق.

كلياً فينسلخ عن البحث وميدانه، كما قد تكون في شكل ممهِّلات تتعقب طريق الباحث بين الحين والآخر.

وقد تذوقنا من طعم هذا وذاك الجرعات الكثيرة كانت في بعضها غاصّة مع مرارة كمرارة العلقم، وفي بعضها الآخر وهو الذي هوَّن علينا تعب البحث وأبدل طعم العلقم حلاوة، ما وجدناه من سلوى ونحن نتصفح سيرة الحبيب محمد ﷺ وما لاقاه من مشاق الدعوة، فإعراض وحصار، ثم هجرة من الموطن الأصلي وأخيراً جهاد ومجاهدة، مع ما صاحب ذلك من أحداث عظام، فصبر واحتسب وكانت خاتمة أمره ﷺ نصراً ويسراً.

ثم ما كان متجدِّداً من معلومات حول الكتابة في مثل هذا الفن التاريخي وما فيه من عبر وعظات.

وما وجدته من سعة صدر الأستاذ الدكتور عبد العزيز فيلالي الذي كان المشرف والموجِّه مع ما بذل من إرشاد ونصح وتصحيح، وأخيراً فضيلة الأستاذ الدكتور سهيل زكّار الدمشقي مسكناً، وما قدَّمه لي من عون يعجز اللسان عن شكره وعدِّه إلا بالدّعاء له ولأهله جميعاً، وبخاصة في فترة التفرغ العلمي التي قضيتها بأرض الشام الطاهرة.

فكل تلك النِّعم التي حباني الله بها هوّنت علي صعوبات كثيرة ومنها بالخصوص **قلة المصادر والمراجع العربية المتخصِّصة** والتي تناولت **الفكر الإستشراقي الإنجليزي خاصة** ثم **وجود جل كتابات أولئك المستشرقين – وتحديداً عيِّنات الدراسة– باللغة الأم مع عدم توفرها في المكتبات العربية** إلا ما كان منها مترجماً – وهو قليل–، ثم **أن جل المستشرقين الذين تناولتهم بالبحث لم يسبق وأن كانت حولهم أو حول كتبهم وبحوثهم دراسات أكاديمية** تُيَسِّر الطريق وتعين بالمجهود إلا ما تمَّت الإشارة إليه.

والله نسأل السداد والرشاد، والخير للعباد والبلاد، وأن يتقبّل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثقِّل به ميزاننا، وأن يَعُمَّ به النفع ويجعله فاتحة خير وبركة في بابه، آمين.

الباب الأول:

مسحة تاريخية حول الاستشراق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الأول: مسحة تاريخية حول الإستشراق.

الفصل الأول: أصل الإستشراق ونشأته.

المبحث الأول: تعريف الإستشراق.

المبحث الثاني: نشأة الإستشراق.

المبحث الثالث: دوافع الإستشراق.

المبحث الرابع: أهداف الإستشراق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول: أصل الإستشراق ونشأته.

تمهيد:

أسالت كلمة الإستشراق الكثير من حبر الكتَّاب المهتمين بمثل هذا النوع من التوجه الفكري، كما أثارت الشيء الكبير من الجدل بين المتخصصين ولا يزال ذلك الجدل قائماً وإلى فترات لا يُظَن أنها سوف تكون قريبة النهاية.

وأسباب ذلك كثيرة وليس سبباً واحدا، أهمها ذلك البعد الزمني الذي ينتمي إليه هذا المصطلح فهو ضارب في القِدَم وموغلٌ في التاريخ منذ قرون[1]، حتى ولو لم يُطلق عليه ويُحدَّد له هذه الكلمة للتدليل عليه، وكذا كثرة المشتغلين به وبميدانه رغم اختلاف تخصصاتهم ومشاربهم الفكرية والعقدية وانشغالاتهم الحياتية ومدارسهم وحتى مناطقهم الجغرافية وحدودهم السياسية.

لذلك يُعد الإستشراق ظاهرة من الظواهر التي شغلت الفكر الإنساني عامة والفكر الغربي بشكل أخص، والسبب في ذلك أن إرهاصات هذه الظاهرة قد بدأت وتولّدت عند الغربيين أنفسهم على يد علماء الكنيسة والكهنوت إذا ما عُلم أن القساوسة هم من بدأوا هذا السبيل ووضعوا معالم طريقه.

والسؤال المطروح لِمَ اشتغل هؤلاء بهذا الاتجاه الفكري وأولوه الشيء الكثير من الأهمية حتى أن البعض منهم صرف فيه كل أيام عمره وأفناها في خدمته؟

وإذا ما عُرف السبب بطل العجب، فإن الغرب قد كان في فترة من فترات الحياة الإنسانية يعيش في همجية لا نظير لها، وظلمات مطبقة لا بصيص للنور فيها، ومتقوقع على نفسه، لا يعرف سبيلاً إلى الحياة إلا بالقتل والتعدي على الحرمات وسفك الدماء فيما بين أهله؛ وما عرف طعم الحياة ولا تذوقها حتى دخل المسلمون الفاتحون أرض القوط أو ما يسمى شبه الجزيرة الإيبيرية والتي أطلق عليها الفاتحون اسم الأندلس.

---

(1) أرجع بعض الباحثين ظهور حركة الإستشراق لأول مرة في التاريخ حين تواجه الإسلام مع الغرب على أرض فلسطين، وبعضهم أرجعها إلى القرن الخامس الهجري (12م) حين عين بطرس المبجل رئيساً لصومعة الرهبان بدير كلوني فأوفد الوفود لدراسة القرآن والإسلام وعلى رأس هؤلاء الراهب هرمان وهو من كبار المسؤولين الدينيين في دلماسيا. صالح زهر الدين: الإسلام والإستشراق، مرجع سابق، ص20-21.

فالحاكم فيهم لم يكن لينعم في ملكه ويتصرف فيه مع رعيته إلى أن يُسيل الشيء الكثير من الدَّم ثم تأتيه بركات السماء عن طريق رجال الدين والكهنة والرهبان، والذين كان لهم الأثر البيِّن في مسار الحياة على جميع مستوياتها وفي جميع مناحيها، وإذا لم يكن لهم رضىً على أحدهم أصدروا للأهالي مرسوماً كنسياً يُنعِت الحاكم ومن معه بنُعُوت شيطانية فيقوم الشعب بقتل الحاكم ومن معه ويُمزَق شر ممزق.

وبدخول الفاتحين أرض أوروبا الحالية، بدأت الحياة تدب في أوصالها وبدأ شعاع المعرفة يلوح في أفقها، ينزع عنها طبقات الجهل، وبدأ الاحتكاك الحضاري على جميع المستويات وخاصة الصعيد الفكري والعلمي.

جَدَّ الأوروبيون في التحصيل العلمي والمعرفي، بعد أن أصابتهم نوبة الانبهار والدهشة من الحضارة الوافدة الجديدة، والتي وجدوا فيها بُغيتهم، فأقبلوا عطاشاً إلى حياضها وأدرك الأوروبي كَم هو البون شاسع بين ما كان فيه من تغطرس الفكر الكهنوتي الكنسي المهيمن ولفترة طويلة من الزمن، وما آل إليه حاله بعد أن فتَّقت أنوار المعرفة الحقَّة حجب الجهل عنه.

غير أن هذا الوضع لم يعجب رجال الكنيسة، الذين رأوا في النور الوافد إليهم خطرا عليهم وعلى مصالحهم الشخصية ونفوذهم الكنسي، فبدأوا التخطيط لوقف هذا الزحف الحضاري أو جعله ينكمش على الأقل، أو ردِّه من حيث جاء إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولذلك:"وإزاء هذا المد الإسلامي ورغبة من المسيحية الغربية في إيقافه عند حدوده أو احتوائه وحجزه عن قلب أوروبا قدر الممكن المستطاع، فقد دارت الحرب المادية والمعنوية سجالا بين الطرفين، فما كان يخمد أوارها حتى تعود لتنشب من جديد بأعنف مما كانت عليه"[1]

وأوّل ما بدأوا به هو البحث عن السر الذي دفع بكل تلك الجموع التي جاءت لأرضهم ولا همَّ للواحد من تلك الجموع إلا الدعوة إلى هذا الدين والحرص على تبليغه للنّاس كافة على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأعراقهم، ثم البحث عن سر هذا الدين الذي اجتذب كل هذه الطوائف والأجناس رغم تباعد أعراقهم وأقاليمهم الجغرافية تحت لوائه ووحَّد صفوفهم وجعلهم أمة واحدة.

---

(1) د.عرفان عبد الحميد فتاح: دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار عمّار عمان ط1، 1412هـ/1991م ص108.

وما كان يدور في خلد الواحد من العرب المسلمين الفاتحين طمع في احتلال أرض ولا إخضاع لسلطان إلا سلطان الإسلام، ولا تشوق في جمع مال أو اغتصابه إلا ما كان بحق وشرع.

والناس في شِرْعَتهم قد ألفوا كل داخل على أرض جديدة أو غازٍ أو مَلك إلا ويُفسد فيها ويذيق أهلها كل ألوان الهوان والاستصغار مطبقاً فيها شِرعة الغالب على المغلوب، وقد جاء ذلك على لسان بلقيس مَلكة سبأ[1] حين:قَالَتۡ﴿ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗ ﴾ فجاء تعقيب الخالق على ذلك بالتأييد والتأكيد:﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾[سورة النمل: الآية 34]، وذلك مَن لم يكن منهم على شريعة من الأمر.

ومن هذا المنطلق بدأت نقطة التحول في الاحتكاك والتعامل مع الآخر لا لدراسته والاستفادة من معارفه بل لمعرفة التركيبة المعرفية عنده وعلى جميع مستوياتها والتخطيط لضربه في مقاتله، ومن هنا بدأت حركة فكرية مضادة تعمل على استئصال الإسلام من جذوره من أرض أوروبا أطلق عليها فيما بعد الحركة الإستشراقية أو الإستشراق.

المبحث الأول: تعريف الإستشراق:

إن كلمة الإستشراق أو ما يرادفها لم يَرِد لها ذكر في المعاجم والقواميس اللغوية العربية القديمة؛ لأن المصطلح لم يكن موجودا أصلاً ولم يُعرف عند أهله والمشتغلين به إلا في القرون المتأخرة، ولذلك فلا عجب إن لم يأت ذكره.

---

(1) بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل، من بني يعفر بن سكسك، من حمير ملكة سبأ يمانية من أهل مأرب أشير إليها في القرآن الكريم ولم يسمها. وليت بعهد من أبيها في مأرب وطمع بها ذو الاذعار (عمرو بن أبرهة) صاحب غمدان فزحف عليها فانهزمت ورحلت مستخفية بزي أعرابي إلى الاحقاف فأدركها رجال (ذي الاذعار) فاستسلمت. وأصابت منه غرة في سكر فقتلته، ووليت أمر اليمن كله وانقادت لها أقيال حمير، فزحفت بالجيوش إلى بابل وفارس فخضع لها الناس وعادت إلى اليمن فاتخذت مدينة (سبأ) قاعدة لها. وظهر سليمان بن داود النبي الملك الحكيم بتدمر، وركب الرياح إلى الحجاز واليمن وآمن اليمانيون بدعوته إلى الله وكانوا يعبدون الشمس. ودخل مدينة (سبأ) فاستقبلته بلقيس بحاشية كبيرة وتزوجها وأقامت معه سبع سنين وأشهرا وتوفيت فدفنها بتدمر وانكشف تابوتها في عصر الوليد بن عبد الملك، وعليه كتابة تدل على أنها ماتت لاحدى وعشرين سنة خلت من ملك سليمان، ورفع غطاء التابوت فإذا هي غضة، لم يتغير جسمها، فرفع ذلك إلى الوليد، فأمر بترك التابوت في مكانه وأن يبنى عليه بالصخر. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين بيروت، ط14، 1999م، ج2 ص73-74.

غير أن جذر الكلمة أو المصطلح قد جاء ذكره في بعض المعاجم والقواميس حيث جاءت في قولهم:" شَرَقَت الشمسُ تَشْرُق شُروقاً وشَرْقاً طلعت." [1]

أما لفظة "إستشرق" فهي لفظة مولدة وهي تعني طلب دراسة ما يتعلق بالشرق، فالألف والسين والتاء في أي فعل تدل على الطلب كاستغفر أي طلب المغفرة؛ لذلك فقد جاء في بعض المصادر اللغويّة الحديثة:" إستشرق أي طلب الشرق وهو ما يوحي إليه حرفا السين والتاء التي هي حروف تدل بمجموعها على الطلب أي طلب علوم الشرق ولغاتهم، يقال لمن يُعنى بذلك من علماء الفرنجة." [2]ولمثل هذا الرأي ذهب الحسيني فقال:"إن لفظة إستشرق ومشتقاتها مولدة استعملها المحدثون من ترجمة كلمة Orientalism ثم استعملوا من الاسم فعلاً، فقالوا إستشرق، وليس في اللغات الأجنبية فعل مرادف للفعل العربي، ولكن لفظة إستشرق ولفظة مستشرق قد شاعتا شيوعاً كبيراً ولا بأس من استعمالهما"[3].

غير أن الملفت للانتباه والجدير بالتدبر أن ابن حزم الأندلسي قد استعمل هذه اللفظة حين ردَّ في رسالته على ابن النغريلة اليهودي[4] حيث قال:" **اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك**

---

(1) محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، ط1،[د ت ط] ج10، ص173. أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط1، 2001م، ج8 ص251. أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي: المحكم والمحيط، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت 2000م، ج6 ص168. أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده: المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي بيروت،ط1، 1417ه/1996م، ج4 ص348. إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح في اللغة تحقيق أحمد عبد الغفور عطار،دار العلم للملايين بيروت، ط4، 1407ه/1987م ج4 ص1502. أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري: أساس البلاغة، دار الفكر دمشق 1399هـ /1979م، ج1 ص327.

(2) الشيخ أحمد رضا: معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1958م، ج3 ص311.

(3) إسحق موسى الحسيني: الإستشراق نشأته وتطوره وأهدافه، مطبعة الأزهر الشريف، الأزهر القاهرة، 1967م، ج1 ص7.

(4) إسماعيل بن النغريلة(383-448هـ/993-1056م): لم يكن أندلسي الأصل بل كان أهله من الطارئين على الأندلس فهو غريب عن الأندلس وعن غرناطة معاً لأنه بقرطبة واضطرته فتنة البربر (399 هـ/1009م) إلى الهجرة منها، فسكن مالقة حيث افتتح له دكاناً. وكان قد درس التلمود بقرطبة على الكاهن حنوك، كما درس الأدب العربي وغيره حتى أصبح يتقن الكتابة المنمقة بالعربية وتوصلت به الأحوال إلى أن أصبح كاتباً عند أبي العباس وزير حبوس وكاتبه الأعلى، فلما توفي أبو العباس خلفه ابنه على الكتابة، وكان صغير السن، فأصبحت شؤون الديوان في يد إسماعيل وأخذ هذا يتقرب إلى باديس طمعاً منه أن يحظى لديه إذا هو تولى الحكم بعد أبيه حبوس، واتفق حدوث مؤامرة دبرها بعضهم لإزاحة باديس عن الإمارة وشارك

من أهل ملتنا، بدنياهم عن إقامة دينهم وبعمارة قصورهم، يتركونها عما قريب، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم ... حتى إستشرق لذلك أهل القلة والذمة، وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك"[1]

ولم يشر إلى مقولة ابن حزم الأندلسي هذه أحد من المشتغلين بهذا العلم أو هذا الفن ولا الذين كتبوا فيه، ولعلّ العذر في ذلك لهؤلاء المشتغلين أنهم ظنوا أن أحداً من علماء الإسلام من قبل ظهور المصطلح عند الغربيين لم يُشِر إليه ولم يشتغل به، وهي تعدُّ لفتة لها اعتبارها من قبل ابن حزم ويُعدُّ له السبق فيها.

فعبارة ابن حزم وسياقُها يدلاّن دلالة واضحة على فهم الرجل للمصطلح، والقصد الذي كان يرنو إليه من خلال توجيهه للخطاب، ومدى فهمه للواقع وإحساسه بالخطر الذي بدأ يداهم الأمة في وقت مبكر بالأندلس، والاستفاقة المُتعَجَلة لتلك القلة من أهل الذمة وبخاصة اليهود الذين كانوا المبتدئين والفاعلين في هذا الميدان ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا.

وعليه فإن المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي الآتي ذكره وتفصيله تربطهما علاقة وطيدة ومتينة.

فأما التعريف الاصطلاحي ومن خلال القراءة والتصفح لمجموعة من الكتب والمجلات والبحوث وحتى الشبكة العنكبوتية الإلكترونية- التي طَالتها يَدَاي-، وجدت أن معظم الذين طرقوا موضوع الإستشراق قد كتبوا عنه كل ما وصلت إليه أيديهم من تعريفات دون تمييز بين مَن كَتب من الغربيين – وأقصد بذلك كل من هو ليس عربياً مسلماً- عن الإستشراق وبين العرب المسلمين

إسماعيل فيها ولكنه إمعاناً منه في طلب الحظوة كشف أمرها لباديس وجعله بحيث يسمع ما يقوله المتآمرون؛ ولهذه اليد ولأسباب أخرى اتخذه باديس وزيراً، ومن مؤلفاته المشهورة ما نجا به نحن المزامير (بن تحليم) والأمثال (بن مشلي) والجامعة (بن قوهلت) أي ما دبجه في الأدعية والأمثال والحكمة الفلسفية. وقد وظف نساخاً ينسخون المشنا والتلمود ليقدم النسخ إلى من لا يستطيع شراءها من طلبة العلم، وكان يفضل على اليهود في الأندلس وخارجها ولذا لقبه يهود غرناطة "الناغيد" اعترافاً بفضله ولما فقده اليهود حزنوا عليه كثيراً لأنهم فقدوا دعامة كبيرة من دعائم مجدهم. وللمزيد ينظر: رسائل ابن حزم: تحقيق إحسان عباس، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ج3 ص7 وما بعدها.

(1) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي: الرد على ابن النغريلة اليهودي، تحقيق إحسان عباس، دار العروبة القاهرة، 1960م، ص45.

باستثناء القلة القليلة التي ميَّزت بينهما[1]، فأورَدَت تعريفات المستشرقين لوحدها وتعريفات الطرف الثاني كذلك.

وقد استحسنت أن تكون تعريفات المستشرقين للإستشراق وما نتج عنه من معارف وكتب وغيرها من إنتاجاتهم المعرفية منفصلة عن تلك التي قام بها العرب والمسلمون لما سيحصل فيه من فائدة، لذلك جعلت تعريف الإستشراق كالتالي:

المطلب الأول: الإستشراق في تعريف الغربيين.

أما تعريفات الإستشراق في كتابات الغربيين فلم تكن واحدة وموحَّدة، وقد يرجع ذلك إلى اختلاف المدارس الإستشراقية الغربية فيما بينها سواء من حيث التأسيس وكذلك من حيث المنهج المتبع في التأليف، أو حتى في تباعد الحدود الجغرافية أو حتى الاختلاف في الرؤى فيما بين أفراد المدرسة الواحدة، أو حتى في الأهداف التي كان يرجو كل طرف الوصول إليها في كتابته عن الإستشراق.

لذلك فلا غرو إن كان هنالك تباعد بين التعريفات أو حتى اختلاف أو قد يصل في بعض الأحيان إلى التضاد من حيث التوجّه التعريفي لغة واصطلاحاً؛ غير أن الذي يوحِّد الغربيين هو الهدف العام المسطَّر –والذي يمثل أصل نشأته– والذي يرجون من خلال كتاباتهم الوصول إليه وتحقيقه على أرض الواقع وهو تدمير الإسلام وإبادة أهله.

وقد اختلفت كذلك تعريفات الغربيين لمصطلح الإستشراق بحسب ما يريد كل واحد منهم إثباته كحقائق في الاتجاه الذي يكتب فيه وما يريد تثبيته كمعارف في بيئته الغربية، فمنهم من حمله على أنه فن وآخر على أنه علم وثالث على أنه منهج ووعاء معرفي ورابع على أنه مؤسسة علمية ثقافية وهكذا.

وحتى أن قواميسهم ومعاجمهم التي ذُكرت فيها لفظة الإستشراق جاءت مؤيدة للتعريف اللغوي المستعمل في اللغة العربية؛ وقد قام أحد الباحثين بتتبع القواميس الغربية كثيرة الانتشار

---

(1) ينظر:د. أحمد سمايلوفتش: فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف القاهرة، 1980م، ص22 وما بعدها.

ومنها(الإنجليزية والفرنسية والألمانية) [1] لرصد هذا المصطلح فوجد أن كلمة إستشراق لا ترتبط فقط بالمشرق الجغرافي وإنما تعني أن الشرق هو مشرق الشمس.

ولهذا دلالة معنوية بمعنى الشروق والضياء والنور والهداية بعكس الغرب والغروب بمعنى الأفول والانتهاء و:" أنه يشار إلى منطقة الشرقORIENT المقصودة بالدراسات الشرقية بكلمة تتميز بطابع معنوي وهو Morgen land وتعني بلاد الصباح ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل هذه الكلمة على تحوُّل من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور واليقظة، وفي مقابل ذلك نستخدم في اللغة كلمة Abend land وتعني بلاد المساء لتدل على الظلام والراحة. وفي اللاتينية تعني كلمة Orient يتعلم أو يبحث عن شيء ما، وبالفرنسية تعنى كلمة Orienter وجّه أو هدى أو أرشد وبالإنجليزية

---

(1) جاءت لفظة الإستشراق (Orientalism) في بعض الموسوعات والقواميس الإنجليزية بالمعنى التالي:

Orientalism : the term *Orientalism* has come to denote a broader complex of discursive assumptions and institutional (especially academic) practices that regulate the understanding, appreciation and domination of theWest's -more precisely Europe's-supposed "Other." In the study of religion both from confessional dogmatic and secular comparatist perspectives *Orientalism* evokes the tendency to mystify, caricature, homogenize,and petrify Asian and North African cultural systems,whether via idealization or via demonization, viewing themas contrasting to and often opposing such "Western" concepts as privatized and rationalized belief or the separation of church and state. Encyclopedia of Religion, Lindsay Jones, editor in chief.USA, 2nd ed.2005.Vol.10.p.6881.

وأما في الموسوعات والقواميس الفرنسية فجاءت بالمعنى الآتي:

Orientalisme :n.m. Ensemble des sciences humaines relatives aux peuples de l'orient. Larrousse Encyclopedique en couleurs, France Loisirs Paris,vol.16.p.6775.

وفي قاموس ثانٍ جاءت بالمعنى الآتي:

Orientalisme :n.m. Science, Connaissance de L'histoire, de la civilisation, des langues, de la letterature et des beaux arts des peuples orientaux. Dictionnaire Encyclopédique Quillet, Edition Quillet, Paris, éd 1990, Vol 7 pp 4798-4799.

Orientation وOrientate تعني توجيه الحواس نحو اتجاه أو علاقة ما في مجال الأخلاق أو الاجتماع أو الفكر أو الأدب نحو اهتمامات شخصية في المجال الفكري أو الروحي. ومن ذلك أن السنة الأولى في بعض الجامعات تسمّى السنة الإعدادية Orientation. وفي الألمانية تعني كلمة Sich Orientiert يجمع معلومات (معرفة) عن شيء ما."[1]

وقد تساءل المستشرق آربري[2]عن معنى المصطلح ودلالاته حيث قال:" والمدلول الأصلي لاصطلاح مستشرق كان في سنة 1638م أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية، وفي سنة 1691م وصف آنتوني وود[3] Anthony Wood صمويل كلارك[4] Samuel Clarke بأنه إستشراقي نابه يعني ذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية، وبيرون[5] في تعليقاته على Childe Harold's Pilgrimage يتحدث عن المستر ثورنتون[6] وإلماعاته الكثيرة الدالة على إستشراق عميق." [7]

---

(1) السيد محمد الشاهد: الإستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، مجلة الاجتهاد، عدد 22، السنة السادسة، عام 1414هـ/1994م، ص191-211.

(2) أربري آرثر ج(1323-1390هـ/1905- 1970م)Arthur J Arberry مستشرق بريطاني من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، تعلم بمدرسة اللغات الشرقية في بورتسماوث، وكلية بمبروك في كمبردج وأتقن العربية والفارسية. خير الدين الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج1 ص287.

(3) آنتوني وود: لم أقف له على تعريف أو سيرة ذاتية لا في ما كتب باللغة العربية أو في غيرها من اللغات.

(4) صمويل كلارك(1086-1142هـ/1675-1729م) Samuel Clarke: من الأدباء الغربيين الأوائل الذين استهوتهم الرمزية والرومانسية في الأدب في لغات الشرقيين بما في ذلك اليونانية وما استلهموه من رمزية حول الآلهة اليونانية القديمة، وتوظيف ذلك في رفع مستوى أبحاث علم الفلسفة وعلم النفس في الغرب.ينظر Encyclopedia of Religion, Ibid.Vol.13.p.8909.

(5) بيرون اللورد جورج غوردن(1203-1240هـ/1788-1824م)George Gordon, Lord Byron، شاعر رومانسي إنجليزي، ولد في لندن وتوفي ودفن في ميسولانغي، تعلم بجامعة كمبريدج، أخذ منصب اللورد عام 1809م، زار العديد من الدول الأوروبية الشرقية بداية من إسبانيا وانتهاءً بإستنبول، وحين عودته إلى إنجلترا نشر الأجزاء الأولى من أشعاره وأغانيه « Childe Harold ». وفي سنوات 1812م، 1816م و1818م نشر تعليقاته في ثلاثة أجزاء حول: Childe Harold's Pilgrimage. كان يخالل أخته، ويتغزل بها علنًا في شعره، ويعيش معها عيشة العشاق، ويفخر بذلك. Dictionnaire Encyclopédique Quillet, Ebid, Vol 3 pp 981-982.

(6) ثورنتون: لم أقف له على تعريف أو سيرة ذاتية لا في ما كتب باللغة العربية أو في غيرها من اللغات.

(7) ا. ج آربري: المستشرقون البريطانيون، تعريب محمد الدسوقي النويهي، لندن 1946م، ص8.

فمن هنا يذهب آربري إلى تغليب ظهور مصطلح المستشرق في اللغات الأوروبية قبل ظهور مصطلح الإستشراق وهو ذاته يعتمد في تعريفه للمستشرق التعريف المعتمد في قاموس أوكسفورد والذي مفاده:" مَن تبحَّر في لغات الشرق وآدابه." [1]

وهذا المستشرق الألماني رودي بارت[2] Rudi Part يعرف الإستشراق قائلاً:" هو علم يختص بفقه اللغة خاصة، وأقرب شي إليه إذن أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه وكلمة إستشراق مشتقة من كلمة شرق وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الإستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي"[3]

ويمضي رودي بارت في تحديده لمعنى ومفهوم المصطلح فيحدِّده جغرافيا ثم يحدِّد المنطقة الجغرافية عرقيا حتى يُبْقي مفهوم المصطلح خاصاً بالرقعة الجغرافية التي انتشر فيها الإسلام دون غيرها من المناطق الشرقية حتى ولو كان الحيز الجغرافي يضم مناطق المغرب أو الشمال حيث يقول:"فقد انطلق الفاتحون في ذلك الوقت من شبه الجزيرة العربية لا ناحية الشمال والشرق فحسب بل ناحية الغرب كذلك وزحفوا في غضون عشرات من السنين إلى مصر وشمال إفريقيا حتى بلغوا المحيط الأطلسي، واستوطن الإسلام قطاع بلدان شمال إفريقيا دينا وتعرب السكان تدريجياً، ومنذ ذلك الحين تعتبر مصر وبلدان شمال إفريقيا الذي يسمى بالمغرب أي بلد غروب الشمس مشرقا، وإن كان الإستشراق يفترض أنه يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها." [4]

وبهذا التحديد الجغرافي العرقي يتبيَّن أن المقصود بالشرق ليس الشرق الجغرافي وإنما الإسلام وحدوده الجغرافية هي الشرق مهما تباعدت حدوده وفي كل المناطق التي دخلها.

---

(1) آربري: المرجع السابق، ص8.

(2) رودي بارت Rudi Paret (1319-1404هـ/1901-1983م) درس في جامعة توبنجن اللغات السامية والتركية والفارسية كان اهتمامه في البداية بالأدب الشعبي ولكنه تحول إلى الاهتمام باللغة العربية والدراسات الإسلامية وبخاصة القرآن الكريم، تولى العديد من المناصب العلمية ، له ترجمة للقرآن والعديد من الأبحاث. د. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين بيروت، ط3، 1993م، ص62-63.

(3) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، مرجع سابق، ص 11.

(4) رودي بارت: المرجع السابق، ص11.

أما المستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون[1] Maxime rodinson فقد جاء تعريفه لهذا المصطلح بقوله:" فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق"[2]

وأما المستشرق الإيطالي مشال (ميكل) أنجلو جويدي[3] Michel Angelo Guidi فقد عرَّف الإستشراق بأنّه "علم الشرق وعلم الشرق هذا علم من علوم الروح يتعمق في درس أحوال الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضارتها"[4]

ويحاول ديتريش[5] الألماني أن يعطي تعريفاً متكاملاً للإستشراق ولكن من خلال تعريفه للمستشرق فيقول أن:" المستشرق هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق"[6]

وقد جاء تعريف الإستشراق عند برنارد لويس في أكثر من موضع في كتابه الإسلام والغرب؛ فعرَّفه بقوله :" كلمة الإستشراق تستعمل في مفهومين فقط، الأول أن الإستشراق مدرسة من مدارس الرسم؛ المفهوم الثاني وهو المفهوم الشائع أكثر، ولا علاقة له بالمفهوم الأول، بل هو فرع

---

(1) مكسيم رودنسون Maxim Rodinson:(1915- 2004م) ولد في باريس وحصل على الدكتوراه في الآداب ثم على شهادة من المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية والمدرسة العلمية العليا، تولى العديد من المناصب العلمية في كل من سوريا ولبنان في المعاهد التابعة للحكومة الفرنسية هناك، له العديد من المؤلفات منها الإسلام والرأسمالية وجاذبية الإسلام ومحمد ﷺ وإسرائيل والرفض العربي، وله العديد من الدراسات التاريخية والتاريخ الاقتصادي للعالم الإسلامي. د. يحي مراد: معجم أسماء المستشرقين، ص604-606.

(2) مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية في تراث الإسلام، القسم الأول، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة محمد زهير السمهوري ، سلسلة عالم المعرفة الكويت، شعبان-رمضان1398هـ/ أغسطس 1978م، ص78.

(3) ميكل أنجلو جويدي M.A.Guidi(1866- 1946م) ولد في روما وتلقى العربية على كبار مستشرقيها فنبه ذكره وقد انصرف إلى الأدب العربي والدين الإسلامي وحال موته المفاجئ بينه وبين إنجاز كتابه تاريخ العرب وثقافتهم الذي انكب على تأليفه إلى آخر يوم من حياته وينهي الجزء الأول منه بوفاة الرسولﷺ وقد صدر عام 1951م. د.يحي مراد: معجم أسماء المستشرقين، ص457-458.

(4) م.أ. جويدي: علم الشرق وتاريخ العمران، الزهراء للطباعة والنشر القاهرة، 1941م، ص14.

(5) ديتريش: لم أقف له على تعريف أو سيرة ذاتية، وقد ذكر في غلاف كتابه الدراسات العربية: أنه أستاذ الأدب العربي والأدب المقارن في ألمانيا، وأنه من الكُتاب المقتدرين في هذا الفن المعرفي في القرن الحالي(ق20م).

(6) ألبرت ديتريش: الدراسات العربية في ألمانيا، فرانز شتاينر للنشر فسبادن، 1962م، ص7.

من الفروع الأكاديمية التي بدأت مع عصر النهضة، وفي ذلك الوقت لم يكن اصطلاح (الإستشراق) غامضًا ومبهماً كما يبدو اليوم"[1].

ثم جاء بتعريف ثان مفاده أن الإستشراق هو مجموع: " الدراسات الإسلامية في أوروبا، والذي صار اسمه فيما بعد الإستشراق"[2].

ويعقب في موضع آخر موضحاً الحالة التي آل إليها الإستشراق قائلاً:" وقد فرِّغ اصطلاح (الإستشراق) من محتواه السابق وأعطي معنى جديدا، وصار يعني المعاملة الخالية من التعاطف تجاه شعوب الشرق"[3].

ثم الجديد الذي بلغه علم الإستشراق وهو تفرُّعه إلى فروع جديدة والمناطق الجغرافية التي شملتها تلك الفروع مع الاتساع المطَّرِد لتلك المناطق الجغرافية ومع مراعاة عدم المبالاة التي صاحبت الدراسات الإستشراقية الحديثة من قِبل المستشرقين المحدثين في قوله:" تقدمت الاكتشافات وتقدمت الدراسات الأكاديمية، وبذلك لم يعد اصطلاح (الإستشراق) وافيا بالغرض، وطلاب العلوم الشرقية لم يعودوا مرتبطين بفرع واحد، بل تفرعت المسألة إلى فروع عديدة، كما أن المنطقة التي يدرسونها (الشرق) قد امتدت كثيرا وراء منطقة الشرق الأوسط"[4].

ثم يخلص في النهاية إلى أن المصطلح في حد ذاته قد فقد بريقه و لم يعد يفي بالغرض الذي أنشئ من أجله وأن أصحابه الذين حملوه في السابق قد استغنوا عنه لأنه أصبح ملوَّثاً فيقول:" لقد صار اصطلاح (المستشرق) ملوثا أيضا ولا يمكن إنقاذه، وذلك لم يعد مشكلة لأن الكلمة ذاتها فقدت قيمتها وقد نبذها الأشخاص الذين حملوها على عاتقهم في السابق"[5].

ويكرِّر مثل هذا المعنى في موضع آخر بقوله:" وهكذا ألقي اصطلاح (المستشرق) في مزبلة التاريخ ولكن المزابل ليست مناطق آمنة لقد نبذت كلمات (الإستشراق)

---

(1) برنارد لويس: الإسلام والغرب، مرجع سابق، ص41.

(2) برنارد لويس: المرجع السابق، ص19.

(3) برنارد لويس: المرجع السابق، ص39.

(4) برنارد لويس: المرجع السابق، ص43.

(5) برنارد لويس: المرجع السابق، ص19.

و(المستشرق) في أوساط المستشرقين، ولكنها تستعمل الآن لأغراض أخرى في جدل لا ينتهي"[1].

فمن تعريفات المدرسة الغربية وروَّادها لمصطلح الإستشراق والمستشرق ومما سبق يمكن الوقوف على بعض الدلالات والمعاني التي يمكن استخلاصها وهي:

- ✓ أن كل واحد من الغربيين الذين خاضوا غمار الدراسات الشرقية قد عرَّف الإستشراق بما يتلاءم وقناعاته الشخصية أو العقدية أو قناعات المدرسة التي ينتمي إليها أو حتى محيط البيئة التي يعيش فيها.
- ✓ أن حدود مصطلح الإستشراق والمستشرق واسعة النطاق وذلك لاتساع حدود المنطقة الجغرافية التي هي محل الدراسة والتي هي مناطق العالم الإسلامي.
- ✓ أن المصطلح في حد ذاته قد مرَّ عبر الأزمان المتعاقبة من ساعة ظهوره واعتماده إلى يومنا بمراحل عديدة وخضع فيها لبلورة الفكر الغربي بحسب ما تقتضيه المرحلة وكذلك بحسب الأهداف المسطرة في كل مرحلة.
- ✓ أن المصطلح لم يعد يقتصر على دراسة لغة الشرق كما بدأ في أيامه الأولى وإنما اتسع نطاقه إلى كل ما له علاقة بالشرق.
- ✓ أن لفظة المصطلح حديثة في لغة الغربيين وقد تم اعتمادها في معاجمهم مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادي.
- ✓ أن الإستشراق وما نتج عنه من دراسات للشرق أي للإسلام ودار الإسلام قد أسهم بقدر وافٍ وكبير في تطوير الغرب وجعله يحتل الصدارة ويحكم العالم بكامله.
- ✓ أن الإستشراق قد فتح العديد من المناصب المهنية للغربيين العاطلين فكرياً في مجتمعاتهم والذين امتهنوه فرفع من قيمة وقدر الكثيرين منهم، فلولاه لما كان لهم ذِكر ولا ذُخر في دنيا الناس.

---

(1) برنارد لويس: المرجع السابق، ص46.

المطلب الثاني: الإستشراق في تعريف العرب والمسلمين.

عرف مصطلح الإستشراق عند علماء العرب والمسلمين والمشتغلين به عموماً العديد من التعريفات، وأخذ الكثير من الأوصاف والتشعُّبات وذلك بحسب وقوف كل واحد منهم على حقيقة المصطلح من حيث زاويةُ الدراسة التي قام بها واطَّلع منها على عالم هذا المصطلح.

فمنهم مَن نفى إمكانية الوقوف على تعريف المصطلح تعريفاً علميا يحدِّد المفهوم والمعنى المراد به، وذلك راجع للعديد من الأسباب والتي ذكروها في مضانها، حيث جعلوا ذلك مستحيلاً فقالوا:" ليس أشق على الباحث من التعريف بالأفكار العلمية المجردة، لأن العلم دوماً قابل للتطور، ولأن هذا التطور المستمر يكشف عن جوانب كانت دفينة من قبل أو كانت ناقصة ليست وافية بالغرض والمجال الذي يعالج فيه ذلك العلم...ومن أجل هذا فإن إعطاء تعريف لعلم الإستشراق هو ضرب من المحال، وكل تعريف نجهد أنفسنا لإعطائه لا يكون شاملاً جامعاً مانعاً"[1].

وقد برَّر بعضهم هذا الموقف لتداخل المصطلح مع الكثير من المفاهيم الأخرى ولعدم وضوح كيفية الاستعمال وحدود إطلاقه لأن:" الإستشراق يؤخذ بعدة مفاهيم متداخلة ومتكاملة في آن واحد، فهو أحياناً يراد به ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من قِبل علماء الغرب، وأحياناً يقصد به أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز المعرفي والعرقي والأيديولوجي بين الشرق والغرب ومرة أخرى يحدد مفهومه بالناس الذين يقومون به ونعني بهم ((المستشرقين)) وهم الكتَّاب الغربيون الذين كتبوا عن الفكر والحضارة الإسلامية"[2].

أما الذين وضعوا له تعريفا فقد حدَّدوا معالمه على أساس أنه:" تيار فكري تمثّل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، شملت حضارته وأديانه وأدبه ولغاته وثقافاته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي، معبِّرا عن الخلفية في الصراع الحضاري بينهما"[3]

---

(1) د. ساسي سامي الحاج: نقد الخطاب الإستشراقي، مرجع سابق، ج1 ص17.

(2) د. ساسي سامي الحاج: المرجع السابق،ج1 ص20. ومالك بن نبي: القضايا الكبرى، فصل إنتاج المستشرقين وأثره على الفكر الإسلامي الحديث، دار الفكر دمشق، ط1، 1412هـ/ 1991م، ص167.

(3) شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين، دار الفكر دمشق، ط2، 1419هـ/1998م، ص5.

وجاء تعريفه أنه علم يؤرخ لشعوب الشرق أي الشعوب الإسلامية وكل ما لحق بهم من إنتاج علمي وتشييد حضاري وعزوا سبب نشوئه إلى مرجعية دينية بقولهم هو:" علم تاريخ شعوب الشرق وحضارتهم ولغاتهم وآدابهم وفنونهم ومعتقداتهم، نشأ بدافع ديني في الغرب"[1].

وذهب الزيات إلى مثل هذا التعريف مع إضافات توضيحية يقتضيها السياق حيث يقول:" يراد بالإستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم." [2]

وجعل بعض الباحثين من الإستشراق وظيفة ومهنة كبقية الوظائف والمهن في المجتمع الغربي دون اشتراط منطقة حدودية(جغرافية) بعينها من العالم الغربي ولا التوجه الديني ولا السياسي للمشتغل بهذا المصطلح فقالوا:"والجدير بالذكر، أنه عندما قرر المستشرقون أن يستشرقوا أو بالأحرى عندما انخرطوا في مهنة الإستشراق بدت معالم الطريق أمامهم واضحة، حيث كانت الإشارات المحددة بدقة قد رُسمت مسبقا من قبل الدوائر الاختصاصية والخبراء، ليس في مجال الطبوغرافيا فقط، وإنما في مختلف مجالات الحياة الأخرى"[3]؛ وهو كما يقول الهراوي:"وعندي الإستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماة، وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير"[4].

بل قالوا أيضا:" إن الإستشراق في الجانب الذي يخدم البحوث العربية والإسلامية، هو اشتغال غير المسلمين بعلوم المسلمين، بغض النظر عن وجهة المشتغل الجغرافية وانتماءاته الدينية والثقافية والفكرية"[5].

وعُدَّ الإطار المعرفي المُشتغل به وعاءً واسعَ الحدود والمجالات:" وينبغي النظر إلى الإستشراق المهتم بالإسلام على أنه ميدان واسع، طرق علماؤه مجمل فروع المعرفة الإسلامية وعلـــــــــوم

---

(1) شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص6.

(2) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة، [د ت ط] ط25، ص512.

(3) د.صالح زهر الدين: الإسلام والإستشراق، مرجع سابق، ص17.

(4) حسين الهراوي: المستشرقون والإسلام، مطبعة المنار القاهرة، 1936م، ص6.

(5) علي إبراهيم النملة: الإستشراق والدراسات الإسلامية، مكتبة التوبة الرياض،ط1، 1418هـ/1998م، ص124.

المسلمين"[1]. ويراه البعض:"أنه ميدان من ميادين الدراسة المتفقهة"[2].

والقائمون على هذه الوظيفة:" وكُتَّاب هذه البحوث لم يدخلوا ميدان العلم وبين حناياهم ضمائر سليمة، بل لم تخامرهم يوماً نية التجرد للحق والإخلاص في طلبه؛ إنَّهم موظفون في إدارات الاستعمار فَهمُّهم الغالب أن يلوثوا سمعة الإسلام وأن يسوِّغوا المظالم النازلة بأهله"[3].

ولذلك تأكد علمهم الذي يشتغلون به ما هو إلا:" كهانة جديدة تلبس مُسوح العلم والرهبانية في البحث، وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد، وجمهرة المستشرقين مستَأجرون لإهانة الإسلام وتشويه محاسنه والافتراء عليه"[4]. ويؤيد هذا التوجه ستوري[5] المستشرق الإنجليزي بقوله:" نعم إن هناك فريقاً تعصب بحكم صنعته التي يرتزق منها، ولكن هذا الفريق معروف عندنا كما هو معروف عندكم"[6].

أما الإستشراق عند فؤاد البستاني[7] فهو مصطلح مستحدث محليٌّ يقتصر على حيِّز جغرافي بعينه وهو لبنان فقط، فقال:"**الإستشراق لفظة مستحدثة الاستعمال، اتخذها اللبنانيون في القرن**

---

(1) علي إبراهيم النملة: المرجع السابق، ص122.

(2) إدوارد سعيد: الإستشراق، المعرفة السلطة الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، ط2، 1984م، ص80.

(3) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة، ط3، 1999م، ص10.

(4) محمد الغزالي: المرجع السابق، ص3-4.

(5)ستوري، سي، آي Storey C.A المولود عام 1888م، تعلم في كمبريدج وأحرز فيها مركزا مرموقاً، واسع المعرفة في اللغتين العربية والفارسية، وهو يملك أعظم مكتبة خاصة شرقية، له العديد من الآثار.ينظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف القاهرة، ط4، 1980م، ج2، ص118-119. د.يحي مراد: معجم أسماء المستشرقين، ص 674-675.

(6) علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1988م، ص 102.

(7) فؤاد أفرام البستاني (1324-1414هـ/1906-1994م): أديب باحث مؤرخ ولد بدير القمر بلبنان وتخرج بجامعة ليون بفرنسا وحصل على الدكتوراه من جامعة إدوارد في تكساس وعلى أخرى من جامعة جورج تاون بواشنطن وكان أستاذ اللغة العربية وتاريخ الحضارةبمعهد الآداب الشرقية ببيروت، أسس الجامعة اللبنانية وكان أول رئيس لها كما أسهم بتأسيس معهد الدراسات الشرقيةبجامعة القديس يوسف ودرّس بها وبدار المعلمين بالإضافة إلى مشاركته في إنشاء جمعيات كثيرة أدبية وتاريخية، تابع إصدار دائرة المعارف البستاني، وأصدر مجلتي المكشوف والبشير، منح شهادات فخرية من الفاتيكان، مؤلفاته كثيرة باللغة والأدب والتاريخ. د. نزار أباظة ومحمد رياض المالح: إتمام الأعلام(ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي)، دار صادر بيروت، ط1، 1999م، ص202-203.

التاسع عشر للدلالة على علم جديد أقبل عليه الغربيون بدراستهم الشعوب الشرقية...فسمّوا العلم الإستشراق، وسمّوا أربابه المستشرقين"[1].

وتعريف البعض لهذه اللفظة جاء قائما على الرجوع بها إلى الجذور التاريخية المستغرقة في الزمن البعيد بحيث يكون:"**الإستشراق عملية قديمة، بدأت منذ عدة قرون من قوم متعصبين للنصرانية واليهودية أشد التعصب، أرادوا أن يعرفوا مصادر المسيحية من اللغة العبرية، فتعلموا اللغة العربية، لأن العربية قنطرة للعبرية، وهم في طريقهم على هذه القنطرة وجدوا أنه يجب أن يشككوا المسلمين في دينهم**"[2].

وقد عرَّف بعضهم الإستشراق من خلال تعريفهم للمستشرق؛ فقالوا:"**المستشرقون قوم من أوروبا، نسبوا أنفسهم إلى العلم والبحث، وشغلوها في أغلب الأحيان بالبحث في التاريخ والدين والاجتماع، ولكل منهم لغته الأصلية التي رضع لبانها...ولكنه مع ذلك تعلم اللغة العربية بجوار لغته الأصلية ليدرس حضارة الشرق وعلومه وآدابه**"[3].

ويرى البعض الآخر أن:" **المستشرق هو عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية، فلا بد أن يتوافر في هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها في العالم المتخصص المتعمق حتى ينتج ويفيد البشرية والحضارة بإنتاجه العلمي.**"[4]

غير أن مالك بن نبي قد أضاف للفائدة تصنيفاً للمشتغلين بهذا المصطلح من حيث الزمن والاتجاه بعدما قام بتعريفهم فقال:" **علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى (طبقات) على صنفين:**

أ. من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل جربر دوربياك والقديس توماس الإكويني، وطبقة المحدثين مثل كاره دوفو وجولد تسيهر.

---

(1) د. فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، المطبعة الكاثوليكية بيروت، 1977م، م12، ص11.

(2) محمد عزت طهطاوي: التبشير والإستشراق أحقاد وحملات، مطبعة الأميرية القاهرة، 1977م، ص35.

(3) أحمد الشرباصي: التصوف عند المستشرقين، سلسلة الثقافة الإسلامية، مطبعة نور الأمل القاهرة، 1966م، ص6.

(4) علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص25.

ب. من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتاباتهم: فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها."[1]

ومن خلال ما تقدَّم من تعريفات العرب والمسلمين لمصطلح الإستشراق، سواء ما كان منها خاصاً أو عاماً، أو كان محدوداً أو شمولياً، أو ما كان تاريخيا أو جغرافيا(عرقيا) وإلى كل ما ذُكِر من التعريفات يمكن استخلاص النتائج التالية:

- ✓ أن مصطلح الإستشراق لفظته مولدة غير أصلية وإن كانت لها جذور في اللغة العربية.
- ✓ أن المصطلح جديد في اللغة العربية، وقد شاع استعماله عند العرب والمسلمين كما شاع في الغرب.
- ✓ أن تعدّد التعريفات وما صاحبه من تعدّد في وجهات نظر المشتغلين بهذا المصطلح يبيِّن الجوانب الخفية التي يحملها في طياته وكذا غور الأسس التي قام عليها والأهداف التي يرمي تحقيقَها.
- ✓ أن المصطلح على مذهب من قال بعلميته تشوبه الكثير من الشوائب وتحوم حوله الكثير من الشكوك في مصداقيته ونزاهته إذا ما اقترن بالعاملين به وفي حقله العلمي المعرفي.
- ✓ أن المشتغلين الغربيين بهذا (العلم، المنهج أو الفن) وبحسب اختلاف نظرتهم إليه ليسوا من طبقة واحدة وليس لهم اهتمام موحد، على عكس هدفهم فهو واحد أوحد.
- ✓ أن العاملين الغربيين في هذا (الحقل المعرفي) حتى وإن ادَّعوا العلمية في جميع ما ينتجون، غير أنهم لن يكونوا علميين لسببين فرعيين: أحدهما عائق اللغة العربية خاصة ولغات الشرق عامة والتي قلَّ منهم من يتقنها ويسبر أغوارها ويقف على مدلولاتها والثاني اللغة الأم التي رضعوا لبانها وتحكُمُ معاملاتهم وسلوكاتهم وحتى مشاعرهم فهم لم ولن يتخلوا عنها، والسبب الرئيس وهو أنهم أبناء توجه عقدي وأصحاب موروث حضاري يحمل في طياته البغض والكره للشرق ويورِّث لأصحابه الضغينة ونظرة الاستعلاء.
- ✓ أن الإستشراق كمصطلح علمي هو حركة علمية منتظمة الخطى، طريقها واضحة المعالم، محدَّدة الغاية والهدف، ميدانها الشرق وجميع ما يلحق به.

---

(1) مالك بن نبي: المرجع السابق، ص167.

- ✓ أن الإستشراق وظيفة كبقية الوظائف المبذولة في المجتمع الغربي، وأن القائمين عليه ما هم إلا وسائل لتحقيق غايات وبلوغ أهداف في يد المنظرين الحقيقيين لهذه الوظائف.
- ✓ أن دلالة المصطلح الذي أراده بعض العرب وخصّوه ببعض الحدود الجغرافية ليكون لهم عزًا، هو في ذات الوقت دلالة على التبعية المقيتة للغرب والكره المبذول في غير محلِّه للشرق وأهله، بالرجوع لمنبت المصطلح والبيئة التي نشأ فيها والطائفة الأولى التي أنتجته واشتغلت به.
- ✓ أن المصطلح وإن لبس لبوس العلم والبحث والتجرد لن يعدو في حقيقته إلا أن يكون مظهرا من مظاهر الكهنوت المسيحي.

وإذا ما تمت مراجعة النتائج المتحصَّل عليها بين تعريف الغربيين وتعريف العرب والمسلمين لمدلولات الإستشراق والمستشرق، أمكننا التوصل إلى ما يلي:

- ✓ أن الإستشراق فرع من فروع المعرفة الغربية كان وليد الحاجة الظرفية للوقوف على فهم الإسلام والحد من انتشاره ثم مغالبته ثم كسره واندحاره إن كان لذلك سبيلاً.
- ✓ أن الإستشراق الوليد الشرعي للكنيسة صاحبة الفكرة والتبني والنشأة والرعاية المكفولة له حتى استوى على سوقه.
- ✓ أن المصطلح قد مرَّ بفترات زمنية متفاوتة حتى استقر على الحال التي هو عليها اليوم، وهو وإن كان قديم الأصل والنشأة فهو جديد عهد بالاعتراف به واستعماله في اللغات الأوروبية والعربية على حدٍ سواء.
- ✓ أن الإستشراق اليوم أصبح علماً مستقلاً (نسبياً) بذاته، له مدارسه، مناهجه وكيانه الخاص به، مهمته دراسة الشرق عامة والإسلام بصفة خاصة، وما يلحق به من إنتاج حضاري.
- ✓ أن الإستشراق والمستشرق في نظر الشرقي(العربي والمسلم)، متهمان وليسا ببريئين حتى يثبتا براءتهما، ويدلِّلا على العكس.
- ✓ أن المصطلح في تحديده ورغم التوصل إلى بعض القواسم المشتركة بين الغربيين والعرب والمسلمين إلا أنَّه لم يصل بعد إلى حد التعريف النهائي المجمع عليه.

✓ الاعتراف العلني أو الضمني من الدارسين لهذا الميدان المعرفي أن الإستشراق ما هو في حقيقته إلا وظيفة ومهنة في المجتمع الغربي كبقية الوظائف والمهن.

✓ الدور الريادي الذي لعبه هذا الميدان المعرفي في تعريف الغرب عامة والمشتغلين به خاصة بالشرق وحضارته وعلمه وكل ما أنتجه، ما أسهم في تطوير الغرب ونهضته.

هذا وفي مقابل مصطلح الإستشراق وما لحق به من مشتقاته من دراسة وبحث، فإنه وُجدت مصطلحات مقابلة له قد اهتم بها الباحثون، وأعني بهما مصطلح الاستعراب ومصطلح الاستغراب؛ ورغم أن اللفظتين ليستا من صميم البحث غير أنه وجبت الإشارة إليهما لعلاقتهما بالإستشراق ولو بالشيء القليل.

المطلب الثالث: الإستعراب.

فالاستعراب لفظة مشتقة من عرب عروبا وعروبة، فصح لسانه وصار فصيحاً باللغة العربية، واستعرب معناها أدخل نفسه مع العرب، فصار عربيا وإن لم يكن منهم[1]. وهذا ما أجاب به ابن القِرِّية[2] سؤال الحجاج بن يوسف الثقفي[3] له عن أهل البحرين فقال:" نبط استعربوا" أي أدخلوا أنفسهم حضيرة العرب وأصبحوا عرباً.

---

(1) إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة، دار الدعوة للنشر القاهرة [د ت ط]، ج2 ص591.

(2) ابن القرية(00-84 هـ/00-703م):أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي أحد بلغاء الدهر خطيب يضرب به المثل. يقال: أبلغ من ابن القرية والقرية أمه. كان أعرابيا أميا، يتردد إلى عين التمر غربي الكوفة فاتصل بالحجاج، فأعجب بحسن منطقه، فأوفده على عبد الملك بن مروان. ولما خلع ابن الأشعث الطاعة بسجستان بعثه الحجاج إليه رسولا، فالتحق به وشهد معه وقعة دير الجماجم بظاهر الكوفة وكان شجاعاً فلما انهزم ابن الأشعث سيق أيوب إلى الحجاج أسيرا، فقال له الحجاج: والله لأزيرنك جهنم! قال: فأرحني فاني أجد حرها! فأمر به فضربت عنقه ولما رآه قتيلا قال: لو تركناه حتى نسمع من كلامه ! وأخباره كثيرة. خير الدين الزركلي: الأعلام مرجع سابق، ج2 ص 37.

(3) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي(40-95هـ/660-714م): أبو محمد قائد، داهية، سفاك، خطيب. ولد ونشأ في الطائف بالحجاز وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله وفرق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى بغداد في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الامارة عشرين سنة. وبنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة.قال عبد بن شوذب: ما رؤي مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه. وقال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أحدا أفصح من الحسن البصري

ثم أطلق المصطلح على جماعة من الرهبان الإسبان خاصة في عهد الدولة الإسلامية بالأندلس والذين كانت لهم بعض الدراسات العربية والتي أدت بهم إلى القيام ببعض الحركات الاحتجاجية داخل المجتمع العربي آن ذاك ثم ما لبثوا أن ثابوا إلى رشدهم.

ثم أطلق المصطلح على جميع المسيحيين الذين تعرَّب لسانهم وبقوا على ديانتهم، فحفظت لهم الدولة الإسلامية في كنفها جميع حقوقهم وممتلكاتهم بما في ذلك معابدهم وأديرتهم والذين أصبحوا يعرفون في التاريخ – موزاراب- Les Mozarabes؛ وهم الذين أشار إليهم ابن الخطيب في قوله:" هم النصارى الذين بقوا بعد فتح الأندلس في المدن والبقاع المفتوحة، في ظل الدولة الإسلامية، وكانوا يكوِّنون مجموعات كبيرة في قواعده الرئيسية مثل قرطبة و إشبيلية وطليطلة"[1].

وما لبث أن أصبح المصطلح فرعا من فروع الإستشراق، ويدل على تخصص مجموعة من المستشرقين نذروا أنفسهم لدراسة العرب، سواء كان ذلك قبل مجيء الإسلام سواء من حيث الحياة الاجتماعية، الثقافية والدينية وكل ما له علاقة بالعرب، أو بعد مجيء الإسلام وكيف غيَّر الدين الجديد مسار حياة العرب فبوَّأهم ريادة العالم وسيادته، فكانوا فيه أساتذة أكفّاء، وقادةً رحماءَ حكماءَ.

وملاحظة جديرة بالتنويه والإشارة وهي أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال التطرق إلى العرب والبحث في موروثهم الحضاري على جميع الأصعدة بعد البعثة المحمدية دون الاهتمام بدين الإسلام الذي كان العرب فيه الركيزة الأساس.

والحجاج. وقال ياقوت في معجم البلدان: ذُكر الحجاج عند عبد الوهاب الثقفي بسوء، فغضب وقال: إنما تذكرون المساوئ ! أو ما تعلمون أنه أول من ضرب درهما عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأول من بنى مدينة بعد الصحابة في الاسلام، وأول من أتخذ المحامل، وأن امرأة من المسلمين سبيت في الهند فنادت ياحجاجاه، فاتصل به ذلك فجعل يقول: لبيك لبيك ! وأنفق سبعة آلاف درهم حتى انقذ المرأة ؟. واتخذ المناظر بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهارا وإن كان ليلا أشعلوا نيرانا فتجرد الخيل إليهم، فكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط، وأصبحت قزوين ثغرا حينئذ. مات بواسط، وأجري على قبره الماء، فاندرس. خير الدين الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج2 ص 168.

(1) لسان الدين بن الخطيب(713-776هـ/1313-1374م): الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة، 1973م، ج 1، ص106-107.

المطلب الرابع: الإستغراب.

أما الاستغراب فهي لفظة لها من الناحية اللغوية جذور ولكن بغير المعنى الذي يراد به كعلم أو كمصطلح يعاكس الإستشراق.

وإذا كان الإستشراق كما تم من تعريفات سواء عند الغربيين أو عند العرب والمسلمين والذي مفاده اهتمام الغرب ودراسته للشرق (للإسلام) ولكل ما ينتج عن هذا الشرق، بكل ما أوتي هذا الغرب من معارف ومناهج؛ فإن لفظة الاستغراب – وإن كانت هنالك محاولات لبيانها والتطرق إليها سواء كانت جهودا فردية أو جهودا على مستوى بعض المؤسسات في العالم العربي والإسلامي- لازالت غير واضحة المعالم ولا منسجمة الجهود ولا مرتَّبة الآليات، وتحتاج إلى تكثيف في الجهود وبذل للأموال وتسخير لقوى أكبر؛ وعلى المستوى العلمي الأكاديمي لم يتبلور المصطلح بعد و لم يتطور منهجه وفلسفته ليبلغ ما بلغ الإستشراق في الغرب.

أما جذر اللفظة من حيث اللغة، فقد جاء في قول العرب:" اسْتَغْرَب في الضَّحِك واسْتُغْرِبَ أَكْثَرَ منه وأَغْرَبَ اشْتَدَّ ضَحِكُه ولَجَّ فيه واسْتَغْرَبَ عليه الضحكُ كذلك وفي الحديث أَنه ضَحِكَ حتى استَغْرَبَ أَي بالَغَ فيه يُقال أَغْرَبَ في ضَحِكه واسْتَغْرَبَ وكأَنه من الغَرْبِ البُعْدِ وقيل هو القَهْقهة وفي حديث الحسن إِذا اسْتَغْرَب الرجلُ ضَحِكاً في الصلاة أَعادَ الصلاةَ قال وهو مذهب أَبي حنيفة ويزيد عليه إِعادةَ الوضوء"[1].

فالبون شاسع بين ما جاء في كلام العرب وجذر اللفظة عندهم وما هو مستعمل ومتعارف عليه حول مصطلح الاستغراب، غير أنه وقياسا على مصطلح الإستشراق مع وجود علمي الصرف والاشتقاق، فيمكن القول بأن الاستغراب لفظة مشتقة من غَرُب وتعني غروب الشمس ومغربها، وعليه يكون الاستغراب هو علم الغرب يطلبه غير الغربي والمستغرب هو المتبحِّر في علم الغرب سواء كان ذلك في لغة من لغاته أو في آدابه أو في ناحية من نواحي الحضارة والمدنية الغربية.

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص641-642.

المبحث الثاني: نشأة الإستشراق.

النشأة عامة:

ليس للإستشراق شهادة ميلاد ولا بطاقة هوية تثبتان ميلاده أو الجهة الجغرافية مرسومة الحدود التي ينتسب إليها، ولا يمكن تحديد أو وضع تاريخ نهائي له منه يؤرخ له به؛ وكل من كتب عن نشأته من حيث التاريخ يؤكد قائلاً:" لا يُعرف بالضبط من هو أول غربي عنى بالدراسات الشرقية ولا في أي وقت كان ذلك." [1]

لذلك يجد الباحثون في نشأة الإستشراق صعوبة في تحديد زمن بعينه لانطلاقته، وقد يكون السبب الرئيس في هذه الصعوبة أن الإستشراق قد بدأ بداية فردية على مستوى أشخاص معينين ولم يكن لتلك الجهود الأثر الكبير والمميَّز في مجرى الحياة عامة، فكانت النتيجة عدم أخذ تلك الجهود نقطة بداية للإستشراق.

ولأجل تحصيل الفائدة في هذا المبحث يمكن تقسيم النشأة على الكيفية التالية:

المطلب الأول: النشأة من حيث الزمان.

أرجع بعض الباحثين بداية الإستشراق إلى بعثة النبي محمد ﷺ، حين بعث البعوث والوفود شرقاً وغرباً، وكان حظ الغرب يومها ممثلاً في قيصر ملك الروم وكان رسول رسول الله ﷺ له دحية الكلبي[2]، والذي تمت دعوته للإسلام، وكانت هذه الدعوة بمثابة الخيوط الأولى في نسيج العلاقات بين الشرق والغرب.

---

(1) د.مصطفى السباعي: الإستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المكتب الإسلامي بيروت، 1979م، ط2، ص13. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير الإستشراق والاستعمار، دار القلم دمشق، ط8، 1420هـ/2000م، ص122.

(2) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي(...-45هـ/...-665م): صحابي جليل بعثه الرسول ﷺ برسالة إلى قيصر يدعوه للإسلام فآمن به وامتنع عليه بطارقته، شهد أحداً وما بعدها وكان جبريل عليه السلام يأتي في صورته أحياناً، نزل دمشق وسكن المزة وعاش إلى خلافة معاويةرضي الله عنه روى عنه الشعبي، وعبد الله بن شداد، ومنصور الكلبي وخالد بن يزيد بن معاوية. الزركلي: الأعلام، ج2 ص337.

والبعض الآخر من الباحثين يرجع تاريخ الإستشراق وبدايته إلى انطلاق الغزوات والفتوح على تخوم دولة الإسلام الأولى، حيث كانت غزوة مؤتة[1] في السنة الثامنة للهجرة والتي مثّلت الانطلاقة الأولى والحقيقية في فتوحات المسلمين وحروبهم واحتكاكهم في أرض الواقع مع الغرب.

وهكذا تواصل الاحتكاك بين الإسلام كدين جديد يسعى لكسب أنصار جدد وفتح أراضٍ جديدة وبين إمبراطوريات عتيقة عريقة ورثت الكتاب والحكم ولم تعمل بهما إلا فيما يحقق لها مصالحها، فكان لزاماً أن يكون الصدام، وكان لزاماً كذلك التعرف على هذا القادم الجديد إما للدخول فيه وخدمته بعد الاقتناع به، وإما التعرف عليه لمجابهته ورده من حيث جاء.

وكانت الغلبة للدين الجديد والفاتح القادم الذي فتق حجب الجهل عن العقول وأزال درن الجاهلية عن النفوس فاستوطن قلوب العباد قبل أن يستوطن أراضيهم، فكانت الفتوح شرقا إلى

---

(1) مؤتة وهي بأدنى البلقاء والبلقاء دون دمشق في جمادي الأولى سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ قالوا بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب إلى ملك بصرى بكتاب فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره فاشتد ذلك عليه وندب الناس فأسرعوا وعسكروا بالجرف وهم ثلاثة آلاف فقال رسول الله ﷺ أمير الناس زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتل فعبد الله بن رواحة فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم وعقد لهم رسول الله ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة وأوصاهم رسول الله ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم وخرج مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف وودعهم... سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم ...فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي فمضوا إلى مؤتة ووافاهم المشركون فجاء منهم ما لاقبل لأحد به من العدد والسلاح والكراع فالتقى المسلمون والمشركون فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى قتل طعنا بالرماح رحمه الله ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب وقاتل حتى قتل ﷺ ضربه رجل من الروم فقطعه بنصفين فوجد في أحد نصفيه بضعة وثلاثون جرحا ووجد فيما قيل من بدن جعفر اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل رحمه الله فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فأخذ اللواء وانكشف الناس فكانت الهزيمة فتبعهم المشركون فقتل من قتل من المسلمين ورفعت الأرض لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معترك القوم فلما أخذ خالد بن الوليد اللواء قال رسول الله ﷺ الآن حمي الوطيس فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف فجعل الناس يحثون في وجوههم التراب ويقولون يا فرار أفررتم في سبيل الله فيقول رسول الله ﷺ ليسوا بفرار ولكنهم كرار إن شاء الله. السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت 581هـ): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1421هـ/2000م. ج7ص 164 وما بعدها.

بلاد ما وراء النهرين بآسيا الوسطى[1]، وكانت الفتوح غرباً حتى المحيط الأطلسي بل كانت جوانح قلب أوروبا تخفق إليه شوقاً وتنتظر قدومه عليها لولا معركة بلاط الشهداء (114هـ/732م) بقيادة عبد الرحمن الغافقي[2]، التي كانت العقبة الكؤود في طريقه وأوقفت زحفه، بعد أن نعمت الأندلس وما جاورها من البلاد بالرخاء والعطاءات وما تحقق فيها من إنجازات علمية وحضارية.

وذهب بعض الغربيين إلى جعل دخول الإسلام أوروبا عن طريق الأندلس السبب الرئيس في ظهور الإستشراق، لأنه حوَّل أفئدة العباد الأوروبيين واستحوذ عليهم وردَّهم من دين النصرانية إلى ظِلال رحمته قبل أن يستولي على الأرض، حيث قالوا:" وعلى مدى ألف سنة، منذ أول عملية

---

(1) والمقصود بهما نهري سيحون وجيحون في روسيا الحالية، سيحون بفتح أوله وسكون ثانيه وحاء مهملة وآخره نون نهر مشهور كبير بما وراء النهر قرب خجندة بعد سمرقند يجمد في الشتاء حتى تجوز على جمده القوافل وهو في حدود بلاد الترك. ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله (ت626هـ/1228م): معجم البلدان، دار صادر بيروت، ط1، 1397هـ/1977م، ج3 ص294. وجيحون بالفتح وهو اسم أعجمي وقد تعسف بعضهم فقال هو من جاحه إذا استأصله ومنه الخطوب الجوائح سمي بذلك لاجتياحه الأرضين قال حمزة أصل اسم جيحون بالفارسية هرون وهو اسم وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان فنسبه الناس إليها وقالوا جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ وقال ابن الفقيه يجيء جيحون من موضع يقال له ريوساران وهو جبل يتصل بناحية السند والهند وكابل ومنه عين تخرج من موضع يقال له عندميس وقال الإصطخري فأما جيحون فإن عموده نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وخاب من حدود بذخشان وينضم إليه أنهار في حدود الختل ووخش فيصير في تلك الأنهار هذا النهر العظيم. الحموي: معجم البلدان، المصدر السابق، ج2 ص196.

(2) عبد الرحمن الغافقي(000-114هـ/000-732م) عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، أبو سعيد أمير الاندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان أصله من غافق من قبيلة عك في اليمن رحل إلى إفريقية ثم وفد على سليمان بن عبد الملك الأموي في دمشق وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز أيام إقامتهما في الاندلس وولي قيادة الشاطئ الشرقي من الاندلس وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك سنة 102هـ فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون فيها أميرا، وأقره والي إفريقية ونشأ خلاف بينه وبين عنبسة بن سحيم أحد القادة فعزل عبد الرحمن وولي عنبسة مكانه، فصبر مدة يغزو مع الغزاة إلى أن ولاه هشام بن عبد الملك إمارة الأندلس سنة 112 هـ فزار أقاليمها وتأهب لفتح بلاد الغال Gaule أو Gallia وكانت تعرف بالارض الكبيرة، وهي فرنسا الآن، فدعا العرب من اليمن والشام ومصر وإفريقية إلى مناصرته وأقبلت عليه الجماهير فاجتاز بهم جبال البرانس Pyrenees وأوغل في مقاطعتي أكيتانية وبورغونية، واستولى على مدينة بوردو، ودحر جيوش شارل مارتل وتقدم يريد الايغال، فجمع شارل جيشا كبيرا من الغاليين والجرمانيين فنشبت حرب دامية في بواتيه Poitiers بقرب نهر اللوار قتل فيها عبد الرحمن. الزركلي: الأعلام، ج3 ص312.

إنزال من مراكش باتجاه جبل طارق[1]، وحتى الحصار العثماني الثاني حول فيينا[2]، ظلت أوروبا تحت رحمة الإسلام، وفي البدايات كان الخطر ثنائيا، فهو ليس مجرد خطر غزو وفتوحات، بل خطر التحول إلى الإسلام، وخطر أن يتمكن الإسلام من هضم واستيعاب وتمثل النصارى، هذا النوع من الخوف أدى إلى ظهور الدراسات الإسلامية في أوروبا، والذي صار اسمه فيما بعد الإستشراق"[3].

واختلف رأي البعض الآخر منهم على وجهتين من النظر، فالوجهة الأولى مفادها أن الإرهاصات الأولى لميلاد هذا المصطلح بدأت على شكل دراسات منفردة لم تكن ذات بال و لم يؤبه لها في القرن الثاني عشر:" وأن بداية الدراسات العربية والإسلامية ترجع إلى القرن الثاني عشر، ففي 1143م[538هـ] تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب بيتروس فينيرابيليس[4] رئيس دير كلوني وكان ذلك على أرض إسبانيا. وعلى الأرض الإسبانية وفي القرن الثاني عشر[ق6هـ] أيضا نشأ أول قاموس لاتيني عربي"[5].

وأما وجهة نظرهم الثانية والتي يقصدون منها ميلاد المصطلح فعليا والاعتراف به كعلم له خصائصه ومناهجه ورواده ومدارسه، فبدايته الزمنية تكون في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي

---

(1) ركب[طارق بن زياد] البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء من بر الأندلس وصعد إلى جبل يعرف اليوم بجبل طارق لأنه نسب إليه لما حصل عليه وكان صعوده إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة. ابن خلكان،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت 681هـ/1282م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط1، 1971م، ج5 ص320.

(2) حصار فيينا الثاني: وقع زمن حكم السلطان محمد الرابع(1058-1099هـ/1648-1687م) تحت قيادة الصدر الأعظم قرة مصطفى سنة 1094هـ/1683م، حيث حاصرمدينة فيينا عاصمة النمسا لمدة شهرين وكادت تسقط، لولا تكاتف الدول الأوروبية ضد العثمانيين بفضل نداءات البابا إلى الدول النصرانية. إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان القاهرة، ط2، 1998م، ص112.

(3) برنارد لويس: الإسلام والغرب، مرجع سابق، ص19.

(4) بطرس المحترم: (485-551هـ/1092-1156م) Petrus Venerabilis, Pierre Le Vénérable فرنسي من الرهبانية البندكتية، عين رئيسا لديرها في كلوني، وانطلقت منه حركة إصلاح عمت النصرانية الأوربية، قصد الأندلس، ثم رجع إلى ديره ليصنف الكتب في الرد على علماء الجدل المسلمين وأوعز بترجمة معاني القرآن الكريم. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص110-111.

(5) رودي بارت: المرجع السابق، ص9.

[ق13هـ]حيث أنه:" ليس من الممكن تحديد الفترة التي بدأ فيها مثل هذا الاتجاه الجديد على وجه الدقة(صفة العلمية للإستشراق). فإذا وضعنا بقصد التبسيط"منتصف القرن التاسع عشر" فإننا نعني بهذا فقط أن الصفة العلمية بالمعنى الحديث ظهرت في هذا الوقت على الإستشراق بوضوح أكثر من ذي قبل"[1].

أما نشأة المصطلح عند المشتغلين به من العرب والمسلمين من حيث الزمن، فقد أرجعه بعضهم إلى القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي[2]، وبعضهم إلى بداية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، بعد فشل الحملات الصليبية واشتداد حملات التنصير التي قامت في الأندلس لتنصير المسلمين[3].

ويردُّها بعضهم إلى ما بعد فترة التصحيح الديني الذي تزعمها مارتن لوثر[4] – الذي هاجم ما يسمى صكوك الغفران، وفضح مفاسد الكنيسة، وأعلن أن الإنسان يمكن أن ينال الخلاص من خلال الإيمان بالمسيح، وهو اعتقاد يناقض تعاليم الكنيسة في الفضل الإلهي، كما أعلن أن العمل الصالح هو طريق النجاة والخلاص- والتي قامت في أوروبا بقليل[5].

---

(1) رودي بارت: المرجع السابق، ص17.

(2) شوقي أبو خليل: الإسقاط مرجع سابق، ص6. د.محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة القاهرة، ط11 ص 429.

(3) شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص6.

(4) لوثر، مارتن (1483-1546م): زعيم حركة الإصلاح الديني الكنسي التي أدت إلى ميلاد البروتستانتية وقد تجاوز تأثيره البروتستانتية وحتى النصرانية نفسها، قام بترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية، وُلد لوثر في آيشليبن في سكسونيا في العاشر من نوفمبر عام 1483م، والتحق بجامعة إيرفورت عام 1501م، وقرر أن يصبح محامياً لكنه دخل ديرًا عام 1505م، بعد وقت قصير من مروره بتجربة دينية عاصفة، وعُين لوثر قسًّا عام 1507م ودَرَس لمدة وجيزة في جامعة ويتنبيرج عام 1508م. وفي عام 1512م حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت وعُين أستاذاً للاهوت. وفي عام 1517م، أعلن لوثر مبادئه التي هاجم بها ما يسمى صكوك الغفران، وفضح فيها مفاسد الكنيسة، وأعلن أن الإنسان يمكن أن ينال الخلاص من خلال الإيمان بالمسيح، وهو اعتقاد يناقض تعاليم الكنيسة في الفضل الإلهي، كما أعلن أن العمل الصالح هو طريق النجاة والخلاص. ونتيجة لذلك، أعلن البابا ليو العاشر طرد لوثر واعتباره مارقاً. وحينما طلب الإمبراطور تشارل الخامس من لوثر الرجوع عن آرائه رفض ذلك فوقَّع الإمبراطور وثيقة إدانة له تعتبره خارجاً على القانون وتبيح دمه، ولكن أمير سكسونيا بسط عليه حمايته واستمر لوثر في الدفاع عن آرائه، واتُخذت آراؤه أساساً لحركة الإصلاح الديني. الموسوعة العربية العالمية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع الرياض، ط2، ج21 ص178-179.

(5) الموسوعة العربية العالمية: مرجع سابق، ط2، ج1 ص676 وما بعدها. إدوارد سعيد: الإستشراق، ص80.

إلا أن مالك بن نبي كما سبقت الإشارة إلى تصنيفه، قد خالف معظم الكاتبين عن الإستشراق وجعل التحقيب الزمني للإستشراق من حيث العاملين به وليس للمصطلح في حد ذاته على شكل طبقات[1].

المطلب الثاني: النشأة من حيث المكان.

مرَّ فيما مضى أثناء التطرق لتعريفات الإستشراق بعض التلميحات الدّالة على الحدود الجغرافية التي ينتمي إليها، ويكون شبه إجماع عند معظم المشتغلين به أنه نشأ في أوروبا عامة وبعضهم يخصص الجهة الغربية من أوروبا تحديداً وهذا لا فرق فيه بين الغربيين والعرب والمسلمين[2]، وذلك راجع إلى أن المستشرقين الأوائل قد كانوا تلاميذ وطلاب بالمعاهد والجامعات العامرة بعواصم الثقافة العربية والإسلامية بالأندلس مثل طليطلة[3] وقرطبة[4] وإشبيلية[5]، والتي كان العلم فيها مفتوحاً لكل طالب وبالمجان. فقد كان حاكم البلاد يسهر على العلم والعلماء وينفق عليهم.

---

(1) مالك بن نبي: المرجع السابق، ص167.

(2) برنارد لويس: الإسلام والغرب، ص19. شوقي أبو خليل: الإسقاط مرجع سابق، ص6. الموسوعة العربية العالمية: ج1ص676-677.

(3) طليطلة: هكذا ضبطه الحميدي بضم الطاءين وفتح اللامين وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم وهي على شاطىء نهر تاجه وعليه القنطرة التي يعجز الواصف عن وصفها. الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج4 ص39-40.

(4) قرطبة: هي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها وكانت سريرا لملكها وقصبتها وبها كانت ملوك بني أمية ومعدن الفضلاء ومنبع النبلاء من ذلك الصقع وبينها وبين البحر خمسة أيام. الحموي: المصدر السابق، ج4 ص324.

(5) إشبيلية: بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها تسمى حمص أيضا وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره وبها كان بنو عباد ولمقامهم بها خربت قرطبة وعملها متصل بعمل لبلة وهي غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا وكانت قديما فيما يزعم بعضهم قاعدة ملك الروم وبها كان كرسيهم الأعظم. الحموي: المصدر السابق، ج1 ص195.

فالتاريخ يحدِّثنا عن الحكم بن عبد الرحمن[1]، ومكتبته العامرة بقرطبة والتي كان بها زهاء أربع مائة ألف كتاب، وعن المعاهد العلمية التي نصَّب لها خيرة العلماء في عهده، فشجَّع مهنة الوراقة والنسخ حتى غدت الأندلس عامة في عهده قبلة العلم والعلماء[2].

استولى الفرنجة على مجموعة كبيرة من المعاهد والمكتبات العامرة بالمدن الأندلسية وخاصة مكتبة طليطلة[3]، زمن حروب الإسترداد، وقدَّموها هدية للقساوسة والرهبان المسيحيين، والذين انكبوا عليها انكباب الظمآن على الماء المورود، لما استولوا على المدينة[4] والتي:" غصت مكتباتها وجوامعها بالكتب العربية في شتى العلوم المختلفة، ولا سيَّما العلمية، وأنشئت فيها مدرسة للترجمة من العربية إلى اللاتينية أغلبها من اليهود والنصارى الذين يجيدون اللغتين، وقاموا بنقل العديد من المؤلفات العربية ولا سيَّما بعد سقوط هذه المدينة في أيدي ألفونسو السادس[458-503هـ/1065-1109م] الذي شجع حركة الترجمة هذه، ولم يأت القرن الثالث عشر إلا

---

(1) المستنصر الأموي (302-366 هـ/914-976م) الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله: خليفة أموي أندلسي ولد بقرطبة، وولي الخلافة بعد أبيه (سنة 350هـ/961م) فطمع به ملك الإسبان (أردون بن ألفونس) فتهيأ للإغارة على قرطبة، فسبقه المستنصر وغزا الإسبان بنفسه، فعاقدوه على السلم، وأوطأ عساكره أرض العدوة – من المغرب الأقصى والأوسط – وخطب بدعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة، وكان عالما بالدين ملما بالأدب والتاريخ، ضليعا في معرفة الأنساب، يروى له شعر، محبا للعلماء يستحضرهم من البلدان النائية فيستفيد منهم ويحسن إليهم، جماعا للكتب، قيل: إن مكتبته بلغت أربع مئة ألف مجلد. قال ابن حزم: اتصلت ولايته خمسة عشر عاما في هدوٍّ وعلوٍّ. وقال ابن حيان: وباسمه طرز أبو علي البغدادي القالي كتاب الأمالي، وعليه وفد، فأحمد وفادته. توفي بقرطبة مفلوجاً. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج2 ص267.

(2) للمزيد حول تاريخ هذه المكتبة ومصنفاتها ينظر: د. شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، الشرق الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط2، 1421هـ/2001م، ص305 وما بعدها.

(3) جاء وصف هذه الفاجعة في قول أحدهم:"استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة طليطلة من بلاد الأندلس وأخذوها من المسلمين وهي من أكبر البلاد وأحصنها وسبب ذلك أن الأذفونش ملك الفرنج بالأندلس كان قد قوي شأنه وعظم ملكه وكثرت عساكره منذ تفرقت بلاد الأندلس وصار كل بلد بيد ملك فصاروا مثل ملوك الطوائف فحينئذ طمع الفرنج فيهم وأخذوا كثيراً من ثغورهم". ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت630هـ/1232م): الكامل في التاريخ، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، ط1، 1417هـ/1997م، ج 8، ص 477.

(4) كان أخذ النصارى لطليطلة في منتصف محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة(ماي 1085م).الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، دار السراج بيروت، ط2، 1980م، ص 395.

وكانت معظم المؤلفات العربية تدرس في أوربا"[1]؛ ومنها كانت انطلاقتهم وإشعاعات حضارتهم، بعدما ضيع الخلف رسالة السلف فصاروا إلى تلف.

وهذه شهادة أحدهم في ساعة صفاء وهو أنخل جنثالث بالنثيا[2]Palencia حيث يقول:" إن الفضل في قيام الدراسات الطبية في أوروبا يرجع إلى ما كتبه العرب، الذين كانوا يبعثون بالسفراء لاستجلاب الكتب القيمة ما بين إغريقية ولاتينية، ويقيمون المراصد لدراسة الفلك، ويقومون بالرحلات ليستزيدوا من العلم بالتاريخ الطبيعي، وينشئون المدارس لتدرس فيها العلوم بشتى صنوفها"[3].

وشهادة ثانية كذلك على لسان دوزي رينهارت[4]وهو أحد المستشرقين الهولنديين المتخصصين في تاريخ الأندلس، يصف فيها الحالة العلمية التي بلغها المسلمون بالأندلس مقارنة بالحالة التي كان عليها الغربيون فيقول:" إنَّه لم يكن في كل الأندلس أميٌّ، يوم لم يكن في كل أوروبا مَن لم يُلم بالقراءة والكتابة إلا الطبقة العليا من القساوسة"[5].

ولذا تعدُّ الأندلس المنبت الأصلي للإستشراق الأوروبي، ويعدُّ الإستشراق الإسباني الأصل والأساس لجميع المدارس الإستشراقية الأوروبية، ويُعدُّ الإستشراق الترجمي(في جانب الترجمة)

---

(1) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، نشأتها وتطوّرها ومصائرها، مؤسسة الرسالة بيروت، ط3، 1401هـ/ 1981م، ص214.

(2) أنخل جنثالث بالنثيا (1889-1949م) Gonzalez Palencia A: تخرج من جامعة مدريد وصنف كتابا في تاريخ الأدب الإسباني فنال به الأستاذية وانتخب عضوا في مجامع عدة وتوفي على إثر حادث سيارة له من المؤلفات الشيء الكثير. نجيب العقيقي: المستشرقون، ج2 ص201-202.

(3)أنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الإسباني، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط1، 1955م، ص 448 وما بعدها. وينظر كذلك: علي محمد راضي: الأندلس والناصر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة، 1967م، ص115-116.

(4) دوزي رينهارت بيتر آن (1235-1300هـ/1820-1883م) Dozy Reinhart pieter Anne مشتشرق هولندي، من أصل فرنسي بروتستانتي المذهب. هاجر أسلافه من فرنسا إلى هولندا في منتصف القرن السابع عشر، مولده ووفاته في ليدن.درس في جامعتها نحو ثلاثين عاما، وكان من أعضاء عدة مجامع علمية. قرأ الآداب الهولندية والفرنسية والانكليزية والالمانية والايطالية، وتعلم البرتغالية ثم الاسبانية فالعربية. وانصرفت عنايته إلى الاخيرة، فاطلع على كثير من كتبها في الأدب والتاريخ. الزركلي: الأعلام، ج3 ص 38-39.

(5) د. عبد المتعال محمد الجبري: الإستشراق وجه للاستعمار الفكري، مرجع سابق، ص178.

الأوروبي عامة عالة على المدرسة الإسبانية بما ورثته من حضارة المسلمين وإسهاماتهم في هذا المجال.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: النشأة من حيث الدافع.

عرف الغرب قدر الجهل الذي كانوا فيه تائهين، وعرفوا فضل العلم الذي أخرجهم من دياجير الظلمات، فوقفوا وقفة رجل واحد مستمسكين بالذي هو خير، فاندفعوا زرافات ووحداناً إلى أشعة تلك العلوم، وكلهم أمل في الوصول إلى ما وصل إليه أساتذتهم العرب المسلمون والتفوق عليهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

فكان دافعهم الأول هو المعرفة لذاتها ولعل أسماء علت في سماء الإستشراق وتاريخه لم يكن التاريخ ليذكرها لو لم تتتلمذ في مدارس ومعاهد الأندلس.

وذلك الدافع الذي أخلصوا له نياتهم وعقدوا عليه عزائمهم هو الذي خلَّد ذكرهم ومنهم جربير أو جربرت الذي اعتلى كرسي البابوية باسم البابا سلفستر الثاني[1]، والراهب بطرس المحترم أو المبجل، وجيرارد دي كريمون[2]، وميخائيل أو مايكل سكوت[3].

ومن خلال الوظائف التي أسندت لمثل هؤلاء المشتغلين الأُول بالعلوم عموما والعلوم العربية خصوصاً، ومنهم من أصبح الآمر والناهي على رأس البابوية في روما، تفطَّن هؤلاء لما عند المسلمين من كنوز وعلموا أنها مصدر ريادتهم وعزهم، فأصدروا الأوامر لمن دونهم يحثونهم على تعلم علوم العرب والمسلمين وترجمتها؛ بل إنهم وضعوا كل مشتغل بتلك العلوم تحت السلطة البابوية وألحقوه بالعالم الكهنوتي، وعلى هذا الأساس أصبح هدفهم لاهوتياً كنسياً صرفاً ومن

---

(1) دي أورلياك جربير: (318-394هـ/930-1003م)Sylvester2 Silvestre Gerbert فرنسي من طلائع المستشرقين بل ربما عدَّ أولهم، من الرهبانية البندكتية درس في الأندلس ثم لما ارتحل إلى رومة انتخب حبرا أعظم باسم " سلفستر الثاني "، فكان أول بابا فرنسي، أمر بإنشاء مدرستين عربيتين في رومة وفي رايمس، ثم ثالثة في شارتر. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص178-179.

(2) جيراردو دا كريمونا (508-583هـ/1114-1187م) Gerardo da Cremona مستشرق من علماء الإيطاليين، مولده ووفاته في كريمونا، أقام زمناً في طليطلة فترجم عن العربية إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتابا طبع بعضها. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج2 ص149.

(3) ميخائيل أو مايكل سكوت(571-634هـ/1175-1236م) Scott M أسكتلندي تردد على مدرسة بلرمو وأحد تلاميذ مدرسة طليطلة، ترجم أعمال أرسطو وشروح ابن رشد عليها. تعرف على الإمبراطور فردريك الثاني بصقلية زار روما وبولونيا ثم عاد إلى اسكتلندا ومات بها عام 1236م[634هـ]. نجيب العقيقي، المستشرقون، ج1 ص116-117.

ثمَّ:"استطاع البابوات والرهبان بنفوذهم على الملوك والأفراد والبلديات أن يجعلوا من الإستشراق مؤسسة ذات دور فعال في حياة الأوروبيين"[1].

وليس من كلام البدعة والاتهام الباطل أن يقال عن الإستشراق أنه الابن المدلل للكنيسة وهي الراعي الرسمي له، فهو قد:" نشأ بدافع ديني في الغرب، جعل دراساته في خدمة التنصير (التبشير)...، فالإستشراق في مراحله الأولى عاش في كنف الكنيسة ترعاه وتوجّهه"[2].

ثم ما لبث الابن المدلل أن لبس مسوحاً أخرى غير صفة العلمية، ودفع بمريديه والمشتغلين به من معركة النزال الفكري إلى معركة الأجساد والجياد، فكان المحرِّض الأول على قتال الكفرة – أي المسلمين- وعَبَدة الوثن – والوثن يقصدون به محمد ﷺ- وإخراجهم من أوروبا بل وملاحقتهم في ديارهم الأولى التي انطلق منها أسلافهم، فكانت الحروب الصليبية[3].

هذه الحروب التي يفتخر بها بعض من كتب عنها ويجعلونها البداية الحقيقية للإستشراق لأنها كانت سبباً في ملاحقة الأعداء وإجلائهم من أوروبا وأراضي المسيح:" وعلى هذا نرى منشأ الإستشراق في ساحات القتال بين الشرق والغرب، كما نراه في مغامرات التبشير كذلك"[4].

ويرى البعض أن نشأة الإستشراق كانت وثيقة الصلة بمرحلة ما يسمونه في أوروبا بالإصلاح الديني في القرن السادس عشرالميلادي/ العاشر الهجري:" ويكاد يجمع المؤرخون على انتشار

---

(1) د. السيد محمد فرج: الإستشراق، الذرائع النشأة والمحتوى، دار طويق للنشر والتوزيع الرياض، ط1، 1414هـ/ 1993م، ص50.

(2) شوقي أبو خليل: الإسقاط، مرجع سابق، ص6.

(3) بدأت فكرة الحروب الصليبية في عهد البابا أوربان الثاني والذي اتخذ من بطرس الناسك أداة للدعاية ونشر الفكرة في المجامع العامة، والمحافل الشعبية ليهيئ الأفكار ويثير الحماسة الشعبية للعمل على إنقاذ بيت المقدس وكنيسة القيامة. وقام البابا بعقد المجامع الكنسية فكان مجمع بليزانس بشمال إيطاليا في مارس 1095م(488هـ) ولكن من غير مفعول، وكان مجمع كليرمون في نوفمبر 1095م(488هـ) بفرنسا، واتفق المجمع على أن يكون المسير في منتصف شهر أوت 1096م (489هـ) وأن يكون اللقاء في القسطنطينية، وكان أن امتدت الحروب الصليبية لمدة قرنين من الزمن وبلغ عددها ثمانية حملات صليبية على المشرق والمغرب. للمزيد ينظر: محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط2، 1982م، ص45 وما بعدها.

(4) فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، ج12 ص12.

الإستشراق في أوروبا- ظهر بصفة جدِّية لا فردية- بعد فترة ما تسمى بالإصلاح الديني"[1]. وذلك لازدهار النشاط الاقتصادي بين الشرق والغرب.

فقد شهدت الفترة انفتاحا كبيرا في العلاقات الاقتصادية دعَّمها كشف الثروات والمواد الأولية الموجودة بالمشرق مع ما صاحبه من قوة ونفوذ في الغرب ومع ما صاحب كل ذلك من حب المغامرة نحو اكتشاف المشرق؛ غير أن الذي تم ذكره يقوم كدليل على الدافع التجاري والاقتصادي لحركة الإستشراق وليس كدليل على نشأة الإستشراق في حد ذاته[2].

والكلام ذاته ينطلي على من جعل من فترة الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي سبباً في نشأة الإستشراق، بل إن الفحص الدقيق لهذه الفترة يبيّن وبوضوح تام، أن هنالك مجموعة من المستشرقين كانت بمثابة الطلائع الأولى للاستعمار الأوروبي وجيشه، وقد كانت العقل المدبر في رسم الخطط والتوجيه للقادة العسكريين، وأن هذه المجموعات قد ساعدت وبشكل كبير في الجانب الاستراتيجي لغزو العالم الإسلامي، غير أن هذه الفترة لم تكن فترة نشوء الإستشراق بل هي مرحلة من مراحل الإستشراق التي ازدهر فيها وتبلور فيها وتكيَّف بما تقتضيه مصالح أوروبا عامة والكنيسة خاصة[3].

---

(1) عبد المتعال محمد الجبري: الإستشراق مرجع سابق، ص82.

(2) للمزيد حول هذا الموضوع ينظر:محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص 151 وما بعدها.

(3) أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الإستشراق، ص 120 وما بعدها.

المطلب الرابع: النشأة في إنجلترا.

كانت الصفحات السابقة قد تم فيها بحث الإستشراق بحثاً عاما، وتم بسط الحديث فيها عنه من حيث المدلول والنشأة ومكان النشأة ورواده، وبقي أن تُفْرض له مساحة وتخصص للحديث عنه في حيز جغرافي محدود لصلة هذا الحيز بموضوع البحث، وهو منطقة إنجلترا.

فتُعَدُّ إنجلترا من الدول الغربية السبَّاقة في احتضان هذا النوع من التمخُّضات الفكرية التي أنتجت فيما بعد علماً صار واضح المعالم بيِّن النهج؛ يقول عنه بعضهم:" كان الإستشراق الانجليزي بين أول وأوثق وأوسع ما عرفته أوروبا من إستشراق"[1]؛ ولعل السبب في ذلك يعود إلى العناية الكبيرة التي أولتها له المؤسسات القائمة في المجتمع آنذاك وعلى رأس تلك المؤسسات الكنيسة، بحيث بذلت له المجهود مع الرجال والمال ووفرت له كل المستلزمات التي يحتاجها العلم والمشتغلين به.

وكان الأوائل المشتغلون بهذا النمط الفكري الجديد في أوروبا هم القساوسة والرهبان في أديرتهم وكنائسهم على شاكلة أصحابهم في بقية العالم الغربي، وقد بدأوا اشتغالهم باللغة العربية وعلومها وكل ما له علاقة بها وذلك لصلتها الوثيقة بالكتاب المقدس وتفسيراته عندهم، فقد:" عنوا بتدريسها، وتحقيق مخطوطاتها وترجمتها والتصنيف فيها، وأفادوا من صلتها باللغات السامية لتفسير الكتاب المقدس تفسيرا يتفق مع المذاهب البروتستانتية، مما حمل كبير الأساقفة لود Loud على إنشاء كرسي للعربية في جامعة أكسفورد وتشجيع الجامعات على توفير الدراسات الشرقية وتعميمها"[2].

وذات الكلام يؤكده البستاني في قوله:" كان بدء الإستشراق في انكلترة[كذا] كما كان في بعض الدول الأوروبية بتعلم اللغات السامية في سبيل مزيد فهم للكتاب المقدس وذلك على يد رجال الدين"[3].

ويحدِّثنا تاريخ إنجلترا عن البداية المبكرة لهذه الحركة الفكرية في المجتمع على مستوى بعض

---

(1)نجيب العقيقي: المستشرقون، ج2 ص7.

(2) نجيب العقيقي: المرجع السابق، ج2، ص7-8.

(3) فؤاد أفرام البستاني: المرجع السابق، ج12 ص27.

الأفراد، سواء مَن قَدِموا زيارة إلى حواضرها مثل إبراهيم بن عزرا[1] الذي:" وفد إليها من طليطلة في إسبانيا فزار لندن عام(553هـ/1158م) ودرَّس فيها حقبة من الزمن، وهو وإن كان يهودياً فإنه قد لقن ثقافته من جامعات الأندلس الإسلامية"[2]، وتوماس براون الذي: "تخرج في جامعات صقلية الإسلامية وعمل قاضياً فيها في فجر حياته"[3]؛ أم مَن غادروا إنجلترا وقبلتهم الأندلس بنيَّة التعلم والمعرفة قصداً مثل إدلارد أوف باث[4]ودانيال أوف مورلي[5]في القرن الثاني عشر/ السادس الهجري، و مثل مايكل أو ميخائيل سكوت في القرن الثالث عشر/ السابع الهجري.

ويُعْتقد – بل يُعدُّ شبه إجماع عند المستشرقين الإنجليز– أن أول المشتغلين الحقيقيين في هذا الحقل المعرفي الجديد عندهم إنما هو إدلارد أوف باث، هذا الذي شغف بحب العلم والرحلة في سبيله لما وجد في منهج علماء الإسلام من تمايز وانفصام عن غيره الذي كان سائداً في أوروبا عامة وإنجلترا بصفة خاصة والممثل في طبقة الرهبان والقساوسة.

---

(1) إبراهيم بن عزرا الغرناطي (ت562هـ/ 1166م): لعله أول حبر يهودي يقوم بنقد التوراة إلا أنه لم يجرؤ على المجاهرة بذلك في زمنه ولكنه أشار إلى نقده بعبارات غامضة إلى أن ظهر الفيلسوف اليهودي باروخ سبينوزا (ت1073هـ/1677م) الذي فسر عبارات ابن عزرا الغامضة في نقد التوراة وجهر بذلك وأضاف أدلة أخرى في ذلك النقد. ولا يخفى أن ابن عزرا قد تأثر بعلماء المسلمين الذين كان يعيش بينهم وخاصة العلامة ابن حزم (ت456هـ/1064م) في كتابه الفصل في الملل والنحل في نقده للتوراة والأناجيل وغيرها. د. محمود عبد الرحمن قدح: الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في انحرافهم عرض ونقد، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة 32 عام 1420هـ، عدد 111 ص 80 وما بعدها.

(2) عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، ص185.

(3) عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(4)إدلارد أوف باث (463-530هـ/1070-1135م) Adelard Of Bath ولد في مدينة باث ونسب إليها، وانخرط في سلك الرهبنة البندكية، وطلب العلم في تور والأندلس وصقلية، وعند عودته إلى إنجلترا عين معلماً للأمير هنري الذي أصبح فيما بعد الملك هنري الثاني، واشتهر باختباره سرعة الضوء والصوت". نجيب العقيقي: المرجع السابق، ج2، ص111-112.

(5)دانيال أوف مورلي: أشتهر بين(566-586هـ /1170-1190م) Daniel Of Morley درس في أوكسفورد وباريس و لم يكن راضيا عن جامعات الغرب فقصد الأندلس، وطلب من أحد نصارى طليطلة المدعو غالب ترجمة المجسطي لبطليموس (1197م) ثم عاد إلى إنجلترا بمجموعة كبيرة من المصنفات النفيسة وألف كتابا بعنوان الطبيعة السفلية والعلوية". نجيب العقيقي: المرجع السابق، ج2، ص114-115.

فَيُروى عنه أنه جاب معظم البلاد الإسلامية وزار أكابر حواضرها العلمية آن ذاك وبخاصة الأندلسية، كما كانت له زيارات لأكابر مدن العلم بالغرب مثل روما وصقلية، وقام بترجمات لأهم الكتب التي كانت متداولة في عصره والمتعلقة منها خاصة بالرياضيات والفلك، والتي كانت فيما بعد مفاتيح النهضة والقاعدة العلمية عندهم[1].

أسهم كل من إدلارد أوف باث وصاحبه من بعده ميخائيل سكوت بالتعريف بالعلوم العربية والمنهج الذي اتبعه علماء المسلمين في جميع فروع العلم التي كانت سائدة زمانهم سواء في الغرب عامة أو في إنجلترا خاصة، وذلك لما نقلوه من معارف وعلوم، كما كان لهم شرف السبق في هذا الميدان بين بني جلدتهم، فقد مهَّدوا الطريق لمن جاء بعدهم، وذلَّلوا لهم ما استطاعوا من صعوبات وعقبات حتى أنَّه لم يمض وقت طويل حتى برز عندهم علماء رفعوا لواء هذا الموروث خفاقاً.

ففي نهاية القرن 16م/10هـ وبداية القرن 17م/11هـ، ظهر أحد أعمدة هذا الفن المعرفي في إنجلترا وهو وليم بدول[2]الذي استفاد ممن سبقوه، والذي يعده أهل الإستشراق الرائد الأول في الدراسات العربية، وذلك لما قام به من أعمال ولما خلَّفه من إنتاج ولما رسمه كمنهج لهذه الدراسات إذا ما عُلِم أنه كان أستاذ كرسي اللغة العربية وما لحقها من علوم بجامعة كمبريدج[3].

ولذلك فلا غرابة:" أن الدراسات الشرقية عامة والعربية الإسلامية خاصة قد قفزت في بريطانيا مع ظهور هؤلاء الرواد إلى آفاق واسعة وأخرجت عددا ضخما من علماء الإستشراق تفخر بريطانيا بانتمائهم إليها"[4].

---

(1) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الإستشراق، ص61.

(2) وليم أهلورد فلهلم آلفرت بدول (968-1041هـ/1561-1632م) William Bedwell مستشرق إنجليزي، ينعته الانجليز بأبي الدراسات العربية، ويعده الأوروبيون من المستعربين،كان يقول عن العربية: إنها لغة الدين الفريدة، وإنها أعظم لغة للسياسة، من الجزائر السعيدة إلى بحر الصين. وهو أول من نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الانجليزية، له معجم عربي في سبعة مجلدات، قال الدكتور برنارد لويس: لم ينشر لسوء الحظ. وبين مؤلفاته المطبوعة في انجلترة نصوص عربية ومعجم للمفردات العربية المستعملة في اللغات الغربية من العصر البيزنطي إلى أيامه. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج8 ص 123.

(3) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الإستشراق، ص62.

(4) أحمد سمايلوفتش: المرجع السابق، ص62 وما بعدها.

وهكذا استمر ازدهار الإستشراق في إنجلترا حيث خصصت له الكراسي العلمية الواحد تلو الآخر، وأنفقت عليه من الوقت والمال الشيء الكثير، وهيأت له من الرجال الذين حملوا على عاتقهم هذا الحمل الثقيل العدد الكبير، حتى غدت المدرسة الإنجليزية من المدارس الرائدة في هذا المجال، وغدا الإستشراق مذهبا علمياً، وإلى مثل هذا أشار العقيقي في معرض حديثه عن الإستشراق في إنجلترا قائلا:" وهكذا انتهى تطور الإستشراق إلى هذا المذهب العلمي الذي استمر من مطلع القرن التاسع عشر حتى اليوم، وإنما يفهم من المذهب العلمي التخصيص لا التعميم"[1].

وخلاصة لِمَا تَم بَسْطه عموماً حول نشأة الإستشراق فيمكن القول بأن الإستشراق حقيقة قد كانت له الأندلس مهدا للميلاد والاحتضان، وكان القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، تاريخ إرهاصات ميلاده ثم ما لبث أن شب وكبر بين أحضان الكنيسة التي أولته الرعاية والعناية الكافيتين، مع ما قدمته من تشجيع للقائمين به وعليه، مع ما صاحبه من تبلور وتغيّر في المواقف والاتجاهات بحسب ما اقتضته مراحله التي مرَّ بها، والبلدان الغربية التي اهتمت به وشغلت أبناءها به وحثتهم عليه، حتى صار المصطلح واضحاً له مدلوله الخاص به لِعِلم بعينه فيما بعد[2].

(1) موسوعة المستشرقين، مصدر سابق، ج2، ص9.

(2) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الإستشراق، ص62.

المبحث الثالث: دوافع الإستشراق.

شاءت الأقدار أن تجعل في أصل الخِلقة الشعوب والقبائل، واقتضت الحكمة في ذلك أن يتعارفوا فيما بينهم مهما بعُدت عليهم الأقطار والأمصار، وجعلت مصالحهم متداخلة ليأخذ الأدنى بيد أخيه الأقصى ما دعاه إلى ذلك داع.

وجُعِل معيار التكريم والتفضيل بين بني البشر بما يقدِّمونه لجنسهم من أعمال صالحة تفيد الشخص الواحد كما تفيد الجماعة كلها، مصداقاً لقول الحق سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[الحجرات:13].

وإذا ما ضلَّت بالإنسان السُبل وتفرقت به، تاهَ الطريق وتنكَّبها، وتشتت عليه الغايات حتى يغدو حاطب ليل في كل ما يأتي وما يذر، وما يعدو بعد ذلك أن يكون إلا ظالم لنفسه ولغيره ظلماً مبيناً.

وهذا بالتحديد ما وقع للغرب وأهله، فقد تنكبوا الطريق وتفرَّقت بهم السبل، لما حرَّفوا ما استؤمنوا عليه من كتاب أو أخذوه في أصله محرَّفا فتشبثوا به كما هو، حتى ظهر أمر الله على يد العرب المسلمين الذين شكلوا خطرا حقيقياً على الوجود الغربي في حدوده الجغرافية وعلى ما تمثل به الغرب من عقيدة منحرفة.

فاندفعت شعوب الغرب إلى هذا الوافد الجديد في بادئ أمرها يستظلون تحت ظل عدالته ورعايته ومبادئه، ثم ما لبثوا أن انفكوا عنه، ثم ما لبثوا أن ناصبوه العداء والحرب، فاندفعوا إليه اندفاع الغريم إلى غريمه.

وقد تفرق الباحثون في أصل الدوافع هذه من غربيين وغيرهم إلى مذاهب وفرق كل يدَّعي صحة ما عنده، وما توصَّل إليه من خلال منطلقاته التي ارتكز عليها، وحتى عدد ومجموع هذه الدوافع قد اختلفوا ما بين مقلٍّ ومُكْثر؛ بل إن البعض من الدارسين مَن التبس عليه الأمر فيها فخلط الدوافع مع الأهداف والغايات، وما استطاع أن يفرق بينها جميعاً.

ومن خلال التراكم المعرفي في هذا الميدان تحديداً، فقد وقف الباحثون فيه على مجموعة من الدوافع البيِّنة والتي يمكن أن تكون دوافع حقيقية لنشأة الإستشراق وساعدت على تطوره وبلورته على الشكل الذي أصبح عليه اليوم، ومن جملة تلك الدوافع ما يلي:

المطلب الأول: الدافع الديني.

لقد شكل الدافع الديني الركيزة الأساسية في مجموع الدوافع كلها، وذلك للاهتمام البالغ الذي أولاه المشتغلون بهذا الميدان بكل ما له علاقة بالدين من علوم اللغة وعلوم الدين والتاريخ والسير؛ وفي هذا يقول أحدهم:" والسبب الرئيس المباشر الذي دعا الأوروبيين إلى الإستشراق هو سبب ديني في الدرجة الأولى"[1]؛ ويقول غيره:" لا نحتاج إلى استنتاج وجهد في البحث لنتعرف إلى الدافع الأول للإستشراق عند الغربيين وهو الدافع الديني"[2].

ولعلَّ أحد الأسباب الأساسية التي جعلت دافع الدين يتصدر الدوافع كلها، هو ذلك الخوف الذي طبع على قلوب الرهبان بعدما لمسوا واقعياً تحول الكثير من النصارى من دينهم إلى الإسلام، ثم ما عايشوه كضغط نفسيٍ وعقليٍ لَّما أصبحت كتبهم لا تجيب ولا تستجيب لما يطرحه السائلون حول العقيدة المسيحية ومصيرها، ما دفعهم إلى القيام بالحركة التصحيحية للنصرانية أولاً وهي ما يطلق عليها عندهم بحركة التصحيح الديني، ثم ما صاحب ذلك من رغبة في نشر النصرانية بين المسلمين ثانيا، وكان لزاماً عليهم إعداد الدعاة لهذه الرغبة، مع ما صاحب كل ذلك من تمويل مالي ودعم روحي، وأخيراً وليس آخراً وهو الرغبة في الانتقام والتشفي من الإسلام وكتابه ونبيه ﷺ وكل ما هو مقدس عند المسلمين.

وقد يكفينا مؤونة السؤال عن هذا الدافع والخوض فيه، أحد الغربيين حين تساءل عن الإستشراق ونزعة نشوءه في التاريخ فأجاب من غير تلعثم ولا تردد:" وحين نسأل التاريخ عن حركة الإستشراق والتبشير كيف نشأت؟ يلقانا جوابه الصريح بأنها قامت أول ما قامت في رعاية الكنيسة الكاثوليكية للإشراف المباشر من كبار أحبارها"[3].

---

(1) محمد البهي: الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص43.

(2) مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص15-16.

(3) أحمد سمايلوفتش: المرجع السابق، ص49. الهامش رقم 2، نقلا عن عائشة عبد الرحمن، تراثنا بين ماض وحاضر، معهد البحوث والدراسات العربية، ص52.

ومراجعة خفيفة وإطلالة سريعة على قائمة المشتغلين الأوائل بهذا الميدان الفكري بالغرب، تكشف لنا أن القائمة تَعُجُّ بأسماء رجال الدين والكنيسة بدءً بجربير ثم بطرس المبجل والقائمة طويلة، وأنهم قد استشرفوا مستقبلهم ومستقبل أجيالهم وأوطانهم من خلال هذا العلم، وبقت النظرة الكنسية هي السائدة في جميع مراحل الإستشراق التي مرَّ بها إلى وقتنا الحاضر، رغم خفة حدَّتها في بعض الأحيان غير أن الظلال الكنسية دائمة الوجود ووارفة السدول، علمها وتفطَّن لها من خَبِرها، وغابت عن كل قاصر نظر وإدراك.

وتأكيدا لهذا المعنى يقول رودي بارت:" حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعا ما كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للمسيحية لا يمكن أن يكون فيه خير، وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا تلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل، وكانوا يتلقفون منهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام"[1].

المطلب الثاني: الدافع العلمي.

أصيب العالم الغربي في فترة من فترات تاريخه بالدهشة والانبهار، وذلك بعد دخول المسلمين أرضه غرباً ثم جنوباً وأخيرا من الناحية الشرقية، والسبب في ذلك أن الوافدين الجدد قد جاءوا بنظام واقعي عام وشامل للحياة، لم تكن صورة هذا النظام تخطر ببال أحد من الغربيين أو حتى ترتسم في عالم المثل عنده.

ثم ما لبثوا أن استفاقوا فجعلوا يقلِّدون مَن حولهم لأنهم وجدوا فيهم النموذج والقدوة وعلموا يقيناً أن حياتهم لن تستقيم حتى يقيموها على الأسس التي بَنَى بها وعليها الوافدون حياتهم، فطفقوا يهرعون إلى المعين الذي لا ينضب عند الوافدين وهو العلم.

---

(1) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية، مرجع سابق، ص9-10.

وقد شهد الغرب على ذلك، على لسان أحدهم وهو ألفارو القرطبي المسيحي[1] الذي كان أحد المحرضين على التواجد الإسلامي بالأندلس والمناوئ لحكم المسلمين، وإن كان في قوله إطالة ولكنها شهادة حق، فيقول:" يطرب إخواني المسيحيون بأشعار العرب وقصصهم، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها، بل للحصول على أسلوب عربي صحيح رشيق، فأين تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذي يدرس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل؟ وا أسفاه ! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب، ليسوا على علم بأي أدب ولا أية لغة غير العربية، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب. وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون في زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم، فوا حَرَّ قلباه! لقد نسي المسيحيون لغتهم، ولا يكاد يوجد منهم واحد في الألف قادر على إنشاء رسالة إلى صديق بلاتينية مستقيمة! ولكن إذا استدعى الأمر كتابة العربية فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه في تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة، بل لقد يقرضون من الشعر ما يفوق في صحة نظمه شعر العرب أنفسهم"[2]

فقد أقبلوا على العلم بنهمٍ وشغف وانكبوا يقلِّبون الكتب والصحائف حتى بلغ كل واحد منهم إلى منتهى القصد الذي برمجه والغاية التي رسمها، وأغلب هؤلاء الذين دفع بهم الإستشراق إلى البحث النزيه خرجوا من ربقته في آخر المطاف منددين به وناقدين له، ودخل البعض منهم ربوع الإسلام – وإن كانوا في الغالب قلة– يتفيَّؤون ظلاله، أقرَّ منهم بذلك مَن أقرَّ، أو كتمه مَن لم يستطع البَوح به لظروف محيطه.

وإذا كانت البعثات العلمية اليوم تشُد رحالها باتجاه الغرب للجلوس على طاولة البحث والمساءلة هناك، فإن التاريخ يحدِّثنا عن فترة قريبة، كان الاتجاه فيها معاكساً، وأن البعثات العلمية

---

(1) الفارو القرطبي(ق3هـ/ق9م) Le Cardouan Alvaro واحد من أنشط أبطال المقاومة ضد الإسلام في شبه الجزيرة[الإيبيرية] في القرن التاسع. للمزيد حول مقاومته للإسلام في الأندلس ومبادئ حركته ينظر: ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، تحقيق: ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة بيروت،[د ت ط] ص 80 وما بعدها.

(2) جوستاف فون جرينباوم: حضارة الإسلام، ترجمة: توفيق عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1997م، ص 81-82.

كانت تشد رحالها من الغرب نحو حواضر الشرق ومراكز العلوم بالأندلس، للتعلم واكتساب المنهج، حتى قال بعضهم:" إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين لهم بوجوده نفسه. فالعالم القديم-كما رأينا- لم يكن للعلم فيه وجود، وقد نظم اليونان المذاهب وعمَّموا الأحكام ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني، أما ما ندعوه "العلم" فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوروبي"[1]

وبدأ الدافع العلمي يأتي بثماره الأولى وكانت أن بدأت أوروبا ممثلة في مؤسسة الكنيسة ببناء المراكز العلمية، وكان أولها بمدينة طليطلة عام 648هـ/1250م بدير كلوني، ثم ما فتأت الكنيسة ولأهمية هذا الهدف أن أقامت مَجْمعاً دينياً رسمياً ومقدَّساً أقرَّت فيه الطابع الجماعي لهذا العمل وهو مجمع فيينا سنة 712هـ/1312م، وذلك تبعاً للتقرير الذي قام به وأعدَّه ريموند لول أو لل[2]والذي يدعو فيه:" إلى إنشاء عدة مراكز لتعليم العربية والسريانية والعبرية في جامعات أوروبية مشهورة منها أوكسفورد وباريس تحت رعاية الكنيسة الكاثوليكية"[3].

والجدير بالإشارة أن ريموند لول قد جاء بخطة شاملة وجامعة لم يقتصر فيها فقط على إنشاء المراكز التعليمية والاهتمام بالإستشراق كعلم، بل جعلها قاعدة لكل غربي متعصب لدينه متحمسٍ للقضاء على السراسنة (أي المسلمين) نهائياً بحيث لا يُبْقي لهم ذكراً ولا أثراً في التاريخ ولا لدينهم، ومبشراً بالنفوذ الكنسي:" لتحقيق ثلاثة أهداف مترابطة ومتداخلة وذلك بالتوسل بما يأتي:

---

(1) محمد قطب: واقعنا المعاصر، دار الشروق القاهرة، ط1، 1418هـ/1997م، ص84.

(2) ريموند لول أو لل (633-715هـ/1235-1315م) راهب فرنسيسكاني، مارس التنصير في شمال إفريقيا، يعدُّ أخطر المنصرين وأشهرهم على الإطلاق على مرّ التاريخ حتى أن المنصّر زويمر اعتبره أستاذه وقدوته، وخططه التي وضعها للتنصير تعدُّ هي النموذج والدستور الذي سار عليه المنصرون بعد كالتعليم والتدريس والتدريب والتطبيب وأعمال الإغاثة، وله مؤلفات بالعربية. علي بن محمد عودة الغامدي: الراهب الفرنسيسكاني ريموند لول ومحاولاته نشر النصرانية في شمال إفريقية، مجلة المؤرخ العربي القاهرة، مج1 ع6، مارس 1998م، ص 133-168.

(3) فاروق عمر فوزي: الإستشراق والتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص33.

1- وجوب إقامة مراكز تخصصية تأخذ على عاتقها مسؤولية دراسة الأديان واللغات يتفرغ للعمل فيها أهل النباهة والفطنة رجاء نشر تعاليم الدين المسيحي بين الأقوام والشعوب الخاضعة للسيادة العربية.

2- ثم العمل من أجل توحيد نظم الرهبنة والإرساليات والفرسان لتتعاضد الجهود من أجل استرجاع القدس من السيطرة الإسلامية.

3- وأخيرا ضرورة قيام الفكر الديني-الفلسفي بدراسة موسعة لآراء ابن رشد وفلسفته المناهضة لتعاليم المسيحية، بغية الاحتجاج على فسادها وبيان مخالفتها لتعاليم الدين المسيحي. وقد لخص كل طموحه وتنبؤاته المستقبلية في عبارة جامعة ووجيزة قائلا: إذا تمكنا من إعادة أتباع الكنيسة النسطورية المنشقين إلى رحاب الكثلكة وبشرنا بالإنجيل بين التتار وهديناهم إلى نور المسيحية تحققت لنا إمكانات القضاء المبرم والأكيد على العرب [السراسنة]" [1].

وبإنشاء هذه المراكز العلمية المتخصصة أصبحت الدراسات أكثر تركيزا وما صاحب هذه الدراسات من حملات التشويه لكل مقدَّس في الإسلام، حتى تركَّزت كذلك تلك الصورة النمطية التي رسمتها الكنيسة عن الإسلام عامة، وبقت تلك الصورة حاضرة في كل عمل إستشراقي حتى يومنا هذا، وتلقي بظلالها سواء كان ذلك بوعي أو بغير وعي [2].

المطلب الثالث: الدافع الاقتصادي.

يعد هذا الدافع من بين الدوافع الكبيرة التي أزَّت بالإستشراق أزًّا لتنشيط حركته وجعله يتصدر المجالس الخاصة والعامة على السواء في الغرب؛ وقد كان سبب ظهور هذا الدافع في الحركة الإستشراقية تلك التصريحات الدينية الكنسية والصادرة خاصة من بابا الفاتكان أوربان الثاني[3] واضع القاعدة الأساس للحروب الصليبية.

---

(1) عرفان عبد الحميد فتاح: دراسات في الفكر، ص118.

(2) للمزيد حول هذه الفكرة، وكيف هو نشاط الكنيسة والمراكز الدراسية لترسيخ الفكرة النمطية حول الإسلام، ينظر: محمد كامل عبد الصمد: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط1، 1416هـ/1995م، ج1 ص15 ومابعدها.

(3) أوربان الثاني(481-493هـ/1088-1099م) من أكبر الباباوات المصلحين في القرن 5هـ/11م، ذلك أن إصلاحاته بعيدة المدى الإدارية، القضائية والمالية أعادت للبابوية سلطتها وفاعليتها بعد الانكسار الذي حاق بها بعد بابوية جريجوري السابع (466-478هـ/1073-1085م) وقد استدعى مجمع كليرمون ليواصل عملية الإصلاح الكنسي،

حيث رغَّب هذا الأخير في أرض المشرق، وهي مهد النصرانية الأولى، واصفاً إياها بأنها أرض الخيرات والبركات فهي تدر لبنًا وعسلاً، مع ما فيها من خير وفير كمواد خام حتى قيل عنها وفيها:" لقد كان من أهداف الحروب الصليبية الاستيلاء على تلك البلاد المليئة بالخيرات والكنوز ولقد هزموا هزيمة نكراء على يد صلاح الدين الأيوبي[1] وجيوشه غير أن النعرة الدينية في الغرب لم تعد كافية لإثارة الحروب ضد الإسلام والتغلب على المسلمين، فالحروب الصليبية أنهكت قوى الغرب البشرية والمالية، وأن قوى الصليبيين في الشرق أخذت في الانهيار ومات في قلب الصليبي ذلك الحافز الروحي وتبدّل بحوافز مادية لا تتصل بالروح وإنما تتصل بالغنائم والأسلاب"[2].

فهبَّ التجار من كل حدب من أوروبا واستجابوا لهذه النداءات وما تحمله في طياتها من إغراءات، فكانت إيطاليا الحالية وما تابعها، المستجيب الأول لأنها عاصمة النصرانية، وكانت مدينة البندقية تمثل همزة الوصل التجاري وانفردت في بادئ الأمر بالعلاقات مع الشرق، وكمثال على ذلك معاهدة عام 664هـ/1265م والتي أقامتها مدينة بيزا الإيطالية مع مدينة تونس والتي

وكانت هذه أول دعوة للحروب الصليبية. قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق تاريخية، عين للدراسات والبحوث القاهرة، ط1، 2001م، ص 73 وما بعدها.

(1) صلاح الدين الأيوبي (532-589هـ/1137-1193م) يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر،الملقب بالملك الناصر من أشهر ملوك الاسلام،كان أبوه وأهله من قرية دوين (في شرقي أذربيجان) وهم بطن من الروادية، من قبيلة الهذانية، من الاكراد. نزلوا بتكريت، وولد بها صلاح الدين، وتوفي فيها جده شاذي. ثم ولي أبوه أيوب أعمالا في بغداد والموصل ودمشق. ونشأ هو في دمشق، وتفقه وتأدب وروى الحديث بها وبمصر والاسكندرية، وحدث في القدس. ودخل مع أبيه نجم الدين وعمه شيركوه في خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب دمشق وحلب والموصل واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر سنة 559هـ/1163م فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين العسكرية. ودانت لصلاح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوبا وبرقة غربا إلى بلاد الارمن شمالا، وبلاد الجزيرة والموصل شرقا. وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي"يوم حطين"الذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت، ثم افتتاح القدس(سنة 583هـ/1187م) ووقائع على أبواب صور، فدفاع مجيد عن عكا انتهى بخروجها من يده (سنة 587هـ/1191م) بعد أن اجتمع لحربه ملكا فرنسا وانجلترا بجيشيهما وأسطوليهما. وأخيرا عقد الصلح بينه وبين كبير الفرنج ريكارد[كذا] قلب الاسد Richard Coeur de Lion ملك انجلترا على أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا إلى يافا، وأن يسمح لحجاجهم بزيارة بيت القدس وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من أولها إلى الجنوب لصلاح الدين. وعاد"ريكارد" إلى بلاده، وانصرف صلاح الدين من القدس، بعد أن بنى فيها مدارس ومستشفيات، ومكث في دمشق مدة قصيرة انتهت بوفاته. الزركلي: الأعلام، ج8 ص 220.

(2) عبد الرحمن عميرة: الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الإستشراق، دار الجيل بيروت[د ت ط] ص96.

تمَّ تحريرها باللغة العربية ثم ما لبث أن:" اتجه التجار وأرباب الاقتصاد إلى المستشرقين يبعثونهم إلى الشرق ويستعينون بهم في طَرْق أبوابه، فَخَدم الإستشراق الناحية الاقتصادية خدمة عظيمة"[1].

ثم ما فتأت أن لحقت بها بقية الدول الأخرى ومدنها، فكان لفرنسا النصيب الأوفر بعدها، فقد بذلت الشيء الكثير للحصول على هذه الخيرات والمواد الخام، وما صاحب ذلك من دراسات جغرافية ومحاولات استكشافية على شكل بعثات:" وتأثرت فرنسا بتجارة الشرق، واتصلت بلبنان بمرفأ مرسيليا التجاري وكانت فرنسا تستورد منه الحرير والنبيذ والأخشاب، وطاب للفرنسيين أن يستخرجوا كنوز الشرق، فألَّفوا بعثة برياسة شارينتييه عام 1076هـ/1665م، وكان جلُّ أعضائها من المجمع العلمي لِجَوْب الشرق ودراسته"[2].

ثم تابعت فرنسا حملاتها الاستكشافية الإستشراقية على الشرق وخيراته الاقتصادية، حيث كانت سنة 1212هـ/1797م، أين جاءت الحملة المنظمة التي قادها نابليون بونابرت[3] على مصر كمدخلٍ للشرق كله.

وكانت فيها بعثته العلمية التي كان مجموعها من المستشرقين والمترجمين والجغرافيين، ولم يكتف بمن جاء بهم معه بل استعان ببعض المسيحيين من أهل الشام:" مثل الأب روفائيل الراهب[4]

---

(1) علي إبراهيم النملة: كنه الإستشراق، مناقشات في التعريف والنشأة والدوافع والأهداف، بحث ضمن كتاب دراسات إستشراقية وحضارية، مركز الدراسات الإستشراقية والحضارية، المدينة المنورة، 1993م، ص43.

(2) عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، ص76.

(3) نابليون بونابرت(1183-1237هـ/1769-1821م) قائد عسكري غزت قواته الفرنسية أراضي مصر عام1213هـ/1798م ونجحت في هزيمة قوات المماليك الذين كانوا يحكمون معظم أقاليم مصر تحت راية الدولة العثمانية في معركة الأهرامات اصطحب نابليون معه نخبة من العلماء الفرنسيين الذين أجروا دراسات عديدة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر وآثارها القديمة وغادر نابليون مصر عائدًا إلى فرنسا عام 1214هـ/ 1799م تاركًا قواته فيها إلا أن مقاومة أهل مصر للعدوان وانتشار الأمراض بين القوات الفرنسية أدت في النهاية إلى فشل الحملة الفرنسية على مصر وانسحابها عام1216هـ/1801م. الموسوعة العربية العالمية، ج25 ص9-11.

(4) روفائيل، القس رافاييل (1171-1247هـ/1758-1831م) أنطون زخورة من طائفة الروم الكاثوليك مترجم من الرهبان سوري الاصل، من أهل حلب ولد بالقاهرة، وتعلم اللاهوت في رومة فسمي الاب رافاييل ويسمى روفائيل زخورة و رافائيل أنطوان زخور و روفائيل دي موناكيس خدم الحملة الفرنسية في مصر بالترجمة وأقام مدة في باريس مدرسا للعربية، واتصل بمحمد علي الكبير فجعله ناظرا لمطبعة بولاق ثم اختير للترجمة في مدرسة الطب وتوفي بالقاهرة وكان العضو الشرقي الوحيد في المجمع العلمي الذي أنشأه نابليون في القاهرة. الزركلي: الأعلام، ج 2 ص 28.

المخلص لهم وميخائيل الصباغ[1] ونقولا الترك[2]"[3]؛ فجمعوا كل ما استطاعوا وما وصلت إليه أيديهم من تراث معرفي مخطوط سواء كان ذلك بالأزهر أو بغيره من المعاهد أو حتى بالمكتبات الخاصة، بعدما عاثوا في مصر فساداً وأهلكوا الحرث والنسل، "وكانت هذه الحملة آخر الحلقات التي اتصل بها الغرب بالشرق اتصالاً لم ينفصم من بعدها، وكان من أثرها انتشار الثقافة الغربية في الشرق، وازدهار الإستشراق في الغرب"[4].

المطلب الرابع: الدافع الاستعماري.

يرتبط الدافع الاستعماري ارتباطاً وثيقاً بالدافع الاقتصادي، وذلك كون الأخير بوابة كبرى للأول.فالمبشرون والجغرافيون والحجاج إلى بيت المقدس من المسيحيين والمسترزقون من الإستشراق في أوروبا كلها والذين صاحبوا الحملات التي قصدت المشرق سواء كانت قبل الحروب الصليبية أو أثناءها أو بعدها، كانوا كلهم خدماً للحركة الجديدة التي اصطلح على تسميتها بالاستعمار.

فبعدما اكتشفوا الطرق البرية والبحرية، وبعدما اكتشفوا كذلك المخزون العلمي الذي سرقوه من بلاد العرب والمسلمين والذي كان لهم خير معتمد في دراساتهم، مع تنسيق الجهود مع بعض الأطراف العميلة والهدَّامة في داخل الدول العربية والإسلامية، وما صاحب كل ذلك من كرهٍ وبغض للشرق وأهله ما ساعد على ظهور الدافع الاستعماري.

فقد عمل ذلك الحشد الكبير من المستشرقين كفريق واحد تحت الوصاية الكاملة لوزارات الخارجية والحربية لدولهم وكمستشارين لرسم استراتيجيات وآفاق المستقبل للعلاقات التي تقيمها

---

(1)الصباغ (1189-1232هـ/1775-1816م) ميخائيل بن نقولا بن إبراهيم الصباغ باحث من الكاثوليك له اشتغال بالتاريخ ولد في عكا بفلسطين وتعلم بمصر ومات بباريس. الزركلي: الأعلام، ج7 ص338.

(2) نقولا الترك (1176-1244هـ /1763-1828م) نقولا بن يوسف الترك، ويقال له الاسطمبولي شاعر له عناية بالتاريخ أصله من بلاد الترك، من أسرة يونانية، ومولده ووفاته في دير القمر بلبنان سافر إلى مصر واستخدم كاتبا في حملة نابليون الاول. وعاد إلى لبنان، فخدم الامير بشيرا الشهابي. وله في مدحه قصائد. وعمي في أواخر أعوامه، فكان يملي ما ينظمه على ابنته وردة. من كتبه تاريخ نابليون، ومذكرات وديوان شعر وحوادث الزمان في جبل لبنان. الزركلي: الأعلام ج 8 ص47.

(3) عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، 76.

(4) عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، ص77.

تلك الدول مع دول الشرق وذلك أنه:" مضى الإستشراق والغزو الاستعماري في طريق واحدة، المستعمر يغزو البلاد والمستشرقون يغزون الفكر والتراث الإسلامي. الاستعمار يحتاج الدعائم الفكرية والروحية التي تمهد له الطريق وتثبت له حكمه، ودلائل ذلك كثيرة في أن الاستعمار الغربي والتبشير والاستشراق فصائل جيش غزاة الغرب للشرق"[1].

وخير مثال للدافع الاستعماري عند المستشرقين هو مثال المستشرق الإنجليزي إدوارد هنري بالمر[2]، الذي قاد حملة إلى مصر ظاهرها الاستكشاف والبحث العلمي وباطنها الترتيب والتهيئة للاستعمار، وقد رافقه في حملته كل من سير هنري جيمس[3]

---

(1) عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، ص87.

(2) بالمر (1256-1299هـ/1840-1882م)إدورد هنري بالمر Edward Henry Palmer مستشرق إنكليزي استعماري ولد وتعلم في كمبردج وأرسل إلى مصر في بعثة ارتادت شبه جزيرة سيناء سنة 1869م، ثم دخل صحراء التيه وطاف بها ماشيا، فاتصل بالبدو، ودرس لهجاتهم وعاداتهم، وعرف بينهم باسم (عبد الله افندي) وزار لبنان ودمشق وعاد إلى كمبردج، فعين أستاذا للعربية في جامعتها ووضع لما فيها من المخطوطات العربية والتركية والفارسية (فهارس) بالانكليزية وتركها واشتغل بالصحافة فالمحاماة وكان يكتب وينظم بالعربية والفارسية وترجم إلى العربية طائفة من الشعر الانكليزي ونشر ديوان البهاء زهير مع ترجمته إلى الانكليزية ونشر من تأليفه بلغته كتابا في ترجمة القرآن وآخر في سيرة هارون الرشيد و ترجمة لقصائد عربية وفارسية وكتابا في قواعد اللغة العربية و معجما للفارسية ولما قامت الثورة العرابية بمصر سنة1300هـ/ 1882 م، خشيت الحكومة البريطانية أن يمتد لهبها إلى السويس، فتعطل القناة فوجهت صاحب الترجمة إلى غزة فالسويس، فاتصل ببعض مشايخ البدو ومنحهم بدرا من الذهب. وتقول دائرة المعارف البريطانية إنه نجح في مهمته نجاحا كبيرا ثم عين رئيسا لمترجمي القوة الانكليزية المحاربة في مصر، وأرسل من السويس ومعه اثنان من زملائه لرشوة البدو بشراء جمال منهم، وكانت روح الثورة قد انتشرت، فكمن له أشخاص قيل إنهم من البدو، فقتلوه ومن معه واكتشفت جثثهم بعد الثورة فنقلت إلى انكلترة ودفنت في كنيسة القديس بولس. الزركلي: الأعلام، ج1 ص284.

(3) سير جيمس هنري (1259-1335هـ/1843-1916م) من أشهر الكتاب الأمريكيين استطاع أن يبتدع في قصصه القصيرة ورواياته شخصيات ذات عقد نفسية كبيرة، ولد جيمس في مدينة نيويورك من عائلة ثرية وبارزة في مجال الفكر وكان والده فيلسوفًا دينيًا وصديقًا لكبار المفكرين في القرن التاسع عشر الميلادي وقدم والد جيمس لأبنائه الخمسة تعليمًا غير عادي، تضمن زيارات طويلة إلى أوروبا غادر جيمس أمريكا إلى أوروبا، وهو في الثلاثين من عمره، لاعتقاده بأن المجتمعات الأوروبية بحكم أقدميتها وتعقيداتها الاجتماعية يمكن أن تقدم له مادة خصبة يستفيد منها في رواياته وصادق في باريس أشهر الكتاب الأوروبيين، ومنهم جوستاف فلوبير، وإيفان تورجنيف، وإميل زولا ثم استقر جيمس عام 1876م في إنجلترا وصار موضوعًا بريطانيًا في عام 1915م لمناصرته بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى. الموسوعة العربية العالمية: ج 8، ص 681-682.

والكابتن تشارلز ولسون[1] فقام بمسح طرق صحراء سيناء والطريق الموصل إلى سوريا ثم ما لبث أن زار تركيا فرسم طريقها وقيَّد كل ملاحظاته حول عادات وسكان المناطق التي زارها فاستغلت الدوائر العسكرية والاستعمارية كل تلك المعلومات والتقارير ووظفتهم لاحتلال مصر. وهكذا كان بالمر العالم المستشرق نعم العميل للاستعمار البريطاني في الشرق.

وإن دولهم قد كافأتهم على تلك المجهودات المبذولة فقدمت لهم كل الدعم الذي يحتاجونه، بأن طورت من علمهم ورعته وموّلته واهتمت به اهتماماً بالغاً، بل إنَّ البعض منهم من أنشأت لهم معاهد ومدارس ومراكز متخصصة لهذا الغرض وينالون من الحظوة الكبرى الشيء الكثير عند رؤساء دولهم ووزرائها، وينشرون لهم آراءهم ويبثونها بكل الوسائل والطرق ويمنحونهم كل ألقاب الشرف وأوسمة العرفان[2].

والحقيقة الغائبة، عن كثير ممن يطالع أو يدرس أو حتى يكتب عن الإستشراق ومدى تنامي منحنى هذه الحركة الفكرية، هي مدى سماحة الإسلام واتساع رقعة هذه السماحة لتشمل البشرية عامة وكافة المشتغلين بهذا التوجه الفكري خاصة، وحِرْص المسلمين كافة حكاماً كانوا أم محكومين على التطبيق الواقعي والميداني لهذه الصفة.

ومثال واحد كفيل بإيضاح هذه الحقيقة الغائبة وبالصورة الملموسة في واقع المسلمين دون الرجوع إلى الرعيل الأول ممن تربوا على أيدي رسول الله ﷺ؛ بل للزمان القريب منا فقصة قدوم

---

(1) تشارلز ولسون(لم أقف على تاريخ ولادته ولا وفاته) غير أن المراجع حين ذكره قد أولت اهتماماً كبيراً للدور الذي قام به في الاكتشافات التي مولتها مؤسسة فلسطين للاكتشافات(Palestine Exploration Fund)، وهي مؤسسة بريطانية إجتماعية لاكتشاف الآماكن المقدّسة بفلسطين، وقد تأسست هذه المؤسسة عام 1281هـ/1865م تحت وصاية الملكة فكتوريا. قام ولسون مع كوندر باستكشاف المنطقة الغربية للأردن وكان ذلك ما بين 1874م إلى 1882م، وكان حصيلة عملهم ذلك 26 خريطة ومجموعة مذكّرات بلغت خمسة(05) أجزاء، كما قام ولسون بمسح العديد من المناطق ووصف الكثير من المنشآت العمرانية في المنطقة الغربية للأردن وكذا بالقدس وفلسطين على وجه العموم. وللمزيد حول ما قام به ولسون ينظر:

Encyclopaedia Judaica, Tomson Gale, N.Y, USA, 2nd ed, 2007, Vol 2 p377,Vol15 p589, Vol 21 p77.

(2) للوقوف على حقيقة هؤلاء وخاصة الإنجليز منهم يرجى الرجوع إلى بعض الأسماء كعيِّنات مع الترجمة الموسعة لها عند العقيقي في كتابه المستشرقون: "فرانسيس جلادوين" ج2، ص49. "وليام ناسو ليز" ج2 ص61. "كوندر" ج2 ص72. "فيلوت" ج2 ص80. "لورانس" ج 2 ص116.

القديس فرنسيس[1]على السلطان الملك الكامل محمد[2]حاكم مصر أثناء الحروب الصليبية، وطلبه من الحاكم أن يأذن له بالإقامة وبالتبشير بمحاسن المسيحية بين الجيش الإسلامي والحرب قائمة خير دليل، فأذن له السلطان، وأكرمه وأجزل له الوفادة، وقام القسيس بين الجيش أياما ولياليَ يدعو ويبشر فما وجد من يجيب دعاواه ولا من يصدِّق أكاذيبه وأراجيفه، فرجع قافلاً إلى معسكر الصليبيين خائباً وحاول إقناع الجيش الصليبي بالعدول عن الحرب والرجوع إلى أوروبا غير أن مساعيه كلها باءت بالفشل، فرجع إلى بيت المقدس وأقام بها وأقام فيها سدانة بكنيسة القيامة للفرانسيسكان[3].

المطلب الخامس: الدافع السياسي.

مثلما وُجدت رابطة قوية بين الدافع الاقتصادي والاستعماري، هي ذات الرابطة بين الدافع الاستعماري والسياسي بل قد تزيد متانة وترابطاً بينهما، إذا ما عُلِم واقعيا أن الدافع الاستعماري قد توقف ظاهرياً مع الاستعمار التقليدي للدول والبلدان العربية والإسلامية، إلا أن الدافع السياسي للإستشراق لا يزال قائماً وفعالاً، كيف ذلك؟

لم تتوقف الدول الغربية المستعمرة للشرق عن مدِّ علاقاتها مع مستعمراتها القديمة والحديثة يوما واحداً، ولازالت مصالحها السياسية والاقتصادية بتلك الربوع قائمة، فلذلك فهي لن تتوقف عن التخطيط لمصالحها تلك ولن تتنازل عنها، وهي في ذلك تستعين بالخبراء والعلماء والباحثين وإن

---

(1) القديس فرنسيس الأسوزي(578-623هـ/1182-1226م) ولد في منطقة أسوزي من عائلة تجارية تلقى تعليمه الأول بين أحضانها كان شغوفا بالسفر، عايش الحروب الصليبية كان من دعاة الحوار والسلم ثم ما لبث أن أسَّس جمعية الإخوة الفرنسيسكان التي تدعو إلى الزهد وحب الطبيعة والحياة. ينظر:

Encyclopedia Universalis, Paris 1996 corpus 9 pp 931-932.

(2)الملك الكامل (576-635 هـ/1180-1238م) محمد بن محمد العادل بن أيوب، أبو المعالي، ناصر الدين: من سلاطين الدولة الأيوبية. ولد بمصر وأعطاه أبوه الديار المصرية، فتولاها مستقلا بعد وفاته وحسنت سياسته فيها. واتجه إلى توسيع نطاق ملكه، فاستولى على حران والرها وسروج والرقة وآمد وحصن كيفا، ثم امتلك الديار الشامية، وتوفي بدمشق، ودفن بقلعتها. وله مواقف مشهورة في الجهاد بدمياط. من آثاره بمصر المدرسة الكاملية. خير الدين الزركلي: الأعلام،ج7 ص28.

(3) للمزيد من الفائدة يرجى مراجعة كل من: محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر بيروت، 1399هـ/ 1979م، م2 ص205 وما بعدها. وساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الإستشراقي، ج1 ص52.

غيَّرت لهم الأسماء وألوان المظلات التي ينضوون تحتها، فهم دائماً المستشرقون، ولن يخرجوا قيد أنملة عن المنهج الإستشراقي الذي وضعه القساوسة والرهبان في سالف عهدهم، ولن يتخلوا عن المهمة المقدَّسة والتي هي هدف في حد ذاته وهي إخراج المسلمين عن دينهم وإدخالهم المسيحية ما وجدوا لذلك سبيلاً.

هذا وما صاحب تلك المهمة المقدَّسة من شعور بالتفوق وخاصة لما استُعْمرت معظم الدول العربية والإسلامية، مع استقدام الدولة العثمانية في فترة من فترات حكمها واستعانتها بالخبراء الغربيين في وضع مناهجها وتسيير مؤسساتها واعتمادها لبعض الممثلين والقناصل الغربيين لديها، وامتلاك الغربيين لناصية العلوم التجريبية والتطبيقية التي أصبحت في عرفها تعني السيطرة والقوة والهيمنة أن:"كان على الإستشراق القديم الضالع مع الاستعمار والقائم على خدمة أهدافه ومقاصده وغاياته أن يهيئ الأسباب النفسية والثقافية التي من شأنها أن تولد عند الشرقيين عامة ميلا للخضوع والخنوع والاستسلام للغرب وتفوقه الحضاري وسموه المادي"[1].

ولأهمية هذا الدافع عند الغربيين ومدى تأثيره في واقع العلاقات بين الغرب والشرق ما دفع الدكتور ساسي سالم الحاج أن يخصِّص مبحثاً مطولاً لهذا الدافع شارحًا له شرحاً مسهباً وختمه – وهو كله حسرة وتأسف – قائلاً:" والذي يهمُّنا من السياق الآنف بيانه أن المستشرقين وهم على هيئة قناصل ورحالة، كانوا يهتمون بالنواحي السياسية والثقافية...وهو أمر بالغ الدلالة والأهمية يشرح لنا الأعمدة الأساسية التي قامت عليها الدراسات الإستشراقية بجانب الأهداف السياسية التي سعت هذه الدول إلى تحقيقها عن طريق رحَّالتها وقناصلها وجلهم من المستشرقين الذين مهَّدوا الأرضية الصالحة للتغلغل الأوروبي المباشر"[2].

وقائمة المستشرقين الغربيين العاملين بالحقل السياسي كبيرة وطويلة، وإذا أخذنا منطقة إنجلترا كعيِّنة وعاينا أصحاب التوجه هذا فيها وجدناهم كُثُر ومثل هذا النطاق لا يتسع لهم جميعاً، وبعض المثال يتضح منه المقال، وأولهم جون سلدن(992-1065هـ/ 1584-1654م) وهو من الساسة المشرِّعين المتقدمين والذي لعب دورا كبيرا في الحياة الاجتماعية الإنجليزية[3]، ومن

---

(1) عرفان عبد الحميد: دراسات في الفكر، مرجع سابق، ص123.

(2) نقد الخطاب الإستشراقي: مرجع سابق، ج1 ص71.

(3) نجيب العقيقي: المستشرقون، ج2 ص40.

المتأخرين وليم موير(1235-1323هـ/1819-1905م) وهو اسكتلندي تميَّز بخدماته الجليلة ورفيعة المستوى التي قدَّمها لإنجلترا وخاصة لما كان منتدباً في الهند، وقد كافأته الحكومة يومها بأن جعلته أميناً لحكومة الهند ثم اختير رئيساً لجامعة أدنبرا في سنوات عمره الأخيرة[1].

وأما المعاصرون العاملون في الحقل السياسي فالكتب والمجلات تعجُّ بأسمائهم وقد أفرد لهم بعض من كتبوا عن هذا التوجه الشيء الكثير[2].

المطلب السادس: الدافع التاريخي.

حتى نستبين سبيل الدافع التاريخي في الإستشراق فلا بأس من مراجعة قليلة وإطلالة خفيفة على الحقب الزمنية التي جمعت المشرق والمغرب ودونت أحداثهما.

فقد شهدت العلاقات بين الشرق والغرب لحظات من الصفاء والود كما شهدت لحظات من الكدر والحقد، وكما جمعت بينها عوامل بناء كانت بينهما كذلك معاول هدم، فالعلاقة بينهما تشتد وتضعف بحسب العامل المؤثر فيها.

غير أنه مؤكد تاريخيا أنه بظهور الإسلام وارتقائه في الساحة العالمية تغيرت وتيرة العلاقات، حيث زحف الإسلام زحفاً شاملاً مخلفاً أثرا بيِّنا في علاقة الشرق الذي يمثِّله هو مع الغرب الذي تبنى المسيحية كمعتقد، وسرعان ما زحف الإسلام كذلك على الحدود الجغرافية التي كانت سيادتها تحت المسيحية واقتطعها منها بل وحتى المعتقدين فيها أصبحوا تبعاً له ومنافحين عنه بعد الفتوحات الشاملة التي شملت الأرض والإنسان[3].

اضطر الغرب وهو مُكره إلى دراسة الوافد الجديد الذي تغلب أصحابه على الفلسفات والمعتقدات التي سادت زمناً طويلاً، وغيَّروا نمط الحياة وأضافوا لها مناهج وأفكاراً غابت حتى عن عباقرة اليونان والرومان من فلاسفة ومؤرخين وأطباء[4].

---

(1) نجيب العقيقي: المرجع السابق، ج2 ص59.

(2) عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، ص 149 وما بعدها.

(3) شاخت وبوزورث: تراث الإسلام القسم الأول، ترجمة محمد زهير السمهوري، سلسلة كتب عالم المعرفة الكويت، شعبان/رمضان1398هـ أغسطس"آب" 1978م، ص82.

(4) محمد قطب: واقعنا المعاصر، مرجع سابق، ص 84 وما بعدها.

غير أن أصحاب النفوس المريضة لا يخلو منهم زمان ولا مكان، وحال بعض الغرب كذلك، فقد تبرَّموا من سيادة الإسلام وحضارته ولغته عليهم، فدرسوه وناهضوه ثم ناجزوه لمـــّا قويت شوكتهم، بل وطاردوه حتى بلغوا حدود عقر الدار التي انطلق منها في سجل حافل بالصدامات الفكرية والحربية والآثار مازالت قائمة لهذه اللحظة[1].

ولذا فلا عجب أن نجد الإستشراق كسبيل معرفي قد وجد طريقه في طيات تلك الحقب التاريخية متلمساً إياها بحسب ظروفه والوقائع التي عايشها القائمون عليه، غير أنه كان في غالب أمره أداة بناء لأصحابه والغرب عامة ومعول هدم للشرق عامة والإسلام بصفة خاصة؛ حتى قال بعضهم:" أن نمو القوة الثقافية في أوروبا جعل البلاطات الشرقية تبدي مزيدا من الاهتمام بالأعداد المتزايدة من الرحالة الأوروبيين الذين كانوا يجلبون معلومات ووصفات عملية مفيدة تتعلق بعدد من النشاطات التي كانت لا تزال محدودة ولكنها كانت تشمل بصورة خاصة العلم العسكري." [2] ثم يستطرد موضحا متانة العلاقات بين المستشرقين مع اختلاف توجهاتهم وحدودهم الجغرافية خدمة للهدف العام وهو مصلحة الغرب إذ يقول :" مثل هذه الصلات والاهتمامات الوثيقة في ذلك الوقت، بالإضافة إلى الاتجاه العام نحو تنظيم البحث العلمي تفسر ظهور شبكة إستشراقية متلاحمة"[3].

---

(1) مثال ذلك: حروب الإسترداد(ق5هـ/ق11م)، الحروب الصليبية بالمشرق (ق5-ق7هـ/ق11-ق13م) الحروب الصليبية بالمغرب(ق9-ق12هـ/ق15-ق18م)، الإستعمار الحديث لمجموعة كبيرة من دول العالم العربي والإسلامي(ق12-ق14هـ/ق18-ق20م)، سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية (1353هـ/1924م)، قيام دولة اليهود بفلسطين (1368هـ/1948م)... وحال الأمة خير مُخْبر وخير دليل مشرقاً ومغرباً. وللمزيد ينظر: عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة، مطابع الصحافة العالمية القاهرة، ط1، 1403هـ/1983م، ص299 وما بعدها.

(2) شاخت وبوزورث: المرجع السابق، ص62.

(3) شاخت وبوزورث: نفس المرجع والصفحة.

المطلب السابع: الدافع الذاتي أو الاغترابي.

لم يجد هذا الدافع عند الكثير من المشتغلين بالإستشراق من المصوِّغات الموضوعية التي تدعوهم لإثباته والتنويه به كدافع قوي ومعتبر، لذلك فالقلة منهم من أشار إليه، و لم تكن تلك الإشارة موحدة النظرة والغاية.

فالبعض منهم ردَّ اشتغال بعض الغربيين بهذا النمط الفكري إلى وجود شيء من السعة في المال والوقت عندهم مع هواية الكشف وحب الاستطلاع وإتباع خطى كل ما هو غريب لمعرفته، فقالوا:"ربما كان بعض المستشرقين من ذوي الجاه والمال ويستهويهم الغريب الذي يجهلونه، فأرادوا الكشف عن التراث العربي والإسلامي بوجه خاص والكشف عن تراث الشرق بوجه عام يحدوهم حب الاستطلاع"[1].

بالإضافة إلى أن البعض منهم لم تكن لهم القدرة العلمية مثلهم مثل أقرانهم فاتجهوا لمثل هذا الفرع من البحث ليبرزوا قدراتهم ومواهبهم الخيالية ليلصقوا بالشرق كل ما هو عجيب وغريب:" وكثيرون ممن لم يجدوا في أنفسهم القدرة على منافسة أقرانهم في أبحاث الطبيعة والعلوم الكونية وأمثالها وجدوا أن أنسب مجال يبرزون فيه هو المجال البكر الذي لا يقوم على اقتحامه إلا القليل وهو مجال المشرقيات"[2].

وأما البعض الآخر فقد أقام حججه في دراسة بعض الغربيين لمثل هذا الفرع العلمي بأن العالم الغربي قد هيمنت عليه الفلسفة المادية واستغرقت هذه الأخيرة كل مناحي الحياة وهروبا من دروب تلك الماديات فقد سلك البعض منهم دروب العزلة والروحانيات.

ولن يجد الغربي من الروحانيات ما يشفي الغليل إلا كالتي هي في الشرق؛ فأقبلوا عليها وكلهم تشوق واستشراف لها حتى أن البعض منهم قد أفنى السنوات الكثيرة في البحث عنها والانكباب عليها.

فقد:" توجه العديد من الغربيين نحو دراسة التراث العربي والإسلامي عامة، والصوفي منه على وجه التخصيص بدافع من رغبة ذاتية خالصة، هي وليدة رد فعل عنيف لاستغراق الثقافة الأوروبية المعاصرة في النزعات المادية والاتجاهات العقلانية، ومحاولة هذا الرهط من المستشرقين مواجهة ذلك

---

(1)عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، ص77.

(2)عبد المتعال الجبري: نفس المرجع والصفحة.

كله بتصوف الشرق وروحانيته المأثورة، آملين أن يجدوا الطمأنينة النفسية في تراث صوفية الإسلام ونزعاتهم الجوانية ويتجاوزوا ما يشكون من غربة روحية واغتراب فكري عجزوا أن يجدوا له بلسما شافيا في تيارات الفكر الغربي المعاصر"[1].

وأمثلة ذلك كثيرة فهذا لويس ماسينيون[2]الذي أنفق من عمره ما يقارب الأربعين عاما متلمساً آثار الحلاج[3] حتى ما ترك له شاردة ولا واردة إلا وجمعها له.

وتبعه في ذلك تلميذه هنري كوربان[4]الذي شغف بالسهروردي الحلبي[5]، وقام بنفس عمل أستاذه متلمساً خطى السهروردي، سواء ما كتب بالعربية أو بالفارسية أو بغيرها من اللغات.

---

(1) عرفان عبد الحميد: المرجع السابق، ص129-130.

(2) لويس ماسينيون(1301-1383هـ/1883-1962م) ولد بضواحي باريس وتعلم بها تخصص بالطب ثم عزف عنه للنحت على الجص، عرف بالتخصص في التصوف عامة وفي الحلاج خاصة، كان متعدد الجوانب الفكرية له الكثير من التآليف وظل حيويا وباحثا حتى توفي يوم 1962/10/31م وهو يردد هاتين الآيتين:"قل إني لن يجيرني من الله أحد".[سورة الجن الآية 22]؛ وقوله تعالى"يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق" [سورة الشورى الآية16]. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص529 وما بعدها.

(3) الحلاج (000-309هـ/000- 922م) الحسين بن منصور، أبو مغيث: فيلسوف، يعد تارة في كبار المتعبدين والزهاد، وتارة في زمرة الملحدين. أصله من بيضاء فارس، ونشأ بواسط العراق أو بتستر وانتقل إلى البصرة، وحج، ودخل بغداد وعاد إلى تستر. وظهر أمره سنة 299 هـ/911م فاتبع بعض الناس طريقته في التوحيد والإيمان، ثم كان يتنقل في البلدان وينشر طريقته سرا، وقالوا: أنه كان يأكل يسيرا ويصلي كثيرا ويصوم الدهر. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج2 ص260.

(4) كوربان هنري(1321-1399هـ/1903-1978م) من أسرة بروتستنتية بفرنسا أتقن العديد من اللغات وداوم على حضور دروس لويس ماسينيون وكانت باكورة أعماله ترجمة لرسالة السهروردي ومنها بدأت رحلته معه حتى وفاته يوم: 1978/10/07. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص484 وما بعدها.

(5) الشهاب السهروردي (549-587 هـ/1154-1191م) يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح، شهاب الدين، فيلسوف، اختلف المؤرخون في اسمه. ولد في سهرورد (من قرى زنجان في العراق العجمي) ونشأ بمراغة ونسب إلى انحلال العقيدة وكان علمه أكثر من عقله. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج8 ص140.

وبراون[1] ونيكلسون[2] وآربري الذين تزعموا مدرسة كمبريدج الصوفية فكل هؤلاء ما الذي دفعهم إلى هذا السبيل إلا:" أن يكون الدافع إلى ذلك كله لِهَاث الذات الغربية المغتربة الغارقة في الفلسفات المادية ونزعات التجريد العقلي وراء تراث الآخرين علّها تجد مرادها في المصاحبة الروحية والوجدانية لشيوخ الصوفية الكبار"[3].

مع ما صاحب كل ذلك من الترسبات الأسطورية واللاهوتية حول الشرق وما فيه من خيرات كما ما للشرق من تأثير سحري في المخيلة الغربية، كما دلت على ذلك بعض كتبهم المقدَّسة وأسفارهم التي جعلت من الشرق قلب العالم المليء بالعجائب والغرائب وأن الجنة الأبدية مستقرُّها موجود بالشرق بأرض فلسطين وما جاورها[4].

---

(1) إدوارد براون(1279-1345هـ/1862-1926م) مستشرق إنجليزي تخصص في الأدب الفارسي، سافر إلى فرنسا، تونس، مصر قبرص واسطمبول للدراسة والاطلاع على المخطوطات تولى العديد من المناصب العلمية وله العديد من الآثار والكتب والمخطوطات المحققة. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص79 وما بعدها.

(2) نيكولسون رينولد(1285-1365هـ/1868-1945م) مستشرق إنجليزي يعد بعد ماسينيون أكبر الباحثين في التصوف الإسلامي، وأعظم أعماله نشره كتاب جلال الدين الرومي وكتاب تاريخ العرب الأدبي، وله العديد من المقالات حول التصوف جمعها في مجلد بعنوان: دراسات في التصوف الإسلامي. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص593 وما بعدها.

(3) عرفان عبد الحميد: المرجع السابق، ص130.

(4) كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، مطبعة سطور القاهرة، 1998م، ص17 وما بعدها.

المبحث الرابع: أهداف الإستشراق.

لا يتصور عاقل أن يكون للإستشراق كما مر ذكره دوافع ولا تكون له أهداف يصبو إلى تحقيقها وبلوغ الغاية القصوى منها، وإلا لكان عمل الإستشراق كأفراد وكمؤسسات وكحكومات ودول ليس له أي معنى ولا فائدة، وأن الجهود التي بذلت والقرون التي استغرقها الإستشراق تعد هباء وخسارة في حق الإنسانية جمعاء، فهل يعقل ذلك؟!!

لقد أقام الإستشراق مجموعة كبيرة من الدعاوى ورفع الكثير من اللافتات والألوية للدعاية والترغيب فيه، وفي المؤسسات التي ترعاه وتتبناه، وللأفكار التي يدعو لها حتى لا يلقى معارضة من بنيه، كما أنه يزيِّن تلك الدعاوى ويبهرجها حتى تزدان وترقى للمستوى الذي يريده حتى يتقبله الطرف الآخر وهو الشرق بطبيعة الحال[1].

في مرحلة من مراحل التيه الشرقي تقبل بنو الشرق كل ما صدر عن الغرب وعن المؤسسة الإستشراقية في حقهم، و لم يعملوا عقولهم ولا حدَّثوا أنفسهم هل الذي جاءهم به الغرب حقيقة أم خيال؟ هل هو علم أم شعوذة؟ وذلك لما رأوا فيه من التحسينات الخارجية والزخارف التي لم يعهدوها من قبل في مجتمعهم ولا في المؤسسات التعليمية القائمة بين ظهرانيهم[2].

غير أن البعض منهم وبعد مرحلة التيه والاسترخاء الفكري، قاموا بشدِّ الفكر وإعماله ووضعوه ميزاناً وحكَماً، وقاوموا تلك الوافدات من بني الفكر الغربي ومنتجاته العقلية وعلموا أنها إن لم تكن ضارة قاتلة أو في بعض الأحيان مخدرة، فهي لا يمكنها بأي حال أن تكون نافعة[3].

ولقد:" كانت الغاية المقصودة من هذه الدعاوى التي تتجاوز كل صور الموضوعية والنظرة العلمية السوية تحقيق جملة أهداف تخدم مجتمعة مصالح الغرب المادية والثقافية، وذلك عن طريق تثبيت فكرة التبعية والتقليد في أذهان العرب والمسلمين قصد ربط المنطقة ثقافيا وحضاريا بدوائر الغرب ومصالحه الاستعمارية، ومن أجل القضاء على ماضي الأمة والتنديد بعقيدتها والاستخفاف بمنجزاتها الحضارية وقتل الشعور بالذات عن طريق سلسلة محاولات مشبوهة استهدفت محق التراث.

---

(1) مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، مرجع سابق، ص19.

(2) مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، مرجع سابق، ص20 وما بعدها.

(3) مالك بن نبي: المرجع السابق، ص23-24.

وإبرازه في صورة فكر تلفيقي مشوه، ليس فيه ما يعكس عبقرية أهله وليس فيه من الدفق الذاتي ما يعين على بعث حضاري ويقظة فكرية"[1].

كما أنه لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون دراسة الأهداف التي سطَّر لها الإستشراق أن تدرس وتناقش بمنأى عن نشأته ودوافعه، فهي شبه كُلٍ متكامل وشبه مجموع لا يقبل التجزئة، وهي بالأحرى مجموعة دوائر متداخلة لا ينفصل بعضها عن بعض، ولا يمكن أن تستقل الدوافع عن الأهداف، حتى قال بعضهم أنه لا يمكن الفصل بينهما لأن:" الدوافع تلتقي مع الأهداف باعتبار أن الدافع يمثل المحرض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف الغائية من العمل"[2].

غير أنه لا يمكن أن تكون الأهداف الغائية هذه موجودة بالأصل في نظر البعض من المستشرقين ودراساتهم للشرق، وقد مرَّ ذكر دافع الذاتية والاستغراب وكيف توجه إليه أصحابه، وقد يحقق هذا الدافع في بعض الأحيان بعض أهداف الإستشراق ومؤسساته ولكن ذلك يكون عرضا وليس أصلاً في الدراسة.

وقد يحدث العكس، فيكون الدافع للمستشرق أحد الدوافع التي تم ذكرها سلفاً، فيوصله البحث إلى الوقوف على حقائق قد يهتدي بها أو على أقل تقدير يغيِّرُ من نظرته التي كانت من قبل حول الشرق وأهله ويوقف حدَّة التجاسر والتطاول ونظرة الاستعلاء التي أصبحت أصلا من أصول الفكر الغربي[3].

المطلب الأول: الهدف الديني.

يقرر كثير من الباحثين الذين درسوا أهداف الإستشراق أن الهدف الديني يقف على قمتها وهو أهمها، ذلك أن أصل نشأة الإستشراق إنما كانت بين أحضان الكنيسة، وحِجْرُها كان المهد الذي

---

(1) عرفان عبد الحميد: مرجع سابق، ص153.

(2) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، مرجع سابق، ص127.

(3) ينظر أمثلة ذلك في هامش وتعليقات الهدف العلمي.

تربى فيه وترعرع، زد على ذلك أن العلاقة القائمة بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي تحكمها سُنَّة التدافع والمغالبة وقد تصل في ذروتها إلى العراك والمصادمة، وهذه سُنَّة قائمة لن تزول إلا بزوال أحد طرفي المعادلة، مصداقاً لقوله تعالى واصفا هذه العلاقة بين الطرفين:﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾.[البقرة:120].

زد على هذا أن أهل الذمة من الغربيين قد وجدوا في القرآن الكريم أنه يتهمهم بتحريف كتابيهما التوراة والإنجيل، فلجأوا إلى اتهامه أنه من صنيع محمد ﷺ وتأليفه وأن ما كان منه صحيحاً فمرده إلى كتبهم المقدسة، وقد خاضوا هذه الحروب الدينية النفسية وهدفهم أن يشككوا المسلمين في عقائدهم لأن:" جمهرة المستشرقين مستأجرون لإهانة الإسلام وتشويه محاسنه والافتراء عليه"[1]، وأنَّى لهم ذلك ولن يكون؛ والأمر الآخر أن يمنعوا أهل دياناتهم من الدخول في الإسلام وحتى الشعوب الأخرى من غير دينهم ولا ملتهم بعد عجزهم عن مصارعته وغلبته في الميدان.

فرفعوا شعارات مزخرفة على الإسلام تجترئ واصفين إياه بأنه سبب تخلف المسلمين وحَجَر عثرة في إقلاعهم الحضاري والتقدمي، وأن المسلمين إذا ما أرادوا الرجوع إليه فهو ميت رجعي لا يفي بأغراض الحياة المتطورة ولا يواكب مسيرتها، ولا ينتج إلا الفكر المتطرف الأصولي أو الفكر الصوفي الدراويشي وكل ذلك في قالب من السخرية والتجنِّي[2].

والبديل هو المسيحية فهي التي كانت سبباً في نهوض الغرب وتطوره وهي التي أوصلته إلى الحال الذي هو عليها اليوم.

وقد شهدوا على هذا كله بألسنتهم:" يقول الأسقف ((دي ميسفيل)) وكيل إدارة البعثات التبشيرية في الشرق بروما: إن الهدف الذي يتعين على المبشر تحقيقه هو تحطيم قوة التماسك الجبارة التي يتميز بها الإسلام – أو على الأقل- إضعاف هذه القوة، وأن على المبشر أن يدرس

---

(1) محمد الغزالي: المرجع السابق، ص8.

(2) محمد قطب: واقعنا المعاصر، مرجع سابق، ص 84 وما بعدها. وعلي إبراهيم النملة: كنه الإستشراق، مرجع سابق، ص 40 وما بعدها.

ويتفهم ((قرآن محمد)) ليعرف كيف يذكِّر الناس في الشرق بأنه كانت هناك مدنية سابقة على الهجرة وأنها كانت مدنية مسيحية، وأن يستخدم الأسلحة السلمية التي تأسر النفوس"[1].

وحين قامت الجمعيات التبشيرية والمعاهد العلمية والجامعات في الغرب ووضعت مخططاتها كانت كلها تهدف مجتمعة إلى سلخ المسلمين عن دينهم وتحويلهم إلى المسيحية باذرةً الشقاق والفرقة بين صفوفهم حتى يتحوَّلوا إلى شتات وإلى جماعات يقاتل بعضها بعضاً وخير شاهد على ذلك الواقع الماثل وحال المسلمين فيه خير مُخْبِر.

وإذا كان الحال كذلك، سهل بعد ذلك على الغربيين التهامهم كلقمة صائغة دون عناء مع ما يصاحب الطرف الآخر(الغرب) من شحذ للهمم وشحن للقوى فيتجرأوا على الاختراق والإخضاع والسيطرة والإفساد والتدمير وقد فعلوا، وما فلسطين وغيرها من أرض الإسلام إلا خير شاهد، وقد تفطَّن بعضهم لهذا الهدف الخفي الجلي فقال:" قد يكون الهدف هو شحن المسيحيين واليهود في غزوهم للعالم الإسلامي بطاقة تولِّد فيهم الحقد والسخرية والاستصغار لشأن المسلمين عن طريق هذه الصور المشوَّهة للإسلام ولنبيه ولمعتنقيه، حتى يكون الصراع بين الإسلام وخصومه ضاريا"[2].

المطلب الثاني: الهدف العلمي.

رفع الإستشراق شعار العلم وليست له غاية أو هدف يسعى إليهما إلا العلم والحقيقة العلمية المبنية على المناهج العلمية الصافية والخالصة والتي تعتمد على الموضوعية المطلقة والحياد التامَّين في الدراسة؛ حتى قال أحدهم:" إننا في دراستنا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية، بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة المطلقة"[3].

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح وبقوة هل طبق المستشرقون حقيقة المنهج العلمي الصافي الذي يدَّعونه في دراستهم للإسلام وأهله؟

---

(1) عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، ص124.

(2) عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، ص283.

(3) رودي بارت: المرجع السابق، ص10.

مراجعة يسيرة لكل فرع من فروع المعرفة التي تطرَّق لها الإستشراق ولها علاقة بالإسلام وأهله، تكذِّب دعاواهم وتردُّ أراجيفهم، فإن لم تكن تحمل هذه الدراسات السمَّ الزعاف القاتل، فهي تحمل المخدِّر المنوِّم طويل المدّة أو تحمل صورة الاستخفاف والاحتقار في أحسن الأحوال والظروف.

ويحدِّثنا الطيباوي كشاهد عيان وهو الذي خبر الإستشراق ومؤسساته بالغرب حيث عاش معهم حينا من الدهر، وعايشهم في أحوالهم وفي مؤسساتهم فيقول:" لا تكاد توجد جهود أكاديمية(جامعية) في عالم الدراسات الإنسانية أسوأ حظاً في سوابقها من الدراسات الإسلامية والعربية في الغرب"[1].

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، فإن الهدفية العلمية عند المستشرقين الغربيين قد تنقسم إلى قسمين واضحين لا لُجَّة فيهما.

فالقسم الأول وهو المطعون فيه وهو الهدف العلمي المشبوه، والذي خاض غماره مجموعة كبيرة من المستشرقين، جعلت قاعدة تعاملها مع التراث الإسلامي عامة التشكيك في صحته، بل لقد تعدَّته إلى أصول الإسلام فأتته من القواعد، فشككت في نبوة محمد ﷺ وبالكتاب الذي جاء به وبكل ما نتج في تاريخ الإسلام الطويل، والهدف من وراء ذلك غير خافٍ وهو إقناع المسلمين ببطلان ما هم عليه أو على الأقل تشكيكهم ليبحثوا عن البديل الجاهز وهو النصرانية أو اليهودية أو غيرها من المذاهب والأفكار الجاهزة الأخرى[2].

واعتمدوا في ذلك على فرضيات مسبقة وضعوها كحقائق نصب أعينهم ثم ما تلبَّثوا أن جمعوا لها كل غثٍ وشاذٍ ومكذوبٍ ليدلِّلوا بها على صحة ما ذهبوا إليه[3]، ولذا يصدق فيهم قول من قال:" إن قوى غربية ومتعددة حاولت من وقت بعيد مراجعة التراث الإسلامي بقصد واضح وهدف مدبر، فعملت على إبراز جوانب منه والإغضاء عن جوانب، وعلى ضوء هذا الهدف

---

(1) المسترقون الناطقون بالإنجليزية، مرجع سابق، ص18.

(2) إسماعيل علي محمد: مفتريات المستشرقين وعملائهم على الإسلام، دار النيل للطباعة والنشر المنصورة مصر، ط1، 1420هـ/1999م، فصل شبهات حول القرآن والسنة، ص 67-105 وفصل شبهات حول السيرة النبوية، ص 109-151.

(3) إسماعيل علي محمد: مفتريات المستشرقين، مرجع سابق، ص 33 وما بعدها.

المسموم المدبر الذي يرمي إلى إبراز جوانب الضعف والإغضاء عن جوانب القوة، كتبت الموسوعات الأوروبية في الشرق والغرب عن الإسلام، فأدخلت أشياء كثيرة من الشبهات والروايات الضعيفة، وحرفت جوانب أخرى من النصوص"[1].

لذلك فإن الأهداف الحقيقية المضمرة وراء ما تعرضه أدبيات الإستشراق وأبحاث المستشرقين والتي تحمل الطابع العلمي الزائف كانت هي السمة الغالبة.

والقسم الثاني والغالب فيه القبول وهو الهدف العلمي النزيه الخالص، وقد حمل لواءه قلة من المستشرقين، لم يرضهم أن يحدِّدوا آفاقهم العلمية ولا أن يدفنوا رؤوسهم في تربة الكنيسة، ولا أن يشنقوا عقولهم بحبال التعصب الغربي، فمدُّوا أيديهم للعلم نظيفة لا شوب فيها وتجرّدوا من أهوائهم فاحتملهم العلم وأنقذهم من الحمأة الآسنة للكنيسة.

وجل أولئك إن لم يكونوا كلهم قد خرجوا من سيطرة الإستشراق ومناهجه الغربية الغريبة، قد أوصلتهم بحوثهم النزيهة وعقولهم النيِّرة إلى اعتناق الإسلام بعد أن اكتشفوا درره وحقائقه فأعلنوا إسلامهم[2]، ومنهم من أسلم وأخفى إسلامه لظروف محيطه ومجتمعه مخافة المضايقات والإشاعات[3]، ومنهم من بقي على عقيدته الأصلية ولكنه أعجب بالإسلام وما تمثَّله من مبادئ فحفظ له كل الودِّ والتقدير[4]، وهنا تتجلى حقيقة تحول الدافع الإستشراقي من دافع إلى هدف وصل إليه هؤلاء.

وبين الهدف العلمي الصافي وبين الهدف العلمي المغشوش، قد تقع بعض الحيرة لبعض المستشرقين، فلا هم من هؤلاء ولا هم من أولئك، فهم انطلقوا من الهدف العلمي الصافي إلا أنه وقعت منهم بعض الأخطاء مردُّها إلى سوء التقدير أو سوء الفهم وهذا ما يجعل في بعض الأحيان وجهات النظر تختلف[5].

---

(1) أنور الجندي: سموم الإستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، دار الجيل بيروت،ط2، 1405هـ/ 1985م، ص7.

(2) مثال ذلك لا الحصر: إتيان دينييه وروجي غارودي الفرنسيان، مراد هوفمان الألماني، ليوبولد فايس النمساوي.

(3) مثاله: جوته أو غوته الشاعر الوزير الألماني، أ.د/ أنا ماري شمل الألمانية.

(4) مثاله: زيغريد هونكة الألمانية، والتي كتبت بتأثر كبير وإعجاب عن الإسلام "شمس العرب تسطع على الغرب".

(5) مثاله ما وقع للمستشرق بودلي حين كتابته حول سيرة النبي محمد ﷺ كما سيأتي بيانه.

وقد يعذر البعض منهم إن سلمت نيته، فهو غير مطالب قهراً وجبراً بالرجوع والدخول في الإسلام، لأن الإكراه في الإسلام محرم والاختلاف بين البشر آية في الخلق، وعليه فإنه يتعيّن ألاَّ:" نطلب من كل مستشرق أن يغيِّر معتقده، ويعتقد ما نعتقد عندما يكتب عن الإسلام، ولكن هناك أولويات بديهية يتطلبها المنهج العلمي السليم؛ فعندما أرفض وجهة نظر معينة لا بد أن أبين للقارئ أولاً وجهة النظر هذه من خلال فَهْم أصحابها لها ثم لي بعد ذلك أن أوافقها أو أخالفها"[1].

المطلب الثالث: الهدف الاقتصادي.

استفاد الغرب من العلوم التي طورها المسلمون وأضاف لها الشيء الكثير، ثم ما تبع ذلك التطور من سيطرة على جميع مستوياتها ومنها المستوى الاقتصادي الذي أصبح حكرا على الغربيين لما أولوه من أهمية ولما له من فوائد وعائدات، فاندفعوا سراعاً لجمع المال وتحصيله أينما كان وحيث ما وجد[2].

واهتموا بالتجارة ومداخيلها والصناعة ومواردها، فقد قدم القائمون على هذا الشأن معلومات دقيقة وموسعة ومفصلة عن الدول التي رغبت الدول الغربية في استعمارها والاستيلاء على ثرواتها وخيراتها، واستغلوا كل غالٍ ورخيص لأجل ذلك، فجعلوا الدين المسيحي مطية لذلك وجعلوا المنصِّرين والمبشرين جباة وحماة ورعاة للهدف الاقتصادي[3].

وتأكيدا لهذا الهدف وأن الإستشراق قد اتُخِذ مهنة للتكسب وموردا للمال عند بعض المشتغلين به، حتى وإن أنكره البعض[4]، وخاصة من الطبقة المثقفة والتي تدَّعي العلمية في مناهجها والفكر الحر في نشر الحقائق والخاصة بالشرق عامة والإسلام وأهله على وجه الخصوص، يقول بعض

---

(1) محمود حمدي زقزوق: الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف القاهرة[د ت ط] ص83.

(2) علي إبراهيم النملة: كنه الإستشراق، مرجع سابق، ص 56.

(3) بركات عبد الفتاح دويدار: الحركة الفكرية ضد الإسلام، مطبوعات جامعة أم القرى مكة المكرمة، 1406هـ، ص123 وما بعدها.

(4) جاء ذلك على لسان ناظر المعارف العلمية الهولندي حين افتتاحه لمؤتمر المستشرقين بمدينة ليدن سنة 1931م في قوله:" إن هولندا لا تذهب إلى الشرق لأجل التجارة، بل لنشر حسنات الدين النصراني". علي إبراهيم النملة: كنه الإستشراق، مرجع سابق، ص 56.

المستشرقين:" وكثير من أصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها يشجعون نشر المؤلفات والكتب التي تدور حول الإسلاميات والشرقيات ويشرفون على نشرها لِما يرون لها من سوق نافقة في البلاد الشرقية"[1].

المطلب الرابع: الهدف الاستعماري.

يرتبط الإستشراق بالاستعمار برابط قوي وهذا مقرر تاريخياً، فلقد كانت المصلحة الجامعة بينهما تفرض على كل منهما أن يخدم الواحد منهما الآخر بحسب موقعه وحاجته وحدوده المخصَّصة له؛ فالاستعمار ومن كان وراءه من أشخاص ومؤسسات، كانوا بحاجة إلى المعلومات والأفكار والخبرات والاستشارات، وكل ذلك كان يوفره رجال الإستشراق والعاملين في حقله حتى نشأت بينهما رابطة رسمية تكاد تصل درجة القداسة بينهما.

لذا فلا غرو إن وُجِد من المستشرقين الكثير منهم من انساق في التيار المخابراتي والمعلوماتي لخدمة الهدف الاستعماري فقد:" ارتضوا لأنفسهم أن يكون علمهم وسيلة لإذلال المسلمين وإضعاف شأن الإسلام وقيّمه"[2].

وعلى هذا الأساس فالاستعمار والاستشراق ممثِّلا شركة غربية واحدة لهما هدف واحد، وهو الربح الدائم للشركة، فإذا فترت عزيمة أحدهما شدَّ الآخر على عضُد صاحبه حتى يبقى التفاعل مستمرا والهدف المشترك قائماً؛ وبحق فقد كانا وجهان لعملة واحدة ولوقت طويل ولا يزالان.

فإذا كان رجال الكنيسة هم من بدأوا وطوَّروا الإستشراق في مرحلة من مراحله الأولى، فإن الاستعمار قد رعاه فيما بعد ومكَّن له بما وفَّر له من إمكانات مادية وحماية كافية للمشتغلين به، حتى عُدَّ الإستشراق ابناً غير شرعي لعلاقة غير شرعية جمعت بين الاستعمار والكهنوت الكنسي.

وكما سبق التنويه به والإشارة إليه أن الإستشراق والعاملين في حقله ما هم إلا طلائع الجيوش الاستعمارية الأولى، التي تمهِّد الطريق ثم ما تلبث بقية الجيوش أن تلتحق بتلك الطلائع:" لقد ظل هدف الإستشراق والاستعمار واحدا لفترة طويلة من الزمن، وإذا كان الأول يسبق الثاني ليكون طلائع جيشه وأعيُن أمْنِه يصيب أهدافه ويحقق آماله فما عليه إلا أن يبدأ بالتشكيك في قيم

---

(1) آرثر آربري: المستشرقون البريطانيون، مرجع سابق، ص14.

(2) محمود حمدي زقزوق: الإستشراق والخلفية الفكرية، مرجع سابق، ص44.

الشعوب المغلوبة والسخرية منها ومن دينها وشخصية نبيها عليه الصلاة والسلام، وهدم الإسلام فكرياً وحضارياً، وعلى الثاني أن يقوم بتنفيذ ذلك الحكم واقعياً وعملياً، كما كان الإستشراق حريصا على تدريب باحثين ودبلوماسيين ومهنيين يحملون جميعا أيديولوجية الغرب وعقليته تجاه الشرق وحضارته، وعلى الاستعمار أن يتبنى هؤلاء يساعدهم وينفذ خططهم، واستخدم الإستشراق الكتب والمجلات والمقالات وكراسي التدريس والمؤتمرات العلمية والمحاضرات العامة وغيرها من الوسائل لخدمة الاستعمار في أغلب الأحيان لا لخدمة العلم والحقيقة"[1].

ولقد تركزت أهداف الإستشراق مع تنوعها على خلق التخاذل الروحي، وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين، وحملهم من هذا الطريق على الخضوع للتوجيهات الغربية وهذا الذي خطَّط له مع الرعاية الاستعمارية وقد بلغ في كثير من الأحيان أهدافه كلها:" ولهذا نرى الاستعمار يولي الإستشراق كبير اهتمامه فمكَّن للمستشرقين بكل ما أوتي من قوة، واعتمد عليهم في بسط نفوذه في الشرق والعالم الإسلامي"[2].

بل إن الهدف الاستعماري كان ولا يزال أحد الأهداف الأساسية في الحقل الإستشراقي ولهذا :" لن نستطيع أبدا أن نبعد المطامع الاستعمارية عن هذه الصورة التي نرسمها لأهداف الإستشراق، لأن الاستعمار في رأينا كان من بين العوامل المهمة التي ساعدت على تطور الإستشراق، فقد رأت الدول الاستعمارية أنه لا بد لها من أجل تحقيق أغراضها السياسية والاقتصادية في الدول العربية والإسلامية أن تستفيد من الإستشراق لتحقيق هذه الأغراض"[3].

المطلب الخامس: الهدف السياسي.

لا يذكر عادة الهدف الاستعماري في ميدان الإستشراق ومنهج المستشرقين إلا ويصاحبه في الخلد الهدف السياسي حيث ترتسم تلك الصورة المبنية على تلك العلاقة المتينة التي تشد طرفي المعادلة والتي مفادها (الإستشراق + الهدف السياسي = الاستعمار). وتاريخ الإستشراق يحدِّثنا عن مثل هذه العلاقة المتمثِّلة في بعض النماذج من المستشرقين، وكنموذج -ولعله يكون النموذج

---

(1) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الإستشراق، مرجع سابق، ص120.

(2) محمد محمد الدهان: قوى الشر المتحالفة، الإستشراق التبشير الاستعمار، دار الوفاء المنصورة 1986م، ص49.

(3) نبيه عاقل: المستشرقون وبعض قضايا التاريخ الإسلامي، محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائر، 1392هـ/1972م، م2، ص198-199.

الوحيد –وهو كافٍ للتدليل على وجود المستشرقين في الدوائر السياسية وخدمة الأهداف السياسية للدول الغربية مثّله المستشرق دي ساسي الفرنسي[1].

أقام هذا المستشرق سنوات طويلة في وزارة الخارجية الفرنسية ووزارة الحربية، وكان ذلك قبل دخول الطغمة الظالمة أرض الجزائر، ويوم دخولها كان هذا الذي باع عقله وعلمه للاستعمار، ورهن قلمه بما يجنيه من مال مقابل التقارير التي يكتبها أو يدبِّجها للقادة العسكريين، كان هو من ترجم البيان الموجه للجزائريين والذي أصدرته القوات السياسية والاستعمارية الفرنسية[2]، ولم يكتف بهذا وحسب، بل كان المستشار الأول فيما يخص السياسة المنتهجة والمتبعة مع الشرق عامة والجزائر بصفة خاصة في وزارة الخارجية أو وزارة الحربية الفرنسية.

ومن خلال مثال دي ساسي –وغيره كثير في تاريخ الاستعمار الحديث للعالم الإسلامي خاصة والشرقي عامة– يتضح أنه وأمثاله كانوا مجرد أدوات في أيدي حكوماتهم، وما كان هدفهم العلمي الإستشراقي النـــزيه إلا غطاء تغطوا به خدمة للهدف السياسي الذي رسمته الدوائر صاحبة القرار في بلدانهم[3].

---

(1) دي ساسي، أنطوان إســحاق سلفســتر(1758-1838م) Antoine Isaac Silvestre De Sacy شــيخ المستشرقين الفرنسيين، ولد في باريس، والغموض يحيط بالكيفية التي صار بها مستشرقا حيث لا يعرف له ولا اسماً من أسمــاء أساتذته باستثناء لقاءاته الأولى مع أحد رجال الدين المسيحي وأحد اليهود الذي شجعه على تعلم العبرية ثم لقاءه مع دوم برترو الراهب البندكتي الذي حثه على تعلم اللغات السامية الأخرى، وقد تقلَّد العديد من المناصب الهامة في حياته بــدءً بمنصــب الأستاذية إلى منصب المستشار وكان متمردا على كل القوانين التي تصدرها السلطات إلا ما يوافق هواه ومعتقده، وله الكثير من الإنتاج العلمي الذي خلفه، تحقيقا وتأليفاً، كما نال العديد من التشريفات خاصة لقب 'بارون' والذي خصَّه به نــابليون بونابرت في مارس 1814م، ثم لقب فارس ثم لقب عضو مجلس الشيوخ الفرنسي وأخيرا لقب الضابط السامي عام 1837م، توفي في 1838/02/21م. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص334 وما بعدها.

(2) ذكر البيان مختصرا أكثر من مؤرخ، غير أن الذي ذكره مطولاً وبجميع تفاصيله الشيخ الجيلالي، عبد الرحمن بن محمــد: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة بيروت، 1400هــ/1980م، ج3 ص404-407.

(3) وكعيِّنة من عيّنات المستشرقين الذين كانوا بالمشرق الإسلامي–والذين كانوا على منوال دي ساسي– لورانس العرب. لورنس (1305-1354هــ/1888-1935م) توماس ادوارد لورنس: مغامر من رجال الاستخبارات البريطانية، اقترن اسمه بأحداث من تاريخ العرب الحديث ولد في ترمبادوك من قرى وايلز، في انكلترا وتخرج بجامعة اكسفورد، سافر إلى سورية وفلسطين لدراسات أثرية وأقام مدة في جبيل بلبنان تعلم بها مبادئ العربية قبل سنة 1911 م، وأرسلته حكومته في بعثة إلى صحراء سينا، فكتب دليلا لها، لاستعمال الجنود. ونقل إلى مكتب المخابرات العسكرية في القاهرة. ولما أعلنت الثورة العربية في الحجاز عين ضابط اتصال بين السلطات البريطانية والقوات العربية، ورافق فيصل بن الحسين مدة سنتين ونصف. وفي أثناء هذه

استقلت جل الأراضي العربية والإسلامية ودحضت الاستعمار، إلا أن هذا الأخير لم ولن يترك تلك الأراضي وتلك الدول تنعم بخيراتها وحريتها، فكيف يسمح بزوال النعمة التي كان فيها والمصالح التي كان يحققها في تلك البلاد لأهله وذويه وخدمه، وحتى تبقى عينه ساهرة على تلك المصالح السياسية فلا بد له من خَدَم مخلصين وعبيد لأمره طائعين ولن يجد أفضل ممن باعوا ذممهم ورهنوا أقلامهم وأوقفوا عقولهم حبوساً لأسيادهم من المستشرقين المرتزقة، فبعثهم كمستشارين أو كملحقين للثقافة أو حتى كقناصلة وسفراء في تلك البلاد بعد أن زودهم بكل ما يحتاجونه من وسائل وأموال.

وأوكل إليهم خاصة تدبير الشؤون السياسية والاحتكاك بكل مصدر من مصادر المعلومات في البلاد العربية والإسلامية، سواء كان ذلك على مستوى عملائهم أو على مستوى وسائل الإعلام أو رجال الثقافة أو رجال السياسة أو حتى على مستوى قمة الهرم في الحكم في تلك الدول، ليوجهوا سياساتهم سلباً أو إيجاباً بما يحقق لهم مصالحهم أو يحفظ لهم على الأقل مصالحهم المكتسبة سلفاً[1].

وكم حاك هؤلاء من دسائس، وكم روَّجوا من أفكار، وكم حرَّكوا من فتن داخل الدول والأراضي العربية والإسلامية، وكم حصدت تلك الدسائس والأفكار والفتن من أرواح وأسالت من دماء ومزقت العالم الإسلامي والعربي إلى مجموعة دويلات والدولة الواحدة إلى دويلات صغيرة وحكومات وأحزاب وقبائل وحتى أقليات[2]، وكل ذلك حاصل بفعل التقارير السياسية

المدة سار الجيش العربي من ميناء جدة على البحر الاحمر حتى دخل دمشق في 30 سبتمبر 1918م وسافر فيصل لحضور مؤتمر الصلح سنة 1919م فلازمه لورنس. وأرسلته حكومته إلى جدة 1921م لعقد معاهدة مع الملك حسين فامتنع الحسين عن توقيعها. وجاء لورانس إلى عمان نائبا عن فلبي في رئاسة المعتمدين البرطانيين وبعد شهرين ونصف الشهر انصرف إلى بلاده واعتزل السياسة. وأرسل إلى الهند جنديا عاديا باسم (الجندي الطيار ت.أ.شو) ثم إلى كراتشي وأعيد إلى بريطانيا. وترك الخدمة العسكرية سنة 1935م وبعد أيام كان يقود دراجته النارية وسقط في خندق، فمات بعد ستة أيام. ودفن في مقبرة (مورتيون) على أميال من مسكنه. الزركلي: الأعلام، ج 2 ص 94.

(1) ينظر مثال ذلك ما وقع مع سعد زغلول[1274-1346هـ/1858-1927م] الزعيم المصري، واللورد كرومر، ممثل السياسة الإنجليزية في مصر. محمد قطب: واقعنا المعاصر، ص254، ص281، ص361 وما بعدها.

(2) يرجى مراجعة أوسع وأدق في: محمد قطب: هل نحن مسلمون، دار الشروق القاهرة، ط6، 1423هـ/2003م، ص119 ومابعدها.

والمعلومات التي يقدِّمها المستشرقون لدولهم وحكوماتهم والواقع الماثل أمام ما ترى الأعين وما تسمع الآذان خير شاهد وخير منبئ على صدق القول[1].

المطلب السادس: الهدف التاريخي.

سبقت الإشارة إلى القول بأن الغرب إن لم يكن كله فالبعض منه قد تبرَّم من الوافد الجديد الذي التهم الأرض والعقول وسبى الأرواح وبسط سيادة لم يسبق لها مثيلاً، وتأسَّست حضارة على أرضه قوامها العلم، فاضطر الغرب وهو مُكره إلى دراسة هذا الوافد الذي تغلب أصحابه على الفلسفات والمعتقدات التي سادت زمناً طويلاً، فلم يرقه ذلك فعمل على طمس كل مَحْمَدة ومسح كل أثر طيب حسن له.

ولن يتسنى له ذلك الطمس ولا محو ذلك الأثر إلا بمعرفة خصائص الشرق ودعائم قوته، فوجدها تتلخص في معتقده وفي دينه[2]، فمن ذاك الزمان لم يهدأ للغرب بال ولا ارتاح له عقل ولا طاب له طعم حتى يكسر شوكة الشرق ويأتي بنيانه من القواعد.

فدرسوا هذا الشرق بكل مكوناته وناهضوه ثم ناجزوه لمـــَّا قويت شوكتهم وما لبثوا أن طاردوه في ديارهم ثم طردوه منها ولحقوا به إلى عقر الدار التي انطلق منها، وكانت الحروب والمعارك سجالاً طويلاً خسر فيها الغرب الشيء الكثير، وعلم أنه لا طاقة له بأهل الشرق في ميادين المعارك فنقل تلك المعارك من الصفائح إلى الصحائف ومن تصادم الأبدان إلى تصادم الأفكار[3].

---

(1) بدأ ذلك أواخر الخلافة الإسلامية الممثلة في الدولة العثمانية، حتى أنهكوا قواها وأسقطوها، وأسموها بالرجل المريض، فهبوا لاقتسام خيراتها واقتطاعها إلى مجموعة دول، ثم أبدلوا الوحدة الإسلامية بالوحدة الوطنية الترابية لكل قطعة منها. فمزّقوا العالم الإسلامي شذر مذر، ولا يزالون يحاولون التفرقة والتمزيق لكل محاولة إصلاحية أو فكرة منادية للوحدة العامة أو الإصلاح الشامل في العالم العربي أوالعالم الإسلامي، حتى لا تقوم للعرب والمسلمين قائمة. للمزيد حول هذا الموضوع ينظر: محمد قطب: واقعنا المعاصر، ص177، ص180-182.

(2) للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد قطب: واقعنا المعاصر، فصل الحركة العلمية والحضارية، ص79-105.

(3) للزيادة حول هذا الموضوع ينظر: محمد قطب: المرجع السابق، فصل الغزو الصليبي، ص174-182.

وبدأت المناجزات الفكرية وكان الغرب فيها الرابح الأكبر ولفترة طويلة. فقد استطاع أن يرد كل فضيلة ومَحمدة إلى نفسه وبرهن عليها ودلَّل، كما أرجع ذلك التطور العلمي الذي بلغته الحضارة بشقيها عند أهل الشرق وعنده إلى أصول قديمة وشعوب أوروبية مثل اليونان والرومان وأن الفضل يعود لفلاسفتهم ومؤرخيهم وأطبائهم في كل فن من فنون الحضارة وفروعها[1].

ولعله من دون تعب ولا عناء ومن دون طرح السؤال: ما هي الجهود التي بذلها الغرب وعلى أعناق من أقام تلك الجهود ليصل إلى تلك النتائج؟ فالجواب لا يحتاج إلى أدنى عناء ولا تفكير إنه الإستشراق والمستشرقون عبر تاريخهم الطويل.

لذلك فالهدف التاريخي كان ولا يزال من بين الأهداف الكبرى في مسيرة الإستشراق ودول الغرب لتشويه الحقائق وبث السموم، وما الأفكار التي ينتجها المستشرقون اليوم ويروِّجونها والاتهامات التي يكيلونها حول العرب والمسلمين إلا دليل قاطع وسم قاتل، هذا إذا ما استثنينا الحرب على المقدّسات في النفوس وفي الميدان.

ولا غرو في قول من قال:" فهذه الاتهامات إذن سمٌ قاتل، يقتل ببطء، وهو تخدير بالمؤلم كضربة شديدة على الأنف أو تحت الأذن تسقط المضروب مخدراً فاقد القدرة على التحرك لبعض الوقت حتى يسلبه الضارب ما شاء أن يسلبه منه"[2]. ولإن تغيَّرت في المرحلة التاريخية الأخيرة من عمر الإستشراق بعض مواقفه التي كانت بالأمس القريب، فذلك لا يعني التزامه بصفة العلمية كما يدَّعي وإنما لمواقف أملتها عليه بعض الظروف وإذا ما استجمع قواه عاد إلى أصله وأقام الأدلة على صحة ما يذهب إليه وما درج عليه من مبادئ وأفكار خاصة به معشَّشة في خلده وفي موروثه التاريخي[3].

---

(1) يرجى مراجعة أوسع وأدق في: محمد قطب: المرجع السابق، فصل الغزو الفكري، ص182-200.

(2) عبد المتعال محمد الجبري: الإستشراق وجه للاستعمار الفكري، مرجع سابق، ص278.

(3) مثاله ما قاله القادة الصليبيون حين دخولهم بلاد الإسلام مشرقا:" ها قد عدنا يا صلاح الدين"، أو ما قالوه عند دخولهم بلاد المغرب الإسلامي على لسان وزير خارجية فرنسا السيد بيدو" هذه معركة بين الهلال والصليب" أو ما جاء على لسان جورج بوش الإبن حين دخول جيوش أمريكا وحلفائها العراق" إنها حرب صليبية جديدة". ينظر: محمد قطب: المرجع السابق، فصل الغزو الصليبي، ص174-182.

وما الحملات التي تظهر بين الحين والآخر وكلها كذب تنعت العربي والمسلم بنعوت حادة ملؤها السخرية وترعاها بنظرة الاستعلاء والفوقية وحتى الإسلام ونبيه ﷺ لم يسلما من مثل هذه الحملات[1]، وهي في ذلك دليل على صحة من نقد الإستشراق وعابه في منهجه.

المطلب السابع: الهدف الذاتي أو الاغترابي.

جُبل الإنسان على حب الاطلاع ومعرفة ما حوله، سواء كان ذلك ما عند بني جنسه أو في محيطه الخاص، ولعلَّ الخطيئة الأولى التي وقعت للجنس الآدمي كانت من هذا النوع، فآدم عليه السلام لم يسبق له وأن خاض تجربة ليستفيد منها، فكانت محاولته لاكتشاف كنه الشجرة أول تجربة له[2]،

---

(1) قامت بعض الصحف الغربية بنشر بعض الصور الكاريكاتورية لنبي الإسلام ﷺ وبخاصة في الدنمارك ممثلة في صحيفة [جيلاندز بوستن /Jyllands-Posten] حين نشرت[12] رسماً كاريكاتيرياً أو ساخراً يوم الثلاثاء 26 شعبان 1426هـ / 30 سبتمبر 2005 تصور الرسول ﷺ في أشكال مختلفة، ثم حذت حذوها بعض الصحف الأخرى لدول أخرى ممثلة في المجلة النصرانية النرويجية [ماغازينت/ Magazinet] حيث أعادت نشر تلك الصور، في يوم عيد الأضحى 1426هـ الموافق 10 يناير 2006م بدعوى حرية الصحافة والإعلام. كما قامت بعض الصحف الأخرى بنعت المسلمين بالإرهابيين وبأبشع الأوصاف، وكذا محاربة الخمار الإسلامي بدعوى أنه حرب على السامية والعلمانية في الغرب، وتزعّمت ذلك كل من فرنسا وبلجيكا وقد كان لكل ذلك ردة فعل للمسلمين في كل أنحاء العالم مطالبين بوضع حد لمثل هذه التصرّفات وبمعاقبة كل من كان له يد فيها. ولأن الغرب يرى بمنظار واحد-أو بالتعبير القرآني الكفر ملة واحدة- فمن هذا المنطلق فان الاتحاد الاوروبي أكد أنه سيقف مع الدنمارك في حال إعلان مقاطعة رسمية من بعض الدول الإسلامية، وسيرفع الاتحاد القضية إلى منظمة التجارة العالمية لتتخذ ما هو مناسب لأن الاتحاد يعتبر أي إجراء رسمي متخذ ضد الدنمارك اعتداء على الاتحاد الاوروبي برمته. يراجع في ذلك كل الصحف والمجلات الصادرة في تلك الفترة [1426-1427هـ/2005-2006م] العربية منها والغربية وحتى المواقع الإلكترونية.

(2)ورد ذكر آدم عليه السلام وقصته مع الشجرة في الجنة في العديد من المواضع من القرآن الكريم مثاله لا الحصر قوله تعالى:﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[البقرة: 35-36]. وقوله تعالى:﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[الأعراف: 19-23].وللمزيد من الفائدة يراجع تفسير هذه الآيات وغيرها في مضانها.

مع العلم أن آدم عليه السلام لم يمر بمراحل العمر التي تعتري الآدمية من الولادة إلى الموت[1]، لذلك فلا ضير عليه ولا تثريب، والعيب كل العيب في ذريته التي جاءت بعده ولم تستفد من تجاربها عبر عمرها الطويل ومراحل هذا العمر المتعدِّدة.

فإذا كان هنالك دافع ذاتي فلا بد وأن يكون له هدف وغاية، والهدف والغاية المرجوان هما بلوغ الحقيقة العلمية والوصول إلى كشف كنه الشيء المبحوث عنه وفيه، وكشف حجب الجهل وقد يركب لهذه الغاية كل سهل ووعر حتى يشفي غليله ويشبع نهمه[2].

فكان لأصحاب هذا الاتجاه سفريات وتنقيبات ومحطات حاسمة في مسيرتهم العلمية أوصلت البعض منهم إلى الحقيقة التي عنوها في أبحاثهم، فاعتنقوا الحقيقة وتركوا ما كانوا عليه، ومنهم من صادف في نفسه شيئاً من الكِبر فجانب الحقيقة أو أغفلها، ومنهم من ناصب العداء لتلك الحقيقة وسبح ضد التيار وما أكثرهم.

---

(1) جاء ذكر مراحل خلق الإنسان في القرآن الكريم والسنة المطهّرة مفصّلة وأكّد العلم الحديث ذلك، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾[الحج:05]. وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾[المؤمنون:13-16]. وقوله سبحانه:﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[غافر:67-68]. وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" تَكُونُ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً نُطْفَةً ، وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً عَلَقَةً ، وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً مُضْغَةً ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ مَلَكٌ ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِرِزْقِهِ ، وَأَجَلِهِ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ". الطحاوي أبو جعفر، أحمد بن محمد بن سلامة(238-321هـ/ 852-933م): شرح مشكل الآثار، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 1415هـ/ 1994م، ج9 ص 485، الحديث رقم:3870.

(2) عبد المتعال محمد الجبري: الإستشراق وجه للاستعمار الفكري، مرجع سابق، ص278.

الفصل الثاني: الإستشراق في الميزان.

المبحث الأول: الإستشراق بين الإنصاف والإجحاف.

المبحث الثاني: وسائل الإستشراق وأساليبه

المبحث الثالث: مناهج الإستشراق.

المبحث الرابع: تمويل الإستشراق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني: الإستشراق في الميزان.

المبحث الأول: الإستشراق بين الإنصاف والإجحاف.

تصيب الإنسان في بعض الأحيان نوبات من التقاعس أو الكسل، وفي بعضها الآخر قد تصيبه لحظات من الغفلة والغفوة، وفي بعضها الأخير قد تصيبه بعض سكرات الموت فيتجرَّع مرارتها وقسوتها، ثم ما يَلْبث بعدها أن يتعافى ما لم يحن أجله، والذي يجري على حياة الشخص الواحد بجميع مراحلها يجري كذلك على حياة الأمم والشعوب.

فقد مرَّت الأمة العربية الإسلامية بمرحلة من مراحل حياتها كانت فيها نشطة حية قادت العالم ولفترة طويلة من الزمن، وكان لها ذلك لما أخذت بأسباب التمكين، ثم دار الزمان دورته، فإذا الذي كان قائداً أصبح مَقُوداً، والذي كان متصدراً أصبح تالياً، وضاعت رتبة الريادة، ودخلت الأمة مصحة التاريخ قسم الإنعاش المكثَّف، لكن هيهات أن تموت وقد كتب لها البقاء الأزلي.

وفي أثناء غيبوبتها سطت بعض الأمم على تراثها وتَركتها وأملاكها، وانْتُهِب من كل ذلك الشيء الكثير، واقتطعت من أراضيها المساحات الكبرى، وحرِّف السواد الأعظم من تاريخها، كما أنها خضعت لعملية استئصال للكثير من مقوِّماتها.

وفرضت عليها الوصاية السياسية على الكثير من أراضيها، كما فرضت عليها الوصاية الفكرية وذلك عبر جرعات محسوبة ومدقَّقة عساها تفقدها هذه الأخيرة التواصل مع ماضيها، وتربطها بروابط فكرية جديدة روافدها غربية شكلاً ومضموناً قد توصلها إلى الهدف المنشود وهو القطيعة الحتمية مع كل ما له صلة بالإسلام وشريعته.

واختير لأداء هذه المهمة نفر من أبناء الغرب سموا أنفسهم بالمستشرقين ونحوا منهجا فكرياً غربياً سموه الإستشراق، وقد مرَّ الإستشراق بمراحل منذ ولادته، وطال عمره وكثرت هناته ومزالقه وسقطاته، لذا وجب تقويمه وتقويم إنتاجه بوضعه في ميزان العلم والحقيقة العلمية، فما كان منه حسناً وضع في ميزاته وحُسب له، وما كان منه غير ذلك وضع في كفة مساوئه وحسب عليه.

صدرت في العالم العربي والإسلامي في حق الإستشراق العديد من الدراسات والمؤلفات، وبخاصة في بداية النصف الثاني من القرن العشرين والعقود التي جاءت بعد ذلك، وهذا دليل على الاستفاقة وعودة نبض الحياة والانتعاش في شرايين الأمة بعد مرحلة الإنعاش التي كابدتها وكاد

يقضى عليها فيها، غير أن معظم ما صدر كان كإرهاصات وبدايات وردَّات فعل، فكانت متذبذبة ومنقطعة ومسيرتها غير متواصلة الخطى.

وفي الآونة الأخيرة لقيت الدراسات التي اهتمت بالإستشراق وإنتاجه والقائمين عليه من أشخاص ومؤسسات وحتى الدول والحكومات، لقيت تلك الدراسات الدعم الكافي والاهتمام والرعاية ما أهَّل هذه الدراسات أن تكون باكورة إنتاج علمي موازٍ لعلم الإستشراق، وما دفع بعض الدول العربية والإسلامية أن تخصِّص له في جامعاتها بعض الكراسي التعليمية والتخصُّصية وحتى أن بعضها قد خصَّه بمعاهد ومراكز مستقلة.

وكما تمت الإشارة إليه، فإن هذا العلم جديد والمشتغلون فيه مبتدئون إذا ما قيس بعمر الإستشراق في الغرب، وأراء الباحثين فيه وأحكامهم عليه قد تشعبت وتفاوتت بين إنصاف وإجحاف، بين مدح وقدح، وبين إفراط وتفريط، إلا القلة منهم من اتخذت منهجا وسطا بين كل ذلك فقالت للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، وكان هذا أقل الربح بالنسبة للمؤسسة الإستشراقية، فقد استطاعت أن تفرِّق وجهات نظر الشرقيين بالنسبة للنظرة والحكم:" إن أقل ربح ربحه المستشرقون، هو تمزيق المفكرين الإسلاميين حولهم، وتحويل الصراع ضد الغزو الفكري الأجنبي إلى صراع بين المسلمين حول المستشرقين، أحسنوا أم أساءوا"[1].

المطلب الأول: القسم المفرط في المدح.

يُكِن هذا الفريق من الباحثين للإستشراق وأهله كل المودة والاحترام بداية ثم ما لبثوا أن ألبسوا أهله حللاً موشية مطرَّزة ومذهَّبة ثم وضعوهم في مرتبة الاقتداء والمثل والتي لا يمكن بعدها بأي حال من الأحوال الانتقاص منهم أو حتى الإيماء إليهم إيحاءً، فهم القادة في هذا السبيل العلمي وهم القدوة.

فقد قدَّم المستشرقون للعالم كلِّه من الخدمات الجليلة ما هو ملحوظ عيانا، وما قدَّموه للعالم العربي والإسلامي يكاد ينطق لسان حاله بياناً، أنهم المحسنون في كل ما ذهبوا إليه من نظريات وما خرَّجوا من علوم؛ فقد تناولوا:" تراثنا بالكشف والجمع والصون والتقويم والفهرسة"[2].

---

(1) عبد المتعال الجبري: المرجع السابق، ص215.

(2) نجيب العقيقي: المستشرقون، مرجع سابق، ج1 ص7.

فيرجع الفضل إليهم في نشر المخطوطات وفهرستها، والمنهج العلمي الحديث في البحوث والدراسات الذي تناولت معظم فروع المعرفة الإنسانية:" وقد تناولت دراسات المستشرقين موضوعات شتى من اللغات والآداب والعلوم والفنون والعقائد والتاريخ والجغرافيا، هذا خلا الذين نشطوا للتنقيب عن الآثار وحل رموزها ووصف رحلاتهم فجلوا كثيرا من بلاد العرب وتراثها الحديث للعالم"[1].

فنشر المستشرقين للتراث ولنفائسه محسوب في حسناتهم وإيجابياتهم، لكن أن يصبح النظر إليهم بنظرة التقديس والمصدرية الملزمة فهذا شيء يحتاج إلى مراجعة فكرية وعلمية؛ إلا أن الشغوفين بهم لا يرون وجودهم العلمي ولا لأبحاثهم إلا من خلال ما توصل إليه الأسياد الأساتيذ وما وقفوا عليه هم، فيقولون مقررين:" وكيف نتصور أستاذا للأدب العربي لا يلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج(المستشرقون) من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشرق وأدبه ولغاته المختلفة، وإنما يتلمس العلم عند هؤلاء الناس، ولا بد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا"[2].

فهم أصحاب الفضل علينا في كل شيء، والسبب في ذلك أن:" اهتم المستشرقون بتاريخنا الحضاري وهم يعتبرونه ركنا أصيلا في دراسة أدبنا ولغتنا وعلومنا، ويرجع إليهم الفضل في إبراز المقومات الكبرى والمعالم الرئيسية لحضارتنا الإسلامية"، ثم يستطرد ذات المتكلم في الصفحة التي تليها قائلاً:" والحق أن كثيرا من كتب المراجع التي نعتمد عليها اليوم في دراساتنا العربية والشرقية إنما يرجع الفضل في ظهورها وتيسير الانتفاع منها إلى أولئك العلماء من الانجليز والفرنسيين والألمان والايطاليين وغيرهم"[3].

ومحاسنهم لا تعدُّ ولا تحصى:" ومن محاسن المستشرقين إدخال المنهج العلمي على دراساتنا الإسلامية والعربية، وهذا المنهج قائم على الإحاطة والموازنة والترتيب والاستنباط لبلوغ الحقيقة، وقد طبقه المستشرقون على علومنا وآدابنا وفنوننا تطبيقا صحيحا"[4]. و لم يبق المنهج العلمي الغربي حكرا على بعض فروع

---

(1) نجيب العقيقي: المرجع السابق، ج2 ص8.

(2) د. طه حسين: مقدمة الأدب الجاهلي، دار الكتاب اللبناني بيروت،[د ت ط] الأعمال الكاملة،ج5 ص18.

(3) علي حسني الخربوطلي :المستشرقون والتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص88-89.

(4) علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق، ص124.

المعرفة العربية والإسلامية، بل قد شملها وشمل التراث كلية:" ولذا فقد استفاد التراث العربي حين طبق المستشرقون منهجهم العلمي على هذا التراث، فقد خلت نفوسهم وقلوبهم وعقولهم من آثار تلك العصبيات والمنازعات والأهواء، ولذا كانت آراؤهم علمية خالصة، وإن لم ترض بعض المسلمين الذين لا يزالون متأثرين بتلك العصبيات القديمة"[1].

ثم هؤلاء المعجبون، والعابدون في محراب الغرب، يعتذرون فيما ذهبوا إليه، وعذرهم أقبح من ذنبهم، رافعين شعارات لا أساس لها من الصحة، زاعمين بأنه وإن كانت للمستشرقين بعض الآراء الفاسدة والتي لا تتماشى والعروبة والإسلام، فإن تلك الآراء قد كان لها الدور الإيجابي في الفكر الإسلامي، فهي التي دفعت بالكثير من علماء الإسلام إلى النهوض ومقارعة الفكر الوافد والذب عن دينهم.

والعذر الثاني الذي يتحجج به المتزلّفون للإستشراق ومؤسساته، أن المستشرقين قد طرقوا كل فروع المعرفة وكل أبواب العلم، فما تركوا ناحية من نواحيه إلا وقد أشبعوها بحثا وتنقيباً، وقلَّبوها على وجوهها كلها، وهم في ذلك متسلحون بسلاح العلم الحقيقي والمنهج العلمي الذي لا يخالطه شك، مع ما تحلوا به من صبر وأناة، وعلى هذا الأساس فإن:" المستشرقين طرقوا كل ناحية من نواحي ثقافتنا، وعالجوا كل أمر ذي بال في ديننا وحضارتنا متبعين في دراستهم وأبحاثهم طرق البحث المنهجي المنظم، ولقد أتيح لهم أن يكونوا أحياناً كثيرة أكثر إحاطة بالمصادر، وأبصر بمواضع النقد"[2]. وقريب من هذا الكلام، وفي موضع آخر تأكيد لهذا الرأي، حيث يقول هو ذاته:" إن اطلاع الباحثين والمثقفين من العرب والمسلمين على الدراسات الجيدة التي كتبها المستشرقون بتجرد وإخلاص، أصبح أمراً ضرورياً، في سبيل وضع دراسات شاملة قريبة من الكمال تكشف جميع نواحي الحضارة العربية الإسلامية"[3].

فهذه عيِّنات لواقع الإستشراق في ميزان بعض المفكرين العرب والمسلمين المتأثرين به وقائمتهم لازالت طويلة، حتى أن البعض منهم لم يكتف بالإشارة أو التلميح لمزاياهم وأفضالهم، بل خصَّص

---

(1) علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق، ص 126.

(2) د.صلاح الدين المنجد: المنتقى من دراسات المستشرقين، دار الكتاب الجديد بيروت، ط1، 1978م، ج1 ص7.

(3) د.صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان، تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، دار الكتاب الجديد بيروت، ط1، 1978م، ج1، التمهيد.

لهم فصولاً خاصة بمدحهم والثناء عليهم والبعض الآخر أفرد لهم تآليف، ثم أسبغ عليهم فيها كل الأوصاف الحميدة والخِلال الحسنة، وفي هذا يقول عبد الله علي العليان في خاتمة كتابه:"الواقع أن جهود المستشرقين في كشف التاريخ العربي كانت كبيرة وباهرة، في الجوانب الفكرية والثقافية والتاريخية والعلمية وغيرها من الجوانب التي لا نستطيع حصرها في هذا البحث المتواضع الذي نحن بصدده" [1].

ثم يتابع حديثه مؤكداً مقولته السابقة ويعترف بأنه قبل كتابته لهذا الكتاب كانت له نظرة مغايرة وغير علمية ومجحفة في حق المستشرقين، فيقول:" وأعترف أنني قبل أن أدخل في كتابته[أي كتابته لهذا الكتاب] كانت لي نظرة قاتمة للإستشراق بصورة تعميمية في كل جهود المستشرقين، لكن القراءة الشاملة لكل المراجع مجال البحث جعلتني أغيّر تلك النظرة العامة المسبقة، سيما في الجانب العلمي، والجهود الأخرى المتصلة بأبحاث المستشرقين، في التراث الأدبي والتاريخي والاجتماعي للعرب وحضارتهم، حيث أفنى الكثير منهم عمره في دراسة جانب من هذه الجوانب بدون انقطاع أو ملل، وعلى أسس علمية ومنهجية غاية في الدقة والتنظيم"[2].

وفي الأخير يقرُّ مستسلماً للأحكام التي سبق وأن أصدرها ثم أكَّدها في حق المستشرقين أنه:" لولا جهود هؤلاء، لما استطعنا أن نعرف الكثير من تاريخنا ومآثر أجدادنا في شتى المعارف الإنسانية خلال عدة قرون، ولذلك من الحق أن نذكر أن جهود المستشرقين في كشف التاريخ العربي، تعتبر جهوداً رائدة وعظيمة، تستحق التقدير والإشادة"[3]؛ وهذا غاية الاستغراق في مناهج المستشرقين والتزلف لهم.

المطلب الثاني: القسم المفرط في القدح.

في القسم الأول تراءت النظرة المفرطة في المدح والاستغراق في الإستشراق، فأعين المستغرقين فيه لا ترى المعايب وإن وُجدت، وسواء قلَّت أو كثرت، وبالمقابل وُجدت أعينٌ لا ترى في الإستشراق ومؤسساته والمشتغلين به وكل ما نتج عن ذلك، إلا المساوئ.

---

(1) عبد الله علي العليان: الإستشراق بين الإنصاف والإجحاف، المركز الثقافي العربي بيروت، ط1، 2003م، ص141.

(2) عبد الله علي العليان: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) عبد الله علي العليان: المرجع السابق، ص142.

وهذا القسم من العلماء والباحثين قد يكون معذورا لما ذهب إليه وقد لا يكون، وذلك لأنه ما وُجدت في الكون مصلحة عامة مطلقة حسنة إلا وفيها من الشر جزءً، وما وُجدت مفسدة عامة مطلقة إلا وفيها من الحسن الشيء القليل، عَلِم ذلك من علم وجهلها من جهلها.

فمن قال بعذر هذه الفئة وموقفهم الذي اتخذوه من الإستشراق، رجع أولاً إلى أصل نشأة هذا العلم والعوامل التي ساعدته على النمو والتطور عبر تاريخه الطويل، وإلى الدراسات والأبحاث التي قام بها، وحال المشتغلين به وما كان لهم من دور سلبي، سواء على مستوى نظرهم للتراث الشرقي عامة مقارنة بنظرهم إلى تراث الأمم الأخرى التي درسوها، أو على مستوى الفاعلية في الميدان والواقع السياسي والاجتماعي في استعمار الشرق واستغلاله واستلابه.

وعلى هذا الأساس فهذه الفئة ما رأت في الإستشراق إلا صورة أوروبا المسيحية، وما كان لأوروبا من صولات وجولات على أرض الشرق، تقدح خيلها صوان الأرض وتبطش بالآدميين، ولما اندحرت قواها المدجَّجة بالحديد والنار ورُدَّت على أعقابها ورأت أنه لا طاقة لها بأهل الشرق في ميدان الصفائح، وضعت هذه الصفائح جانباً إلى حين، واتخذت من سود الصحائف ميدانا جديداً للمعركة.

وفي صفحات سابقة قد مرَّ ذكر الكثير من المستشرقين الذين باعوا ذممهم وعقولهم وحبسوا أقلامهم طوع ما تأمر به الدول الأوروبية، فقد كانوا هم طلائع الجيوش الكاشفة للأرض ثم ما تلبث أن تلحق بهم الجيوش المدمِّرة للأرض والهاتكة للعرض، وهم الذين اكتشفوا التراث الفكري للأمة ونقلوه بما اقتضت به الظروف، ومن هذا القبيل قال مالك بن نبي متحدِّثاً عن نقل التراث العربي الإسلامي إلى الغرب، قال:" إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها، فكانت في مرحلة القرون الوسطى، قبل وبعد توماس الأكويني، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها تلك الخطوات الموفقة التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر. وفي المرحلة العصرية والاستعمارية فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى، لا من اجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية."[1]

وليس بِدعاً ولا مدعاة للظن، أن هذا القسم المفرط في القدح والإجحاف في حق الإستشراق على من يرى ذلك، أن جعل هدف الإستشراق في نشر التراث الإسلامي بكل ما تحمل كلمة

---

(1) مالك بن نبي: المرجع السابق، ص169.

التراث من معنى، هو هدف لا صلة له بالعلمية ولا بالمنهج العلمي، وإنما غايته الدنيا والقصوى هي حاجة الغرب لمعرفة جوانب القوة عند المسلمين فيقوِّضون أساسها أو على الأقل يقلِّلون من متانتها وقوّتها، ويعرفون جوانب الضعف فيزيدونها ضعفاً ويعمِّقونها.

وبالتالي:" يتبين لنا أن الإنتاج الإستشراقي، بكلا نوعيه، كان شرا على المجتمع الإسلامي، لأنه ركَّب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والإطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في الماضي، أو في صورة التفنيد والإقلال من شأننا بحيث صيَّرتنا حماة الضيم عن مجتمع منهار." [1]

وعلى هذا الأساس فإن اهتمام المستشرقين بالتراث كانت مهمته ذات وجهتين، فالأولى تدميرية للنفسية العربية الإسلامية بما أحدثته من صدمة وما نتج عن تلك الصدمة من شعور بالنقص والتبعية ومحاولة تعدِّي تلك الصدمة وذلك الشعور ولو بالوسائل غير المجدية ولا النافعة، والثانية وهي تخديرية بنائية. فالتخديرية وذلك عن طريق الجرعات التي كانت تسكبها بين السطور من مدح للماضي الإسلامي الزاهر في عصوره الأولى، حتى يشعر المتلقي بالانتشاء ويطرب لذلك وهو يرى أمجاد الأجداد وهذا الأسلوب أخبث من أسلوب المواجهة:" لذلك اتجه المستشرقون إلى وسيلة أخبث، تنوم المشاعر بالسموم بدلا من أن توقظها للخطر الماثل، وهي البدء بتمجيد الإسلام وتعظيمه، وإعطائه حقه المنصف، حتى إذا استرخت أعصاب القارئ المسلم على المديح، واطمأنت نفسه على "نزاهة القصد والضمير العلمي"، في هذا المستشرق أو ذاك، دس له السم في العسل، ووضع في خلال المديح والتمجيد ما يشاء من التشويه والتشكيك، وهو مطمئن إلى مفعوله الأكيد"[2].

وتأكيدا لهذا المعنى وغير بعيد عنه يقول بعضهم:" إن تأثير الإستشراق والحركات التنصيرية قد وصلت سمومها وجراثيمها إلى نقطة الخطورة في جسم الأمة وعقلية بعض أبنائها سواء بطريقة

---

(1) مالك بن نبي: المرجع السابق، ص181-182.

(2) محمد قطب: التطور والثبات في حياة البشر، دار الشروق القاهرة، 1977م، ص265.

مباشرة أم بطريقة غير مباشرة؛ وتصب في عقول أبنائنا هذه السموم الفتاكة الموجهة إلينا المغلّفة تغليفا جيدا والمزودة بنشرات من المعلومات المضللة."[1]

وأما البنائية فهي أن تجعل مكان الأسس الصحيحة التي هدمتها في الفكر العربي والإسلامي أسساً هشة تقوم على مقوِّماتها الغربية ونظرتها هي، وهذا ما يلاحظ عند مراجعة ما قام بنشره الإستشراق من تراث، فقد اهتم بما يزيد من الاضطراب في الفكر العربي الإسلامي وتشويشه وما يساعد على ضبابية الصورة الصحيحة على الأقل، حتى عدَّ بعضهم أن أكثر ما نُشِر من التراث هو في الحقيقة ليس منه لأنه لا يُعدُّ ذا قيمة في حد ذاته إلا القليل منه:" فكثير مما نشر لا يُعد من مفاخر الفكر الإسلامي ولا ذخائره."[2]

والدليل على ذلك هو اشتغال الإستشراق بالتراث الذي يريده هو، فهو ينتقي ما يساعده في عملية البناء الهدمي للفكر العربي الإسلامي من خلال ما يقدِّمه، فهو:" لم يقدِّم لنا من تراثنا ما يساعد على النهوض من كبوة التخلف، وإنما قدّم ما يمكِّن بيننا أسباب التمزق والضعف والتبعية، ويحقق له مآربه في الهيمنة الفكرية والسياسية."[3]

والفكرة التي يؤكدها أصحاب هذا الاتجاه، أن الإستشراق ومن وراءه التبشير ومن بعده الاستعمار، إنما هي الوصول بالأمة أن تنبذ أصولها كلية وأن تتنصَّل من أي رابط يربطها بتاريخها أو دينها أو تراثها وأن ترتمي في أحضان الغرب كلية وتتبعه اتباع العبد لمالكه وسيده شِبرا شِبراً:" إن أوروبا اليوم متقدمة وليست متدينة، لقد طرحت الدين جانبا فتقدمت وتحضرت ووصلت إلى القوة والسلطان، ونحن متدينون، وفي الوقت نفسه متأخرون، فينبغي أن نسلك الطريق القويم، ننبذ ديننا – كما فعلت أوروبا- فنتقدم ونتحضر ونصل إلى القوة والسلطان وليس من الضروري أن نكفر أو أن نلحد، إنما يجب أن نسارع إلى فصل الدين عن كل ما له علاقة بواقع المجتمع وواقع الحياة، وتلك هي خلاصة السموم كلها التي وضعها التبشير والاستشراق والاستعمار." [4]

---

(1) محمد محمد أبو ليلة: القرآن الكريم من منظور إستشراقي دراسة نقدية تحليلية، دار النشر للجامعات القاهرة، ط1، 1423هـ/2002م، ص409.

(2) محمد الدسوقي: الفكر الإستشراقي في ميزان النقد العلمي، بحث ضمن كتاب دراسات إستشراقية وحضارية، مركز الدراسات الإستشراقية والحضارية، المدينة المنورة، 1993م، ص99.

(3) محمد الدسوقي: المرجع السابق، ص98.

(4) محمد قطب: المرجع السابق، ص 266.

ثم إن البعض، وحتى يؤكد أن الفكر الإستشراقي لم يكن علميا ولا خالصاً في جملته، ويؤكد أن ما كان منه كذلك إنما هو الاستثناء وما كان كذلك فلا قياس عليه، ذَكَر مجموعة من الأسباب، بداية من النشأة الكنسية ورعاية الكنيسة له وانتهاء بالتمويه والتلبيس في البحث والتظاهر بالموضوعية والاستيعاب وخلص إلى نتيجة قرَّر فيها أن هذه الأسباب هي :" التي حالت دون أن يكون الفكر الإستشراقي فكرا علمياً أو إنسانياً وما عرفه هذا الفكر على أيدي بعض المنصفين يعد استثناء أو شذوذا من القاعدة العامة التي قادته في الماضي والحاضر." (1)

ثم يقرِّر هذا القسم ما ذهب إليه زيادة على ما سبق ذكره:" أن الفكر الإستشراقي لم يمارس البحث للوقوف على ما في الإسلام من حقائق، ولكنه زاوله كلون من ألوان الفكر التاريخي، وهو لظروف نشأته لا يبذل جهداً لمعرفة الحقيقة، وإنما لإقامة الأدلة على صحة ما درج عليه من مبادئ وأفكار خاصة." (2)

ولعل في مثل هذا القول الشيء الكبير من الإجحاف والتنكر للحقيقة العلمية والمنهج العلمي، وإذا كان الأمر كذلك فكيف نفسر إسلام البعض من هؤلاء؟ وقد أخذ من بعضهم البحث العلمي والبحث عن الحقيقة السنوات الطويلة من أعمارهم، فلما علموها حقيقة تشبثوا بها من غير ريب ولا تردد، والأمثلة في ذلك كثيرة وقد تم ذكر بعضهم فيما سبق والإشارة إليهم.

المطلب الثالث: القسم الوسط.

هذا القسم من المشتغلين في ميدان الرد عن الإستشراق والتأليف فيه، رأى بعين الروية وميزان العقل أن لكل فن من فنون الحياة العلمية، محاسن ومساوئ، وأن لكل درب من دروبها مدارك ومفاوز، لذا تعامل مع هذا المنهج العلمي الجديد الوافد بحذر وحيطة في الأخذ منه، على ألاَّ يبخس المستشرقين أشياءهم ولا يضيِّع حقوقهم، وذلك من منظار واسع وشامل، لأن التراث العربي الإسلامي هو تراث إنساني وليس حكراً على فئة من الناس دون غيرها أو على أبناءه بالتحديد:" وهكذا كان لعناية الإستشراق بالتراث العربي الإسلامي فضل كبير على النهضة العربية

---

(1) محمد الدسوقي: المرجع السابق، ص126-127.

(2) محمد الدسوقي: المرجع السابق، ص128.

الحديثة، بحيث لا يمكن إغفاله أو تجاهله بل لا بد من النظر فيه والإشادة به حيثما أصاب والإشارة إليه حيثما أخطأ وأخفق." [1]

على أن الحقيقة الماثلة عياناً والمؤكدة تاريخياً، هي أن الإستشراق في بدايته قد نشأ بين أحضان الكنيسة التي أولته الرعاية الشاملة والدعم الكافي، وأن النشأة لم تكن علمية خالصة، بل لأهداف كنسية غربية، فقد اشتملت الدراسات الأولى عن الإسلام وأهله الأمور العظام من الأكاذيب والافتراءات، وذلك ليصدوا أوروبا عن الدخول في الإسلام أو حتى الافتتان به أو حتى الإقبال على دراسته، ولذلك كانت الطعنات تلو الطعنات.

وبمرور الزمن والمراحل التي مرَّ بها هذا النسق المعرفي ثم الاحتكاك الذي جمع العالم الشرقي بالعالم الغربي في الكثير من المواطن والتي حكمها الصراع ثم الصدام، تراءت لهم أن يغيِّروا أسلوبهم ومناهجهم، حتى يَعْدُو علمهم الذي يدَّعونه أقرب إلى المناهج التي وضعوها، ومن ثم غيَّروا الشيء الكثير فيه غير أنهم لم يبلغوا الموضوعية العلمية التي يدَّعونها.

والسبب في ذلك واضح جلي، فالفكرة الإستشراقية الأولى التي تكوَّنت حول الإسلام في أحضان الكنيسة لا يزال مفعولها قائم وصورتها القاتمة لا تزال معالمها قائمة كذلك، فهي لم تُمح، والبرهان في ذلك أن الكثير من المستشرقين لم يزل يجتر المعلومات الخاطئة والأقاويل الكاذبة، والصور الخيالية التي نُسجت في قرون مضت، مع ما تحمل تلك الأقاويل وتلك الصور من الأحقاد والأفكار المسمومة والمضلِّلة:" إن موقف الباحثين في الشؤون المعاصرة إنما هو استمرار لتراث أسلافهم إلا أنه يعرض الآن وراء واجهات مختلفة...ولو درسنا هذا الوضع دراسة فاحصة لوجدنا أن الحقد والتعصب متربصان في أذهان بعض الباحثين الذين لم نتوقع إطلاقاً وجودهما فيها، بل ونجدهما متواريين في أمكنة لم نظن قط كمونهما فيها"[2]

وبالمقابل كذلك، وفي الاتجاه الذي لا يماري فيه أحد، أن الإستشراق بقدر ما كان نقمة على الشرق بقدر ما حمل في طياته من النعمة من حيث درى أم لم يدر؛ وبقدر ما كدَّر أجواء العالم العربي الإسلامي، بقدر ما فتق حجب الجهل التي أحاطت به في فترة من فترات تاريخه وذلك بالمنهج الجديد الذي نهجه فقد:" اختفت كذلك من الأفق حملة المستشرقين المباشرة على الإسلام،

---

(1) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الإستشراق، مرجع سابق، ص169.

(2) عبد اللطيف الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، مرجع سابق، ص62.

التي كانت على أشدها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إذ ظهر للمستشرقين بالتجربة العملية أنها أدت عكس الغرض المطلوب، إذ أيقظت المسلمين من سباتهم، ووجهت مشاعرهم وعقولهم وأقلامهم إلى الدفاع عن الإسلام. فظهرت عشرات من الكتب أو المئات تدافع عن الإسلام. وكان في هذا خطر عظيم على الهدف المنشود من حركة الإستشراق. خطر صرح به المستشرق المعاصر ((ولفرد كانتول سميث)) في كتابه ((الإسلام في التاريخ المعاصر Islam In Modern History)) حيث يقول في أكثر من مكان في كتابه: إن الحركة المتحررة التي قادها الكتاب المتحررون والتي اتجهت إلى نقد الدين، كانت كفيلة بأن تأتي ثمارا طيبة، لولا أن حركة " الدفاع" عن الإسلام قد حالت دون هذه الثمار"[1].

ويُرد الفضل لأهله إن كانوا أصحاباً له سواء كانوا من بني جلدتنا ويدينون بديننا أو ممن سواهم، فالإستشراق كما سبقت الإشارة إليه ليس كله سوءً، ومن محاسنه التي تكتب له وهي جديرة بالتنويه والإشادة أن شحناته الكهربائية والمتمثلة في الكتب والدراسات والأبحاث، والتي أراد من خلالها قتل الشرق، والتي كانت تأتي تتراً، كانت سبباً قوياً وعاملاً فعَّالاً في بعث اليقظة في جسم الأمة الإسلامية، حيث أخرجته من مصحَّة الإنعاش التاريخية، وبعثته في واقع الحياة من جديد.

ويشيد بهذا الفضل للمستشرقين بعضهم في قول القائل:" لهذا أصبح جلياً الآن أن الإستشراق عنى عناية كبرى بكل ما هو شرقي، وإسلامي وعربي...ونشر عشرات الآلاف من المقالات دارساً في كل منها قضايا الإسلام ودور العرب ومنزلتهم...كما قام بترجمة عدد هائل من الكتب العربية إلى اللغات المختلفة، وعنى بتحقيقها وكشف عن مخطوطاتها ونظم فهارسها حتى يمكن القول بأن الفكر العربي الإسلامي يزداد وضوحاً يوماً بعد يوم، وأهمية سنة بعد سنة وأصالة جيلاً بعد جيل." (2)

ومثل تلك الإشادة وغيرها نجدها في قول بعضهم:" وهكذا نرى أن فضل المستشرقين لم يقف عند ما أسدوه من خدمات للتراث العربي والحضارة العربية من نشر المخطوطات وفهرستها وتحقيق المراجع وطبعها ووضع الدراسات الموسوعية...بل إنه يشمل أجيالا من الأساتذة العرب

---

(1) محمد قطب: المرجع السابق، ص265.

(2) أحمد سمايلوفتش: المرجع السابق، ص172.

الذين درسوا عليهم إما في الجامعات العربية أو في الجامعات الأوروبية وسواها، وأخذوا عنهم مناهج البحث التي نقلوها بدورهم إلى طلابهم العرب." [1]

وقد تأتي المدائح والإشارات بالحسنى لأعمال المستشرقين في قالب عذر، يعتذر به بعضهم لأولئك، حتى وإن أخطأوا فهم معذورون سواء اعتذروا هم أم لم يعتذروا، لأن غاية الأمر أنهم:" بشر فهم يخطئون...وإن كان بعضهم قد تجنّى على التراث العربي أو حمل عليه أو تعصَّب ضده فلعل ذلك عن سوء فهم أو عن غير قصد...وإن كان بعضهم قد هاجم الإسلام فإن عددا منهم قد اعتنقوا الديانة الإسلامية ودافعوا عن الإسلام." [2]

المبحث الثاني: وسائل الإستشراق وأساليبه.

منذ أن فكَّر القساوسة والرهبان المسيحيون في مناهضة الإسلام وقومه، وهم يبذلون قصارى الجهد للنيل منهما، فلم يتركوا سبيلاً لذلك إلا سلكوه، ولا وسيلة إلا أتوها.

ومع مرور الزمن، وتطور فكرة التصدي والتحدي للإسلام، تطورت الوسائل وكثرت وتعددت أوجه أساليب التصدي وكان المتصدِّر في كل تلك المراحل والمخططون لها هم المستشرقون.

فالمستشرقون لم يجدوا مجالا من مجالات الأنشطة المعرفية والتوجيهية إلا تخصصوا فيها ليوجِّهوها وجهتهم، ولما علموا بخطورة التعليم وأثره قاموا بإنشاء المؤسسات التعليمية لتوجيه التعليم والتثقيف، ولما رأوا التنافر والتباعد بين المستشرقين ومدارسه قاموا بجمع الجهود وعقد المؤتمرات والندوات ولقاءات التحاور، وإصدار المجلات ونشر المقالات وجمع المخطوطات العربية، والتحقيق والنشر وتأليف الكتب وإنشاء الموسوعات العلمية الإسلامية.

فكانت لهم جهود معتبرة طويلة النفس مركَّزة الخطى، ما عرفوا خلالها الكلل ولا الملل فخطَّطوا لها بوسائل وأساليب والتي جاءت على لسان زويمر[3] في قوله:" لقد قبضنا أيها الإخوان

---

(1) ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، معهد الإنماء العربي بيروت، ط1، 1982م، ص274.

(2) ميشال جحا: المرجع السابق، ص275.

(3) زويمر صمويل (1867- 1952م) Zewemer Samuel رئيس المبشرين في الشرق الأوسط، له جهود معروفة في التنصير، وله طريقته التي أملاها على من بعده من خلال المؤتمرات المتعددة التي أقامها وشارك فيها، له آثار عدة في العلاقات بين النصرانية والإسلام، أفقدها بتعصبه واعتسافه وتضليله قيمتها العلمية منها : يسوع في إحياء الغزالي وفرنسيس الأسيزي

في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير، والكنائس والجمعيات، والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية، والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء، إنكم أعددتم له بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهَّدتم له كل التمهيد"[1].

والهدف الأكبر يحدوهم، والذي رسمه الأولون منهم ولا زال شعارا وغاية يتغنى الآخِرون منهم به والمتمثّل في قول زويمر:"إنكم أعددتم شباباً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار، لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات، فإذا تعلَّم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوات، ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء"[2]

والهدف الأكبر هذا قد وضعوا له بعض اللبنات والركائز الأساسية التي تساعده وتحقِّقه ميدانياً، فهم لم يتوصَّلوا إليه بأيسر الطرق ولا بأوهن الأسباب ولا بأوهى الوسائل، فقد بذلوا في ذلك المال الكثير والجهد المعتبر الذي يُجمِّله الصبر الطويل، معتمدين تارة على تحريف الحقائق وتزويرها ضمن نسق معرفي واضح المعالم، وفي إطار منهجي يحقق المطلوب والأمل المرغوب، فقد يراد في كتاباتهم عن المشرق الإسلامي:" التنفير من حياة المسلمين الحاضرة والغابرة، فتصوَّر في كتب التاريخ والرحلات بأنها حياة بدائية، وتبرز من طبائعهم وعاداتهم العادات المنحطة. وقد يراد تفتيت الكيان الإسلامي بتمزيق الوحدة الفكرية حول الآراء الغربية والمفاهيم الإسلامية التي جمعت المسلمين أيام قوتهم، فالمتمزقون فكريا لا يلتقون سياسيا ولا اقتصاديا ولا عسكريا، وهذا الذي مهَّد للاستعمار في الشرق الإسلامي كله"[3].

والإسلام. وتولى رئاسة تحرير مجلة العالم الإسلامي التي أنشأها ماكدونالد. نجيب العقيقي : المستشرقون، مرجع سابق، ج3 ص 138.

(1) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة، مرجع سابق، ص102.

(2) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) عبد المتعال محمد الجبري: المرجع السابق، ص283.

وتارة ثانية يعتمدون على الوسائل المادية وقوة الحماية التي يوفِّرها الاستعمار ومؤسسات الدول الغربية في بلدان العالم الإسلامي سواء في إنشاء المؤسسات التبشيرية أو المراكز الإستشراقية على جميع مستوياتها أو أصنافها، ومثل هذا ما وقع في مصر حيث نرى التدخل السافر في الشؤون الداخلية فقد:" بلغ من مساندة الاستعمار الانجليزي لدعاة التبشير أن المستشار الانجليزي "دنلوب" أمر وزير الأوقاف المصري بإلغاء المستشفى المصري الذي بنته الوزارة بمصر القديمة بجوار مستشفى "هرمن" التبشيري، لأنه –في رأيه- يصرف كثيرا من فقراء المسلمين عنهم فيحرمون من التبشير بالنصرانية، كما أمر اللورد بتعطيل مجلة المنار لأنها ترد على المبشرين"[1].

ومرة ثالثة نراهم يعتمدون على وسائل تأثيرية نفسية لها إيقاعاتها وأوتارها الخاصة بها، وقد مرَّ ذكر أسلوب الملاطفة ومدى خطورته، والذي يصل حدُّه إلى درجة التخدير والتنويم، حتى لا تثور ثائرة الشرق وأهله، ولا يكون لهم أي ردة فعل تجاه ما يقوم به المستشرقون والمؤسسات التي تدعمهم، وقد وجدوه أنجع أسلوب في كثير من الأحيان. وقد صدق مالك بن نبي في وصفه لهذه الحال فقال:" ولكننا على عكس ذلك، نجد للمستشرقين المادحين الأثر الملموس، الذي يمكننا تصوره بقدر ما ندرك أنه لم يجد في نفوسنا أيَّ استعداد لرد الفعل، حيث لم يكن هنالك في بادئ الأمر، مبرر للدفاع الذي فَقَد جدواه وكأنما أصبح جهازه معطلا في نفوسنا"[2].

وقد تأتي وسائل الإستشراق وأساليبه مغايرة تماماً لما قد تم ذكر البعض من أوجهها السابقة، وما دام المقام مقام الحديث عن السيرة النبوية، فقد يَعْمد المستشرق إلى تجاهل حقائق السيرة أثناء كتابته عن النبي ﷺ وهو منطلِق في ذلك من النظرة الاستعلائية الغربية التي ترى كل ما هو أو من هو غير غربي فهو دونيٌ.

لذا فلا بأس أن يكتب الغربيون بما هو كامن في نظرهم عنه ﷺ بتلك الصفة الدونية، والتي لا تليق حتى بمقام الإنسان العادي فما بالهم بمقام المصلح أو البطل، والتي مثَّلتها رواية دانتي،[3] في

---

(1) عبد الرحمن عميرة: الإسلام والمسلمون، مرجع سابق، ص 95.

(2) مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، مرجع سابق، ص168.

(3) دانتي ألجيري(1265-1321م) Dante Alighieri أديب من شعراء إيطاليا في القرون الوسطى، ولد بفلورنسا، تلقى تعليما زاخرا بموضوعاته الكلاسيكية والنصرانية، تزوج من جما دوناتي وأنجبا ثلاثة أطفال، تقلَّد مناصب مهمة في حكومة فلورنسا خلال التسعينيات من القرن الثالث عشر الميلادي، وفي سنة 1302م تم نفيه من فلورنسا، وعاش ما تبقى من حياته بالمنفى وتوفي في رافينا ودفن بها. الموسوعة العربية العالمية،مرجع سابق، ج10، ص232.

العصور الوسطى والتي كلُّها إسفاف في حق الأدب وفي حق المعرفة الإنسانية والتي كانت حشواً من سوء أدب وتطاول في حق مقام النبوة عموما ومقام سيد الخلق ﷺ والتي تسمى الكوميديا الإلهية[1] وغيرها كثير وهي تمثل أحد الشواهد الكتابية والمخطوطة إلى يومنا هذا، وأحد الشهود على انحطاط الفكر الغربي عامة والإستشراقي بصفة خاصة.

ومنه كذلك أن ينحو في تصويره ﷺ على غير صورته التاريخية الحقيقية، فإذا ما أحسن قولا وفعلاً هو أن يأتي بالروايات الواهية والضعيفة ثم يدلِّل عليها بما هو منكر ومكذوب لينسب للنبي ﷺ ما ليس فيه أو له مدَّعياً في ذلك إتباع المنهج العلمي الذي يخضع كل شيء للمحك العقلي ويؤمن بالماديات كدلائل وما غاب عن الحواس فما هو إلا هرطقة:" ومن هذه المسلمات أيضا ما يسمى المنهج العلمي، ووزن كل أمر بميزان العقل وحده، وجريا على هذه القضية رفض معظم المستشرقين الإيمان بمعجزات الأنبياء ومعجزات محمدﷺ خاصة، فاتجهوا إلى تأويل المرويِّ منها

---

(1) الكوميديا الإلهية Divine Comedy ملحمة شعرية طويلة للشاعر الإيطالي دانتي أليجيري، عرفت في الأدب العالمي بهذا الاسم. بدأها دانتي عام 1308م وانتهى منها عام 1321م وموضوعها الرئيسي هو الحياة بعد الموت، ودانتي هو الشخصية الرئيسية فيها. وتنقسم الكوميديا الإلهية إلى الجحيم والمطْهر والجنة (الفردوس). وقد أطلق عليها دانتي الكوميديا لأنها انتهت نهاية سعيدة. ثم أضافت إليها الأجيال اللاحقة صفة الإلهية. وقد قسم دانتي الأقسام الثلاثة للقصيدة إلى أجزاء أخرى تسمى الأجزاء الداخلية. ويضم كل من قسمي المطْهر والجنة (الفردوس) 33 جزءًا. أما الجحيم فيضم 34 جزءًا. وتتميز جميع الأجزاء بالإيقاع القوي نظرًا لمقاطعها الموشحية ذات الأبيات الثلاثة. وفي هذا الشكل الشعري الذي اخترعه دانتي، نجد أن البيتين الأول والثالث من كل مقطوعة على وزن البيت الأوسط من المقطوعة السابقة. وتبدأ القصة بدانتي المفقود في غابة مظلمة، ويمثل ذلك عنده إحساسه بتفاهة حياته، والشر الذي كان يراه في مجتمعه. وفي يوم جمعة صحو، وبعد ليلة من التجوال المؤلم، يتقابل مع الشاعر الروماني فيرجيل الذي يعده بأن يخرجه من تلك الغابة ويقوده إلى رحلة في العالم الآخر. ويدخلان الجحيم وهو حفرة فظيعة على هيئة مخروط عميق في باطن الأرض، وفي الحفرة تسع دوائر، حيث يريان جموعًا من الأفراد، يعانون العذاب الذي تصبه فوق رؤوسهم الوحوش الخرافية، والشياطين والمخلوقات الأخرى، وذلك عقابًا على خطاياهم[هذه إضافة مني لم تذكرها الموسوعة وهي أنه: في الدائرة التاسعة وهي آخر الدوائر يرى النبي محمد ﷺ يتعذب بزعمه] . ويغادر كل من دانتي وفيرجيل الجحيم، ويصلان إلى جبل المَطْهَر ومن هناك يتسلقان إلى شرفات مضيئة فيها الموتى الذين وهبوا الخلاص يبحثون عن الغفران من الخطايا التي اقترفوها على الأرض. ويملأ جو من الأمان والأمل ذلك المكان الخاص بالتطهر، على عكس المعاناة الكبيرة واليأس اللذين مرا بهما في الجحيم. وعند وصولهما إلى الجنة الأرضية على قمة جبل المَطْهَر، يوصي فيرجيل بدانتي إلى مرشدة جديدة هي بياتريس. ويقف دانتي في بهجة ونشوة، ويتفهم في النهاية الحقيقة النهائية للحياة وما يعنيه الكون. وتذهب جماعة من مؤرخي الأدب ونقاده إلى أن دانتي تأثر في هذا العمل بقصة "الإسراء والمعراج" وربما أيضًا برسالة الغفران لأبي العلاء المعري (ت449هـ/1057م) وأخذ الفكرة والمنهج عنه. الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، ج20، ص277.

تأويلا يتفق والسنن الطبيعية، أو يتفق مع خيط الفكر العقلي المجرد، فإن لم يتفق مع المنطق العقلي أو مع السنن الطبيعية أنكروه"[1].

وكثير من مدارس الإستشراق أعلنت عن نواياها الصريحة، وأعلنت عن وسائلها وأساليبها في الكيد والمكر جهاراً، غير مبالية بأي ضابط من ضوابط الأخلاق والمروءة أو حتى المناهج العلمية التي تدّعيها، وهي في ذلك غير متناسية الهدف العام الذي تعمل من أجله كل القِوى الغربية وتسهر على تنفيذه، في شكل مجموعة من النقاط أهمها:" تطعيم أفكار المسلمين بالعقائد والمفاهيم المادية بأسلوب يتماشى مع مزاج كل شعب من الشعوب الإسلامية؛ تسريب الفلسفة المادية إلى عقول المسلمين حتى يتراءى لهم أن المفاهيم الإسلامية متناقضة وغير ثابتة على أساس؛ تدعيم هذه الفلسفة بالبراهين من أقوال وفتاوى علماء المسلمين في أمورهم ومسائلهم الخلافية لتكون هذه البراهين حجة دامغة، وتؤتي بأمثلة من هذه الفتاوى والأقوال من جميع مذاهب المسلمين وآراء علمائهم"[2].

وحدَّد بعض المشتغلين[3] بالإستشراق وهم في حال الرد عليه، بعض وسائله وأساليبه التي يستعملها في محاربة الإسلام والمسلمين، والمتمثِّلة في بعض المؤسسات الغربية في حد ذاتها وعلى رأسها مؤسسة التنصير التي كان لها الدور الكبير في التشويش على الفكر الشرقي بما أدخلت من دعاوى باطلة ودعايات لا أساس لها حول الإسلام عامة.

وما صاحب تلك الدعاوى والدعايات من أفكار ضالة مضلِّلة وتيارات لا أساس لها في الواقع مثل الدعوة إلى الفكر المادي والوجودية والعلمانية، مع تشجيع التيارات الفكرية التي تنشأ في ظل الإسلام وتخدم مصالح الغرب مثل البهائية والقاديانية بما يصاحب كل ذلك من تنميق وتزيين لكل تلك الأفكار والدعاوى والحركات الهدَّامة في وسائل الإعلام الغربية أو العربية قصد الطعن والتشويش؛ والادِّعاء بأن اللغة العربية أصبحت عقيمة غير مجدية ولا خادمة للعلم، وهي أحد مظاهر التخلف وأحد أسبابه، وهم يعلمون في قرارات أنفسهم أن العربية قد حملت العلوم لقرون

---

(1) عبد المتعال محمد الجبري: المرجع السابق، ص239.

(2) محمد محمد الدهان: قوى الشر المتحالفة، مرجع سابق، ص68.

(3) د. عبد المنعم محمد حسنين: الإستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته، مجلة الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، م14، عدد38، ص244-264. بتصرف

ولم تعيَ بحملها وما ضنت، وحوت كتاب الله وكانت وعاء حمله ولم تعجز بحمله وما ضاقت، غير أن النفوس المريضة تضيق بأصحابها فقد:" استخدم المستشرقون الأوائل على وجه العموم خطة عملية في تناولهم للإسلام تهدف إلى تشويه صورته والتشكيك في مصداقيته، فاستهدفوا القرآن الكريم باعتباره قاعدة الإسلام الكبرى الذي اجتمع عليه العرب، فاتجه المستشرقون أولاً إلى ترجمة القرآن الكريم بهدف تحريف كلمه، وتصحيف معانيه بحيث تخدم أغراضهم في الحط من الإسلام، ولهذا استخدموا هذه الترجمات بطرق مغرضة للوصول إلى أهداف محددة، وملتوية بعيدة عن النص في لغته وفحواه، من هذه الطرق:

1- انتقاد الأحاديث النبوية الصحيحة.

2- اعتمادهم على كثير من مادة أدب السيرة النبوية والمغازي غير الصحيحة.

3- اعتمادهم على الأحاديث الضعيفة، والحكايات التاريخية الملفقة والروايات المتعارضة في ظاهرها، دون بذل أدنى جهد للتوفيق بينها في إطار الروايات الصحيحة والمسلمات الإسلامية ونحو ذلك. وقد قادتهم أو ساعدتهم هذه الخطة المسبقة إلى تقرير نتائج غير صحيحة علميا، وأحيانا كثيرة، غير مقبولة عقلياً، وليس لها أدنى ارتباط بمقدماتها"[1].

ولعل هذه الإطلالة السريعة حول الوسائل والأساليب التي استخدمتها مؤسسة الإستشراق ما يغني عن تلمُّس غيرها، أو على الأقل ما يفتح أفق السؤال حول المناهج التي كانت مستعملة مع تلكم الوسائل والأساليب، فما مناهجهم؟

المبحث الثالث: مناهج الإستشراق.

تناول الإستشراق الدراسات العربية والإسلامية بطرق ومناهج اختلفت من مدرسة إلى أخرى ومن موضوع إلى آخر ولو في نفس المدرسة، غير أن الطابع العام للمناهج المعتمدة عندهم لا تكاد تخرج عن الطابع العام للنسق الإستشراقي الذي وضع أسسه وأطره المستشرقون القدامى، حتى وإن كان فيه بعض التعديل لأنهم ينظرون إلى الأمة العربية والإسلامية بمنظار واحد وبلون واحد ويصدرون حكمهم على قول واحد، يقول رودي بارت في سياق ذكر مناهج المستشرقين الألمان:" إن العلماء الألمان الذين عملوا في هذا الصعيد لم يكونوا قط مستقلين استقلالا ذاتيا وبأن أمرهم في

(1) محمد محمد أبو ليلة: المرجع السابق، ص401.

هذا يشبه أمر أقرانهم من الأمم الأخرى، ذلك أن الإستشراق مسألة عالمية مسألة تهم أوروبا بأسرها لهذا كان من التعسف حيال الموضوع أن يظن المرء أن في إمكانه أن يعالج جهود الألمان على أنها مطلقة وأن يفصلها عن ارتباطها بالأوشاج والأربطة العالمية"[1].

ولقد بنى المستشرقون مناهجهم على الشك والظن والدس والغمز واللمز والتجريح والتلميح والقدح والمدح في بعض الأحيان باستثناء القلة منهم؛ وهذا ما يؤكده غير واحد من الباحثين، سواء كانوا من بني جلدتنا أو كانوا منهم:" كل الأكاذيب والشبهات والتشويه، والدسّ الخبيث، والافتراءات التي وجهت لعقيدتنا وتاريخنا وأعلامنا، نحن منها براء قطعا، ولكن الكنيسة والمستشرقين والمبشرين وجّهوها إلينا خبثاً وحقداً صليبيةً ومكراً، لنقف موقف المتهم المدافع عن نفسه الذي يسعى بكل ملكاته وإمكاناته لدفع ما وجّه إليه، خشية الإدانة"[2].

ويذكر الغربيون أنفسهم هذه الحقيقة وهذه الأسس المنهجية في تناول الدراسات التي تمس حقل وساحة الإسلام والشرق العربي مع ذكر السبب المباشر الذي أدَّى إلى ذلك وهو التعصب الديني الغربي (المسيحي اليهودي) المستتر في قول أحدهم:" لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية"[3].

ويقول هاملتون جب فاضحا الصورة المقززة للمناهج الغربية ومندِّدا بها وبأهلها والتي يصفها بأنها مناهج سطحية مفضوحة، رغم اعترافه بالمجهود المبذول في الفترات المتأخرة من عمر الإستشراق للتنزه من ترسبات الماضي لكن هيهات، حيث يقول:" ولقد قامت في صفوفهم في السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول النفاذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الديني الإسلامي بدل السطحية الفاضحة التي صبغت دراساتهم السابقة، ولكن ورغم ذلك فإن التأثر بالأحكام التي

---

(1) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية، مرجع سابق، ص29.

(2) شوقي أبو خليل: الإسقاط، مرجع سابق، ص 15.

(3) برنارد لويس: العرب في التاريخ، تحقيق وتعريب نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين بيروت، 1954م، ص63.

صدرت مسبقا على الإسلام والتي اتخذت صورة (تقليد منهجي) في الغرب لا زال قويا في بحوثهم ولا يمكن الإغفال عنها في أية دراسة لهم عن الإسلام"[1].

وغير بعيد من قول جب ولا ما جاء فيه من وصف للمناهج الغربية، يذكر منتجمري واط مناهج الغرب في الدراسات العربية والإسلامية محدِّدا لها فترة زمنية ضاربة الجذور في القِدَم، ورغم ذلك لا تزال تلك المناهج ترزح تحت تأثير المنهج النمطي الأول الذي رسمه الأسلاف منهم بقوله:" منذ القرن الثاني عشر جد الباحثون من أجل تقويم الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا للإسلام، ولكن ورغم الجهد العلمي المبذول فإن آثار الموقف المجافي للحقيقة والتي ولدتها كتابات القرون الوسطى في أوروبا لا زالت قائمة، فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتثاثها كليا"[2].

ومثل ذلك ما قاله أحدهم في العصر الحديث في أثناء تقويم المنهج الغربي والرد على التعصب النصراني اليهودي في الكتابات الغربية والتي امتلأت بالعفن الفكري والأكاذيب المشوِّهة للحقيقة العلمية والمجانبة للمنهج العلمي الصِرف فيقول:" رغم المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام، فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا كليا عنها كما يتوهمون"[3].

وعلى هذا الأساس الذي قرَّره غير واحد من الباحثين، يتبيَّن أنه ليست في حقل الدراسات الإنسانية دائرة سادتها الفوضى وعمها الاضطراب وعمل فيها الحقد والتحامل المقيت كدائرة الدراسات الإسلامية في الغرب، وقد مرَّ في صفحات سابقة ما ذكره الطيباوي في مثل هذا المقام عن المستشرقين الإنجليز والذي كان احتكاكه معهم ميدانيا وكان في ذلك خير شاهد عليهم وعلى مناهجهم المعتمدة في البحث في الإسلاميات.

ثم إن الإستشراق كمنهج وكمحاولة فكرية لفهم الإسلام، عقيدةً وحضارةً وتراثاً، كان دافعه الأصيل هو العمل من أجل إنكار كل المقومات ذات الصلة الثقافية أو حتى الروحية في

---

(1) Gibb, H.R: Mohammedunism, Oxford, 1954,the preface.p3.

(2) M. Watt: Muhammad, Prophet And Statesman, Oxford,1961,p3.

(3)Norman Daniel : Islam and The West: The Making of An Image, The Introduction, revised edition, Oxford, One world,1993.

ماضي تاريخ أمة الإسلام والاستخفاف بها؛ وعليه فإن الصورة المشوهَة وبشعة الملامح والتي وُضعت منذ أمدٍ بعيد لا تزال هي القائمة في التعريف بالإسلام وبأهله في الغرب ولعل ذلك مرده إلى الحقد المقيت والجهل الفظيع بالإسلام وأصوله وعقائده وشريعته وتاريخه وكل ما له صلة به فيكفي ذلك أن:" نظرة تحليلية في هذه الدراسات تثبت نقيض ما يدعي أصحابها، فالصورة المشوهة للإسلام لا زالت قائمة في كلياتها وإن طرأ تغير جزئي على بعض تفاصيلها، والدراسة التي تتنكب الموضوعية والنزاهة لا زالت هي السائدة الغالبة على هذا الحقل، وإن كان ثمة تغير فذلك ما تحمله القاعدة المشهورة ((اختلاف الأحكام باختلاف المصالح والأزمان)). إن الإستشراق لا زال يعيش في عالم الأفكار الجاهزة التي كونتها أوروبا في فجر ولادتها الفكرية"[1].

فمنذ قيام الحركة الإستشراقية الأولى، ومنذ العهود القروسطية، ما فتئ الغربيون يكتبون عن الإسلام بالصورة المشوَّهة والقاتمة وفق منهج الكنيسة والكهنوت الزائف والمتجني، حتى استطاعوا أن يقيموا السدود والحواجز بينه وبين أهلهم من الغربيين، فأمَّنوا لهم حماية كافية من التفكير فيه أو البحث عنه إلا من خلال ما كتبه القساوسة والرهبان والمرتزقة من المستشرقين:" وقد أدى هذا اللون من الكتابة نتائجه في صفوف الغربيين إذ صرفهم عن دراسة الإسلام والتفكير فيه، وجمّد العوام على مسيحيتهم، ووجه الباحثين عن الرُّوح الرَّوحى والهدوء النفسي، وناشدي فيء السعادة وبَرْدها بعيداً عن لهب الصراع المادي الدائر الرحى إلى الديانات الهندية والصينية بعيداً عن الروحانية المسيحية التي أصبحت في قفص الاتهام بعد كثرة الانشقاقات المذهبية والثورات الإصلاحية"[2].

فما تم سرده من أقوال علماء الغرب والمستشرقين وكذا ما قاله بعض بني الإسلام في مناهج الغرب قد تكفينا وتزهدنا فيما عندهم من مناهج ملتوية ومتلوِّنة بألوان الحقد الصليبي، فخير شاهد من شهد على نفسه، أو من أقام الشهادة على نفسه للطرف الآخر وهو عدو له امتثالاً للحق الذي عرفه، وبهذا تتنزَّه أيدي العرب والمسلمين بالأخذ والتمسك بما هم عليه من مناهج وخطط، إن كانوا يريدون النهوض والإقلاع في جميع ميادين الحياة؛ غير أن البعض منهم لا تزال آثار الجرعات الإستشراقية القاتلة أو المخدرة التي تلقاها في أثناء التكوين والتلقي، سواء في الجامعات والمراكز

---

(1) عرفان عبد الحميد: دراسات في الفكر، مرجع سابق، ص144.

(2) عبد المتعال محمد الجبري: الإستشراق، مرجع سابق، ص222.

الغربية أو بالجامعات والمراكز العربية والتي أمَّها المستشرقون، تعمل وتتحكم في جهاز المناعة وتوجه الفكر.

ورغم الزعم القائم عند بعض المستشرقين أو المتأثرين بكتاباتهم من العرب والقائل بأن مرحلة الحقد كانت ناشئة عن شعور بالحقد على المسلمين لما فتحوا أراضي أوروبا وحكموها لفترة طويلة، وكان ذلك ناشئ عن الشعور بالنقص، فلما أمسكت أوروبا بزمام القوة بردت نار الحقد فيها، وأصبحت الدراسات أكاديمية خالصة ومناهجها علمية، والدليل في تلك المناهج أنها قد تقيدت بالأسس والأطر العلمية التي تعارف عليها عقلاء الناس والعلماء العاملون لصالح البشرية كافة دون التقيد بالعرق أو الجنس البشري أو الحيز الجغرافي.

والواقع يكذِّب ذلك، وخير مثال لتلك الجرعات المنهجية التي لا زالت تعمل بهدوء وتتسرب رويداً إلى أعماق الفكر العربي الإسلامي فتحتويه ثم توجِّهه وجهة الغرب، ما قاله أحدهم:" الحق أن مناهج المستشرقين في البحث هي مناهج تتميز بالجد وبالدأب على البحث والتعمق والتحليل والاستقراء والاستنتاج والوصول إلى الحكم العام بعد عرض طائفة من الفرضيات التي تتشابه في مجموعة من الخصائص تجعلها صالحة لأن تندرج تحت حكم واحد"[1].

ثم يستطرد هو ذاته في المدح ومستغرقاً فيه مبيِّنا مزايا المنهج الغربي على الدراسات العربية والإسلامية في قوله:" ومن محاسن المستشرقين إدخال المنهج العلمي على دراساتنا الإسلامية والعربية، وهذا المنهج قائم على الإحاطة والموازنة والترتيب والاستنباط لبلوغ الحقيقة، وقد طبقه المستشرقون على علومنا وآدابنا وفنوننا تطبيقا صحيحا"[2].

وتقارب أن تصل درجة الاستغراق إلى حدها النهائي فلا يرى في الإستشراق ومناهجه ولا سيئة بل كله حسنات ومحاسنه لا عدَّ لها ولا حصر على التراث العربي الإسلامي، فلولاه لضاع الشيء الكثير من هذا التراث:" ولذا فقد استفاد التراث العربي حين طبق المستشرقون منهجهم العلمي على هذا التراث، فقد خلت نفوسهم وقلوبهم وعقولهم من آثار تلك العصبيات والمنازعات

---

(1) الخربوطلي: المستشرقون، مرجع سابق، ص 123.

(2) الخربوطلي: المرجع السابق، ص124.

والأهواء، ولذا كانت آراؤهم علمية خالصة، وإن لم ترض بعض المسلمين الذين لا يزالون متأثرين بتلك العصبيات القديمة"[1].

والعقل والمنطق يفرضان أن يكون الحكم على الشيء من خلال الشيء ذاته أو من خلال آثاره، حتى لا يكون فيه التجني أو الظلم، وعلى هذا الأساس فإن مناهج الإستشراق ورغم تعدُّدها ورغم تحيُّزها في بعض الأحيان وإصرار المشتغلين بها في رسم الصورة القاتمة للإسلام وأهله في أحايين أخرى، إلا أنَّها لا تخلو من فوائد ومحاسن.

فقد ترجم التاريخ للبعض من المستشرقين – ومن خلال إعمال المناهج العلمية الصحيحة- والذين اتخذوا الإستشراق علما قائما بذاته، ووهبوا له حياتهم، وضحُّوا من أجله بالكثير من جهدهم ووقتهم ومالهم أن اهتدوا إلى الحقيقة المطلقة فخرجوا من ربقته وجاهروا بما أوصلتهم إليه تلك المناهج ، والبعض الآخر منهم ربما قارب الحقيقة و لم يعمل بها فربما عاد عليهم الإستشراق بالأضرار المادية والمضايقات في مجتمعاتهم وقد تم ذكر البعض منهم فيما سبق.

المبحث الرابع: تمويل الإستشراق.

قام المجتمع الغربي بجميع طبقاته وهيئاته السياسية والدينية وعلى اختلاف أطيافه العقدية والمذهبية وعلى مدار جميع مراحله التاريخية بالاهتمام بالإستشراق والمستشرقين وبالنفقة والتمويل لهم.

وقد تعدَّدت أوجه التمويل في المجتمع الغربي للإستشراق بتعدُّد المراحل التي مرَّ بها والمصالح التي برمجتها الهيئات المشرفة عليه لتحقيقها، بالإضافة إلى ذلك يراعى نوع المؤسسات العاملة في هذا الحقل المعرفي ومدى صلتها بالإدارات الحكومية القائمة في بلدانها الأصلية أو في خارج حدودها الجغرافية.

ولعلَّ الباحث في ميدان الإستشراق يجد كماً معتبراً من حيث المعلومات والتي تشير إليه من قريب أو من بعيد، وبكل الموازين سواء المادحة أو القادحة أو التي وقفت موقفاً وسطاً، غير أن مثل هذا المبحث والذي يخص تمويل الإستشراق، قلَّ من طرقه من الباحثين والكتَّاب، ولعل السبب في ذلك يعود لقلة المعلومات فيه، أو لتستُّر الممولين سواء كانوا على شكل هيئات حكومية أو

(1) الخربوطلي: المرجع السابق، ص126.

هيئات علمية أو مؤسسات خاصة أو غيرها من أشكال التمويل القائم، أو سبب ثالث خفي وهو نوع الأعمال التي تقدِّمها وتقوم على تنفيذه مؤسسات الإستشراق، ومن هنا فإن أكثر الطرق انتشاراً في الغرب والتي يُموَّل الإستشراق بها هي التالي:

المطلب الأول: التمويل المالي للمؤسسات الإستشراقية.

وتعدُّ هذه الطريقة من أشهر الطرق في التمويل، وذلك لما تكتسيه من أهمية وقيمة ومرجعية تاريخية، ولما لاقت من رواج؛ فالمعلوم أن المال عصب الحياة ولا تقوم الحياة إلا بتوفره ووجوده؛ وقد كانت الكنيسة قديما هي الراعي الرسمي للإستشراق بما أغدقت على العاملين في حقله بالشيء الكثير من المال لتوفِّر لهم كل ما يحتاجونه لدراسة الإسلام.

ثم بما أصدرت من قرارات كنسية تحث في بعضها على النفقة والرعاية المادية، وفي بعضها الآخر قرارات تأمر الحكام والملوك بالنفقة على الكراسي العلمية المخصصة للعربية والعبرية والسريانية واليونانية وغيرها من اللغات في جامعات باريس وأوكسفورد وغيرها؛ واللغات المشار إليها والتي تقرر تدريسها هي لغات الكتب السماوية الثلاث، إضافة إلى لغة الحضارة اليونانية التي تعتبر أوروبا نفسها الوارث الشرعي لها.

وخير دليل على ذلك قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312م، والذي يعد بداية التاريخ الإستشراقي الجمعي المؤسساتي ونهاية فترة العمل الفردي للإستشراق.

ومن هذا المنطلق يتبيَّن أن الدراسات العربية والإسلامية قد حظيت وما تزال بدعم سخي من الدول والممالك الأوروبية في سالف عصرها، ومن الحكومات الغربية ومن المؤسسات الغربية القائمة في العصر الحديث، دون نسيان ما يمثله الإستشراق كحركة فكرية ومنهج في أوروبا، والعلاقة الحميمة التي ربطته زماناً ولا تزال مع المؤسسات التبشيرية الدينية والسياسية والعسكرية، ولذا يكفي من الجهد القليل ومن البحث مثله للتدليل على وجود ارتباط وثيق بين هذه الدراسات والأهداف السياسية الغربية من خلال التمويل السخي لهذا الفرع المعرفي.

والإشارات السريعة والمختصرة في هذا الاتجاه كفيلة بكشف تلك العلاقة الحميمة وتلك الرعاية الدائمة والمستمرة في بعض المحطات التاريخية مع الاستشهاد ببعض ما قاله المستشرقون أنفسهم في هذا المجال.

وما دام حيز البحث وإطاره حول إنجلترا فتكفي الإشارة إلى ما قامت الحكومات المتعاقبة في إنجلترا في العصور المتأخرة كمثال وعيِّنة حية، وقياس ذلك على الدول الأوروبية الأخرى وبخاصة تلك التي كانت لها أطماع استعمارية فيما بعد في العالم الإسلامي.

فقد كلفت الحكومة البريطانية لجنة وزارية بدراسة أوضاع الدراسات الشرقية والأفريقية عام 1947م وهي التي عرفت بلجنة سكاربرو[1]. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبالتحديد في عام 1961م أمرت الحكومة الإنجليزية يومها بتكوين لجنة أخرى لدراسة الموضوع ذاته برئاسة السير وليام هايتر Sir William Hayter، وأصبح يطلق على اللجنة اسم رئيسها وليام هايتر وحتى الأموال التي خصصتها للجامعات أصبحت تعرف بأموال هايتر.

والأمر المهم والجدير بالتنويه هنا أن هذه اللجنة قد أفادت من تمويل بعض المؤسسات الأمريكية لرحلتها العلمية إلى عشر جامعات أمريكية بما فيها من معاهد وجامعتين كنديتين وقد اضطلعت بهذا التمويل الكلي شركتي روكفيلر وشركة فورد للاطلاع على الدراسات الإسلامية ودراسات الأقاليم في الجامعات الأمريكية[2].

ثم أن هذه اللجنة لما ذهبت للتعرف على الدراسات العربية الإسلامية في أمريكا وكندا وجدت أن معهد الدراسات الإسلامية في جامعة ماك جيل McGill قد وجَّه طلابه المسلمين ليكتبوا عن بلادهم، وأقنعهم بأن هذه الكتابة ستكون في مصلحتهم لأنهم سينظرون إلى مشكلاتهم من بُعْد،

---

(1) سكاربرو: إرلندي أوكلت إليه رئاسة لجنة 1947م لدراسة أوضاع الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات البريطانية وتقديم الاقتراحات اللازمة في ذلك، وقد أعدت اللجنة تقريرا من مائتي صفحة، خلاصته أن أوضحت فيه استمرار حاجة بريطانيا لمعرفة الشعوب العربية والإسلامية والحاجة إلى متخصصين في هذا المجال، وقد دعا التقرير كذلك إلى استعمار البلاد العربية والإسلامية ، وأكد على أن الدراسات الإستشراقية لكي تكون مثمرة يجب أن تتعامل مع العالم الحقيقي، وليس فقط بآليات الكتابة والحديث. للمزيد ينظر: مازن صلاح مطبقاني: الإستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، 1416 هـ/1995م، ص 46 وما بعدها. وهاملتون جب : الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ترجمة : هاشم الحسيني، دار ومكتبة الحياة بيروت، 1966م، ص31-32. وتقرير اللجنة:

Report of The Inter departmental Commission of Inquiry of Oriental, Slavonic, European and African Studies (London, 1947)

(2) د.مازن صلاح مطبقاني: من قضايا الدراسات العربية الإسلامية في الغرب، منشورات قسم الإستشراق كلية الدعوة بالمدينة المنورة، 1417هـ/1996م، ص15.

فأعجبت الفكرة أعضاء اللجنة، وجعلوها ضمن توصياتهم؛ ومن التوصيات ضرورة استمرار هذه الدراسات وتخصيص ميزانيات لدعم هذه الدراسات، واقتراح إنشاء أقسام علمية جديدة كما أوصت بالإفادة من الخبرة الأمريكية[1].

ولم يتوقف الدعم المالي على المؤسسات الكبرى العالمية، بل إن هذا الدعم قد يكون في سكون تام ومن مؤسسات وأشخاص قد لا يعرفون حتى في مجتمعاتهم الأصلية لأنهم يتحرَّكون حركة منتظمة ودائبة وفي نسق معيَّن بحيث يصعب على الرائي تتبعهم أو الشعور بحركتهم داخل المجتمع.

ومن هذا القبيل ما يقرِّره رودي بارت في تمويل الجمعيات والأشخاص في ألمانيا للمؤسسات الإستشراقية بقوله:" وترعى مكتبة الجامعة الخاصة بجامعة توبنجن الإستشراق بصفتها ما يسمى – منطقة التجميع الخاصة– وتتلقى بهذه الصفة من جمعية البحث الألمانية – تلك الجمعية التي تمول الكثير من مشروعات البحث المختلفة– اعتمادات كبيرة جدا للقيام بشراء المؤلفات التي تصدر في الخارج متصلة بالإستشراق بصفة منتظمة"[2].

ثم هو ذاته يسترسل في وصف هذا الدعم اللامتناهي للحركة الإستشراقية في ألمانيا وقياساً عليها كل الدول الأوروبية التي لها مثل هذا المجال المعرفي في جامعاتها، من قِبل أفراد وأشخاص لا يكاد يكون لهم ذكراً، ولو بالشيء القليل ولكنَّه دائم، فيقول:" ونود في هذا المقام أن نذكر بالامتنان نشاط أمناء المكتبات الإستشراقية المتخصصين الذين يعنون في سكون تام وفي غير كلف بالإعلان عن النفس، بشراء النشريات التي تظهر حديثا أو التي تطفو في مكتبات الكتب القديمة،

---

(1) للمزيد من الفائدة ينظر تقرير اللجنة: Report of the Sub-Committee on Oriental, Slavonic, East European and African Studies (London,1961). وملخَّص ما جاء فيه:

أ– تقديم منح على مدى خمس سنوات لتغطية مائة وخمسة وعشرين منصباً جديداً.

ب– تقديم منح للدراسات العليا بواقع عشر منح على مدى عشر سنوات.

جـ– تقديم منح للرحلات العلمية لطلاب الدراسات العليا.

د– فتح مراكز جديدة أو توسعة المراكز الحالية المتخصصة في دراسة المناطق والأقاليم.

هـ– تقديم منح لأعضاء هيئة التدريس كل خمس إلى سبع سنوات لزيارة المناطق التي يدرسونها.

و– تقديم منح للمكتبات لتحديث موجوداتها.

(2) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية، مرجع سابق، ص103–104.

ويعدُّون بذلك للمتخصصين وسائل العمل التي لا غنى له عنها، أو التي تمهد له مشروعات للبحث يعقد عليه العزم"[1].

ومما تم ذكره من حقائق، يمكن القول بأن الذين تؤازرهم الهيئات السياسية والاقتصادية والدينية بما تغدقه عليهم من الأموال وما تضفيه عليهم من الرعاية، وما تمكِّن لهم من النفوذ ليحققوا مطامعهم الخاصة هي في نهاية الطريق والغاية منها تحقيق مطامع الدول الغربية كاملة دون استثناء.

المطلب الثاني: تمويل المجتمع للمؤسسات الإستشراقية.

لقد تمت الإشارة في العنصر السابق لتمويل المجتمع للمؤسسات الإستشراقية ولو بشيء من التلميح في أثناء التحدُّث عن تمويل المؤسسات عامة في العالم الغربي، والجديد المضاف في هذا العنصر هو بيان تلك العلاقة المتجاذبة بين الطرفين.

فبقدر ما يغدق المجتمع الغربي على الإستشراق ومؤسساته من أموال وهبات وعطاءات بقدر ما يرتجي من تحقيق الفوائد والأرباح، سواء كانت آنية ومحدودة الثمار والآجال، أم كانت وافرة المدخول وبعيدة الآمال.

والعاملون في هذا الحقل المعرفي منهم خير شاهد على أنفسهم فهم لا يركنون إلى الراحة طيلة حياتهم، ولأن العطاء في تلك المجتمعات مسترسل دائم، وبقدر ما تكون مداخيلهم تكون مجهوداتهم المبذولة لأن المصلحة تقتضي ذلك، وفي هذا يقول رودي بارت:" ولا يعيش المستشرقون الأوروبيون في الفراغ شأنهم في ذلك شأن ممثلي الفروع الأخرى من الدراسات غير الشرقية بل يضعون أنفسهم في خدمة المجتمع الذي ينتمون إليه والذي يموّلهم ويشجعهم، ويتضح هذا في أن تخصص الإستشراق له في كل جامعة أوروبية على الأقل كرسي يمثله"[2].

ومن هنا يتضح أن عمل المستشرق عمل متواصل غير منقطع حتى يواكب التطورات والأحداث العالمية سواء كان ذلك في حدود دولته أو في حدود عالمه الغربي أو العالم كله، وخاصة إذا كانت دولته تمثل أحد الأقطاب الاستعمارية في العالم أو حتى صاحبة أطماع في الشرق.

---

(1) رودي بارت: المرجع السابق، ص104.

(2) رودي بارت: المرجع السابق، ص103.

ومما يذكر في هذا المقام، وهو تزويد المستشرقين بكل ما يحتاجونه وبكل جديد، أن التجارة الخارجية في المجتمع البريطاني لم تقتصر في معاملاتها وسلعها على المواد الأولية والبضائع فقط، بل تعدَّتها إلى أكثر من ذلك، حيث طالبت المؤسسة الإستشراقية من كل الشركات التجارية وموظفيها وسفنها أن يدخلوا المخطوط العربي الشرقي ضمن السلع والمواد الأولية المكلَّفون بنقلها، وقد كانت شركة المشرق اللندنية أفضل من طبق ذلك.

المطلب الثالث: تمويل المؤسسات العلمية والتعليمية للمؤسسات الإستشراقية.

وهذا التمويل له طابعه الخاص، ونسيجه اللازم له، فمنذ العهود الأولى لحركة الإستشراق، تفطَّن القائمون لقيمة العلم وقيمة امتلاك وسائل العلوم بجميع أنواعها وأحجامها، لذا كانت المؤسسات العلمية والتعليمية في الغرب من بين المسارعين الأوائل في مد يد المساعدة.

وتأتي على رأس تلك المساعدات توفير الكتب وأدوات الكتابة والنَّسْخ والمطابع، وقد نشطت حركة الإستشراق بما وفَّرت لها تلك المؤسسات من كل هذا وذاك على جميع المراحل التاريخية التي مرَّت بها.

ودون نسيان لدور الكنيسة وهي الراعي الأول للمؤسسة الإستشراقية، لِما كانت تمثله من مركز إشعاع روحي وعلمي ولو شكلياً، أن يصدر أساقفتها ورهبانها بعد أن علموا بقيمة المخزون العلمي والمعرفي الموجود عند أهل الشرق، أوامر شبه خفية وتعليمات للرحالة والتجار والمستكشفون والسفن التجارية والتي لها علاقة مع المشرق أن يأتوا بالكتب والمخطوطات سواء بالشراء أو التحايل على أصحابها، أو حتى لو تطلب الأمر سرقتها من أهلها، ومما يذكر أن المطران وليم لود كان كبير الأساقفة في لندن وهو الذي أشار إلى أهمية المخطوطات العربية وضرورة سرقتها من مواطنها الأصلية، حتى أن المكتبة البودلية ذاتها تحوي كمية هائلة من المخطوطات المهمة، حصلت عليها بفضل أمر ملكي سنة 1634م بناء على طلب رئيس الأساقفة لود ذاته، حيث:" يطلب من كل سفينة تابعة لشركة المشرق اللندنية London Levant company التي كانت تعود من المشرق الأدنى أن تجلب معها مخطوطاً عربياً أو فارسياً"[1].

(1) ميشال جحا: الدراسات العربية، مرجع سابق، ص80.

وهناك وجه آخر للدعم المؤسساتي العلمي والتعليمي للإستشراق وهو الذي عناه رودي بارت بقوله:" وهناك عون آخر جوهري يتلقاه الإستشراق ويتمثل في المكتبات المتخصصة اللازمة لكل عمل علمي، فكل قسم للدراسات الشرقية أو معهد للدراسات الشرقية بأي جامعة من الجامعات تمتلك مكتبة كبيرة أو صغيرة خاصة بالقسم أو المعهد تكتمل وتتسع على الدوام، علاوة على الأقسام الخاصة بالإستشراق في مكتبات الجامعات نفسها"[1].

المطلب الرابع: التمويل للمؤسسات الإستشراقية بنظام الإعارة بالكتب.

وهذا النظام والأسلوب كذلك من الطرق القديمة في التمويل، غير أنه لم ينضج ولم يرتق إلى المستوى الذي عرفته المؤسسات العلمية عامة والإستشراقية بوجه خاص في العصر الحديث، وذلك راجع إلى تطور أنظمة المكتبات والعلوم المساعدة لها.

وكمثال على ذلك يعطينا رودي بارت الطريقة المثلى التي تتم بها عملية التمويل بنظام الإعارة والخاصة بالجامعة الألمانية، ولكن ذلك يصدق كمثال على واقع كل الجامعات الغربية من دون استثناء، فيقول:" ويمكِّن نظام الاستعارة في مكتبات الجامعات الألمانية المستشرقين الذين لا يجدون بغيتهم من الكتب في مكتبة الجامعة التي ينشطون بها من الحصول عليها من مكتبة أخرى بالطريق الرسمي"[2].

(1) رودي بارت: المرجع السابق، ص103.

(2) رودي بارت: المرجع السابق، ص104.

الباب الثاني:

رواد المدرسة الإستشراقية الإنجليزية الحديثة والمعاصرة وأهم مصنفاتهم في السيرة النبوية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثاني: رواد المدرسة الإستشراقية الإنجليزية الحديثة والمعاصرة وأهم مصنفاتهم في السيرة النبوية.

الفصل الأول: المستشرقون الإنجليز غير المنصفين للسيرة النبوية.

المبحث الأول: المستشرق مونتغمري واط.

المبحث الثاني: المستشرق برنارد لويس.

الفصل الثاني: المستشرقون الإنجليز المنصفون للسيرة النبوية.

المبحث الأول: المستشرق بودلي.

المبحث الثاني: المستشرق هيدلي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول: المستشرقون الإنجليز غير المنصفين للسيرة النبوية.

المبحث الأول: المستشرق مونتغمري واط (William Montgomery Watt).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: أسس ومبادئ المنهج لدى المدرسة الإستشراقية الإنجليزية.

وقع الاختيار في دراسة المدرسة الإستشراقية الانجليزية الحديثة والمعاصرة في كتابة السيرة النبوية على عيِّنة من المستشرقين كنماذج وذلك لأسباب موضوعية وتاريخية وقد تكون في بعض الأحيان للاهتمام الكبير للمستشرق بهذا الموضوع أو حتى مدى تأثير هذا المستشرق في الرأي العام في بني قومه أو في من حوله أو حتى في الرأي العام العالمي سواء كان أكاديمياً أو سواء كان على مستوى الرأي العام خارج إطار الأكاديمية أي الإطار الشعبوي؛ وسيتم تفصيل تلك الأسباب في مضانها عند الحديث عن كل مستشرق وقعت كتبه وأبحاثه ودراساته في السيرة كنموذج للدراسة.

وقد حلَّق اسم مونتغمري أو مونتجمري واط أو وات[1]، على اختلاف في الكتابة العربية بين المشتغلين بهذا العالم الغربي، في سماء المدرسة الإستشراقية العالمية عامة، وفي المدرسة الأنجلوسكسونية خاصة وذلك لما يمثله من نفوذ علمي قوي، وآثار كثيرة انتشرت عبر العالم كله وغدت مراجع في بابها وترجم الكثير منها إلى لغات العالم، كما عرف عنه عمق الدراسات التي قام بها مع ما تحويه من دسائس فيما يخص كتاباته الخاصة بالإسلام وأهله، كما عرف بسعة اطلاعه وإلمامه.

وليس هذا بالغريب على المدرسة الإستشراقية الإنجليزية الحديثة والمعاصرة، لأنها وريثة تركة علمية إستشراقية امتدت عبر قرون طويلة إذا ما أخذنا في اعتبارنا أن الإستشراق الإنجليزي من بين أول وأوثق وأوسع ما عرفته أوروبا والعالم الغربي من إستشراق منذ اتصال ووصول إنجلترا ومن كان يمثِّلها من قبل بالعالم الإسلامي ثقافة وحضارة وأرضاً.

ولعله من قول النافلة أن نذكِّر بأنه ومنذ عهد النبي ﷺ لم يزل النقاد من الكفار وغير المسلمين يكررون آراء مشركي مكة حيال الإسلام.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي على الأخص/الثالث عشر الهجري، أخذ بعض علماء الغرب من المستشرقين يعيدون اعتراضات الكفار والمشركين في عهد الرسول ﷺ وكانت افتراضاتهم مماثلة حول الإسلام عامة والقرآن والرسول ﷺ خاصة، وذلك بحجج وادعاءات

---

(1) وليم مونتغمري واط: تمّ اعتماد رسم إسم المستشرق على هذا الشكل في كل البحث.

متنوعة، ورواد هؤلاء المستشرقين ألويس سبرنجر (Aloys Sperngerr) [1] ووليم موير (William Muir) [2] ودافيد ساموبل مرجليوث (David Samuel Margoliouth) [3].

وقد قام بتطوير آرائهم وتضخيم استنتاجاتهم آخرون تبعوهم في القرن العشرين الميلادي/ القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين، وفي مقدمتهم ريتشارد بيل (Ritchard Bell) [4]

---

(1) ألويس سبرنجر(1228-1310هـ/1813-1893م) Aloys Spernger ابن كرستوفر Christopher سبرنجر مستشرق نمسوي ولد في التيرول وتعلم في اينسبروكlnnsbruck وفينة وباريس وحصل على الجنسية الانكليزية سنة 1838 وعلى الدكتوراه في الطب من جامعة ليدن سنة 1841 واستخدمته شركة الهند الشرقية طبيبا سنة 1843 فانتقل إلى الهند ثم عين رئيسا للكلية الاسلامية بدهلي فمديرا لمدرسة كلكتة فمترجما للغة الفارسية وانقطع عن الاعمال الحكومية سنة 1857 فعين أستاذا للغات الشرقية في جامعة برن بسويسرة ثم استقر في هيدلبرج بألمانيا إلى أن توفى كان يحسن خمسا وعشرين لغة وله إلمام جيد بالأدب الشرقي وألف كتابا في السيرة النبوية(حياة محمد).الزركلي: الأعلام، ج2ص8. ويعلق محمد مهر علي عنه بقوله:"كان من موظفي الإدارة البريطانية في الهند وعلى صلة كبيرة بالإرساليات التبشيرية النشيطة، كتب عن حياة الرسول ﷺ سيرة في ثلاثة مجلدات بالألمانية حاول فيها النيل من شخصية الرسول ﷺ والوحي والقرآن، كما ادعى أن القرآن والإسلام مبنيان على النصرانية واليهودية". ترجمة معاني القرآن الكريم والمستشرقون، لمحات تاريخية وتحليلية، ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم، تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل، 10-12 صفر 1423هـ الموافق 23-25 أبريل 2002م، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ص18.

(2) وليم موير: (1234-1323هـ /1819- 1905م) William Muir مستشرق بريطاني اسكتلندي الأصل، أمضى حياته في خدمة الحكومة البريطانية بالهند، دخل البنغال سنة 1837م وعمل في الاستخبارات وتعلم الحقوق في جامعتي جلاسجو (Glasgow) وايدنبرج (Edinburgh) وكان سكرتيرا لحكومة الهند سنة 1865– 1868م، ثم عين مديرا لجامعة ايدنبرج سنة 1885- 1902م وتوفي بها له: شهادة القرآن لكتب أنبياء الرحمن، وصنف بالانجليزية كتبا في السيرة النبوية، وتاريخ الخلافة الإسلامية، وتاريخ دولة المماليك في مصر، وله مقالات في شعراء العرب. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج8 ص124.

(3) دافيد ساموبل مرجليوث: (1274-1359هـ/1858-1940م) David Samuel Margoliouth ابن حزقيال الانجليزي البروتستانتي من كبار المستشرقين، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع اللغوي البريطاني، وجمعية المستشرقين الألمانية، مولده ووفاته بلندن، تعلم في جامعة أكسفورد، وعين أستاذا للعربية فيها سنة 1899م. وعمل في مجلة الجمعية الاسيوية الانجليزية، وترأس تحريرها، ونشر فيها بحوثا منها فهارس لديوان أبي تمام، بناها على طبعة بيروت شرح الشيخ محيي الدين الخياط، وزار الشرق الأوسط مرارا، وألف بالعربية كتاب آثار عربية شعرية وامتاز بكثرة ما نشره من مؤلفات العرب، كمعجم ياقوت، إرشاد الأريب و الأنساب للسمعاني، وديوان ابن التعاويذي وحماسة البحتري ونشوار المحاضرة للتنوخي، ورسائل أبي العلاء المعري مع ترجمتها إلى الانجليزية. وله في لغته كتب عن الإسلام والمسلمين، لم يكن فيها مخلصا للعلم، على الرغم من توسعه في معرفة المسلمين وأدبهم. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج2 ص229-230.

(4) ريتشارد بيل(لم أقف له على تاريخ مولده ولا وفاته) Ritchard Bell، من رجال الدين وأستاذ العربية بجامعة ادنبرا، اشتهر برجاحة العقل ورحابة الصدر، وقد صرف سنين كثيرة في دراسة القرآن وتاريخه دراسة وافية متوالية أكد فيه العلاقات

وتلميذه وليم مونتغمري واط (William Montgomery Watt)[1]، وجميع هؤلاء المستشرقين يسعون بشتى الأساليب إلى الاستنتاج أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ وأن الإسلام ما هو إلا تقليد ونقل محرَّف عن اليهودية والمسيحية.

وقائمة هذه المدرسة الإستشراقية طويلة من حيث الزمن المستغرق، وثقيلة من حيث نوعية الباحثين والمشتغلين فيها.

ويمثل مونتغمري واط أحد الأساطين والصواري الكبرى في هذه المدرسة في زمانه إذا ما علمنا أنه انتهى إليه كرسي العمادة بقسم اللغة العربية بجامعة إدنبرا، ولا يكون ذلك ممكناً إلا لمن تبحَّر في علوم الشرق عامة وأخذ بالشيء الكثير من معارفها.

وقبل الخوض في بيان ما أسهم به مونتغمري واط وكتاباته في السيرة وما اشتملت عليه هذه الكتابات سواء من حيث المنهج أو من حيث المادة الخبرية وقبل الوقوف للتعريف به وبإنتاجه العلمي وجب التذكير بأن اختار مونتغمري واط كعيِّنة للدراسة جاء لأسباب موضوعية علمية وأخرى تاريخية.

فأما الموضوعية العلمية فتتمثَّل في أن المدرسة الإستشراقية الغربية قد أثنت الثناء الحسن عن مؤلفاته وعدَّتها دراسة شاملة لجميع مناحي السيرة النبوية وفق المنهج العلمي الغربي الرصين والجاد وقد جاء ذلك في قول هاملتون جب[2]:"إن الكتاب[أي محمد -ﷺ- في مكة] يجعل القارئ يشعر بأنه كتبه رجل عاش بالخيال تجربة محمد في مكة أكثر من أي كاتب سابق يضاف إلى ذلك تنظيمه الدقيق لمواد البحث الذي يعد إضافة جديدة قيِّمة لدراسة أصول الإسلام. لقد اهتم الكتاب خاصة

المسيحية بالنبي، له العديد من المؤلفات حول الإسلام منها رؤى محمد[ﷺ]، محمد والرسل السابقون، من هم الحنفاء، الطلاق في الإسلام، وغيرها من الأبحاث والمنشورات. العقيقي: المستشرقون، ج2 ص93-94.

(1) وليم مونتغمري وات (William Montgomery Watt):يأتي التعريف به مفصَّلاً لاحقاً.

(2) جب هاملتون: Hamilton Alexander Roskeen Gibb(1895-1971م) من مواليد الاسكندرية بمصر، تعلم بأسكتدلاندا ودخل جامعة أدنبرا حيث تخصص في اللغات السامية، العربية والعبرية والآرامية، وفي سنة 1922م تحصَّل على الماجستير من جامعة لندن، وخلف توماس أرنولد في كرسي اللغة العربية بلندن كما خلفه في منصب المشرف على تحرير دائرة المعارف الإسلامية، زار العديد من جامعات العالم، تقاعد سنة 1964م وأصيب بالفالج وشفي منه وله من التآليف والكتب والمقالات الشيء الكثير، وبقي في أوكسفورد مرحلة حياته الأخيرة حتى توفي بها. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص 105- 107 بتصرف.

بالأرضية الاقتصادية والاجتماعية وعلاقتها بنظريات القرآن الدينية"[1]؛ ثم فيما ادَّعاه من حياد وموضوعية، وأما من حيث التاريخية فَلِما مثَّلته هذه الدراسات من مرجعية أساسية لكثير من الكتَّاب الغربيين بعد صدورها ومن بين هؤلاء كارين أرمسترونغ نموذج الدراسة.

ثم بعد ذلك وجب التنويه وتبيان أسس ومبادئ المنهج الذي اعتمدته المدرسة الإستشراقية الحديثة كافة بما فيها المدرسة الإستشراقية الإنجليزية[2].

---

(1) من كلام سير هاملتون جب من اختيار الناشر الأصلي على غلاف كتاب: محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية بيروت[د ت ط].

(2) اعتمد المستشرقون، ومنهم مونتغمري واط كما سيأتي بيانه، في كتاباتهم للسيرة النبوية خاصة على مجموعة من المبادئ جعلوها أسساً ثابتة ومعالم لكل من يسلك هذا الدرب وأهمها ما يلي:

الموضوعية العلمية: وقد جعلوها كأساس رئيسي حتى تقبل الأبحاث والدراسات وتكون لها مصداقية عند الباحثين الأكاديميين وواقع الناس سواء كانوا من بني جلدتهم أو من غيرهم، غير أن الحقيقة المخفية وراء ذلك مخيفة، فهم جعلوها كستار يغطي دسائسهم ومكرهم فيما يدسُّونه ويريدون تزويره من حقائق، وتصديق ما يبثونه من أراجيف وأباطيل، ويجعلون مع الباطل الذي يدعون إليه ويدَّعونه، شيئاً من الحقيقة أو جزءً منها لتمرَّ –الكذبة العلمية – متخفية على العاميِّ من الناس غير الحصيف ثاقب الفكر، وبذلك يصلون إلى مبتغاهم أو على أقل تقدير يمهِّدون الطريق لما هو آت من الترَّاهات والأكاذيب أو في أحسن حال يصلون إلى إسماع الطرف الآخر بما يريدونه، قَبِلَه بعدَها أو رفضَه؛ مع الإشارة إلى أن القليل منهم فقط من التزم هذا الأساس في أبحاثه فخفَّت حدة حنقه وكرهه للإسلام إن لم يعتنقه ويتخذه ديناً له في نهاية ما توصَّل إليه في أبحاثه.

الأهداف العلمية المشبوهة: يعتمد المستشرقون في عموم أبحاثهم على تحديد هدف علميٍّ قبل بدء الدراسة، ثم يجمعون لهذا الهدف كل شاردة وواردة سواء كانت من صميم الموضوع أو من جزئياته أو حتى من خارج الموضوع، ثم يدلِّلون على ما ذهبوا إليه ولو بالدليل الواهي أو حتى إذا ما خانهم الدليل الواهي لفَّقوا له من الأكاذيب ما يسند مذهبهم وهدفهم، ففي مسيرتهم نحو التدليل على ما رسموا من خطة لبلوغ الهدف فلا فرق عندهم بين القرآن الكريم أو الحديث الشريف وبين قول القصَّاص ورواة الأدب الشعبي ثم يبنون على ما قدَّموا أحكاماً قد تناقض بعض أحكام الإسلام أو حتى تنسف ما جاء به الإسلام كافة، وهم في ذلك لا يتورَّعون ولا يستحيون.

عدم الالتزام بالمنهج العلمي ومجافاته: يتطلب المنهج العلمي الذي يؤمن به المستشرق أن يبحث الباحث وهو يبحث عن الحقيقة، ويجمع ما استطاع من الوثائق والأقوال والحقائق ليتوصَّل إلى الحقيقة العلمية المنشودة من البحث، إلا أن تفحُّص الإنتاج الإستشراقي منذ النشأة إلى زماننا يجد أنه عكس ذلك كله، فهم ادّعوا المنهج العلمي غير أنهم ما لزموه ولا التزموه ويُستثنى منهم دائما طائفة قليلة وهي الشاذة التي تحفظ ولا يقاس عليها.

التمويه والخلط بين الحق والباطل: عادة ما يعمد المستشرقون في أبحاثهم إلى التلبيس والخلط بين الحق والباطل، وذلك بحسب النتائج التي وضعوها لأبحاثهم قبل البدء في هذه الأبحاث، وذلك بزرع الشكوك ووضع الفرضيات الخاطئة لاستبعاد الحقيقة فيأتون بكل المناهج التي تخدم نتائجهم ويعتمدونها ويؤكدونها تارة بدعوى المنهجية وأخرى بدعوى مقتضيات البحث وطبيعته، فيبعثُ عندهم الميِّت للوجود بعد دفنه لأن فيه مصلحة ويدفن الحيُّ وأداً خوفاً من تجلِّي الحقيقة على يديه.

وقد أجاد أحد الباحثين حين لخَّص مبادئ وأسس المناهج الإستشراقية في كل ما له علاقة بالإسلام عامة على شكل مجموعة نقاط هي:

أ- تحليل الإسلام ودراسته بعقلية أوروبية، فهم حكموا على الإسلام معتمدين على القيم والمقاييس الغربية المستمدة من الفهم القاصر والمغلوط الذي يجهل حقيقة الإسلام.

ب- تبييت فكرة مُقَدَّماً ثم اللجوء إلى النصوص واصطيادها؛ لإثبات تلك الفكرة واستبعاد ما يخالفها.

ج- اعتمادهم على الضعيف والشاذ من الأخبار وغض الطرف عما هو صحيح وثابت.

د-تحريف النصوص ونقلها نقلاً مشوهاً وعرضها عرضاً مبتوراً وإساءة فهم ما لا يجدون سبيلاً لتحريفه.

هـ-غُربتهم عن العربية والإسلام منحتهم عدم الدقة والفكر المستوعب في البحث الموضوعي.

و- تحكُّمُهم في المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصححون ما ينقله الدميري في كتاب الحيوان ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ، كل ذلك انسياقاً مع الهوى وانحرافاً عن الحق.

ز- إبراز الجوانب الضعيفة والمعقَّدة والمتضاربة، كالخلاف بين الفرق، وإحياء الشُبه وكل ما يثير الفرقة، وإخفاء الجوانب المشرقة والإيجابية وتجاهلها.

ح- الاستنتاجات الخاطئة والوهمية وجعلها أحكاماً ثابتة يؤكدها أحدهم المرة تلو الأخرى، ويجتمعون عليها حتى تكاد تكون يقيناً عندهم.

ط- النظرة العقلية المادية البحتة التي تعجز عن التعامل مع الحقائق الروحية[1].

عدم التفريق بين ما هو مقدس وما هو مدنَّس: يخضع البحث العلمي عادة عند المستشرقين إلى التجربة الحسية المادية مهما كانت صفته ومصدريته، ولا فرق عندهم بين الروحانيات والماديات، ولا بين ما هو مقدَّس كالنبوة والوحي التي مصدرها الذات العلية ولا بين ما هو مدنَّس من إنتاج البشر كالروايات والحكايات وأقاصيص النوم للأطفال. وكل ما لا يستطيع العقل البشري إدراكه حتى ولو كان الحقيقة المطلقة في الوجود فهو ضرب من الترَّاهات والهرطقة التي تمليها أمالي النفس حتى تهرب من الحقيقة والمحيط، لذا فلا غرو إن أنكروا النبوات وجسَّدوا الذات العلية، وأخضعوا الوحي للنقد العقلي وقاسوه بالميزان البشري، وكالوا له المطاعن وحفُّوه بالشكوك وقالوا عنه الافتراءات.

(1) د. إدريس مقبول: الدراسات الإستشراقية للقرآن الكريم رؤية إسلامية، ندوة تقويم الدراسات الإستشراقية المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة،16-1427/10/18هـ/7-9 /2006/11م، ص11.

المطلب الثاني: مونتغمري واط: المولد، النشأة والحياة العلمية والعملية.

ولد وليام مونتغمري واط في كريس فايف في 14مارس 1909م والده القسيس أندرو واط، درس في كل من أكاديمية لارخ 1914-1919م وفي كلية جورج واتسون بإدنبرة، وجامعة أدنبره1927-1930م، وكلية باليول بأكسفورد 1930-1933م وجامعة جينا بألمانيا 1933م وبجامعة أكسفورد وجامعة أدنبرة في الفترة من 1938-1939م و1940-1943م على التوالي.

نشأ نشأة دينية صرفة على يد والده القسيس أندرو، كما أنه عمل راعياً لعدة كنائس في لندن وفي ادنبره ومتخصص في الإسلام لدى القس الأنجليكاني في القدس، وبعد تقاعده عاد إلى العمل في المناصب الدينية.

نال درجة الأستاذية عام 1964م، عمل رئيساً لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة ادنبره في الفترة من 1974-1979م، دعي للعمل أستاذاً زائراً في كل من الجامعات الآتية: جامعة تورنتو 1963م و1978م وكلية فرنسا في باريس عام 1970م وجامعة جورج تاون بواشنطن عام 1978-1979م.

أصدر العديد من المؤلفات من أشهرها: عوامل انتشار الإسلام، محمد[ﷺ]في مكة، ومحمد[ﷺ] في المدينة، والإسلام والجماعة الموحدة، والجدل الديني، وتاريخ إسبانيا الإسلامية مع المستشرق الإنجليزي الجنسية كاكيا[1]، ومحمد[ﷺ]نبي ورجل دولة، والفلسفة الإسلامية والعقيدة، والفكر السياسي الإسلامي وتأثير الإسلام في أوروبا القرون الوسطى، والأصولية الإسلامية والتحديث، والعلاقات الإسلامية النصرانية، ومن آخر كتبه: موجز تاريخ الإسلام (1995م) وحقيقة الدين في عصرنا (1996م) وكتاب: الفترة التكوينية للفكر الإسلامي (1998م) وغيرها كثير.

---

(1) كاكيا بيير ج(Pierre J cachia) من مواليد الفيوم بمصر عام 1921م من أب فلسطيني وأم روسية، تعلم بمصر ثم بالهند ثم بمصر ثانية وبعد الخدمة العسكرية سجل بالدراسات العليا باسكتدلندا كطالب باحث نال بعدها الدكتوراه، شغل العديد من المناصب العلمية بها ثم عُين متخصصاً للغة العربية ثم عين أستاذا محاضرا تابعا للمجلس البريطاني في المغرب والجزائر ومصر، وأستاذا محاضرا في جامعة كولومبيا نيويورك. له العديد من المؤلفات المفردة والمشتركة والكثير من المقالات، كما اشترك في تأسيس صحيفة الأدب العربي. يحي مراد: معجم المستشرقين، ص853-855 بتصرف.

وقد عدَّه بعضهم من المستشرقين الذين تعمقوا في دراسة الإسلام في منشئه وأحاطوا شخصية رسوله ﷺ بما يلزم من دراسة البيئة والمجتمع، وقد تقاعد قريباً ويعمل حالياً راعياً لإحدى الكنائس في منطقة إدنبرة[1]

المطلب الثالث: منهج مونتغمري في كتابته للسيرة النبوية.

قد يأتي الحق في بعض الأحيان على لسان من هو مناهض ومعاد له أصلا، وقد يكون من الكافرين به والجاحدين له، ومثل هذا قد وقع من صاحب الترجمة السابقة، فقد أُجْرِي الحق على لسانه وخطَّ ذلك قلمه، فأصبح شاهداً عليه في أثناء ردِّه على مزاعم بعض المستشرقين الذين كتبوا عن الإسلام عامة وعن السيرة النبوية بوجه خاص.

جاء ذلك في قوله:" إذا حدث وإن كانت بعض آراء العلماء الغربيين غير معقولة عند المسلمين، فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا دائمًا مخلصين لمبادئهم العلمية، وأن آراءهم يجب إعادة النظر فيها من وجهة النظر التاريخية الدقيقة"[2].

وفي موضع آخر من الكتاب نفسه يقول:"إن موقف العلماء الغربيين كان غالبًا سيّئًا لما يبدو أنه يتضمنه من إنكار لمعتقدات الإسلام الفقهية، ولذا كانت الدراسات الغربية عن القرآن غير موفقة حتى من وجهة نظر أفضل العلماء"[3].

ثم إن مونتغمري واط وهو يكتب قد نسي هذه الحقيقة التي أبداها لغيره وذلك لأن العقل الموبوء وبخاصة العقل الغربي الذي عانى ولا يزال يعاني من حواجز الرؤية الموضوعية التي تمكنه من معاينة الإسلام عامة عن قرب وبالصورة الصحيحة، والحكم عليه بالتجرد والعلمية التي ينادي بها هذا العقل ويتخذها منهج عمل له في التعامل مع الظاهر والموجودات أو كما يحاول أن يقنع نفسه على الأقل، لم يلتزم بها في كل ما كتبه عن الإسلام ونبيِّه ﷺ وكتابه.

وأُسُس المنهج – العلمي– لدى واط لن تكون بعيدة ولا خارجة عن تلك الأسس التي وضعها العقل الغربي عامة والتي تمت الإشارة إليها سلفاً، فهو يقرِّر في البدء أن منهجه سيكون علمياً قدر

---

(1) نقلا عن: د. مازن بن صلاح مطبقاني: الإستشراق المعاصر، مرجع سابق، ص130. والعقيقي: المستشرقون، ج2 ص132. الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ص98. فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، م12 ص29.

(2) مونتغمري واط: محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية بيروت [د ت ط]ص6.

(3) مونتغمري واط: المرجع السابق، ص 55-56.

المستطاع وأنه لن يضع نفسه موضع الحرج كما أنه لن يجرح مشاعر المسلمين فيما يتعلق بمقدَّساتهم ومعتقداتهم، ويبدأ حديثه عن القرآن الكريم فيقول:" فيما يتعلق بالمسائل الكلامية التي أثيرت بين المسيحية والإسلام، فقد جهدت في اتخاذ موقف محايد منها، وهكذا وبصدد معرفة ما إذا كان القرآن كلام الله أو ليس كلامه امتنعت عن استعمال تعبير مثل (قال تعالى) أو (قال محمد) في كل مرة أستشهد فيها بالقرآن، بل أقول بكل بساطة: (يقول القرآن)؛ وأقول لقرائي المسلمين شيئا مماثلا، فقد ألزمت نفسي، برغم إخلاصي لمعطيات العلم التاريخي المكرس في الغرب ألا أقول أي شيء يمكن أن يتعارض مع معتقدات الإسلام الأساسية"[1]

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد كلام واط وبإلحاح: هل التزم حقيقة ما قال؟ إن نظرة فاحصة معمَّقة تبيِّن عكس ما ادَّعاه؛ ثم إن المنهج العلمي السليم يقتضي تتبع خطواته وتتبع القضايا من أساسها وبدايتها حتى يثبتها أو يثبت ما صح منها أو ينفيها.

لقد التزم واط منهجا مغايرا لما ادَّعاه، وتمثَّل منهجه في عدة مناهج قد تجتمع في المؤلَّف الواحد من كتبه أو في فصل من فصوله أو حتى في جزئية من جزئيات أفكاره.[2]

---

(1) مونتغمري واط: المرجع السابق، ص5-6.

(2) أهم ما ميّز منهج واط[وهذا بعد دراسة الكتب والدراسات المستعملة كعيِّنة للدراسة] أنه اعتمد على ما يلي:

منهج الأثر والتأثر:حيث يتم فيه إفراغ الإسلام من ذاتيته المجرَّدة والمستمدَّة من السماء، وإرجاعها إلى مصادر خارجية مثل اليهودية والنصرانية وغيرها من المذاهب والعقائد الوضعية كالبوذية والمجوسية ومن ثمَّ التشكيك في الإسلام كمنهج للعقيدة ودستور حياة، والتشكيك في نبوة محمد ﷺ وفي كل ما جاء به.

المنهج العلماني: وهو يستبعد وقوع الظواهر والحوادث الدينية وتفسيرها لأنها لا تخضع لنفس القانون الذي تخضع له الأجسام المادية الطبيعية.

المنهج المادي: وقد ظهر هذا المذهب في الغرب في تفسير الحوادث التاريخية بعد ظهور ونجاح الثورة الشيوعية في روسيا والتي ترجع كل حركة أو ظاهرة في المجتمع إلى العامل الاقتصادي.

المنهج الإسقاطي: وهو معالجة الحوادث التاريخية سواء ما كان منها قريباً أو موغلاً في التاريخ فيسقطونها على واقع معيشتهم ويقيسونها عليه ويفسِّرونها على غرار ما يفسِّرون به وقائعهم اليومية وفي ظل خبراتهم ومعايشتهم لواقع مجتمعهم.

منهج النفي والافتراض واعتماد السقط والشاذ: بحيث يعمد المستشرق إلى نفي كل ما لا يخدم هدفه الذي سطَّره ابتداءً ولو كانت حقائق مثبتة ومجمع عليها، ويأتي بفرضيات تخدم ما وضعه كنتائج لبحثه ويجمع له من الأدلة كل سقطٍ وشاذٍ فيدلِّل بها ويدعو لما ذهب إليه بإصرار حتى يُصَدَّق.

كما أن واط قد أضاف أسساً وتحسينات جديدة لهذا المنهج وتمثَّل بها سواء عن قصد – وهو الراجح كما سيأتي بيانه – أو عن غير قصد، وتمثَّلت أسس المنهج الجديد على النحو التالي:

أ_ العلمانية.

ب_ المادية.

ج _ إتباع الظن.

د_ عدم الثقة في رواية علماء المسلمين أو حتى في إجماعهم.

1_ منهج الأثر والتأثر:

يردد مونتغمري واط مقولة تأثر الإسلام بما جاء قبله من الرسالات وعلى وجه الخصوص اليهودية والمسيحية، وزعمه هذا قائم على أساس أن النبي ﷺ قد التقى في حياته قبل بعثته وبعدها بالقساوسة والرهبان وأتباع الشرائع السابقة، والذين أعطوه ورسموا له الخطوط العريضة للدين الذي جاء به.

وأهم من التقى به ﷺ من هؤلاء ورقة بن نوفل[1]، الذي كان له الأثر الكبير حتى بعد وفاة هذا الأخير، وهجرة النبي ﷺ إلى المدينة ونشوء المجتمع المسلم والدولة المسلمة، والذي يجعل منه واط

منهج البناء والهدم: وهو منهج حاصل كنتيجة حتمية من المنهج الذي سبقه، فيقوم فيه المستشرق بهدم كل حقيقة أو طمسها أو تشويهها على الأقل ثم يأتي بفرضيات لا أساس لها ويبني عليها أحكاماً فتصير بعد فترة حقيقة علمية متداولة عندهم وفي مناهجهم الغربية.

(1)ورقة بن نوفل (..- نحو 12 ق هـ /..- نحو 611 م) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزَّى من قريش حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، وامتنع من أكل ذبائحها، وتنصر، وقرأ كتب الأديان. وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبراني، أدرك أوائل عصر النبوة، ولم يدرك الدعوة. وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين. وفي حديث ابتداء الوحي، بغار حراء، أن النبي ﷺ رجع إلى خديجة، وفؤاده يرتجف، فأخبرها، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذع ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله: أو مخرجي هم؟ قال: نعم! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، وابتداء الحديث ونهايته، في البخاري. ولورقة شعر سلك فيه مسلك الحكماء. وفي المؤرخين من يعده في الصحابة، قال البغدادي: ألف أبو الحسن برهان الدين إبراهيم البقاعي تأليفا في إيمان ورقة بالنبي، وصحبته له، سماه" بذل النصح والشفقة، للتعريف بصحبة السيد ورقة". وفي وفاته روايتان: إحداهما الراجحة، وهي في حديث البخاري، قال: " ثم لم ينشب ورقة أن توفي " يعني بعد بدء الوحي بقليل، والثانية عن عروة بن الزبير، قال في خبر تعذيب" بلال":" كانوا يعذبونه برمضاء مكة، يلصقون ظهره بالرمضاء لكي يشرك، فيقول: أحد، أحد فيمر به ورقة وهو على تلك الحال، فيقول: " أحد أحد يا بلال" وهذا يعني أنه أدرك

مفتاح ما وصل إليه محمد ﷺ فيقول:" ولهذا من الأفضل الافتراض بأن محمدا كان قد عقد صِلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيرا بأفكار ورقة"[1].

لأن النبي ﷺ قد تابع –حسب زعم واط– نقل مبادئه عن اليهودية والمسيحية بمن وجدهم من أهل تلك الملل في المدينة المنورة؛ ولذلك فإن واط يريد تأكيد مقولة من سبقوه من القساوسة والرهبان على مدار تاريخ الإستشراق بأن الإسلام في أحسن أحواله ما هو إلا تلفيق من اليهودية والمسيحية[2].

ثم هو لا يتوقف عند هذا الحد من القول كغيره من المستشرقين الذين غالوا في ذم الإسلام والإساءة له مثل وليام موير، وتيودور نولدكه[3] وإجناز جولدتسيهر[4]، ودافيد صمويل مرجليوث، بل يذهب به الحقد واللاعقلانية في البحث بأن يدلِّل على ذلك من القرآن الكريم، حيث يقوم بِلَيِّ مدلول الآيات حسب مفهومه وتحريفها إلى ما يريد الوصول إليه من نتائج مسبقة.

إسلام بلال. وفي حديث عن أسماء بنت أبي بكر، أن النبي ﷺ سئل عن ورقة، فقال: "يُبعث يوم القيامة أُمَّة وحده". خير الدين الزركلي: الأعلام، ج8 ص114-115.

(1) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص93.

(2) مونتغمري واط: المرجع السابق، ص51-52، ص93.

(3)تيودور نولدكه: (1251-1349 هـ/1836-1930م) Theodor Noldeke من أكابر المستشرقين الألمان، ولد في هاربورج بألمانيا وتعلم في جامعات غوتنجن وفينة وليدن وبرلين، وانصرف إلى اللغات السامية والتاريخ الإسلامي فعين أستاذا لهما في جامعة غوتنجن سنة 1861م فجامعة كيل 1864م، ثم في جامعة ستراسبورج 1872م ومات في كارلسروه Karlsruhe، له تاريخ القرآن وحياة النبي محمد ودراسات لشعر العرب القدماء والنحو العربي وخمس معلقات ترجمها إلى الالمانية وشرحها. ونشر في مجلات الغرب وموسوعاته بحوثا كثيرة، منها رسالة في أمراء غسان، ترجمها إلى العربية بندلي جوزي وقسطنطين زريق. وله بالعربية منتخبات الأشعار العربية. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج2 ص96.

(4) إجناز جولدتسيهر (1266-1340هـ/1850-1921م) إجناس كولد صهر Ignaz Goldziher مستشرق مجري موسوي يلفظ اسمه بالالمانية إجناتس جولد تسيهر تعلم في بودابست وبرلين وليبسيك ورحل إلى سورية سنة 1873 م فتعرف بالشيخ طاهر الجزائري وصحبه مدة وانتقل إلى فلسطين فمصر حيث لازم بعض علماء الازهر وعين أستاذا في جامعة بودابست عاصمة المجر وتوفي بها له تصانيف باللغات الالمانية والانكليزية والفرنسية، في الاسلام والفقه الاسلامي والادب العربي، ترجم بعضها إلى العربية ونشرت مدرسة اللغات الشرقية بباريس كتاب بالفرنسية في مؤلفاته وآثاره ومما نشره بالعربية ديوان الحطيئة وجزء كبير من كتاب فضائح الباطنية المعروف بالمستظهري للغزالي وترجم إلى الالمانية كتاب توجيه النظر إلى علم الاثر لطاهر الجزائري، وكتاب المعمرين للسجستاني، وغيرهما. الزركلي: الأعلام، ج1 ص84.

فإذا كان مرجليوث مثلاً قد قال:" أن معلوماته ﷺ كانت خاطئة وناقصة في بداية الأمر وتحسنت مع مرور الوقت"[1] والمقصود بالمعلومات حول قصص الأنبياء وأخبارهم وتوقف، فإن واط يزيد عليه بافتراء التلقي من المصدر البشري بقوله:" إن هذه الآيات تدل على أن معرفة محمد ﷺ بقصص الأنبياء كانت تتحسن وأنه كان يتلقى المعلومات عن فرد أو أفراد ذوي صلة به... وهنالك أوجه شبه متينة بين القرآن والنصوص اليهودية المسيحية وليس بينه وبين الكتب المقدَّسة العادية، بل بينه وبين كتب الربَّانيين والأناجيل الموضوعة... ولا يستطيع الناقد الغربي أن يقاوم الرغبة في الاستنتاج بأن معرفة هذه القصص تتزايد باستمرار وأن شخصاً كان يخبره بها أو أشخاص على علم بها"[2].

ويستدل ببعض الآيات منها قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل:103]، وقوله سبحانه:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان:4-5]، ويخرِّج مدلولها على غير وجه الدلالة الحقيقي للآيات مستندا في ذلك بملاحظة لأحد المستشرقين بقوله:" ويلاحظ توري، الذي يتخذ من ذلك حجة[يقصد الآية 103 من سورة النحل] أن محمداً لا ينفي قط أن يكون له معلم بشري، بل يُلح في القول على أن تعليمه ينزل عليه من السماء"[3].

ومن خلال هذه الملاحظة يفترض واط فرضيات ثم يصدِّقها ويثبتها بعد ذلك حقيقة ويردُّ أصولها إلى العهد القديم، فيقول:" وإذا افترضنا أن محمداً كان يتلقى معلوماته من شخص من الأشخاص فإن ذلك يؤدي بنا إلى ازدياد التشابه مع قصص العهد القديم"[4].

---

(1) Margoliouth, D. S ([1905] 1985) Mohammed and the Rise of Islam, Ram Swarup, 3d ed, London, pp77-78.

(2)مونتغمري واط: المرجع السابق، ص141، ص205، ص251.

(3)مونتغمري واط: المرجع السابق، ص251.

(4)مونتغمري واط: المرجع السابق، ص251.

ويزيد واط في الغرق للكيل أكثر، فيقول أن الحماسة التي تميَّز بها محمد ﷺ في الدفاع عن مبادئه إنما أخذها من ورقة بن نوفل، فتصبح عنده بداهة هذه الفكرة، فيقول:" ومن البديهي أنه كان يفتقر[أي النبي ﷺ] إلى الثقة بنفسه في هذه الفترة... وتشجيع ورقة مُهِم...وإذا كان محمد كما يبدو مترددا بطبعه، فإن هذا التشجيع بإقامة بناء ضخم على تجاربه يرتدي أكبر أهمية لتطوره الداخلي"[1].

ثم يقول أن الرحلات التجارية التي كانت تحط رحالها بمكة قد أسهمت في الوعي الديني عند محمد ﷺ وذلك عن طريق احتكاكه بالمسيحيين العرب أو المسيحيين الأحباش القادمين من اليمن أو حتى اليهود المتواجدين بالمدينة والأماكن الأخرى[2].

ودليل آخر يثبت وجهة نظر واط وهو أن كثرة أصحاب المذهب الحنفي"أحناف الجاهلية" وتواجدهم في نفس الفترة التي وُجِد فيها النبي محمد ﷺ يفيد قطعاً أنه أخذ منهم واحتك بهم لأن الجو العام كانت تسوده المفاهيم الكتابية بشكل كلي وعام[3].

ويبلغ الجهد بمونتغمري لتصيُّد الأدلة لإثبات ما ذهب إليه على أن الإسلام ما هو إلا كهانة وهرطقة، ودين ملفَّق من اليهودية والمسيحية، فيعطي بعض الأمثلة والتي في زعمه تؤكد صحة مذهبه وهي واقعية وقد مارسها الرسول ﷺ في حياته اليومية أو في بعض أوقاته أو أمر بها، ومن ذلك فرضية صلاة الظهر أو الصلاة الوسطى، وصلاة الجمعة والتوجّه أثناء الصلاة إلى بيت المقدس، وصيام عاشوراء، وجعل طعام أهل الكتاب حِلاً له ولأصحابه رغم معاداتهم في الظاهر، وتحليل الزواج من نساء أهل الكتاب[4].

فهذا أصل المزاعم وأصل المنهج العلمي، فحين يُفرغ الإسلام من ذاتيته وأنه ليس بوحي إلهي مستقل عن كل أرضي وفكر بشري، يأتي الفكر الإستشراقي وهو في أسمى عطاءاته وعلى أعلى

---

(1) مونتغمري واط: المرجع السابق، ص92، ومونتغمري واط: محمد في المدينة؛ تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية بيروت [د ت ط] ص315-316.

(2) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص18-19. و Watt, W.M : Muhammad Prophet and Statesman Oxford University Press, London 1967,pp 39-40.

(3)Ibid, p38 .

(4) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص196-201؛ محمد في المدينة، ص303-305.

مستوى من يسمُّون في الغرب بالعلماء والمتبحِّرين في العلوم الشرقية لكي يثبتوا وضاعته وانتماءه البشري وكذا عدم استقلاليته عن الشرائع السابقة[1].

وإذا كان وأن صادف أن جاء الإسلام بشيء قد كان في الشرائع التي كانت قبله سواء إن كان قد أكَّدها أو عدَّل في بعض جزئياتها أو حتى نفاها، فهذا ليس بدليل على أن الإسلام قد أخذ مما سبقه من الشرائع، وإنما يؤكد صدقه ومصدريته القدسية ومصدرية تلك الشرائع في أصلها[2]، قبل أن تُدخل عليها العقلية البشرية كل تحريف وزيغ[3].

ثم إن كان هناك من أوجه الشبه بين الشرائع كلها في بعض جزئياتها أو في بعض كلياتها أليس هذا سبباً قوياً في جعل كل تلك الشرائع تتقارب فيما بينها[4]، وهم في هذا المتشدِّقون بهذه الدعاوى والمناهج في العالم (التقارب بين الأديان وحوار الحضارات....).

---

(1) للرد على مزاعم هؤلاء يكفي إثبات قول الله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣ ﴾ [النحل:103]. وقد كشف القرآن هذا اللبس هنا بأوضح كشف إذ قال قولا فصلا دون طول جدال ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي كيف يعلمه وهو أعجمي لا يكاد يبين وهذا القرآن فصيح عربي معجز. والجملة جواب عن كلامهم، فهي مستأنفة استئنافا بيانيا لأن قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يتضمن أنه ليس منزلا من عند الله فيسأل سائل: ماذا جواب قولهم؟ فيقال: ﴿لِسَانُ الَّذِي... ﴾. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور(ت 1393هـ/1973م): التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي بيروت، ط1، 1420هـ/2000م، ج 13 ص231.

(2) لإثبات صدق القرآن ومصدريته القدسية وقدسية تلك الشرائع السابقة ولتوضيح ذلك أكثر، ينظر: محمد بن علي الشوكاني(ت1250هـ/1834م): إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1404هـ/1984م، ص5-44.

(3) وتأكيداً لقدسية الإسلام ومصدريته وأن كل الأنبياء عليهم السلام قد أتوا به ودعوا إليه وأوصوا بالتمسّك به، وإن اختلفت أسماء الشريعة التي كلِّف بتبليغها كل نبي إلى قومه، يكفينا إثبات مجموعة من الآيات، فعلى لسان إبراهيم وإسماعيل قول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ ﴾[البقرة:128]، وعلى لسان إبراهيم ويعقوب قوله تعالى:﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ ﴾[البقرة:132]، وعلى لسان سليمان قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ٤٢ ﴾[النمل:42].

(4) مصداقا لقوله تعالى:﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾[النمل:42].

غير أن المدرسة الإستشراقية الحاقدة ومنذ أيامها الأولى قد وضعت هدفاً لتبلغه ومنهجاً لا تحيد عنه، ومنظارا خاصا بها لا ترى إلا من خلاله وكل ذلك مدفوع بدافع الحقد والكراهية ونظرة التعالي ومغلف بغلاف العلمية والمنهجية[1]، لذا فلن تنتج إلا ما يخدم هدفها ولن تحيد عن المنهج المسطَّر ولن تتخلى عن هدفها الأول تدمير الإسلام وإبادة أهله ما استطاعوا لذلك سبيلاً أو التشكيك فيه على الأقل، بالإضافة إلى كونهم يمثِّلون سداً فكرياً منيعاً في وجه تحرر العقلية الغربية.

فالحقيقة المستقاة بعد عرض هذه النماذج في منهج الأثر والتأثر والمكشوفة للعيان بعد الفحص والتدقيق هي سيطرة العقلية الغربية ذات الأصول اليهودية والمسيحية في هذا المجال أو حتى العقلية اللادينية أصلاً ولكنها تزلُّفاً وتقرّباً لقضاء بعض المآرب والمصالح تتخذ ذلك غطاءً في دراساتها وأبحاثها[2].

2_ المنهج العلماني:

انطلق واط في بداية حديثه عن السيرة النبوية وعن المنهج الذي رسمه مدَّعياً الحياد والنظرة العلمية العميقة بعد التفحُّص والتمعُّن فيما يكتب، ومجلِّياً توجهه الديني على أساس أنه مسيحي بروتستانتي، واعتذر للمسيحيين إن وجدوا بعض الحقائق التي قد تصدم الفكرة الدينية والمرسومة في أذهانهم عن النبي محمد ﷺ ويدَّعي سلفاً أنهم قد لا يوافقونه نظرته غير أنَّه يطمئنهم بتقديمه لهم المادة العلمية المطلوبة لتجلية الصورة الحقيقية عن نبي الإسلام ﷺ بالحقائق التاريخية فيقول:" وبقدر ما يتعلق اتصال النصرانية بالإسلام فإنه لا بد للنصارى من أن يتخذوا موقفاً من محمد[ﷺ]، وأن يكون ذلك الموقف مبنياً على مبادئ دينية. وسأعترف طواعية بأن كتابي ناقص من هذه الناحية،

وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجرات:13].

(1) ينظر كل من: محمد خالد ثابت: المستشرقون وتشويه الحقائق التاريخية، بحث ضمن مجلة الأمة قطر، السنة الثالثة، العدد (20) شعبان 1403هـ، ص54-55. ومحمود بن الشريف: المستشرقون بين الحقائق والأوهام، بحث ضمن مجلة الأمة قطر، السنة الرابعة، العدد (48) ذو الحجة 1404هـ، ص12 وما بعدها.

(2) د. جون ب. ديكنسون: العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث، ترجمة: شعبة الترجمة باليونسكو كتاب عالم المعرفة، الكويت رقم112، أفريل 1987م، ص11 وما بعدها.

ومع ذلك فإني أدَّعي أنه يقدم للنصارى المادة التاريخية التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار لصياغة ذلك الحكم الديني"[1].

وهكذا يعترف واط أن هدفه تنصيري وهو تزويد النصارى بالمادة التاريخية لهذا الغرض، غير أنَّه لما بدأ يحلِّل وقائع السيرة وبعد أن خرج عن المنهج الذي رسمه لبحثه، تنصَّل نهائياً حتى من مبادئه الدينية التي يؤمن بها ويكتب لأهلها والتي أحد أسسها الإيمان بالغيب عامة.

ففي معرض حديثه عن الفترة التي سبقت البعثة النبوية من حياته ﷺ وما كان فيها من أحداث عظام والتي هي بشائر وإرهاصات للنبوة يشكك فيها ويسقطها وينحى منحى المؤرخين العلمانيين الماديين[2]، الذين لا إيمان لهم إلا بما هو مادي ملموس، ومن ذلك حادثة شق صدره الشريف ﷺ[3]، ولقاؤه حين سفره مع عمه في تجارة إلى الشام بالراهب بحيرا[4].

---

(1)Watt. Muhammad at Mecca, Introduction p. x

والنص بالإنجليزية هو:

« In so far as Christianity is in contact with Islam, Christians must adopt some attitude towards Muhammad and that attitude ought to be based on theological principles. I would readily admit that my book is incomplete in this respect, but would claim that it presents Christians with the historical material which must be taken into account in forming the theological judgement".

(2) العلمانية: هي عزل السماء عن الأرض، وتحرير العالم والإنسان والاجتماع الانساني من التدبير الإلهي وتدبير السماء، بدعوى أن العالم مكتف بذاته، وأن الإنسان هو سيد هذا الكون يدبِّر حياته بالعقل والتجربة دونما حاجة إلى رعاية أو تدبير من وراء الطبيعة وخارج العالم الذي يعيش فيه.د. محمد عمارة: الشريعة والعلمانية الغربية، دار الشروق القاهرة، ط1، 1423هـ/2003م، ص7.

(3) والحادثة مروية في كتب الصحاح والسنن والمسانيد عدا كتب السير والتراجم. وهذه روايتها: حَدَّثَنَا حَسَنٌ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ أَخْبَرَنَا ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ وَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ ثُمَّ شَقَّ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ هَذِهِ حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ قَالَ فَغَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لَأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ قَالَ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ قَالَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ قَالَ أَنَسٌ وَكُنْتُ أَرَى أَثَرَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ. أحمد بن حنبل (164-241هـ/780-855م): المسند الصحيح، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 1420هـ/1999م، ج19 ص489، الحديث رقم:12506.

(4) ينظر هذه الحادثة في كل من: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة(159-235هـ/776-849م) : المصنف، ضبطه وعلّق عليه: سعيد اللحام، دار الفكر دمشق،1988م،ج11 ص479، ج14 ص 286، والترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى

وحتى زواجه ﷺ من خديجة[1]، يفسِّره واط تفسيرا ماديا خالصاً، ويحتج مدّعياً أن الحياة في تلك الفترة في مكة كانت قاسية وبخاصة لشاب تربى يتيماً، لذا وجب عليه أن يستثمر كل فرصة في حياته وقد نالها بالتجارة لخديجة المرأة المطلقة، ثم بزواجه منها[2].

وبعد أن يلقي واط بظلال المنهج العلماني التشكيكي الذي لا يؤمن بالغيب ولا بالمعجزات على السيرة النبوية يقرِّر على عادته دون تقديم الدليل الحقيقي والواقعي ويقول:" إن هناك العديد من القصص ذات الطابع الديني يكاد يكون من المتيقن بأنها ليست حقيقة من وجهة نظر المؤرخ العلماني الواقعية"[3].

(209 - 279هـ/824-892م): الجامع الصحيح، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1 1996م، أبواب المناقب، باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ ج6 ص14-15 ، ومحمد بن جريرالطبري (224-310هـ/839-923م): تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1407هـ، ج2 ص278 ومحمد بن محمد بن سيد الناس(ت734هـ/ 1333م) : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير تحقيق: محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو، دار ابن كثير دمشق، [د ت ط] ج1 ص105-108، والروض الأنف للسهيلي، ج1ص319، وأبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (476-544هـ/1083-1149م): الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الكتاب العربي بيروت 1404هـ/1984م، ج2 ص190، وغيرهم وإسنادها صحيح؛ وفيها لفظة منكرة استنكرها الحُفَّاظ وهي وَهْم من أحد الرواة وهي قوله (وَبَعَثَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ بلالاً) ، وقد صحح هذا الحديث غير واحد ، وحسنه الترمذي.

(1) خديجة بنت خويلد: أم المؤمنين (68-3ق هـ/556-620م)خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، من قريش زوجة رسول الله ﷺ الأولى، وكانت أسن منه بخمس عشرة سنة. ولدت بمكة، ونشأت في بيت شرف ويسار، ومات أبوها يوم الفجار، وتزوجت بأبي هالة بن زرارة التميمي فمات عنها وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام، تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة فلما بلغ رسول الله ﷺ الخامسة والعشرين خرج في تجارة لها إلى سوق بصرى بحوران وعاد رابحا، فعرضت عليه الزواج بها، فأجاب، فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسعد بن عبد العزى فحضر وتزوجها رسول الله قبل النبوة فولدت له القاسم وكان يكنى به وعبد الله وهو الطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وكان بين كل ولدين سنة وكانت تسترضع لهم وتهيئ ذلك قبل أن تلد ولما بعث رسول الله ﷺ دعاها إلى الإسلام، فكانت أول من أسلم من الرجال والنساء ومكثا يصليان سرا إلى أن ظهرت الدعوة كانت تكنى بأم هند وهند من زوجها الأول، وأولاد النبي ﷺ كلهم منها، غير إبراهيم بن مارية وكانت وفاة خديجة بمكة. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج 2 ص302.

(2) Watt, W.M : Muhammad Prophet and Statesman, p10.

(3)مونتغمري واط: محمد في المدينة، ص303-305. و

Muhammad Prophet and Statesman, pp 196-201.

وأبرز علامات وسمات النبوة الوحي، والذي أنكره مونتغمري كلية بل جعل منه صفة بشرية بحتة وملازمة لمحمد ﷺ وهو شيء من إبداعاته الخلاَّقة ومخيِّلته" Creative Imagination " ولذلك استحق العظمة وليس لأنه نبي الله، ولو كان كذلك لرأى جبريل عليه السلام ولكن ذلك لم يحدث ولن يحدث لأن الرؤية لن تكون قصة يصدِّقها التاريخ[1].

وكعادة واط فهو لا ينفي الشيء أو الحادثة أو القول بل يناور من قريب ومن بعيد بأسلوب ملتوٍ ليِّن ثم يقرر ما أراد أن يصل إليه، ولذلك فهو ينفي أميَّة الرسول ﷺ ليثبت مجموعة ادِّعاءات وعلى رأسها تلقي الوحي ففي تفسيره"ما أنا بقارئ"، إجابة على سؤال جبريل عليه السلام يقول:" يتضح لنا ذلك من وجود رواية تقول"ما أنا بقارئ" وفي التمييز عند ابن هشام (ما أقرأ)؟ و(ماذا أقرأ)؟ حيث التعبير الثاني لا يمكن أن يعني إلا (ماذا أتلو) وهذا المعنى الطبيعي لقوله(ما أقرأ)؟

ثم يضيف واط قوله:" ويبدو من المؤكد تقريباً أن المفسرين التقليديين اللاحقين تجنبوا المعنى الطبيعي- ويا له من معنى ويا له من اكتشاف اكتشفه هو- لهذه الكلمات ليجدوا أسساً للعقيدة التي تريد أن محمداً[ﷺ] لم يكن يعرف الكتابة"[2].

وفي هذا إيحاء بالغمز لرد قوله تعالى﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[العنكبوت: 48].

وفي موضع آخر ينفي الوحي بطريقته العلمانية الخاصة، حيث يصدِّق الوحي ولكن يكذِّب النبي ﷺ ويجعل منه دعِّياً- وحاشاه أن يكون كذلك ﷺ- فيقول:" فالقول بأن محمداً كان صادقاً لا يعني بأن القرآن وحيّ حق من صنع الله، إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن محمداً كان مقتنعاً بأن الوحي ينزل عليه من الله وأن نؤمن في نفس الوقت بأنه كان مخطئاً"[3].

فعبقرية واط البحثية وكثرة اطِّلاعه مع استخدامه لمنهج علماني تشكيكي تساؤلي يجعله يتفلَّت من المساءلة التاريخية لسرده للوقائع والأحداث كما ييسر له تلفيق التهم وكيلها بالجملة دون أن يُخضع نفسه ولا مادته التي يكتب فيها للضبط والتحديد.

---

(1) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص43.

(2) مونتغمري واط: المرجع السابق، ص85.

(3) مونتغمري واط: محمد في المدينة، ص85.

ومن هنا فقد جمحت به مخيِّلته من جديد لنفي المصدر الإلهي للوحي وللنبوة وجعله من طبيعة المرحلة والمحيط وأن الوحي من وحي المحيط والعقلية الجماعية فيقول:" إن مصدر الوحي المحمدي هو اللاوعي الجماعي Collective Unconscious الذي هو مصدر كل وحي ديني سواء كان الإسلام أو النصرانية أو اليهودية"[1].

فالدين في معتقد واط العلماني هو شركة تقيمها الجماعة فيما بينها لحاجتها إليها أو هو مؤسسة مساهمة يحق لكل مساهم فيها أن يدلو فيها برأيه شريطة أن يكون عاقلاً وألاَّ يخالف قوله المعقول مما هو متفق عليه فيما بين تلك الجماعة، فيزيد الدين وينقص بحسب حاجة الجماعة لذلك !!؟

ويخلص واط في نهاية أمره ويستقر رأيه حول الوحي والنبوة بعد أن نفاهما قطعاً من المصدرية السماوية المقدَّسة، بعد أن قدَّم لذلك بمقدِّمات وفرضيات واهية بالقول:" إن محمداً [ﷺ] رجل قد تجسَّدت فيه التخيُّلية العقلية الخلاَّقة حتى الأعماق، فاستطاع ابتكار أفكار ذات صلة بعمق الوجود الإنساني"[2].

وخلاصة قوله كذلك في عالمية الرسالة وأن الرسول ﷺ قد بُعث للناس عامة، بأن ذلك لم يكن واضحاً كهدف في بداية حياته الدعوية، وأن التدرُّج الذي يتبناه القرآن كمنهج له غير واضح كذلك في قوله:"اعتبر نفسه [يقصد النبي ﷺ] أول الأمر مرسلاً إلى قومه القرشيين، ثم أخذ شيئاً فشيئاً وبدرجات لا تبدو بوضوح في القرآن، يتراءى له هدف أوسع لرسالته[3]؛ دعا قبل

---

(1) Watt, W.M : Muhammad Prophet and Statesman, p238.

(2) Ibid, p 240.

والنص بالإنجليزي هو:

« He was a man in whom creative imagination worked at deep levels and produced ideas relevant to central questions of human existance ».

(3) إن ادِّعاءات واط غير مؤسسة ولا تستند لأي دليل، فمراجعة للقرآن المكي ولسوره الأولى من حيث النزول، يتبيَّن أن الرسالة المحمدية من أوّل لحظة تلاقي السماء بالأرض هي رسالة عالمية وللناس جميعاً، وأن الخطاب القرآني موجَّه للإنسان كإنسان وليس لطائفة محدّدة من الناس، ولا لجنس من الأجناس البشرية. مثاله قوله تعالى:﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ ﴾[العلق:1-9]، وقول الله تعالى:﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:1-3].

الهجرة بعض أفراد القبائل البدوية إلى الإيمان بالله عدا مفاوضة سكان المدينة، ثم احتلت فكرة الأمة القائمة على أساس ديني مكان الصدارة بحلول الهجرة"[1].

ومن خلال منطلقه هذا والمقدِّمات التي استعرضها ينفي أن يكون الرسول ﷺ قد قام بدعوة الملوك والحكام الذين عاصروه وعاصروا دعوته، من منطلق أن محمداً ﷺ كان حاذقاً ورجل سياسة محنك فهو لا يقوم بمثل هذه التصرفات والأفعال في قوله:" غير أن قول بعض المصادر الإسلامية، وهي ليست أقدم المصادر[2]، أنه نظر للإسلام على أنه دين عام شامل، وأنه دعا الإمبراطور البيزنطي والفارسي وغيرهما من الملوك للدخول فيه هو قول خاطئ[3]، إذ أنه من غير المعقول أن يوجه رجل سياسي حكيم كمحمد مثل هذا النداء المحدد، وندرك أن تقارير السفراء عند مختلف

---

(1) مونتغمري واط: محمد في المدينة، ص143. و محمد في مكة، ص138، ص141.

(2) ويكفي أن نذكر هنا أقدم وأصح مصدر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يذكر أن رسالة محمد ﷺ ما كانت إلا للعالمين وللناس كافة منذ أوحي إليه ﷺ بها، حتى ولو أنكر ذلك المنكرون قلَّ عددهم أو كثر، في السور المكية، مثل قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[سبأ:28].

(3) دعوة الرسول ﷺ للحكام والملوك وزعماء القبائل في عصره ثابتة بالكتاب وفي سيرته وسنته ﷺ، فقد أُمِر بتليغ ما أُنزل إليه للناس كافة دون تمييز بينهم دون اكتراث من الخلق جميعاً لأن الله يحميه ويعصمه، قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[المائدة:67]. وفي سيرته وسنته ﷺ ما ثبت في الصحيحين من رواية عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس ﷺ قال: حدثني أبو سفيان من فيه إلى في قال: انطلقت في المدّة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل قال: وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل قال: فقال هرقل: هل ها هنا أحدٌ من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي قالوا: نعم فدعيت في نفرٍ من قريش فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ قال: أبو سفيان فقلت: أنا فأجلسوني بين يديه وأجلسوا أصحابي خلفي ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ فإن كذبني فكذبوه قال: أبو سفيان وايم الله لولا أن يؤثروا علي الكذب لكذبته... قال: إن يك ما تقول حقاً فإنه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج و لم أك أظنه منكم ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه وليبغلن ملكه ما تحت قدمي... فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام. ينظر:محمد بن فتوح الحميدي: الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: د. علي حسين البواب، دار ابن حزم بيروت، ط2، 1423هـ/2002م، ج3 ص304-308، رقم الحديث:2894. ومختار الوكيل: سفراء النبي ﷺ وكتابه ورسائله، دار المعارف القاهرة[د ت ط].ص17-24.

الحكام مملوءة بالتناقضات"[1]. وهذا أوسع مدى يمكن أن تدركه العقلية العلمانية في مناهجها وتصوراتها حول النبوة والأنبياء.

3_ المنهج المادي:

ويعود ظهور هذا المنهج كما تقرر سابقاً في الغرب في تفسير الحوادث التاريخية بعد ظهور ونجاح الثورة الشيوعية في روسيا[2] والتي ترجع كل حركة أو ظاهرة في المجتمع إلى العامل الاقتصادي.

فيعزو واط بادئ ذي بدء ظهور الدعوة إلى الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي سادت في مجتمعه ﷺ، ويفسر كل حوادثها ووقائعها بمنظار ماديٍّ يجلِّي بعضها ويخفي البعض الآخر؛ ويقرر نظرية استقرَّ عليها لا ندري من أين استمدَّها، ولكنه يعتمدها كأساس لتحليل وقبول تحليل وقائع التاريخ عامة والسيرة النبوية بصفة خاصة في قوله:"أن المؤرخين هم أكثر إدراكاً للعوامل المادية الكامنة وراء التاريخ، يعني ذلك أن مؤرخي منتصف القرن العشرين يريدون أن يسألوا أسئلة كثيرة عن الجذور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للحركة التي بدأها محمد[ﷺ]، من غير أن يُهملوا أو يقلِّلوا من شأن الجوانب العقدية، وإنهم وإن كانوا يعتقدون بأن هذه العوامل لا تحتِّم سير حركة التاريخ، إلا أنهم يعترفون بأهميتها"[3].

وواط يبني استنتاجاته على مقدِّمات وفرضيات يضعها كلَبِنَات في فكره ثم يدلِّل عليها بأقوال من سبقوه من المستشرقين ويثبتها نظرية واقعية وحقيقة لا مجال للشك فيها، ومن ذلك ما ادَّعاه حول طموحات النبي ﷺ في مجتمعه المكي والذي كانت قوامه التجارة.

ومن منظوره المادي فقد جعل من ذلك السبب"التجارة" أحد الأسباب المحرِّكة لحياته ﷺ في هذه المرحلة وإعداده لنفسه للدور الذي سيقوم به فيما بعد، فيوسع واط قول السابقين له في هذا

---

(1) مونتغمري واط: محمد في المدينة، ص41-42.

(2) الثورة الشيوعية (1336هـ/1917م): تزعّم هذه الحركة التغييرية لينين وتروتسكي وستالين بعدما نظّر لها ماركس، وليست الشيوعية مذهبا اقتصادياً بحتاً كما يتبادر إلى ذهن كثير من الناس حين يسمعون لفظة الشيوعية، وإن كان لها ولا شك مذهب إقتصادي محدد متميّز، إنّما هي تصوّر شامل للكون والحياة والإنسان ولقضية الألوهية كذلك وعن هذا التصوّر الشامل ينبثق المذهب الاقتصادي. محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق القاهرة، ط9، 1422هـ/2001م، ص259.

(3) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص6-7.

الصدد ويطرح ما يسميه تفسيراً اقتصادياً لظهور النبي والإسلام ويدور تفسيره هذا حول ثلاث ركائز هي:

أ-كانت مكة مدينة تجارية قد خرجت من مرحلة الاقتصاد اليدوي إلى مرحلة الاقتصاد التجاري.

ب-ونتيجة لذلك فقد انكسر التكافل القبلي وبرزت ظاهرة الفردانية "Individualism".

ج-كانت هناك منافسة تجارية شديدة بين فريقين من قبائل مكة يترأس أحدهما بنو هاشم، والآخر بنو مخزوم وبنو عبد شمس[1].

ولا يتوقف واط عند هذا الحد من المادية والانغماس في منهجها بل يأتي بشيء ما سبق أن أشار إليه أحد من المستشرقين حتى المتعصبين منهم، فيلفِّق مُتَهِمًا –وهو في ذلك دعيٌّ – الرسول ﷺ بأنه كان في مرحلة من مراحل حياته ممنوعاً من دخول دائرة ممارسة التجارة المربحة في قوله:" **ونستطيع الافتراض أيضاً أن محمداً [ﷺ] كان في شبابه ممنوعاً عن دائرة التجارة الرابحة ومن ثم كان يعاني الشعور بالحرمان** "Sense of deprivation"، **وهذا ما دفعه إلى الأمام**"[2]. ولذلك كانت نتيجة ما توصَّل إليه واط أغرب من مقدماته وفرضياته، وهي الشعور بالحرمان والاحتقار، والذي يصاحبهما دوماً الثورة على الواقع والأوضاع السائدة نحو تغيير جزئي أو تغيير كلي إن أمكن ذلك، وهذه كلُّها ترسبات الفكر المادي ومنهجه[3].

---

(1) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص54.

(2) مونتغمري واط: المرجع السابق، ص74.

(3) يعلم مونتغمري واط أن الرسول ﷺ قد تربى في بيت عز وجاه، وأن السقاية والرفادة كانتا من نصيب أجداده ﷺ في الجاهلية، وما قام حلف المطيِّبين في ذلك الزمن إلا من أجل استرجاع هذين الوظيفتين المميزتين خدمة لبيت الله الحرام وللحجاج. ينظر خبر ذلك بالتفصيل في: أبو محمد عبد الملك بن هشام البصري (ت 213هـ/828م): السيرة النبوية، تحقيق ودراسة: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث طنطا مصر، ط1، 1416هـ/1995م، ج 1ص 131-139. والسهيلي: الروض الأنف،ج 1ص 238 وما بعدها.

كما يربط واط حرب الفجار[1] وحلف الفضول[2] بهذا التفسير الاقتصادي والمنافسة التجارية، وخلاصة كلامه أن الحركة الإسلامية كانت في الأصل نضالاً بين الطبقتين الأولى والثانية في المجتمع المكي وأن النبي ﷺ وأتباعه كانوا هم الطبقة الثانية. وإذا ما تتبعنا مصادر واط وجدنا تفسيره الاقتصادي هذا مبني على اقتراحات الآخرين.

فقد تابع واط في كثير من تفسيراته لوقائع السيرة أصحاب المنهج الشرقي الروسي المادي الصِّرف وهم كُثُر، والذين كان منهم من نفى حتى وجود النبي ﷺ أصلاً مثل تولستوف، والذي عدَّ ذلك من الأساطير والحكايات القديمة، وظهور الدين الإسلامي عنده نتيجة حتمية تاريخية صُنعت زمن الخلافة لصالح الطبقة الحاكمة لوجود أسطورة سابقة تسمى مذهب الحنيفية[3].

وبندلي جوزي[4]، والذي جمع في تفسيراته لأحداث السيرة النبوية كل سبب يشم فيه رائحة المادية والعوامل الاقتصادية إلا جاء به وأكَّده ومثال على ذلك قوله:"إن سياسة النبي[ﷺ] مع

---

(1) حرب الفجار: سمي اليوم بيوم الفجار لما استحل هذان الحيان كنانة وقيس عيلان فيه من المحارم بينهم. ابن هشام: السيرة النبوية، ج1ص240-242. والسهيلي: الروض الأنف، ج 1ص317.

(2) حلف الفضول: قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَأَمّا حِلْفُ الْفُضُولِ فَحَدّثَنِي زِيَادُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ الْبَكّائِيّ عَنْ مُحَمّدِ بْنِ إسْحَاقَ قَالَ تَدَاعَتْ قَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ إلَى حِلْفٍ فَاجْتَمَعُوا لَهُ فِي دَارِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جُدْعَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ، لِشَرَفِهِ وَسِنّهِ. فَكَانَ حِلْفُهُمْ عِنْدَهُ بَنُو هَاشِمٍ، وَبَنُو الْمُطّلِبِ، وَأَسَدَ بْنَ عَبْدِ الْعُزّى وَزُهْرَةُ بْنُ كِلَابٍ، فَتَعَاقَدُوا وَتَعَاهَدُوا عَلَى أَنْ لا يَجِدُوا بِمَكّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِمّنْ دَخَلَهَا مِنْ سَائِرِ النّاسِ إلاّ قَامُوا مَعَهُ وَكَانُوا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ حَتّى تُرَدّ عَلَيْهِ مَظْلَمَتُهُ فَسَمّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ. ابن هشام: السيرة النبوية، ج1ص181. والسهيلي: الروض الأنف، ج 1ص241.

(3) عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري واط، ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس، 1985م، ج1 ص140.

(4)بندلي بن صليبا جوزي(1285-1364هـ/1868-1945م) باحث، من أهل القدس، ولد وتعلم بها، ورحل إلى موسكو فتخصص في الدراسات الشرقية واللغات السامية، وظل محاضرا في جامعتي قازان و باكو إلى أن توفي. خدم العربية في حركة الإستشراق خدمات ثمينة ويصفه المستشرقون بأنه كان مرجعا خصبا من مراجعهم. واسمه عند الافرنج Pandali له كتب منها الأمومة عند العرب ترجمه عن ويلكن الهولندي، والطاعون وأعراضه والوقاية منه رسالة ومن الحركات الفكرية في الإسلام وتاج العروس في معرفة لغة الروس جزآن، ومبادئ اللغة الانكليزية لأولاد العرب جزآن، وعلم الأصول عند الإسلام، وأصل الكتابة عند العرب وجبل لبنان تاريخه وحالته الحاضرة. واشترك مع قسطنطين زريق في ترجمة رسالة أمراء غسان عن الألمانية لنولدكه. خير الدين الزركلي: الأعلام،ج 2 ص 75.

المكيين قد تغيَّرت كثيرا في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ولأسباب عديدة أوجدتها الظروف وأدى إليها الاختيار وحب النبي[ﷺ] لوطنه الأصلي وأهله وذويه إلى غير ذلك من الانفعالات النفسية والعوامل السياسية التي ظهرت بعد موقعتي بدر وأحد وحصار المدينة، وكان من نتائجها أن النبي[ﷺ] أخذ يلطِّف من سياسته نحو إخوانه المكيين، كما أن أصحاب السلطة في مكة رأوا – بعد ما أصابهم في موقعة بدر وبعد ما لحق بتجارتهم من الخسائر- أن يتساهلوا في أمور كثيرة مع النبي[ﷺ] على شروط تضمن بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ما كانت عليه قبل الإسلام، وأن يشملهم بالعفو ويشركهم في عمله الجديد الذي أخذوا يتوقعون منه خيرا...وأن يبقى النبي[ﷺ] في المدينة وألا يتعرض في كلامه لأمورهم المالية، فكانت الحديبية وسياسة تأليف القلوب، فصار الناس يدخلون في دين الله أفواجا لا عن اعتقاد بصحة الدين الجديد الذي لم يكونوا يعرفون عنه إلا الشيء القليل، بل رغبة في التقرب من أصحاب السلطة الجدد وحفظاً لمراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة في أجيال"[1].

ويقول بندلي في موضع آخر عن أعمال النبي ﷺ والمنهج الإسلامي الذي طبقه في تغيير المجتمع آنذاك:" لاشك أن النبي العربي [ﷺ] لم يقصد بأقواله وأفعاله في مكة والمدينة إلى أن يستأصل أسباب الشر الاجتماعي ويقتل جميع جراثيمه، كما يحاول أن يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على اختلاف أسمائهم ونزعاتهم"[2]. فمحمد النبي ﷺ هو عندهم بَشر مُصلِح مُلْهَم مثل كل المصلحين حتى الاشتراكيين في القرن العشرين.

وكمثال آخر في استعمال واط للمنهج المادي وتطبيقه على السيرة قوله:" من المغري أن نفترض أن القبائل الممثلة في العقبة الأولى كانت مؤلَّفة من البروليتاريا، Proletarian "[3]، ثم ردُّه لكل غزوات الرسول ﷺ للعامل الاقتصادي، يقول:" زيادة السكان بانقطاع الحروب القبلية، البحث عن متنفس للطاقات التي كانت تبذل في الغزوات[4]، المحافظة على مستوى المعيشة، الحاجة

---

(1) نقلا عن عماد الدين خليل: المرجع السابق، ج1 ص141.

(2) عماد الدين خليل: المرجع السابق، ج1 ص142.

(3) مونتغمري واط: محمد في المدينة، ص176.

(4) يكفي لتأكيد المغزى الحقيقي للحرب والغزو في الإسلام بأنّه الدفاع ورد الظلم بالتدليل من قول الحق سبحانه: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[الحج:39-40] وفي تفسيرها جاء قولهم:" أذن

إلى مصدر جديد للرزق، والطمع في الغنيمة جاء بالكثيرين إلى المدينة، كل هذا سبب مشاكل اقتصادية، وحلُ ذلك كله يكمن في الغزو والتوسع"[1]. وله قول مشابه لهذا أشار إليه في صفحات سابقة من الكتاب وهو قوله:" وقد نظر محمد[ﷺ] إلى المستقبل ووجد أنه يجب توجيه غرائز السلب والنهب عند العرب نحو الخارج"[2].

وخلاصة القول في تبيان المنهج المادي الذي طبقه واط أنه كان يرى أن النمو التجاري وتدفق الثروة كان لهما أثر سلبي على قيم الرحمة والكرم في المجتمع المكي مما انعكس على تصدع اللحمة القبلية، وكانت الحاجة ملحة للموافقة بين الازدهار المادي والنظام الأخلاقي الروحي البدائي الذي كان سائدا في المجتمع، ولتحقيق هذا الهدف تصور محمد ﷺ حلاً دينياً للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة، ولذا يقول إن: "إعلان الدين الجديد جاء رداً على مرض العصر الذي سببه التطور الذي انتقل بالمجتمع المكي من حياة البداوة إلى اقتصاد حضري أكثر تطوراً"[3].

وقد تأثر واط بأمثال هؤلاء الماديين من حيث أنه يعلم وهو المفترض، أولا يعلم وهذا مستبعد، وجعل من منهجهم مَعْلَمًا اهتدى به في الكثير من محطات كتاباته عن السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي عامة.

4_ المنهج الإسقاطي: وهو المنهج الذي تتم فيه معالجة الحوادث التاريخية سواء ما كان منها قريباً أو بعيداً فيتم إسقاطها على واقع معيشة الباحثين ويقيسونها عليه ويفسِّرونها على غرار ما يفسِّرون به وقائعهم اليومية وفي ظل خبراتهم ومعايشتهم لواقع مجتمعهم.

للذين تهيئوا للقتال وانتظروا إذن الله وذلك أن المشركين كانوا يؤذون المؤمنين بمكة أذى شديدا فكان المسلمون يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال فلما هاجر نزلت هذه الآية بعد بيعة العقبة إذنا لهم بالتهيؤ للدفاع عن أنفسهم ولم يكن قتال قبل ذلك والباء في "بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا" أراها متعلقة بـــ "أُذِنَ" لتضمينه معنى الإخبار أي أخبرناهم بأنهم مظلومون وهذا الإخبار كناية عن الإذن للدفاع لأنك إذا قلت لأحد: إنك مظلوم فكأنك استعديته على ظالمه وذكرته بوجوب الدفاع".محمد الطاهر بن عاشور:التحرير والتنوير، ج17ص197-198.

(1) مونتغمري واط: المرجع السابق، ص144-146.

(2) مونتغمري واط: المرجع السابق، ص67.

(3) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص16-24.

يبدأ واط في إسقاطاته من الإرهاصات الأولى للنبوة، حيث التحنُّث بغار حراء، فيصورها على أنها رحلة استجمام وعطلة سنوية يحتاج إليها للتسلية والراحة، وينسى واط أن هذه الحادثة قد وقعت في القرن السابع الميلادي وليست وليدة القرن العشرين الذي هو فيه، مع ما ساق بين طياتها من أسلوب التعريض والتهكُّم فيقول:" إن زيارة محمد [ﷺ] لحراء، وهو جبل قريب من مكة، بصحبة عائلته أو بدونها، ليست مستحيلة، ويمكن أن يكون ذلك للفرار من أتون المدينة خلال فصل الصيف للذين لا يستطيعون التوجه إلى الطائف"[1].

يسقط واط الرؤية الغربية المعاصرة على أحداث السيرة، فنراه يطبق نظرية تدرج وتطور الأديان أياً كانت على الدين الإسلامي حيث يتحدث عن توحيد غامض في بداية الدين الإسلامي ويتدرج ليصل إلى ما نعرفه اليوم.

يتحدث واط عن بداية الإسلام بتوحيد غامض لم يتضح إلا فيما بعد، ويقول إن: "الأجزاء الأقدم في القرآن لا تحتوي على أي هجوم على الوثنية، بل كانت تقول بوجود توحيد غامض (vague monotheism) عند أتباع محمد، ثم أخذ الإلحاح يشتد على وجود إله واحد مع اشتداد النقد لعبادة الأصنام"[2].

ثم يدَّعي أن التوحيد: "لم يكن في الأصل واضح المعالم وبخاصة أنه لم يبث في أمر اعتبار الكائنات الأقل أهمية [الأصنام] والتي لا تتفق معه تماماً"[3].

واستقراء واط هنا ليس إلا إسقاطاً للنظرة الغربية فيما يتعلق بتطور الأديان على وقائع الدعوة المحمدية، وإيهاماً بأن الرسول ﷺ لم يكن يدرك حقيقة أبعاد دعوته وما يدعو إليه.

وإذا كان القرآن لم يحاول مهاجمة الوثنية على حد زعمه، يحق لنا أن نسأل واط عن القرآن المكي: ماذا عن سورة "الكافرون"[4] وما تقدير المعاني التي اشتملتها؟، وماذا تعني الآيات التالية:﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا

---

(1) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص81.

(2) مونتغمري واط: المرجع السابق، ص87-90.

(3) مونتغمري واط: المرجع السابق، 140.

(4)﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾.

وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۖ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:4-8] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[الأنبياء:36]

أليس في كل هذه الآيات دليل على وقوع خلاف بين محمد ﷺ النبي والرسول وليس بين المصلح الملهم، وبين المشركين حول مفهوم التوحيد ووجوب عبادة الله وحده دون إشراك، ثم ماذا عن سورة الإخلاص[1]، وما فيها من تكريس لهذا المفهوم ونفي مطلق للشرك؟

بقي في الأخير أن نذكّر واط ومن كان على شاكلته واعتقاده أن المرحلة المكية هي مرحلة تثبيت العقيدة وليست مرحلة تشريع الأحكام، وقد اهتمت المرحلة المدنية بالتشريع وبالتقنين وبالأحكام للأحداث والنوازل.

وخير ما يَصْدُق في ما ذهب إليه واط وأمثاله قول القائل:" إن مواضعات العقل الغربي ورواسبه الدينية جنباً إلى جنب، مع نزوعه العلماني ومسلَّماته المادية، ورؤيته الوضعية وانحساره على المنظور، وانكماشه على المحسوس، وردَّة فعله اتجاه كل ما هو روحي أو غيبي، واعتقاده الخاطئ بأن تجاوز الواقع إلى ما وراءه، سقوط في مظلة الخيال والمثالية والخرافة واللاعقلانية... بل إن غرور العقل الغربي وانتفاخه المتورِّم، واعتقاده القدرة على فَهْم كل شيء وتحليل كل معضلة في دائرة ما يصطلح عليه بالعلوم الإنسانية ومنها التاريخ؛ هذه كلها تفعل فعلها في حقل الدراسات الإستشراقية في السيرة وتمسك بتلابيب الباحث فلا يستطيع منها فكاكاً"[2].

---

(1)﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾

(2) عماد الدين خليل: المرجع السابق، ج1 ص173.

5_ منهج النفي والافتراض واعتماد السقط والشاذ:

بحيث يعمد المستشرق إلى نفي كل ما لا يخدم هدفه الذي سطَّره ابتداءً ولو كانت حقائق مثبتة ومُجمع عليها، ويأتي بفرضيات تخدم ما وضعه كنتائج لبحثه ويجمع له من الأدلة كل سقطٍ وشاذٍ فيدلِّل بها ويدعو لما ذهب إليه بإصرار حتى يُصَدَّق.

وواط يوغل في التشدد في اتباع منهج الإقصاء واعتماد الضعيف والشاذ، حتى يصبح مسرفاً في نفي الروايات الإسلامية إذ لا تكاد رواية إسلامية تنجو من تضعيفه لها دون إعطاء مسوّغ واضح لإقصاء هذه الرواية أو تلك، ونراه في المقابل يعتمد روايات ضعيفة وشاذة تحمل في طياتها التشكيك في دوافع وقائع السيرة وأهدافها؛ ليبين أنه موضوعي يعمد إلى المنطق دون الإيمان؛ وأمثلة ذلك كثيرة يكفي التدليل عليها بذكر بعضها.

ويبدأ واط منهجه هذا بالتشكيك في ميلاد النبي ﷺ بقوله:" ولد في مكة سنة 570م تقريباً بعد موت والده عبد الله"[1] وكلمة تقريباً تحمل بين طيَّاتها الشيء الكثير من الشك رغم أن واط يعلم علم اليقين أن هذا التاريخ شبه مجمع عليه عند كُتَّاب السيرة بجميع توجُّهاتهم ومعتقداتهم.

ثم هو يكثر من أسلوب التشكيك وإيراد مجموعة من المفردات والعبارات التي تضفي ظلالها على السياق فتخرجه من منظور الأخذ به إلى منظور التوقف عنده ومراجعته، ومثال ذلك في قوله:" **من الممكن أو يبدو** It seems that" و" **مما يدعو إلى الشك** It is very suspicious" و"**يصعب تصديق ذلك** But this is difficult to believe" و"**إذا أمكن قبول هذه الرواية** If this account could be accepted" و" **لو صدَّقنا الرواية** If we may trust the account"[2] ويخلص إلى نتيجة ما قدَّم فيقرر ما تهواه نفسه وما تلذُّ به آذانه طرباً لسماعه من الفرضيات والادِّعاءات بقوله:" **لا يمكن الاطمئنان لمثل هذه التفاصيل**" أو "**ولا يثبت شيء من هذا أمام النقد والتخمين اللذين مررنا بهما**"[3].

---

(1) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص64. و Muhammad Prophet and Statesman, p7

(2) مونتغمري واط: جميع فصول كتبه المعتمدة في البحث محمد في مكة، ومحمد في المدينة، و Muhammad Prophet and Statesman.

(3) مونتغمري واط: جميع فصول كتبه المعتمدة في البحث محمد في مكة، ومحمد في المدينة، و Muhammad Prophet and Statesman.

وفي معرضه عن الحديث عن أم المؤمنين خديجة، يقول واط: "**لقد بولغ كثيرا في عمر خديجة، وتذكر المصادر أسماء سبعة أطفال ولدت لمحمد[ﷺ]، ولو كان الأمر كما يذكر ابن سعد**[1] **أنها أنجبتهم على فترات منتظمة، مما يجعل عمرها ثمانية وأربعين قبل ولادة الطفل الأخير، وهذا ليس أمراً مستحيلا ولكنه من الغرابة بمكان بحيث يستحق الإشارة إليه، أنه أمر يمكن اعتباره معجزة**"[2].

ورغم اعتراف واط بأن ولادة المرأة في سن الثامنة والأربعين "ليس أمراً مستحيلا" إلا أنه يلقي بظلال من الشك على هذا الاحتمال، وكم حدَّثنا التاريخ ومشاهدة الواقع عن مثل هذه الوقائع ولم يجعلها الناس من المعجزات ولا أرَّخوا لها، وما نعدُ كلام واط إلا تلاعباً بالألفاظ وتعريضاً بالكلام، فكم من امرأة ولدت حتى في زماننا هذا بعد الخمسين، فإن كانت هذه "معجزة" في رأي واط فهي معجزة لا تستحق الكثير من الاهتمام.

وعند حديثه عن اجتماع قريش في دار الندوة لتدارس أمر الإسلام واستفحاله ولوضع خطة تليق بردع المسلمين، وإنهاء أمر الإسلام في مكة، وإجماعهم على قطع هذا الأمر بإنهاء المصدر الأصلي، وهو قتل الرسول ﷺ أمين الوحي في أرض الله، يشكك واط في هذا الاجتماع وفي خلاصة الاتفاق الذي اهتدى إليه المكيُّون ويأتي بصيغة يُقَال، ثم بجملة من الافتراضات والمسوِّغات والروايات الواهية في قوله:" **ويقال: إن المكيين خططوا لقتل محمد[ﷺ] قبل أن يرحل**" ثم يستبعد ذلك مشككاً ومعللاً ومستبعداً وقائلاً:" **ليس هناك شك في أن هذا الاجتماع قد عقد، وأن الحاضرين أدركوا أن محمداً[ﷺ] يهيئ مشاريع معادية لهم، كما يقول ابن إسحق، وتوضح الحوادث التي وقعت فيما بعد أن النية لم تنعقد على قتل محمد...؛ لأن الاتفاق على ذلك لم**

---

(1) شارك مونتغمري واط – مع مجموعة من الباحثين الغربيين في سلسلة من المؤتمرات نظمت بين عامي 1956م و1958م بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن وبإشراف مؤسسة روكفلر مالياً لمسح وتقويم مسار وخصائص الكتابات التاريخية حول شعوب آسيا- ببحث حول المواد التي استخدمها محمد بن إسحاق في كتاباته التاريخية حول السيرة النبوية والملاحظة الجديرة بالذكر هي: أنه لا تكاد معلومة من معلوماته تذكر في متن الصفحة إلا وتجد لها تعليقاً أو رداً علمياً في الهامش – لكثرة تشكيكه واعتماده السقط والشاذ من الروايات التاريخية- من قِبَل صاحب الترجمة والتحقيق أ.د/ سهيل زكار. وللوقوف على هذه الحقيقة العلمية ينظر: برنارد لويس وب.م.هولت: مؤرخو العرب والإسلام حتى العصر الحديث، ترجمة وتقديم: أ.د/ سهيل زكار، دار التكوين دمشق، ط1، 2008م، ص43 وما بعدها.

(2) مونتغمري واط: محمد في المدينة، ص5، 7، 9، 20، 22، 54.

يكن بالإجماع، ولربَّما كان قرب وقوع الخطر هو الذي عجل برحيل محمد[ﷺ]، ومن الصعب التأكد من طبيعة الخطر الذي كان يهدد محمدا[ﷺ] وأتباعه، فلقد أضيفت أشياء كثيرة على قصة الهجرة، حتى إن المصادر الأولى نفسها لم تخل من الإضافات، ولا يستبعد أن يكون محمد[ﷺ] قد رُجِم في مكة بعد الاجتماع"[1].

كلام واط هذا يستثير العقل والإنسان العاقل في ذات الوقت، ويثير تساؤلات أكثر مما يجيب عنها: إذا كان يقطع جازما أن الاجتماع قد عقد، فلماذا عقد هذا الاجتماع؟ ثم لماذا يستبعد مشروع القتل والاغتيال، بحجة أن هذا لا يتم في اجتماع فأين يتم؟ ثم ألا يتم اتفاق كهذا في اجتماع للملأ من أهل مكة؟

لقد جاءت القَصَّة ومحاورها الأساسية مبيَّنة بما أخبرنا به الذي لا يُردُّ قوله عالم الغيب والشهادة سبحانه وبما تم فعلاً في هذا الاجتماع في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال:30-33]

فالآيات واضحة صريحة لا تحتاج لتفسير أو تعليق، ثم إذا كان واط يعترف بأن هناك خطراً يهدد محمداً ﷺ وأتباعه، فما هو هذا الخطر وما نوعه وما درجته ؟ ولماذا لا يكون الخطر قد بلغ مداه الأقصى وهو محاولة القتل والاغتيال؟ وكيف يفترض احتمال رجم محمد ﷺ دون دليل؟ ثم يشكك واط في المصادر الأولى بحجة أنها "لم تخل من الإضافات" ثم يأتي باحتمال لا نعرف من أين أتى به، ليوهم المتلقي بأنه قد جمع شتات الروايات التي ذكرها المسلمون وفي أصحِّ كتب السيرة عندهم ليستنتج ما يشاء ويثبت ما يريد ويسلخ منها ما لا يتوافق ومنهجه؛ وقد ذكر ابن إسحاق

(1) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص83.

القَصَّة كاملة وعرَّج عليها غير واحد من كُتَّاب السيرة من المسلمين بالشرح والإيضاح على غير قول واط[1].

فلا غرو إذن أن هذا أقصى ما بلغته مدارك الذين لا يؤمنون بنبوة محمد ﷺ ولو آمنوا به لأحبوه، ولكن نفوس الناس معادن فمنها الثمين ومنها غير ذلك، وإن كانوا قد:" **غالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك(في وقائعها)، وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول ﷺ، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجوده... ولكنهم مهما قالوا في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول ﷺ فإن سيرته هي أوضح وأطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء**"[2].

كما أن الحقيقة المستقاة ممَّا تم نشره وبسطه كأفكار وبيانات لمنهج واط هو التأكيد على أن منهجه ذو وجهتين:" **يشكك فيما هو أقرب إلى الصدق، فإنه في الحالة الثانية يصدِّق ما هو أقرب إلى الكذب، والموقفان في حقيقة الأمر وجهان لعملة واحدة، هي عملة النقد الذي يتجاوز حدَّه الإيجابي البناء إلى الهدم والنفي والتشكيك**"[3].

6_ منهج البناء والهدم: وهو منهج حاصل كنتيجة حتمية من المنهج الذي سبقه، فيقوم فيه المستشرق بهدم كل حقيقة أو طمسها أو تشويهها على الأقل ثم يأتي بفرضيات لا أساس لها ويبني عليها أحكاماً فتصير بعد فترة حقيقة علمية متداولة عندهم وفي مناهجهم الغربية.

وقد تمت الإشارة أن واط قد وضع أسساً جديدة لهذا المنهج وتمثَّل بها سواء عن قصد – وهو الراجح كما سيأتي بيانه – أو عن غير قصد، وتمثَّلت أسس المنهج الجديد على النحو التالي: العلمانية، المادية، إتباع الظن، وعدم الثقة في رواية علماء المسلمين أو حتى في إجماعهم؛ كما تمَّ التلميح إلى بعض أجزاء هذا المنهج ضمن جزئيات المناهج السابقة والتي تمثَّلتها جميع دراسات مونتغمري واط.

---

(1) لولا طول القصة لذكرناها كاملة لنبيِّن زيف وبهتان واط ومن كان على شاكلته، ولمراجعتها يرجى النظر: السهيلي: الروض الأنف، ج4 ص 122-125.

(2) د. جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية)، مطبعة الزعيم بغداد، 1961م، ج1 ص9-10.

(3) عماد الدين خليل: المرجع السابق، ج1 ص159.

وبقي التمثيل لمنهج واط حتى نخرج نحن كذلك من دائرة الإدِّعاء ولا نُتهم بالافتراء على الغير؛ فقد يعمد واط إلى بناء صورة جمالية رفيعة أثناء الحديث عن وقائع السيرة النبوية من أفعال وإنجازات فيبرزها على أساس أنها جوانب مضيئة تستحق التنويه والذكر، لكن سرعان ما يهدم واط تلك الصورة بأن ينفي صفة النبوة والرسالة عن محمد ﷺ وينسبها له على أساس أنه سياسي ورجل دولة محنَّك وأنه إنما بعث لقومه وأنه في أحسن أحواله إلى العرب وليس للناس كافة حتى يهدم جانب عالمية الدعوة، مثاله قوله:"**إن مثل هذا الحكيم والسياسي الداهية لا يمكن أن يدعو قيصر الروم والإمبراطور الفارسي للدخول في الإسلام**"[1]. وغير بعيد على هذا المثال، يورد واط قوله في الأسباب التي هيأت محمداً ﷺ للرسالة فيجعلها منحصرة في عبقريته ﷺ التي ساعدته على الأخذ بالأسباب التي كانت متوافرة في زمانه لكل الناس غير أنه ﷺ قد استفاد منها أحسن من غيره، وبذلك ينفي عليه جانب الاصطفاء الإلهي، وكأن النبوَّة شطارة وكل الناس مهيَّؤون لها، فيقول:"**كلما فكَّرنا في تاريخ محمد[ﷺ] وتاريخ أوائل الإسلام، كلما تملَّكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل، ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد [ﷺ]فأتاحت له فرصاً للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماماً**"[2].

وإذا كان محمد ﷺ هو ذاك الرجل الذي استفاد من محيطه وبيئته، وإذا كان محمد ﷺ مجرد رجل سياسة نابغ طموح لماذا لم يظهر كل هذا الطموح إلا بعد انقضاء أربعين عاماً من عمره، أوليس الطموح والنزوع إلى السلطة تظهران في ريعان الشباب؟ وهو الذي لم يذكر لنا أحد أنه تبوأ منصباً قيادياً في قريش قط.

بل إنه لحكمة أرادها الواحد في ملكوته سبحانه وتعالى انتهج خطا هادئاً بين رعي الأغنام والتجارة والتحنث، يقول الله سبحانه وتعالى واصفاً حال نبيه ﷺ في بداية دعوته:﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ

(1) مونتغمري واط: محمد في المدينة، ص42-43.

(2) مونتغمري واط: المرجع السابق، ص335.

أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ ﴾[الفرقان:41-43].

تُرى هل كانت قريش لتسخر منه ﷺ لو علمت أنه كان فيه نزوع للسلطة ورغبة في قيادتها وخبروا ذلك فيه وهم الذين عاصروه؟

فالعاقل لا يقول هذا؛ وهم الذين جاؤوه يوم أن اشتدَّ عليهم بالدعوة وبتسفيه أحلامهم واشتكوا أمره إلى عمه ﷺ فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه؛ ثم ما لبث رسول الله ﷺ أن قام وشمَّر ثم اجتهد أكثر فأكثر بالصدع بالدعوة، فجاؤوه المرة تلو المرة يعرضون عليه الدنيا مالاً وسلطة ونساء، لكنه ﷺ لم يركن إلى إغراءات الجاهلية وزخرف الدنيا والتخلي عن دعوته، بل صبر على ما هو عليه، وصبر على طريق الدعوة إلى الله تعالى حيث أرادوا مساومته في دينه وفي دعوته وبلغ الجهد من عمه ﷺ فناداه وأخبره بما قالت قريش ممثَّلة في ساداتها فقال ﷺ:"**يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته**"[1].

نعم كان في محمد ﷺ طاقات كامنة ما كانت لتتفجر إلا بعد أن اصطفاه رب العالمين سبحانه وتعالى بالرسالة وآزره بتأييده مما أدى إلى ظهورها على أكثر من صعيد وموقف، يقول تعالى:﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص:86-88].

هذا العبقري الفذ والرجل السياسي المحنَّك هو ذاته الذي يصفه واط بأنه كان قد اعتاد إحداث داء الصرع المزعوم لتلقي الوحي وهو ذاته الذي كان يقوم بتعديل الآيات القرآنية من حين لآخر،

---

(1) السهيلي : الروض الأنف، ج3 ص11.

وأنه أجاد تقنية الاستماع إلى ما كان قد نسي أو فقد من الوحي واسترجاعه وذلك لإثبات أن الوحي كان منبثقاً عن ذات محمد ﷺ وكان عبارة عن محاورة كلامية ذهنية أو فكرية له "Intellectual or Imaginative locution"[1].

ثم هذا الذي استفاد من محيطه ومن واقعه في مكة والمدينة فيما بعد كما يصفه واط، قد كان مخادعاً لنفسه ولغيره، ولكن لم يُظْهِر ذلك صراحة لا في بداية دعوته بمكة ولا حين خروجه إلى يثرب التي أصبحت فيما بعد تسمى المدينة، والدليل على ذلك في قول واط هو **أن محمداً ﷺ كان في بداية دعوته لأهل مكة قد ابرم معهم اتفاقاً يقضي بعدم التعرض لآلهتهم ولا لدين آبائهم بأي شكل من الأشكال الانتقاص، وقد كان هو في ذاته يعبد ما كانوا يعبدون حتى لا يضطهد وأتباعه، وفي ذلك دلالة واضحة أنه لم يتخل عن الوثنية تماماً في بداية الأمر ولم يكن توحيده خالصاً**، ويطرح بهذا الصدد نظرية غريبة وعارية من الصحة وهي: **أن معارضة المشركين بدأت بعد أن ألغى النبي ﷺ التسوية المزعومة التي كان قد أبرمها، وبعد أن تراجع عن اعترافه بآلهتهم، كما يصدِّق قصة الغرانيق أو كما سماها واط الآيات الشيطانية**[2].

وكم هي السقطات والهنات كثيرة في كتابات مونتغمري واط، وقد يكفينا فيها التلميح مع الإيجاز، والتقيّد مع التمثيل على الخوض في التتبع والتعليل والتحليل.

مع تأكيد أمر مهمٍّ وهو أن واط برغم ادِّعائه الحياد في بداية كتاباته واتباعه للنزعة التاريخية الصِّرفة في كتابته للسيرة النبوية، إلا أن تصوّره المسبق لطبيعة الدين يغذي ميله إلى الاعتقاد بكون محمد ﷺ ليس أكثر من زعيم وقائد دولة عاش خلال القرون الوسطى.

إذا ما أضفنا إلى ذلك الترسبات المعرفية عنده من خلال مصادره الغربية التي اعتمد عليها وهي كثيرة أهمها أعمال المستشرقين الذين سبقوه أو أخذ عنهم مثل لامانس[3]

---

(1) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص81 وما بعدها.

(2) مونتغمري واط: محمد في مكة، ص81 وما بعدها؛ و

Muhammad Prophet and Statesman, p59-63

(3) لامانس هنري (1279-1356هـ/1862-1937م) Henry Lammens: مستشرق بلجيكي وراهب يسوعي شديد التعصب ضد الإسلام، يفتقر افتقاراً تاماً إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها، ويعدّ نموذجا سيئا للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين، تعلم بالكلية اليسوعية ببيروت ثم بدأ حياة الرهبنة ثم صار معلِّما بالكلية اليسوعية، سافر إلى إنجلترا ولوفان وفيينا، وإنتاج لامانس يدور حول محورين: السيرة النبوية، وبداية الدولة الأموية مع موضوعات متفرقة حول العقيدة وتاريخ سوريا وآثارها. بدوي: موسوعة المستشرقين، ص347-349.

وشاخت[1] وكايتاني[2] وغيرهم، وبعدها نسأل مع من سأل:" أي منهجية هذه التي تردُّ رواية المعاصرين للحدث والمدركين له من كافة جوانبه وأبعاده، في حين تقبل رواية من يكتب عن الحدث بعد مضي ما يزيد على الثلاثة عشر قرنا، وفي ضوء بيئة مغايرة لبيئة الحدث، وعلى ضوء رؤية مغايرة لرؤية الفاعل التاريخي وثقافته؟"[3] ثم نجيب مع من أجاب على مثل هذا السؤال في قوله:" **لا يمكن لهذه الدراسات على الإطلاق على أن ترقى لمستوى السيرة فتكون قديرة على التعامل معها، والتوغل في نسيجها، وإدراك بنيتها بعمق، ورسم الصورة الموضوعية العادلة لها...ذلك أن هنالك أكثر من خلل في منهج العمل، ولن يتمخَّض هذا الخلل إلا عن حشود من نقاط سوء الفهم والأخطاء على مستوى الموضوع...نعم ثمَّة فرق بين مستشرق وآخر...ومع ذلك فهو فرق في الدرجة وليس في النوع**"[4].

---

(1) شاخت يوسف أو جوزيف (1320-1389هـ/1902-1969م) Joseph schacht: مستشرق ألماني متخصص في الفقه الإسلامي، درس بألمانيا ثم درَّس بجامعاتها، ثم بجامعة مصر-القاهرة الحالية- ثم انتقل إلى انجلترا وعمل مذيعاً في الإذاعة البريطانية BBC ضد ألمانيا النازية، تجنَّس بالجنسية الإنجليزية، ثم انتقل إلى جامعة ليدن بهولندا ثم إلى جامعة كولومبيا بأمريكا حيث توفي. وأهم أبواب دراساته كانت في تحقيق المخطوطات الفقهية، دراسات في علم الكلام، مؤلفات ودراسات في الفقه، ودراسات في تاريخ العلوم والفلسفة في الإسلام مع متفرقات. بدوي: المرجع السابق، ص 252-255.

(2) كايتاني ليون الامير (1286-1345هـ/1869-1926م) Leone Caetani من أهل رومة، مولدا ووفاة تعلم في جامعتها وقام برحلات إلى الشرق، ولا سيما الهند وإيران ومصر والشام وجمع مكتبة عربية عظيمة، جعلها بعد وفاته للمكتبة الايطالية وكان يحسن سبع لغات، منها العربية والفارسية ألف بالايطالية كتاب تاريخ الاسلام وطبع منه سنة 1905-1908م ثمانية مجلدات ضخمة محلاة بالرسوم والخرائط المفصلة، انتهى فيها إلى سنة 40 للهجرة وكان يرجو أن يفسح في أجله ليكمل القرن الاول للاسلام في 25 مجلدا وكتب "جذاذات" لتراجم عدد كبير من علماء المسلمين وأدبائهم في الاندلس، جمعها المستشرق الاسباني "ربيرا" ونشر بالعربية "تجارب الأمم" لمسكويه، مصدرا بمقدمات مفيدة ومذيلا بفهرست ضاف. الزركلي: الأعلام، ج 5ص250.

(3) عبد الله محمد الأمين النعيم: الإستشراق في السيرة النبوية، دراسة تاريخية لآراء (وات-بروكلمان-فلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1417هـ/1997م، ص47.

(4) عماد الدين خليل: المرجع السابق، ص193.

الفصل الأول: المستشرقون الإنجليز غير المنصفين للسيرة النبوية.

المبحث الثاني: المستشرق برنارد لويس(Bernard Lewis)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: برنارد لويس: المولد، النشأة والحياة العلمية والعملية.

ولد برنارد لويس في 31مايو 1916م في لندن وتلقى تعليمه الأول في كلية ولسون والمدرسة المهنية حيث أكمل دراسته الثانوية ولا تذكر المراجع أية معلومات عن تلقيه تعليماً دينياً يهودياً خاصاً. التحق بجامعة لندن لدراسة التاريخ وحصل على الليسانس مع مرتبة الشرف الأولى، ثم انتقل إلى فرنسا للحصول على دبلوم الدراسات السامية سنة1937م متتلمذا على المستشرق الفرنسي ماسنيون وغيره.

ثم عاد إلى جامعة لندن، مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية كمساعد محاضر في التاريخ الإسلامي عام 1938م، وحصل على الدكتوراه عام 1939م عن رسالته القصيرة حول أصول الإسماعيلية، تحت إشراف المستشرق هاملتون جب، ومحاضراً في قسم الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام 1940م.

و لم يكن لويس متجهاً إلى التاريخ الإسلامي في بداية حياته الجامعية، بل كان التاريخ اليوناني والروماني هو مجمع ميولاته، وذلك تحت تأثير وبإيعاز من أحد أساتذته الذي دلَّه على كتاب الثورة الرومانية لمؤلفه رونالد سايم[1] Ronald Syme لفهم حقب التاريخ، والقيام بإسقاط ذلك على الثورة العباسية؛ ولعل الفترة التي تابع فيها دراتسه بفرنسا وتحت وصاية مجموعة من المستشرقين الفرنسيين هي التي وجَّهت اهتمامه إلى دراسة الفرق الإسلامية حيث كان بحثه للدكتوراه حول الإسماعيلية وذلك سنة 1939م.

استدعي في أثناء الحرب العالمية الثانية لأداء الخدمة العسكرية وأعيرت خدماته لوزارة الخارجية من سنة 1941م حتى 1945م.

عاد بعد الحرب عام 1946م إلى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية لتدريس التاريخ الإسلامي كمحاضر أول، ثم عام 1947م كقارئ، وأصبح أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي عام 1949م ثم أصبح رئيساً لقسم التاريخ عام 1957م، وظل رئيساً لهذا القسم حتى انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1974م.

---

(1) Ronald Syme : The Roman Revolution, Oxford, New York, 1987 (first published in 1939) p: 5.

دُعِي للعمل أستاذًا زائراً في العديد من الجامعات الأمريكية والأوربية منها جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس ما بين 1955-1956م، وجامعة كولمبيا عام 1960م، وجامعة انديانا عام 1963م، وجامعة أكلاهوما وجامعة برنستون عام 1964م، والتي انتقل إليها والعمل فيها من 1974م حتى تقاعده عام 1986م.

وفي هذه السنة(1986م) عيّن مديراً مشاركاً لمعهد أنانبرج Annenberg اليهودي للدراسات اليهودية والشرق أوسطية في مدينة فيلاديلفيا بولاية بنسلفانيا.

وهو زميل الأكاديمية البريطانية منذ 1963م، وعضو مراسل لمعهد مصر 1969م، وعضو زائر في معهد برنستون للدراسات المتقدِّمة عام 1969م، وعضو دائم في المعهد السابق من عام 1974م حتى عام 1986م، وعضو شرف في الجمعية التاريخية التركية 1972م، وفي وزارة الثقافة التركية 1973م والتي نال منها شهادة تقدير لخدماته للثقافة التركية، وعضو الجمعية الفلسفية الأمريكية 1973م، وحصل على الدكتوراه الفخرية من الجامعة العبرية بالقدس عام 1974م !! والدكتوراه الفخرية من جامعة تل أبيب عام 1979م!، وزميل المعهد الجامعي بلندن عام 1976م، وعضو في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم عام 1983م،كما أنه عضو في الجمعية الآسيوية الملكية، والجمعية التاريخية الملكية، والمعهد الملكي للشؤون الدولية، والجمعية الأمريكية الشرقية.

يُعد لويس من أغزر المستشرقين إنتاجاً، وإن كان له قدرة على إعادة نشر بعض ما سبق نشره بصور أخرى، وقد تنوعت اهتماماته من التاريخ الإسلامي، حيث كتب عن الإسماعيلية وعن الحشاشين وعن الطوائف المختلفة في المجتمع الإسلامي، إلى الحديث عن المجتمع الإسلامي ولكنه في السنوات الأخيرة قبل تقاعده بقليل بدأ الاهتمام بقضايا العالم العربي والإسلامي المعاصرة، فكتب عن الحركات الإسلامية الأصولية -في زعمه- منها خاصة، وعن الإسلام والديموقراطية.

قدم خدماته واستشاراته لكل من الحكومة البريطانية التي كلفته برحلة إلى العديد من الجامعات الأمريكية وإلقاء الأحاديث الإذاعية والتلفازية عام 1954م، وظل برنارد لويس أستاذاً للدراسات الشرقية بجامعة برنستون حتى تقاعده من العمل الأكاديمي في 1986م إذ أصبح أستاذاً فخرياً (Professor Emeritus)، وهو مركز جعله يبقى مرجعاً فيما يتعلق بالإسلام والعرب والشرق الأوسط ليس للأكاديميين الغربيين فحسب، بل لدوائر صنع القرار الأمريكي خاصة،

فبرنارد لويس وأشياعه لم يكونوا في حقيقة الأمر أكاديميين فقط، بل كان لهم دور استشاري من خلال عملهم خبراء لدى هيئات ودوائر اتخاذ القرار في الولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ أنه قدَّم استشارته للكونجرس الأمريكي أكثر من مرة ومثال ذلك أنه في يوم الجمعة: 14 صفر 1394هـ والموافق لـ8 مارس 1974م ألقى محاضرة في أعضاء لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكي حول قضية الشرق الأوسط ولأهمية هذه المحاضرة نشرتها وزارة الخارجية الإسرائيلية بعد أسبوعين من إلقائها[1].

وفي معرض تعريف أحدهم له ولحياته العلمية وإنتاجه المعرفي ولوظائفه العملية قال:"الأستاذ برنارد لويس، أحد كبار العارفين بعالم العروبة والإسلام، وله منذ أطروحته للدكتوراه عن الإسماعيلية، دراسات كثيرة...لكنه مرَّ بمرحلتين حدَّدتا إلى حدٍّ كبير نتاجه كله في العقود الثلاثة الأخيرة على الخصوص: في الستينات قرَّر الاهتمام بالشرق الأوسط المعاصر، ومنذ الثمانينات قرَّر الاهتمام بتنوير الرأي العام الغربي، الأمريكي بالتحديد، بشأن العرب والمسلمين؛ وهكذا فقد قرَّر أن يكون "خبيرا" بالشرق الأوسط، يستمع إليه المهتمون والسياسيون، ويرجع لكتبه ومحاضراته الصحفيون، الذين يستطيعون استخدام انطباعاته وأحكامه العامة في مقدمات مقالاتهم وخواتيمها"[2].

وانتقال برنارد لويس إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنة 1974م وحصوله على الجنسية الأمريكية، يبين لنا أنَّ هذا المستشرق انتقل إلى هناك لهدف يسعى إلى تحقيقه من خلال الدور الأمريكي في الدعم الصهيوني، خاصة بعد حرب أكتوبر[3] عام 1973م التي قلبت موازين الاستراتيجية الصهيونية والأمريكية، إضافة إلى إدراكه أنَّ الدور البريطاني في الدعم الصهيوني قد

---

(1) ينظر ترجمته في: العقيقي: المستشرقون، ج2 ص143-145. ومازن صلاح مطبقاني: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص69-71. الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ص99-100.

(2) برنارد لويس: من بابل إلى الترجمة، مجلة التسامح، فصلية فكرية إسلامية تصدر عن وازرة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط سلطنة عمان، السنة الثانية، العدد السادس(06)، ربيع 1425هـ/2004م، محور متابعات، ص283.

(3) حرب 6 أكتوبر1973م: قامت بها القوات المصرية ضد القوات اليهودية الصهيونية لاسترجاع ما أُخذ عام 1967م، وقد تجهّز الجيش المصري بما يكفي لهذه الحرب بعد تخطيط وإعداد وتجهيز غير أنّ الخيانة كما ذكرها قائد أركان الجيش المصري حينها قد جلبت الهزيمة النكراء. سعد الشاذلي: مذكرات حرب أكتوبر، دار بحوث الشرق أوسطية سان فراسيسكو، ط4، 2003م، جميع فصول الكتاب بما في ذلك الملاحق (401 صفحة).

ضعف أمام قوة الاستراتيجية الأمريكية، وأنَّ الصهيونية قد حصلت من بريطانيا ما تريده منها[1]، فلقد أدت بريطانيا دورها، والدور الآن على الولايات المتحدة الأمريكية لتحقيق بقية الحلم الصهيوني باعتبارها أكبر دولة في العالم، وإسرائيل هي الدولة المدللة لديها.

ويُلاحظ على برنارد لويس وفاؤه لمنهج الاستشراق في بداياته، حيث كان آلة في خدمة الاستعمار، ولم يتأثر بالتطورات التي حدثت في هذا الحقل المعرفي، وظهور بعض المستشرقين الذين أبدوا موضوعية أكثر في دراسة الإسلام والعرب والشرق[2].

بل ظل برنارد لويس من طراز مارجليوث وجولدزيهر وغيرهما من المستشرقين شديدي التحيّز ضد الإسلام والعرب، وظل وفياً لمنهجهم في إصدار التعميمات غير العلمية وغير المبرهنة عن الإسلام والعرب وعن منهج دراستهما.

وقبل الحديث والاستطراد فيه عن منهج برنارد لويس فيما كتبه عن تاريخ الإسلام عامة والعالم الإسلامي على الخصوص والسيرة النبوية بوجه أخص، وجب الحديث عن المرتكزات والمنابع الفكرية والأسس العلمية مع طرائق المنهج وكذا الأصول العرقية ثم الإثنية لهذا المستشرق، والتي جعلت منه أحد أكبر المستشرقين المستشارين والخبراء في العصر الحديث وأهم المراجع إن لم يكن هو الأول فيهم، ومن خلال تتبع سيرته وحياته العلمية يمكن تحديد بعض تلك المرتكزات والمنابع، وأهمها ما يلي:

أولاً: الأصول اليهودية:

---

(1) وعد بلفور:Balfour Declaration وثيقة حكومية بريطانية تبنت إقامة وطن قوميّ لليهود في فلسطين أصدر الوثيقة وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بلفور في 11/2/ 1917م (محرم 1326هـ).وقد نص وعد بلفور على ما يلي: تؤيد حكومة صاحب الجلالة [بريطانيا]إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وسوف تبذل قصارى جهدها لتسهيل إنجاز هذا الهدف، ولابد أن يكون مفهومًا بجلاء أنه لايمكن عمل شيء مجحف بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية في فلسطين، أو الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر و بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود. الموسوعة العربية العالمية، ج27 ص115.

(2) مثاله: أرنلد (1280-1349هـ/1864-1930م) توماس ووكر Thomas Walker Arnold مستشرق انكليزي من أهل لندن. ينظر ترجمته مفصّلة في الأعلام للزركلي، ج 2 ص 94. و بلاشير (1318- 1393هـ/1900-1973م) ريجيس، ل. Blachere.R.L فرنسي من علماء المستشرقين ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق والمجمع الفرنسي الاعلى بباريس. الأعلام للزركلي، ج 2 ص 72.

لا ينكر الواحد منَّا أن المحيط –أي محيط– له من التأثير الشيء الكثير في تكوين شخصية المتلقي أو الفرد الذي يعيش فيه، وإذا ما علمنا أن بعضاً من المحيطات وبحسب خصوصيتها الإثنية أو لأسباب تاريخية، قد اكتسبت خصائص خاصة بها واصطبغت بملامح هي السمة الأساسية لها ولا تتعدَّاها لغيرها، ومن ذلكم محيط الديانة اليهودية، والتي عبر تاريخها الطويل، عرفت الكثير من الإضطهاد والتنكيل وإن اختلفت بعض مستوياته من فترة إلى أخرى، وليس ذلك ظلماً ولكن بما يقترف اليهود من أفعال مشينة في حق محيطهم وفي حق الإنسانية جمعاء، فالأصل فيهم الفساد والتحريض عليه وعلى إنشاء القلاقل وإضرام نار الفتن ما ظهرمنها وما بطن.

لذلك فإنهم على مر تاريخهم الأسود اكتسبوا طبائع خاصة بهم، كما اكتسبوا مرونة في التعامل مع محيطهم الذي هم فيه والتأقلم معه، مع الحرص الشديد على الاستفادة منه بقدر المستطاع وتربية أولادهم وناشئتهم على ذلك، مع الحرص الكبير على عدم إظهار الإنتماء اليهودي ما لم تدع الضرورة لذلك؛ والانضواء تحت أي مظلة يُعتقد فيها تحقيق المصلحة الخاصة بهم.

من هذا المعين، وأيُّ معين؟؟!! أخذ لويس تربيته الأولى منه، وتلقى دروسه الإبتدائية على ضفاف نهره، ولَّما شب واستوى عوده غمس نفسه في بحره، فأصبح لا يرى إلا ما يوافق ذاك المعين، ولا عجب بعد ذلك إذا ما وجدناه شديد التحمُّس والدفاع عن حياض ذاك المعين وهو اليهودية الصِّرفة.

وإذا ما أضيف إلى أصوله ونشأته اليهودية نزعته وحماسته للصهيونية العالمية، وهي العقيدة الجديدة التي ارتضاها لنفسه كغيره من بعض المستشرقين اليهود، بطلت كل تعجُّباتنا وسقطت أقنعة المواقف التي اتخذها والتي لا زال محافظاً عليها والتي يدعو لها كلَّما سنحت له الفرصة لذلك.

ومن ذلك موقفه اتجاه القضية الفلسطينية وما أنتجته عبر زمنها الذي طال، ودفاعه عن اغتصاب اليهود لفلسطين على أنه حق تاريخي وموروث عقائدي لهم، وقد بيَّن غير واحد من الذين كتبوا حول موقف لويس هذا بقوله:" **أدى خلق دولة إسرائيل في فلسطين إلى الاهتمام بمنطقة الشرق الأوسط وإجراء دراسات حضارية وتاريخية وسكانية لإثبات دعوى اليهود في أرض الميعاد؛ وهناك من المستشرقين من أيَّد قيام دولة إسرائيل، ووقف مع الادِّعاءات الصهيونية مثل برنارد لويس... وهو حامل لواء الحق اليهودي في فلسطين الأمر الذي يَصِم**

دراسته بوصمة التحامل وعدم الموضوعية، وتكريسها لتحقيق أهداف سياسية لا علاقة لها بالبحث العلمي الموضوعي"[1].

وقد استفاد في ذلك من محيط الدراسات الإستشراقية الأمريكية، والتي تتميَّز عن غيرها من الدراسات معلنة أن أهدافها العلمية هي الأساس، غير أن أهدافها الحقيقية هي غير ذلك بل هي:" **أهداف دينية، ثم سياسية واستعمارية في الوقت الحاضر... ذلك أن معظم الدراسات الأمريكية الغزيرة تناولت الشرق الأوسط من حيث الأحوال الاقتصادية والسياسية والتاريخية والعلمية والأثرية"**[2].

وتأكيد لويس يهوديته وانتماءه للصهيونية جاء في جواب أحدهم على السؤال التالي:" **هل لاحظتم أي تغيير في منهج البروفسور لويس؟ وإلى ما تعزون هذا التغيير؟**" فكان الجواب التالي:" **لاحظت بعض التغيير في منهاجه، ولكنه للأسف للأسوأ، فأخذ ارتباطه اليهودي والصهيوني يتضح أكثر وأكثر وكذلك حقده على الإسلام والمسلمين. أنا أعتقد أن لويس لم يكن في يوم من الأيام أكاديمي محض"**[3].

وقد اصطبغت أبحاث ودراسات لويس بالميل الكلي لخدمة قضايا بني جلدته واتجه للدراسات التاريخية، وأصدر في ذلك الكثير من الأعمال والأبحاث، كما سيجيء بيانه بعدُ، وقد ظهرت هذه النزعة واضحة جلية بعد حرب 1967م، وقد أعطى لليهود حجماً أكبر من حجمهم الحقيقي في التاريخ الكوني، وركَّز على بعض الجوانب التي تخدم مصالحهم مثل ادِّعاءه اضطهاد اليهود على فترات من التاريخ وبخاصة الفترة الإسلامية[4]، وعلى أهل الذمة عامة وما كان لهم من معاملة سيئة من بعض الحكام أو الخلفاء، ويظهر ذلك على أساس أن الإسلام قد ظلمهم وأنه حان الوقت للاقتصاص منه ومن أهله، وما نظرته للآخر والحضارات(صدام الحضارات) إلا خير دليل.

---

(1) ساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الإستشراقي، مرجع سابق، ج1، ص156-157.

(2) ساسي سالم الحاج: المرجع السابق، ج1، ص157.

(3) مازن صلاح مطبقاني: المرجع السابق، الملحق رقم 06، إجابة الدكتور سمير عبد ربه، ص613. وللمزيد حول انتماء لويس لليهودية وتعصبه لأهلها وتحيُّزه لليهود وللصهيونية، يراجع نفس الملحق، ص614.

(4) Bernard Lewis : The Jews of Islam, Princeton, Princeton University Press, 1986.pp 3-63.

ثانياً: تأثره بالمدرسة الإستشراقية الأوروبية:

كما هو معروف وشائع، أن برنارد لويس ينتمي إلى مدرستين إستشراقيتين، الأولى وهي الأوروبية والمتمثلة في إنجلترا وفرنسا، والثانية وهي الأمريكية.

تأثر لويس بالمدرسة الأوروبية عموماً بدءً من بداية تكوينه الأول، وكان ذلك في كل من إنجلترا، مسقط رأسه، ثم في فرنسا والتي بدأ فيها نضوج الفكرة الإستشراقية والتوجه لهذا الحقل المعرفي متخذاً من التاريخ عامة ميداناً له، ثم انصبَّ اهتمامه وعكف على التاريخ الإسلامي، والذي أبدع فيه أيَّما إبداع، من خلال ما حقَّقه لنفسه في شخصه من مكانة عالية مرموقة بين المستشرقين المعاصرين، ثم ما خدم به أمَّته وشعبه وقضاياهم على مستوى اتخاذ القرارات أو على أرض الواقع[1].

وقد التقى لويس في تلك المرحلة التكوينية مع أقطاب الفكر الإستشراقي في أوروبا سواء في إنجلترا أو في فرنسا، من أمثال توماس أرنولد، ومرجليوث، وجرونباوم[2]، وماسينيون، وهاملتون جب وغيرهم كثير.

هذا الأخير الذي كان المحضنة الفكرية الإستشراقية لفكر برنارد لويس، فقد كان المشرف على توجيهه وتوجيه مُنحناه الفكري، ثم بأن كان المشرف والمقرر لرسالته في الدكتوراه.

وقد تأثَّر بهم كثيراً وقلَّد البعض منهم فيما ذهبوا إليه من أفكار وطروحات، وخاصة تلك المتعلقة بالعالم الإسلامي عموماً وتاريخه خصوصاً، ونقل عن البعض الآخر ممَّا كتبوه في كتبه وأبحاثه.

---

(1) سبقت الإشارة إلى ذلك في التعريف به، ومثاله للتذكير مدى تأثيرهم على مصادر اتخاذ القرار في العالم، أنه في يوم الجمعة: 14 صفر 1394هـ والموافق لـ8 مارس 1974م ألقى محاضرة في أعضاء لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكي حول قضية الشرق الأوسط ولأهمية هذه المحاضرة نشرتها وزارة الخارجية الإسرائيلية بعد أسبوعين من إلقائها.

(2) جرونباوم غوستاف: (1909-1972م) Gustave E VonGrunebaum مستشرق نمساوي، ولد في فيينا في أول سبتمبر 1909م وتعلَّم في مدارسها وفي جامعاتها ثم في جامعة برلين، ولما ضمت ألمانيا النمسا في سنة 1937م، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لأنه من أسرة يهودية، وحصل على الجنسية الأمريكية، وصار أستاذا بجامعة نيويورك، وجامعة شيكاغو، ثم صار أستاذا ورئيسا لقسم الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا حتى وفاته في فبراير 1972م. وإنتاجه العلمي غزير ويتسم بالنظرات العامة، ويدور بعامة حول الحضارة الإسلامية. بدوي: موسوعة المستشرقين، ص111-112.

نقل عن توماس أرنولد الكثير من الأفكار، وخاصة تلك المتعلِّقة بالخلافة الإسلامية، ومثالها فكرة إنعدام القساوسة والمؤسسات الكنسية في الإسلام، والتي ذكرها أرنولد في كتابه الخلافة، حيث يقول:" **لا يعرف الإسلام منصب القسس، وليس فيه هيئة من الرجال منفصلة عن بقية المؤمنين لممارسة الشعائر الإيمانية التي لا يصرَّح لبقية المؤمنين أن يمارسوها**"[1].

كما نقل عن ماسينيون بعض أفكاره والخاصة بتلك الفرق الضالة في التاريخ الإسلامي، أو التي كانت لها بعض الأفعال والسلوكات التي تنافي تطبيقات الإسلام في عمومه، ودليل ذلك أن لويس لما عاد من فرنسا أعدَّ بحثه حول أصول الإسماعيلية ثم تابعها من بعدُ ببحث حول الحشاشين؛ و لم يتوقَّف لويس بالتأثر بماسينيون عند هذا الحد بل تابعه في أنه باع ضميره العلمي-إن كان موجوداً في الأصل- للاستعمار، وعمل مع الإستعمار الإنجليزي في قسم الإستخبارات في سنوات ما يسمى بالحرب العالمية الثانية، وقد كان سلفه مستشاراً للخارجية الفرنسية، كما أنه كان مستشاراً لهنري جاكسون رئيس لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس الأمريكي عام 1974م[2].

وأما عن تأثره باستاذه هاملتون جب فيظهر جلياً في العديد من كتبه، أهمها كتاب العرب في التاريخ، والذي يظهر من خلال تفحّص قائمة المراجع وكذا تصدير الكتاب، أنه استند للكثير من كتب جب، كما نقل عنه بعض الأفكار وخاصة التي لها علاقة بالتاريخ الإسلامي والمسلمين، ومثاله أن الفكر الإسلامي والتفكير عند المسلمين ما يزال في مرحلته الذريّة أو الابتدائية و لم ينضج بعد، وموقفه التشكيكي من القرآن الكريم وكذا التشكيك في صحة منهج رواية الحديث وانتقاد منهج علماء الحديث[3].

وأثر المدرسة الإستشراقية الأوروبية واضح جلي في كتابات ومناقشات لويس للكثير من القضايا، فقد كان عالة على غيره ممن سبقوه من رواد هذه المدرسة إلى أنه لا يشير إلى كتاباتهم

---

(1) Tomas Arnold : The Caliphate, Lahor Karachi, 1966, p15.

(2) مازن صلاح مطبقاني: المرجع السابق، ص75.

(3) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دارالعلم للملايين بيروت 1954م، ص15.

وأفكارهم، بل يتبناها وكأنها أصيلة من بُنَى أفكاره وعبقريته، وقد ساعده في ذلك أسلوبه المميّز في الكتابة والمناقشة والعرض[1].

ثالثاً: تأثره بالمدرسة الإستشراقية الأمريكية:

وقع برنارد لويس تحت تأثير المدرسة الإستشراقية الأمريكية، وكانت له أحد أهم المنابع الفكرية، رغم أنّه يُعد هو كذلك أحد الموجّهين لمسيرة هذا الإستشراق وهذه المدرسة، والأسباب في ذلك عديدة غير أنّه من الواضح أن عملية التأثير هذه والتأثر في حياة لويس ومسيرته العلمية، هي التركيز على بعض الجوانب الدقيقة والتي لها تأثير مباشر في الدراسات الإستشراقية الأمريكية مع الأخذ بحظ وافر من مناهجها التي اعتمدتها في طريقة أبحاثها أو في النتائج التي تريد الوصول بها ولها.

ومن ذلك اعتماد الإستشراق الأمريكي على بعض الميكانيزمات والآليات في توجيه الدراسات وبخاصة الجانب الإجتماعي منها ومناهجها في تفسير الأحداث والوقائع وإسقاط ذلك إسقاطاً غير سليم، سواء ما تعلَّق بالدراسات ذات الصِّلة الحديثة بالمجتمع الإنساني أو بتلك التي كانت وأصبحت في ذمة التاريخ[2].

لذلك فلا غرو إن وجدنا في دراسات لويس بعض التأكيدات والتصريحات أو في بعض الأحيان بعض التلميحات لقضايا إجتماعية أو ذات الطابع الإجتماعي في الإسلام وتاريخه، ومن ذلك تأكيده على الطبقات الإجتماعية في تأسيس المجتمع المسلم الأول في المدينة، ومسألة الرق وكيف عالجها الإسلام، وقضية المرأة وبخاصة تعدد الزوجات سواء في مجتمع المدينة الأول أو في المجتمع الإسلامي بعد ذلك بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية.

والأمر الأهم الذي أولاه لويس الكثير من وقته وكتاباته، هو نشأة الفرق في التاريخ الإسلامي، والأسباب التي ساعدت على ذلك، مع التأكيد على الجوانب الإجتماعية وأسبابها، متأثراً بالمناهج الغربية الحديثة وبخاصة الأمريكية؛ مؤكداً في ذات الوقت، في شرحه لتلك الأسباب والحوادث، على البنية الإجتماعية الداخلية لتلك الفرق وخير مثال في ذلك كتابته عن الإسماعيلية والحشاشين.

---

(1) مازن صلاح مطبقاني: الإستشراق والاتجاهات الفكرية، ص547-548.

(2) مازن صلاح مطبقاني: المرجع السابق، ص48 وما بعدها.

وخير ما يستدلُّ به على تأثر لويس في دراساته الإستشراقية بالإستشراق الأمريكي، هو انكبابه شبه الكلي لما يسمى بالدراسات شرق أوسطية في الوقت الراهن وتتبعه لقضايا الشرق الأوسط، وهذه ميزة ميَّزت أعمال لويس في مرحلته المتأخرة من حياته العلمية، كما أن المناصب العملية التي اعتلاها في أمريكا، وقربه من أصحاب اتخاذ القرار في الدوائر الرسمية من دون نسيان جذوره الإثنية وأصوله العرقية، كل تلك الأسباب وجَّهت لويس هذه الوجهة وجعلته يتأثر أيُّما تأثر بالإستشراق الأمريكي[1].

رابعاً: تأثره بالمناخ السياسي العالمي:

تغيَّرت واجهة الخريطة السياسية العالمية بعد انتهاء ما يسمى الحرب العالمية الثانية، وبرزت للوجود دول وعلا شأنها في السياسة الدولية، كما أفل نجم العديد منها وصارت في حكم العدم، في المحافل ذات القرارات المصيرية، كما برزت وطفت على المستوى الفكري العالمي مجموعة من الأفكار الجديدة والتي مهَّدت لظهور العديد من الحركات التحرُّرية والحركات الإنفصالية، ولم يكن العالم الإسلامي بمنآى عن هذه الأحداث إذا ما علمنا أن أكثر من سبعين بالمئة من أراضي العالم الإسلامي آن ذاك كانت تحت سيطرة الغرب الصليبي على اختلاف دولهم ومللهم ونحلهم[2]؛ ثم صاحب ذلك ظهور كتل دولية جديدة شرقاً وغرباً.

تزعَّمت الكتلة الشرقية منه روسيا أو ما كان يسمى الإتحاد السوفياتي، متخذة من الشيوعية عقيدة لها ولكل الدول التي سارت في فلكها، وتزعَّمت الولايات المتَّحدة الأمريكية الكتلة الغربية، بعد أن تخلَّت كل من فرنسا وبريطانيا عن دورهما الريادي الإستعماري في العالم الغربي، بعد أن وطَّنوا فلسطين لليهود، ومتخذين الرأسمالية منهجاً وعقيدة لهم ولمن اتبعهم من دول العالم[3].

---

(1) لمراجعة كل تلك الأفكار والملاحظات، يرجى مراجعة بعض كتب برنارد لويس مثل: العرب في التاريخ، الإسلام في التاريخ، إكتشاف المسلمين لأوروبا، أصول الإسماعيلية، الحشاشون، وقد قام بترجمته أ.د/ سهيل زكار(دمشق1971م)، وصلاح الدين والحشاشون، ومصادر تاريخ الحشاشين في سوريا، والإسلام والعالم العربي.

(2) محمد قطب: هل نحن مسلمون، مرجع سابق، ص184 وما بعدها.

(3) محمد قطب: واقعنا المعاصر، مرجع سابق، ص201.

وكل تلك الأحداث التي وقعت في العالم مجتمعةً لا تساوي شيئاً، إذا ما قورنت بالحدث الهام والأهم والأعظم وهو سقوط الخلافة الإسلامية، والتي كانت ممثلة في الدولة العثمانية أو ما اصطلح على تسميتها فيما بعد بتركيا الحديثة[1]، واقتطاع فلسطين من جسم الأمة الإسلامية وإهدائها لليهود، على ما صاحب ذلك من عهود ومعاهدات واتفاقيات وبروز بعض الهيئات الدولية والتي لا دور لها إلا الإشراف أو لا تملك إلا حق التنديد والشجب، بدءً بعصبة الأمم وانتهاءً بهيئة الأمم المتَّحدة[2].

وقد سايرت الحركة الإستشراقية كل تلك الأحداث التاريخية، واهتمَّت بها إلا أن اهتمامها قد انصبَّ أكثر حول بعض القضايا التي كان لها الأثر الكبير في حياة الأمة الإسلامية، من حيث الفكر والعقيدة وسلوك الأمة، ودراسة منحنى توجُّهاتها المستقبلية مع ما صاحب ذلك من حركات النهضة واليقظة ومدى تأثير ذلك على السير العام للسياسة الدولية؛ لذلك وجدنا أن الإستشراق في هذه الفترة قد عكف على دراسة المواضيع ذات الصِّلة بواقع الأمة.

وخير ما يدلَّل عليه هو اهتمام الإستشراق بتركيا الحديثة[3]، التي اتخذت العلمانية وجهة جديدة لها، مما جعلتها تعيش غربة عن أصولها وعقيدتها، وهي التي حملت لواء الخلافة قروناً من

---

(1) قام مصطفى كمال الملقب بعد ذلك بكمال أتاتورك بتاريخ: 1924/07/24م بتنفيذ ما جاء في لقاء لوزان، الذي رأسه ممثل إنجلترا ورئيس الوفد كيرزون، والمتمثّل في النقاط التالية: إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً، طرد الخليفة خارج الحدود، مصادرة أموال الخليفة، وإعلان علمانية الدولة التركية. للمزيد حول هذه الفكرة ينظر: إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص231-232.

(2) مازن صلاح مطبقاني: المرجع السابق، ص48 وما بعدها.

(3) أمثلة ذلك لا الحصر: فلاديمير إفانوفيتش دانيلوف: الصراع السياسي في تركيا(الأحزاب السياسية والجيش)، ترجمة يوسف إبراهيم الجهماني، دار حوران للطباعة والنشر دمشق، ط1، 1997م. حنا مينا مطر: أتاتورك بطل الشرق، مطبعة رمسيس بالفحالة القاهرة، ط1، 1922م. نيكولو بربارو: الفتح الإسلامي للقسطنطينية، ترجمة حاتم عبد الرحمن الطحاوي، عين للدراسات والبحوث القاهرة، ط1، 2002م. بيتر شوجر: أوروبا العثمانية (1354-1804م)، ترجمة عاصم الدسوقي، دار الثقافة الجديدة القاهرة، ط1، 1998م. جاكوب لانداو: تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية (1517-1914م)، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ط1، 2000م.

الزمن، كما كان التركيز على دراسة الخلافة، وظهور العديد من الدراسات والنظريات حول نشوء الخلافة وظهورها على مسرح التاريخ عند المسلمين، ثم أسباب تمكينها وعوامل انهيارها[1].

ويُعدُّ كتاب برنارد لويس"ظهور تركيا الحديثة" من المراجع المهمَّة في بابه، وهو خير دليل على ما تمَّ ذكره؛ ثم ما لبث أن أتبع كتابه هذا بمجموعة من الأبحاث والدراسات والتي تصبُّ كلها في مثل هذه الوجهة إن لم تكن من صميمها، مثل "دعوة الإسلام" و"الحركات السياسية في الإسلام" وغيرها من الأبحاث والدراسات.

فكل هذه الأوضاع التي سادت العالم كانت أحد الأسباب المُلْهمة والموجِّهة للإستشراق في الفترة الأخيرة من عمره، وبخاصة بعد سقوط الشيوعية، فقد استغلت الدوائر ذات المصالح في العالم الفرصة، واجتهدت بأن تُحلَّ الإسلام محلَّ الشيوعية كطرف نزاع في معادلة معاداة الغرب ومصالحه.

وقد نجحت أيَّما نجاح بالاستناد إلى أفكار وتوجيه القائمين على مثل هذا التوجُّه من المستشرقين، وعلى رأسهم لويس ومن كان على شاكلته، بما ابتكروه من مصطلحات "الإرهاب العالمي" أو "الإرهاب" أو "الأصولية الدينية"، وكل ذلك لتأجيج مشاعر الكراهية وإيقاظ نوازع الكيد والمكر للإسلام وأهله، حتى وصل الحد بهم إلى جعل الإسلام هو العدو الأول في دنيا الناس، وأن أتباعه هم أعداء الإنسانية والسامية في العالم، وأن حضارته هي حضارة السيف والدَّم والعنف والقهر ولذلك وجب إزالتها وتدميرها بأي شكل كان.

وكان أن ظهرت نظرية جديدة هي نظرية "صراع الحضارات" أسَّس لها رواد الفكر الإستشراقي عامة ولويس أحدهم، وطوَّرها وقام بتأصيلها والترويج لها عالم السياسة الأمريكي

---

(1) مثاله: ماري ملز باتريك: سلاطين بني عثمان، صفحات من تاريخ تركيا الاجتماعي والسياسي والإسلامي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت، ط1، 1407هـ/1986م.

صمويل هنتنجتون[1] ابتداء من عام 1993م، فأصبحت جاهزة لتسويغ وتبرير المواجهة بين الغرب والعالم الإسلامي[2].

(1) صمويل هنتجتون: أستاذ الدراسات الدولية بجامعة هارفارد، يهودي العقيدة صهيوني النزعة، له علاقات وثيقة بدوائر المخابرات الأمريكية، تحدث عن صراع الحضارات(Clash of Civilizations) لأول مرة فى مقال نشره صيف 1993م فى مجلة (فورينغ أفيرزForing Affairs) ثم فى كتاب كامل صدر عام 1996م.

(2) فكرة صراع الحضارات أو صدام الحضارات قديمة وليست من إنتاج برنارد لويس كما يزعم بعض من كتب عن هذا الموضوع- لأن برنارد لويس كما تمت الإشارة إليه سابقاً يتبنى أفكار غيره ولا ينسبها لهم- بل إن الفكرة كانت قد وُلدت في بداية القرن العشرين، وتحديدا سنة 1907م، حين كان هنري كامبل رئيس الوزارة البريطانية، وكان مولعاً بفلسفة التاريخ، وكانت بريطانيا الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس؛ تأمَّل كامبل في فلسفة التاريخ وتسأل: إذا كان نجم بريطانيا سيغرب لا محالة بحسب نظريات فلسفة التاريخ، وإذا كانت بريطانيا وِحْدة من مكونات الحضارة الغربية المسيحية فما الذي تستطيع أن تفعله بريطانيا لمد أجل الحضارة الغربية ودیمومة سيطرتها على العالم، بحيث يستمر الدور البريطاني بشكل أو بآخر في السيطرة على هذه البقاع من العالم؟! وكان ما أراده هو إعداد استراتيجية أوروبية لضمان سيادة الحضارة الغربية وطول أمدها؛ لذا بعث كامبل برسالته وتساؤله إلى الجامعات البريطانية والفرنسية التي ردت عليه بالجواب المفصل في وثيقة سميت بوثيقة كامبل والتي تحدثت عن أن واجب بريطانيا أن ترى العالم من خلال ثلاثة مساحات:

المساحة الأولى: تتكون من الوحدات التي تقع في المنظومة المسيحية الغربية، وتقرر الوثيقة أن من واجب بريطانيا تجاه هذه المساحة من الحضارة – على أي حال من الأحوال- ألا تكون السيادة على العالم خارج إطارها، أي أن هذه المنظومة الحضارية هي التي تسيطر على العالم، ويظل زمام الأمور بيدها؛ فإذا كانت أي حضارة لاشك ستنتهي – بحسب نظرة فلسفة التاريخ – فإنها يجب أن تضمن أن وريث هذه الحضارة من نفس المساحة، ومن جوهر المنظومة الغربية.

المساحة الثانية: وهي الحضارة الصفراء، التي لم تتناقض مع الحضارة الغربية من الناحية القيمية، لكنها قد تختلف معها في حساب المصالح؛ وهذه الحضارة يمكن التعامل والتعاطي معها تجارياً، ويمكن غزوها ثقافياً لهشاشة منظومتها القيمية، وبالتالي فالتعامل معها يعتمد على الجانب المصلحي للكتلة المسيحية الغربية من العالم.

أما المساحة الثالثة: فهي البقعة الخضراء أو الحضارة الخضراء "واللون الأخضر في الثقافة الأنجلوساكسونية يدل على الشر"، وتقرر وثيقة كامبل أن هذه المساحة من الأرض تحتوي على منظومة قيمية منافسة للمنظومة الغربية، صارعتها في مناطق كثيرة وأخرجتها من مناطق كثيرة، وأنه من واجب الحضارة الغربية المسيحية أخذ احتياطاتها وإجراءاتها لمنع أي تقدم محتمل لهذه المنظومة الحضارية أو إحدى دولها لأنها مهدِّدة للنظام القيمي الغربي. لذا فلا غرابة أن نجد هذه الكلمة Value System تتكرر اليوم في كل التراث الأوروبي المعاصر، وفي وثائق البيت الأبيض بشكل متكرر على مدى تاريخ رؤساء الدول الذين مروا على الإدارة الأمريكية.

ثم تلقَّف أرنولد توينبي خيوط هذه النظرية معتمدا على ما ذهب إليه ابن خلدون ونسج منها نظريته في فلسفة التاريخ في صراع الحضارات، أو في وجود حضارات متباينة على مساحة العالم، على حد قوله ودراسته لها وحديثه عن نهوضها وسقوطها والتي ضمنها كتابه دراسة التاريخ والذي قضى فيه ما يقارب أربعين سنة (1961/1921م). وأرنولد توينبي هذا هو صاحب

ثم إن برنارد لويس وفي مقال له، وهو في معرض حديثه عن المناهج الديمقراطية الحديثة، بعد أن أطلقت أمريكا شعار "النظام العالمي الجديد"، يستهزئ من العالم العربي والإسلامي بطريقة ما توحي بالاشمئزاز، ثم يبدي قناعته بأن النظام الديمقراطي الذي وصلت إليه الدول الغربية هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه الأنظمة في وقتنا الراهن وفي الوقت القادم، ثم يعرِّج على ذلك بقوله أن هذا النظام لا يمكن أن يكون صالحاً في حياة العرب والمسلمين لأن:" **الإسلام لا يناسب مثل هذه الحكومات وذلك لمجموعة من الأسباب**، أهمها:

- **أنه ليس في الإسلام مفهوم السلطة الشرعية التي عرفها العرب قبل الإسلام.**
- **أنه ليس في الإسلام مبادئ التمثيل**(ويقصد به التمثيل النيابي أو البرلماني).
- **أن النظام الاجتماعي في البلاد الإسلامية قائم على تعدد الزوجات والتسرِّي والرِّق؛ وهذا عائق في سبيل دخول الأفكار الحرَّة إلى العالم الإسلامي، وسبب آخر وهو أن النقد الذاتي نادراً ما يمارس عند المسلمين، وهو غير مفهوم لديهم إلا قليلاً**"[1].

هذا وقبل الخوض والتبحُّر كذلك بحثاً عن منهج برنارد لويس فيما كتبه عن تاريخ الإسلام عامة، وَجَب التّنويه والتّنبيه إلى ما خلَّفه هذا المستشرق من آثار كثيرة وأعمال غزيرة[2]، كما شارك في الكثير من الملتقيات والمؤتمرات العلمية الخاصة والعامة الإقليمية منها والعالمية، كما كانت له مساهمات في كتابة الكثير من مواد الموسوعات العلمية، مع مجموعة بحوث خارجية، وكذا إشرافه على الكثير من طلاب الدراسات العليا سواء من بني جلتده أو من غيرهم.

لذلك كانت له الكثير من الأراء وشبه النظريات التي ملأت كل تلك التصانيف والتي وجدت لها في واقع الناس مكاناً وحيِّزاً لا بأس به وبخاصة تلك المتعلِّقة بمهاجمة الإسلام وأهله، وتوجيه السياسة العامة العالمية وخاصة لبعض دول العالم المسيطرة وعلى رأسها أمريكا، ويضاف لكل ذلك

النظرية القائلة " إن الوحدة الإسلامية نائمة لكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ". د. جاسم سلطان: أداة فلسفة التاريخ، كتاب سلسلة القادة ومشروع النهضة عمان، [د ت ط]، ص33-35.

(1) Bernard Lewis: Islam and Liberal Democracy, in The Atlantic Monthly febrary, 1993, p 89-98.

(2) ينظر: مازن صلاح مطبقاني: المرجع السابق، ص555-562، فقد جاء على ذكر أعماله مفصَّلة في قائمة المصادر والمراجع.

طول العمر، فقد بلغ أرذله، وقد أكسبته الأيام والسنون الخبرات تلو الخبرات، حتى غدا رأيه هو أساس كل أمر أو نهي في توجيه السياسات العامة الدولية.

أ_ أعماله: كَتَب وصنَّف الكثير من الأعمال أذكر أهمها كعيِّنات وهي:

- ✓ أصول الإسماعيلية: كمبرج 1940م.
- ✓ تركيا اليوم: 1940م.
- ✓ تاريخ اهتمام الإنجليز بالعلوم العربية: 1941م.
- ✓ السياسة والدبلوماسية العربية: لندن 1947م.
- ✓ أرض السحرة: 1948م.
- ✓ العرب في التاريخ: لندن 1950م.
- ✓ ظهور تركيا الحديثة: نيويورك 1961م، وآخر طبعة له 1987م.
- ✓ استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية: مطبعة جامعة أوكلهوما، 1963م.
- ✓ سلسلة كامبرج للتاريخ الإسلامي: أربعة أجزاء في مجلدين بالاشتراك مع غيره 1970م.
- ✓ الإسلام في التاريخ: لندن 1973م.
- ✓ الإسلام من النبي محمد[ﷺ] حتى أسر القسطنطينية: في مجلدين، نيويورك 1974م.
- ✓ التاريخ، تذكّره، اكتشافه، اختراعه: 1975م.
- ✓ الإسلام والعالم العربي: بالاشتراك مع غيره، 1976م.
- ✓ اكتشاف المسلمين لأوروبا: 1982م.
- ✓ دائرة المعارف الإسلامية بالاشتراك مع غيره: ليدن

ب_ البحوث والمقالات: تعدَّدت بحوث لويس ومقالاته حتى أنها من كثرتها لا يكاد الباحث أن يحصيها في التخصُّص الدقيق، وقد تشعَّبت بين مجموعة من الفروع المعرفية بدءً بالتاريخ الإسلامي مروراً بالفكر السياسي الإسلامي والحركات الإسلامية المعاصرة، وصولاً إلى الفرق والعقيدة الإسلامية، لِحَاقاً بالدراسات الإجتماعية في المجتمعات الإسلامية، نزولاً بالخلافة العثمانية والدولة التركية الحديثة، وانتهاءً بملف اليهود والإسلام وقضية فلسطين.

وفي كل محور من المحاور التي تم ذكرها، نجد لبرنارد لويس أكثر من بحث ومقالة، بالإضافة إلى مجموعة الأبحاث المتخصِّصة والتي تشرف عليها بعض الهيئات العلمية، أو بعض الإستشارات التي

تُقَدَّم لبعض الجهات وبخاصة في الدوائر الحكومية والتي تتطلب بعض السرية والكتمان ولو لبعض الوقت[1].

المطلب الثاني: منهج برنارد لويس في كتابته للسيرة النبوية.

فيما سبق تمت الإشارة إلى أن المستشرقين قد اعتمدوا في كتاباتهم للسيرة النبوية خاصة على مجموعة من المبادئ وجعلوها أسساً ثابتة ومعالم لكل من يسلك هذا الدرب منهم.

وبيَّنا بعضاً منها وهي مجملة ممثلة في ادِّعاء الموضوعية العلمية، والأهداف العلمية المشبوهة، وعدم الالتزام بالمنهج العلمي ومجافاته، والتمويه والخلط بين الحق والباطل وختاماً لذلك تم ذكر عدم التفريق بين ما هو مقدس وما هو مدنَّس، مع إضافة بعض الأسس الجزئية والخصائص التي قد يتفرَّد بها مستشرق عن غيره، ولكن تبقى نوعيتهم واحدة.

ولن يختلف منهج لويس عن سابقيه من المسترقين عموماً، فهُم في الغرب يتوارثون المنهج العلمي ويطبقونه على جميع دراساتهم بموضوعية تامة غير منقوصة، بَيْد أنهم لَّما تحين لحظة دراستهم لكل ما له علاقة بالإسلام وأهله، فإنَّهم سرعان ما يديرون ظهورهم كلية عن المنهج العلمي الخالص الذي يؤمنون به ويدعون له في كل مناسبة، ويستخدمون منهجاً ثانياً مغايراً للذي كانوا يدعون له ويؤمنون به، والأسباب في ذلك كثيرة ومتنوِّعة وقد تم ذكر بعضها فيما سبق من البحث.

ومرَّ بنا في مباحث سابقة مميزات الإستشراق الغربي عموماً وبعض صفاته وكيف نشأ في أحضان الكنيسة التي رعته، وأهدافه السياسية والاقتصادية ثم الإستعمارية التي يرنو لتحقيقها، مع التخيُّل المفرط والاتصاف بالفوقية مع ما يصاحبه من الشعور بالتعالي على الشرق عامة، بالإضافة إلى صفة العلمية والتحليل المفرط في استخدام أدوات العقل والمنطق، وقياس كل الأحداث والوقائع بهذين المقياسين، فما وافقهما فهو الحق وإن كان باطلاً وما خالفهما فهو الباطل وإن كان هو الحق واليقين بعَينِه؛ لذلك فإن المتتبع لكل الدراسات التي أنتجوها أو لمعظمها، والخاصة بالشرق

---

(1) للمزيد من الفائدة حول هذه النقطة تحديداً ينظر: العقيقي: المستشرقون، ج2 ص144-145. ومازن صلاح مطبقاني: الإستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، ص81-124، وقد جاء على ذكرها مفصّلة في قائمة المصادر والمراجع بحسب تأليف لويس لها زمنياً من ص 555-562. وبرنارد لويس وإدوارد سعيد: الإسلام الأصولي في فكر الغربيين، دار الجيل بيروت، ط1، 1414هـ/1994م، ص6-8.

عموما، وجدناها مليئة بكل هذه المواصفات مع إضافة صفة الإدِّعاء المفرط للتخصُّصية في الموضوع المدروس أو المحور المُناقَش.

وسبقت الإشارة في معرض الحديث عن مونتغمري واط وعن المدرسة الإستشراقية وعن قائمة هذه المدرسة الإستشراقية الطويلة من حيث الزمن المستغرق، والثقيلة من حيث نوعية الباحثين والمشتغلين فيها، والتي أحد ركائزها الأساسية كذلك برنارد لويس إن لم يكن في الوقت الحاضر مَجْمَع الأسس، وكيف لا وهو الذي آلت إليه في المؤتمر التاسع والعشرين عام 1973م آخر مؤتمر إستشراقي عالمي رئاسته، والذي تمَّ عقده بباريس، والذي أصدر فيه هو حكمه على مصطلح الإستشراق وصِفَة العاملين في حقله، بأنَّه آن الأوان لوضعهما في مزبلة التاريخ بعد أن استفرغ مصطلح الإستشراق من محتواه وانتهت فترته وأدَّى وظيفته.

ومن جهة دراسة برنارد لويس للسيرة النبوية، فالحقيقة التي ليس فيها ارتياب أنه لم يُفْرِد لها تآليف خاصة بها مثل سابقه، بل إن كتاباته في ذلك جاءت مبعثرة على شكل أفكار أو فقرات متناثرة بين دفَّات ما كَتَب، باستثناء ما جاء في الفصل الثاني من كتابه "العرب في التاريخ"[1]، حيث قدَّم عرضاً موجزاً للسيرة النبوية، ولعلَّ السبب في ذلك أن برنارد لويس قد تأثَّر بالمنهج الإستشراقي الحديث الذي يَبُث السموم -الشكوك- على شكل جُرُعات في فترات متقطِّعة وبالكميَّة التي يريد وفي الموضع المُتاح وفي الزمن المحدَّد، بحيث يتأكد من وصول الجُرعة إلى موضعها ولا يهمُّ متى تأتي نتائجها.

لذلك كان من الصعب تتبُّع ما كتبه لويس في هذا الاتجاه إذا علمنا أن ما كتبه لويس وما نشره يربو على مائة عمل بين كتاب ومقال ودراسة بالإضافة إلى ذلك أن معظم ما أنجزه لا يزال بلغته الأم "الإنجليزية"، وكذلك كان من الصعب رسم صورة واضحة بيِّنة المعالم لمنهجه لكثرة وتنوّع ما يطرحه من أفكار، متأثراً في ذلك بتحاليله للقضايا المعاصرة ومستنداً إلى فهمه للتاريخ عامة والتاريخ الإسلامي على وجه الخصوص، وعليه يمكن أن نجمل منهج برنارد لويس في كتابة السيرة النبوية على الشكل التالي:

---

(1) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، ص46-64.

منهج الأثر والتأثر:

تعدَّى خيال لويس كل حدود العقل والمنطق في ادِّعائه أن **الرسول ﷺ قد تتلمذ على يد اليهود والنَّصارى، وأنه أخذ من كتبهم الشيء الكثير في تأليفه للقرآن، وأنه قد كان تحت ظل المؤثرات اليهودية والنَّصرانية ... وأنه حاول التقرُّب من النَّصارى في بداية أمره، غير أنه تركهم وهجرَهم إلى لواء اليهود الذين تعرَّف على كتابهم المقدَّس وذلك بطريق غير مباشر، وربما كانت عن طريق التجار والرحَّالة اليهود والنَّصارى الذين كانت أخبارهم متأثِّرة بالمؤثرات المدراشية والإبوكرافية**[1]... **ثم بعد خروجه إلى يثرب ولقائه المباشر بالاحتكاك معهم، ومن أجل أن يسترضيَهم أدْخَل في دينه عدداً من شعائرهم من بينها صوم التكفير(يوم عاشوراء)، واستقبال بيت المقدس في الصلاة؛ ولكن اليهود رفضوا مزاعم النبي الأمي[ﷺ] وعارضوه في الأمور الدينية... ولما أدرك محمد[ﷺ] أنه لن ينال مناصرة من هذه الجهة، ترك فيما بعد الشعائر اليهودية التي كان أن اتخذها، واستبدل مكة بالقدس قِبْلَة للصلاة وأضفى على عقيدته طابعاً قومياً أشدَّ دقة والتزاماً**[2].

هذا هو محمد ﷺ في فكر لويس وهذه هي أصول الدين الإسلامي، فهل خرج لويس من دائرة العفونة الفكرية للمنهج الإستشراقي التقليدي؟ بالطبع لا، ولن يخرج إلى الأبد.

أما مناقشتنا لآراء لويس، فتبدأ من حيث قوله أنه ﷺ قد التقى بالرحَّالة والتجَّار اليهود والنَّصارى، وفي هذا إيعاز منه إلى التقاء النبي ﷺ بالرهبان النَّصارى مثل بحيرا وورقة بن نوفل[3]، ثم هو في حديثه عن القرآن الكريم، يومئ بإلتواء أنَّه من تأليف محمد ﷺ ودليله في ذلك أنّ القرآن قد اشتمل على مجموعة روايات لقصص الكتاب المقدّس.

والردُّ عليه في غاية البساطة، وذلك لأن لويس يعلم مثل ما يعلم أحبار اليهود وقساوسة النصارى أنّ كتبهم كانت في ذاك الزمان قد حرِّفت، ثمَّ إن أسلوب القرآن الكريم يختلف اختلافا

---

(1) الإبوكرافية أو الإبوكريفا: هي كتابات يهودية غير قانونية واكتسبت هذه الصفة بعد رفض اليهود ضمها إلى كتاب العهد القديم، فاستخدمت بصفة سرية خارج إطار العهد القديم. ينظر تفصيل هذه المصطلحات اليهودية في:

Yehoshua M. Grintz : Apocrypha and Pseudepigrapha, Encyclopaedia Judaica, Tomson Gale, N.Y, USA, 2nd ed, 2007, Vol 2, pp 258-261.

(2) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص49-55.

(3) وقد تمت مناقشة هذا الأمر في معرض رَدِّنا وحديثنا عن منهج مونتغمري واط في صفحات سابقة.

كلياً عن أسلوب الحديث النبوي الشريف فكيف بكلام البشر العاديين؟ ثمَّ إن كان القرآن من تأليف محمد ﷺ وبقي هذا الكتاب طول هذا الزمن، ألا يعتريه بين الحين والآخر تحريف وتغيير؟ ونحن نلحظ حتى في الشرائع السماوية التي حرِّفت أن أتباعها بين كل فترة وأخرى يدخلون عليها من الإصلاحات الشيء الكثير للتماشى مع وقائع وأحداث الزمان، ويسمُّونها الإصحاح كذا أو كتاب القديس فلان.

وإن كان الأمر فوق هذا وذاك لِمَ لم تتَّهم العرب النبي ﷺ وهم أعلم أهل الأرض قاطبة يومها باللغة العربية، بأن القرآن أو أنَّ كتاب محمد ﷺ هذا هو مجموعة من الهرطقات أو أنَّه كتاب غير معجز، وهو الذي خاطبهم صراحة في قوله تعالى﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[البقرة:23-24] ثمَّ هو ذات الكتاب الذي قال فيه أعداؤه يومها:" **والله إنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة وإنَّ أسفله لمغدق وإنَّ أعلاه لمثمر ما يقول هذا بشر**"[1].

ثمَّ إن العرب الذين مكث فيهم محمد ﷺ ثلاثاً وعشرين عاماً يتلو عليهم القرآن ويتكلَّم معهم بكلامه، غير القرآن، كانوا يميِّزون هذا من ذاك، ثمَّ إن النبي ﷺ قد أوتي جوامع الكلِم ولكنَّه ما يستطيع أن يأتي بآية من عنده أو بحديث له يشابه آية من القرآن، ولذلك فالقرآن معجز بلفظه، ومعجز بنظمه، ومعجز بأسلوبه، ومعجز بتأثيره ومعجز بكل ما حواه من أخبار وعلوم، فإذا أيقنَّا ذلك علمنا أنه بالضرورة ليس كلامه ولن يكون[2].

---

(1) القول للوليد بن المغيرة، حينما سمع قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النَّحل:90]، ينظر القصة كاملة في: الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي(ت 942 هـ/1535م): سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1414هـ/1993م، ج9 ص408.

(2) للاستزادة حول هذا الموضوع ينظر: أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مصدر سابق، ج1 ص 523-533.

زد على هذا كلِّه كيف تمكَّن محمد ﷺ من الاطِّلاع على كتب الدِّيانات الأخرى؟ وفي أيِّ زمن كان ذلك؟ ثمَّ هل ما وجد ﷺ إلا الكتب المنبوذة في الشرائع الأخرى لينقل منها كتابه؟ بل هو التعصُّب الأعمى والغشاوة التي طمست القلوب والعقول، ثم المصالح الدنيوية التي يرنو لها كل مستشرق غير مخلص لمبادئه ولا للمنهج العلمي الذي يدَّعيه، فتُحْجَب عنه الحقيقة الساطعة والإيمان الصادق، وإلا لما وَسِع كل ذي عقل نيِّر وقلب صافٍ وهو يدرس حياة محمد ﷺ إلا ويكتشف فيها المثل الأعلى والكمال البشري، لأنه كمال النبوة والاصطفاء الإلهي وليس كمال العبقرية البشرية المحدودة بالزمان والمكان والحال.

وأما قول لويس أنَّ النبي ﷺ قد خالف اليهود في بعض ما كانوا يفعلونه وأن اليهود رفضوا مزاعمه (وحاشاه أن تكون له ﷺ مزاعم) وعارضوه في الأمور الدينية؛ ولما أدرك أنه لن ينال مناصرة من هذه الجهة، ترك فيما بعد الشعائر اليهودية التي كان أن اتخذها، واستبدل مكة بالقدس قِبْلَة للصلاة وأضفى على عقيدته طابعاً قومياً أشدَّ دقة والتزاماً، فذلك قول مردود من عدة أوجه نقلية وعقلية وواقعية، ولكن يغنينا الردُّ عليه من الجانب النقلي وهو الثابت الذي لا مناص منه إلاَّ الإذعان له والتسليم، في قوله تعالى:﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:142-145] ويكفي

الرجوع إلى ما قاله علماء التفسير في هذا الموضوع وكذا أسباب النزول لهذه الآيات في مضانها[1]؛ ثم ما صحَّ من أحاديث الرسول ﷺ في تحويل القبلة[2]، وكذا كتب السيرة في بابها فقد أغنت وكَفَت[3].

ويذهب لويس إلى أن فكرة التوحيد والوحي نفسها والعناصر الكثيرة التي تعود إلى الكتاب المقدَّس قد تأثَّر بها محمَّد ﷺ من غير أن يقدِّم دليلاً واحداً إلى ما ذهب إليه، ولا أشار من أيِّ وجهة أخذ ولا الغاية التي اقتبس من أجلها، بل على العكس من ذلك فقد قام لويس بنَقْد فكرته المتقدِّمة ونقضها بعدُ وكفانا مُؤْنة الردِّ عليه بقوله:" **ولكن محمداً لم يسبق له أن قرأ الكتاب المقدَّس، وتقول الأخبار الإسلامية أنه كان لا يقرأ ولا يكتب**"[4].

المنهج العلماني:

يُصرُّ المستشرقون على إيراد الشبهات والحرص على إثباتها وتفسيرها التفسير العلماني المادي، وفق معتقداتهم وتصوّراتهم المادية الخاطئة، رغم علمهم اليقيني أنَّ تلك التفسيرات وما ذهبوا إليه

---

(1) ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي(ت774هـ/1372م): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع المدينة المنورة، ط2، 1420هـ/1999م، ج1 ص452-462.

(2) أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه،تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة بيروت، ط1، 1422هـ، ج1ص88. مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت[د ت ط]، ج1ص374. محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي: الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي بيروت [د ت ط]، ج5 ص207. أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي: المجتبى من السنن(سنن النسائي)، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب سوريا، ط2، 1406هـ/1986م، ج2 ص60.

(3) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت 463هـ/1070م): الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، وزارة الأوقاف المصرية لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة، ط1، 1415 هـ/1995 م، ج1 ص74. السهيلي: الروض الأنف، ج4 ص66-68. ابن كثير: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ط1، 1396ه/1971م ج3 ص464 -467. أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي: جوامع السيرة، تحقيق: إحسان عباس دار المعارف القاهرة، ط1، 1960م، ص106.

(4) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص50.

جناية في حق العقل عامة، وإفساد للمنهج العلمي الذي يدَّعونه وتلبيس على العقل الغربي، وطمس للحقائق في حدِّ ذاتها.

غير أنَّ لويس صاحب التجارب الكثيرة والخبرات العديدة يريد بلباقة تمرير فكره العلماني المادي من غير أن يترك أثراً لذلك، فينفي الوحي عن النبي محمد ﷺ **لأنه لم تكن لديه فكرة لتأسيس دين جديد، بل إن طريقة اتِّباع محمد ﷺ للحنفاء المكيِّين الذين كانوا متواجدين بالمنطقة قد أثَّروا فيه**، زد على ذلك أنَّ كل ما في الأمر أنه:" **أراد أن يأتي للعرب بوحي كالذي أُرسل من قبل لغيرهم من الشعوب بلغاتهم**"[1].

ويقصد لويس من قوله أنَّ الوحي ابتداع من النبي محمد ﷺ **فهو عبقري متصيِّد للفرص** كما سيجيء وصفه فيما بعد، بالاضافة إلى ذلك فإن الوحي الذي يدَّعيه محمد ﷺ **لم يثبت تاريخياً** من حيث أنّه:" **نتيجة لتطور طويل أم كان انفجاراً مفاجئاً**"[2]، وإن كان ولا بدَّ من التصديق بشيء مماً يدَّعيه محمد ﷺ فهو لا يعدو إلا أن يكون نبياً محلِّياً للعرب أو مصلحاً قومياً لهم وذلك ما يُفْهم من قوله:" **أراد أن يأتي للعرب بوحي كالذي أُرسل من قبل لغيرهم من الشعوب بلغاتهم**".

وبرنارد لويس في كل ما ذهب إليه متبع وليس بمبتدع، بل هو ناقل غير أنه لا يشير ولا إشارة إلى قول من سبقوه من المستشرقين، مثله في ذلك مثل صاحبه مونتغمري، بل ينسب ذلك لنفسه ويعُدُ ذلك سبقاً علمياً، ونسي أنَّ أحدهم ممن كان قبله قد قال:" **وكان من مقاصد محمد[ﷺ] أن يقيم ديناً سهلاً يستمرئه قومه، وقد وُفِق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يفكر محمد [ﷺ] في إبداع دين جديد قط**"[3]؛ وقول صاحبه الثاني الذي قال:"**كان عالمه الجزيرة العربية، فالوحي بلغة عربية ليتعلم أهلها**"[4]. ونسي هؤلاء كلهم أو تناسوا أن النبي محمد ﷺ لم يكن لقومه خاصة وإن كان قومه معنيين بخطاب بعض الآيات من القرآن، بل هو نبي

---

(1) برنارد لويس: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(2) برنارد لويس: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط3، 1399هـ/ 1979م، ص118.

(4)Muir (Sir)William: The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall, 3ed edition, London, 1984, p 43.

للعالمين ودعوته شاملة للبشرية جميعها ومهيمنة على جميع الشرائع التي جاءت قبله ومؤكدة لها، ومنطوق الآيات في ذلك صريح والآيات كثيرة[1]، وأحاديث الرسول ﷺ الصحيحة مثلها[2].

المنهج المادي:

لم ينعدم المنهج المادي في المناهج التي اعتمدها لويس في كتابته عن السيرة النبوية، بل إن وجوده حتمية في كتابات معظم المستشرقين، وذلك لتفسير ما يغيب خاصة عن إدراك بعضهم أو لحاجة في نفوسهم المريضة وعقولهم الكليلة.

ومن ذلك حين تناول الحديث عن الجهاد أو ما يسمُّونه هم مرحلة المواجهة بين المسلمين وكفار قريش في قوله:"**ولما كان المهاجرون معدمين من الناحية الاقتصادية ولا يرغبون في أن يعتمدوا كلياً على المدنيين، فقد تحوَّلوا إلى المهنة الوحيدة الباقية وهي السطو**"؛ ثم يتابع لويس رسم تلك الصورة السمجة –التي لا تصدر إلا عن قلب مليء بالحقد والكراهية– للرسول ﷺ وهو يقود أصحابه على لسان الكتَّاب الأوروبيين، ولسنا ندري من هؤلاء الكتَّاب؟! ولا إلى أيِّ فئة ينتمون؟! ولا إلى أيِّ عصر كانوا فيه؟! في قوله:"**وقد عبَّر الكتَّاب الأوروبيون ؟!! عن استيائهم البالغ، وهم محقُّون في ذلك، حين رأوا رسول الله يقود المسلمين على قوافل التجَّار من أجل الحصول على الغنيمة**"[3].

إن قول لويس عن المهاجرين بأنهم تحوَّلوا إلى المهنة الوحيدة المتبقية وهي السطو والسلب والنهب لهو قول عَارٍ من الحقيقة من عدة وجوه.

---

(1) مثال ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:107] وقوله سبحانه:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ:28].

(2) مثال ذلك قوله ﷺ:"أُعْطِيتُ خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً، طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ، صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ".رواه مسلم باب المساجد ومواضع الصلاة، ص199. ومثله للبخاري وفيه:" لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي"؛ وَفِيهِ "وَبُعِثْت إِلَى النَّاسِ كَافَّةً" ، وَفِيهِ: "وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي". في باب التيمم ص 48، وفي باب الصلاة ص56، وفي باب المساجد ص 62.

(3) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص57.

أولها أن معظم المهاجرين من قبيلة قريش، وقد نشأوا في بيئتهم الأولى وهي مكة المعروفة عند لويس وغيره بأنها مدينة تجارية بالدَّرجة الأولى، وقد كان أغلبهم يشتغل بهذا الفن الحِرفي.

ثانيها أنه لم تكن التجارة لتعجزهم بالمدينة المنوَّرة وهم المتمرِّسون بها.

ثالثها أن الذين هاجر إليهم المهاجرون كانوا أهل فضل وكرم كبيرين، وضيافتهم لإخوانهم كانت من أوجب الواجبات في حقهم.

بل لقد تعدُّوا مرحلة الضيافة المعهودة في عرف النَّاس إلى الإيثار الموجب للمدح، فبقوا مضرباً للمثل به ما بقي الليل والنهار، وكيف لا وهم الذين جاء مدحهم من فوق سبع سماوات في قوله سبحانه:﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[الحشر:9]؛ ورابع الوجوه في رد قول لويس، تعفُّف المهاجرين عن مقاسمة إخوانهم الأنصار في أموالهم وديارهم وحتى مناكحة أزواجهم إن كانت لهم رغبة وإربة بعد التطليق وتمام العِدَّة، وما قصة عبد الرحمن بن عوف [1] -أحد العشرة المبشرين بالجنة- مع أخيه ومضيِّفه الخزرجي الأنصاري سعد بن الربيع [2] ﷺ لخير مثال على ذلك[3].

---

(1) عبد الرحمن بن عوف(44ق هـ/32هـ-580-652م) عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث، أبو محمد، الزهري القرشي صحابي من أكابرهم، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الاسلام، قيل هو الثامن، وكان من الاجواد الشجعان العقلاء، اسمه في الجاهلية عبد الكعبة أو عبد عمرو وسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن، ولد بعد الفيل بعشر سنين وأسلم، وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها، وجرح يوم أحد 21 جراحة، وأعتق في يوم واحد ثلاثين عبدا، وكان يحترف التجارة والبيع والشراء، فاجتمعت له ثروة كبيرة، وتصدق يوما بقافلة، فيها سبع مئة راحلة، تحمل الحنطة والدقيق والطعام، ولما حضرته الوفاة أوصى بألف فرس وبخمسين ألف دينار في سبيل الله، له 65 حديثا، ووفاته في المدينة. الزركلي: الأعلام، ج3 ص321.

(2) سعد بن الربيع(...- 3 هـ/...- 625 م) سعد بن الربيع بن عمرو، من بني الحارث بن الخزرج صحابي من كبارهم كان أحد النقباء يوم العقبة وشهد موقعة بدر واستشهد يوم أحد. الزركلي: الأعلام، ج 3 ص85.

(3) القصة مذكورة في العديد من كتب الصحاح والتراجم والطبقات وهي كلها متقاربة، ومثالها مارواه الإمام الذهبي في قوله:" ولما هاجر إلى المدينة كان فقيرا لا شئ له، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع أحد النقباء، فعرض عليه أن يشاطره نعمته، وأن يطلِّق له أحسن زوجتيه، فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلني على السوق. فذهب، فباع واشترى، وربح، ثم لم ينشب أن صار معه دراهم، فتزوج امرأة على زنة نواة من ذهب، فقال له النبي ﷺ وقد رأى عليه أثرا

وما قيل سلفاً في حقِّ الصحابة المهاجرين من مكة في معرفتهم بالتجارة وتمرُّسهم بها وأنَّ أهل مكة كانوا أرباب التجارة وأسيادها، لهو خليق وحقيق بمن عرفه تُجَار مكة وأهلها جميعاً بالصدق والأمانة، فسمّوه الأمين قبل بعثته ﷺ.

ونُسائل لويس الذي تمعَّر وجهُه هو والكتَّاب الأوروبيين من تفسيرهم لأعمال محمد ﷺ وصحبه الجهادية بأنَّها أعمال سطو ونهب، ألَم يكن محمد هذا أحد تُجار مكة؟ ألَم يتاجر لأهل مكة فربحت تجارتهم على يديه الشيء الكثير؟ حتى سمعت بخصاله وأفعاله الطيِّبة وأرباحه الطائلة ربات الأحجال في خدورها؟؟ والحالُ كذلك، فكيف يعجز إذن محمد ﷺ وهو التاجر المتمرِّس على إقامة تجارة خاصة به وبأصحابه، ثم يختار مهنة فيها من المخاطرة بالمال والروح والتعب الشيء الكبير؟ لو لم يكن ذلك أمر من الشارع الحنيف؛ ثم لويس نفسه يناقض رأيه برأي قد أشار إليه ونسيه في لحظة الكيل للإسلام ولنبيِّه ﷺ كل المناقص، ويؤكد بأنه ﷺ كان خبيراً بالتجارة لأنه مكِّي في قوله:" **وقد كانت مكة مدينة يتمُّ فيها تبادل التجارة، وترداد التشابيه والمجازات والعبارات التجارية في القرآن يوحي بأنَّه كانت للنَّبي[ﷺ] خبرة تجارية**"[1].

والقول بالإذن بالقتال للمسلمين[2]، وذلك لتستوي المعادلة من طرفيها بين المسلمين والمشركين؛ وقدكان ذلك الإذن من باب الإستحباب والتدريب والتدرُّج.

من صفرة:" أَوْلِم ولو بشاة" ثم آل أمره في التجارة إلى ما آل". سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط9، 1413هـ/ 1993 م، ج1 ص 91.

(1) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص49.

(2) في قوله تعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[الحج:39]. وقد قال فيها علماء التفسير الكثير من الأوجه، وهذا وجه من أوجه تفسيرها:" وهذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد كما قال به جماعات من العلماء، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه ولكن قد جاءت آيات أخر دالة على أحكام أخر زائدة على مطلق الإذن فهي مبينة عدم الاقتصار، على الإذن كما هو ظاهر هذه الآية. وقد قالت جماعة من أهل العلم: إن الله تبارك وتعالى لعظم حكمته في التشريع، إذ أراد أن يشرع أمراً شاقاً على النفوس كان تشريعه على سبيل التدريج، لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدريج فيه مشقة عظيمة، على الذين كلفوا به قالوا فمن ذلك الجهاد، فإنه أمر شاق على النفوس لما فيه من تعريضها لأسباب الموت، لأن القتال مع العدو الكافر القوي من أعظم أسباب الموت عادة، وإن كان الأجل محدوداً عند الله تعالى... وقد بين تعالى مشقة إيجاب الجهاد عليهم، بقوله:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين قِيلَ لَهُمْ كفوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ الناس كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القتال لولا أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[النساء:77] ومع تعريض النفوس فيه لأعظم أسباب الموت، فإنه ينفق فيه المال أيضاً كما قال تعالى:﴿

ثم وإن كان المشركون في بادئ أمرهم كانوا على كثرتهم والمسلمون كانوا قِلَة، فاستعملوا ضدهم القوَّة وقتلوا من صبر على دينه من ضعفاء المسلمين[1]، وأرغموا البعض على الردة[2]، وهجَّروا البعض الآخر قهراً إلى خارج ديارهم بل وحتى خارج شبه الجزيرة العربية[3]، أوليس في كل ذلك من الظلم الكثير والضيم الكبير؟ فقد حان الوقت إلى إرجاع التوازن بين كفتي الميزان للحفاظ على أحد المقاصد الشرعية وهو حق الحياة وحق التديُّن، وسنة من سنن الكون الكبرى

وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[الصف:11] قالوا: ولما كان الجهاد فيه هذا من المشقة، وأراد الله تشريعه شرعه تدريجاً، فأذن فيه أولاً من غير إيجاب بقوله:﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه، أوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله:﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الذين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تعتدوا﴾[البقرة:190] وهذا تدريج من الإذن إلى نوع خاص من الإيجاب، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه عليهم إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابه كقوله تعالى:﴿فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحصروهم واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[التوبة:5] وقوله تعالى:﴿ وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[التوبة:36] وقوله:﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾[الفتح:16]. محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، 1415هـ/1995م، ج5 ص262-264.

(1) كان أول من استشهد في سبيل الله من الضعفاء آل ياسر(سمية وزوجها ياسر):" قال ابن إسحاق: وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه – وكانوا أهل بيت إسلام – إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول فيما بلغني: "صبرا آل ياسر موعدكم الجنة" فأما أمه فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام". السهيلي: الروض الأنف، ج3 ص116.

(2) وممن أرغم على الردّة عمار بن ياسر لشدّة العذاب:" قال ابن إسحاق: وحدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير، قال قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال نعم والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول نعم حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له أهذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول نعم افتداء منهم مما يبلغون من جهده". السهيلي: المصدر السابق، ج3 ص117.

(3) كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، وكان أول من هاجر:" عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، معه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، ولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبي حذيفة. والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، ومصعب بن عمير. وعبد الرحمن بن عوف معه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة و عثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن حذيفة وأبو سبرة بن أبي رهم ويقال بل أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس. ويقال هو أول من قدمها، وسهيل بن بيضاء، وهو سهيل بن وهب. فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة". السهيلي: المصدر السابق، ج3 ص121- 123.

وهي سنة التدافع[1]؛ وكل من المقصد الشرعي والسنة الكونية غائبان كلية عن فكر وعقل وقلب المستشرقين العلمانيين المادِّيين من أمثال لويس وأتباعه.

المنهج التشكيكي:

ابتدأ لويس كتابته عن السيرة النبوية وكلُّه اعتماد على المنهج التشكيكي، بدءً من مقدمة الفصل الثاني من كتابه العرب في التاريخ، وصولاً إلى تفصيل جزئيات حياته ﷺ، ضارباً بمنهجه التشكيكي في المقاتل، وهو المتمرِّس في مثل هذه المواقف المشينة، بأن عَمَد إلى أحد أصول الإسلام وهي السنة النبوية، فهدمها كلية بما وضعه من فرضيات عقلية لا أساس لها من الواقع وباستعماله أسلوباً يوحي بذلك إن لم يكن دالاً عليه صراحة؛ وهو في ذلك إما متأثراً بالآراء الإستشراقية دون علم منه–وهذا مما يستبعد– وإما مقلِّداً يَجترُّ ما قاله المتعصبون منهم دون تمحيص أو تأكيداً لما قالوه، وعلى رأس قائمة هؤلاء جولدتسيهر[2] الذي أخذ منه و لم ينقده فيما ذهب إليه من آراء وعلى وجه التحديد ما كان خاصاً بالسنة النبوية.

ومن أسلوبه التشكيكي وعباراته المستعملة قوله:" **وقد يبدو الحديث عند النظرة الأولى مرجعاً موثوقاً به، ولكن ثمة صعوبات، فجمع الحديث وتدوينه لم يحدثا إلا بعد جيلين أو ثلاثة من**

---

(1) سنة التدافع سنة كونية مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ﴾[الحج:39-40]وجاء في تفسير أحدهم قوله:" هذه هي سنة التدافع من أجل الحفاظ على التوازن بين البشر، والقتال مشروع لحماية أماكن العبادة، وإقرار مبدأ حرية العبادة؛ والمعنى: لولا أنه تعالى يدفع بقوم عن قوم، ويكفّ شرور أناس من غيرهم، ولولا تشريع القتال دفاعا عن الوجود والحرمات، لهدّمت مواطن العبادة، سواء كانت معابد للرهبان أو للنصارى أو لليهود أو للمسلمين، التي يذكر فيها اسم اللّه ذكرا كثيرا. ويلاحظ وجود التنقل في بيان مواضع العبادة من الأقل إلى الأكثر، ومن الأضيق إلى الأوسع، فإن المساجد أكثر ارتيادا، وأصح عبادة وأسلم قصدا. وكذلك قدمت الصوامع والبيع في الكلام على المساجد لأنها أقدم وجودا. قال بعض العلماء : هذا ترقّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهي أكثر عمّارا وأكثر عبّادا، وهم ذوو القصد الصحيح. وهبة بن مصطفى الزحيلي: التفسير المنير، دار الفكر المعاصر بيروت، ط1، 1418هـ، ج17 ص230.

(2) ينظر في هذا الشأن مناقشة الدكتور مصطفى السباعي–رحمه الله– لأراء جولدتسيهر حول السنة في العديد من مواضع كتابه: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي بيروت، ط3، 1405هـ.

وفاة النبي[ﷺ]، وفي تلك المدة كانت دوافع وضع الأحاديث وفرص تزويرها تكاد تكون لا حدَّ لها، ويكفي مجرَّد مرور الزمن وعجز الذاكرة البشرية وحدهما لأن يلقيا ظلالاً من الشك على بيئة تنقل مشافهة مدة تزيد على مئة عام"[1].

ولا يتوقَّف لويس عند هذا الحدِّ ولا يرعوي، بل يدفعه حقده الجامح على نبي الإسلام ﷺ بأن يؤكد دوافع التحريف المزعوم عنده أنَّه متعمَّدة، وذلك لأمرين. الأمر الأول وهو أنّه:" **تلت وفاة النبي[ﷺ] فترة تطور شامل عميق في الجماعة الإسلامية، إذ دخل الإسلامَ خلالها عن طريق الشعوب المغلوبة ضروبٌ لا عداد لها من المفاهيم والمشاكل الإجتماعية والسياسية والشرعية والدينية الجديدة**". والأمر الثاني أنَّه:"**كانت كذلك فترة نزاع داخلي عنيف بين الأفراد والأسر والأحزاب والفرق داخل الجماعة الإسلامية نفسها، ولم يكن كل واحد منهم يجد طريقة يسند بها قضيته خيراً من أن يضع أحاديث ينسبها إلى النبي[ﷺ]، وتقول برأيٍّ موافق لهواه**"[2].

فالفرضيات العقلية التي وضعها برنارد لويس وهي فرضيات تشكيكية في أصلها إتخذها كمقدِّمات منطقية صحيحة ليصل بها إلى نتائج منطقية صحيحة على حدِّ زعمه مفادها أنَّه ﷺ كان قد نشر دينه بين الشعوب بالقوة والقهر، مردِّداً مقولة من سبقوه من القائلين:" **إن سيف محمد ﷺ والقرآن هما ألدُّ أعداء الحضارة والحرية والحق حتى الآن**"[3]؛ والقائلين كذلك:" **أنَّه قد أعمل فيهم السيف حتى أخضعوا له رقابهم فاستذلَّهم، وأنه من يوم خروجه من مكة وإنشاء كيان الدولة في المدينة لم يكن يُكِنُّ في نفسه إلا الحقد على الذين أخرجوه– وحاشاه الله ممَّا يقولون افتراءً عليه– ولم تكن أفكاره أفكار سلام ففي وحيه جاء التهديد بالانتقام على أعدائه، انتقام لا يؤجل إلى مستقبل الأيام بل هو عاجل وساحق على الفور، وكان بإمكانه–وهو آمن**

---

(1) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص47.

(2) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص47.

(3) Muir,(Sir) William, The Life Of Mahomet and History Of Islam,4 Vols, London, 1858-1861,(Reprinted, London, 1988), p 506. والنص الإنجليزي هو
"The sword of Mahomet and the Coran are the most stubborn enemies of Civilisation, Liberty and Truth which the world has yet known".

في مأواه الحالي–أن يكون منفذاً للحكم الإلهي وفي الوقت نفسه أن يفرض دينه وينتصر على الذين كانوا قد رفضوه، كان العدوان على قريش كامناً في صدره كبذرة ناشئة تنتظر فرصة ملائمة لتنبت"[1].

والسؤال الملحُّ هنا هل توقَّف لويس عن الكيل للسيرة النبوية، وهل توقَّف عن استعمال منهجه التشكيكي؟ الجواب لن يكون بالإيجاب، بل إن لويس لازال يكيلُ والدليل على ذلك تشكيكه في نسبه ﷺ بقوله:" **ولا يُعرف إلا القليل عن نسب محمد[ﷺ] وأوائل حياته"**[2].

وحتى القليل في منهج لويس يأخذ في التناقص أمام منهج البحث الأوروبي والدراسات الغربية التي وضعت السنة موضع الفحص في قوله:" **بل إنَّ هذا القليل قد أخذ يتناقص شيئاً فشيئاً كلما تقدَّم البحث الأوروبي واثارة شبهة بعد أخرى حول المادة المضمَّنة في الأخبار الإسلامية"**[3].

وكذلك في تاريخ ميلاده ﷺ بقوله:"**ويبدو أنَّ النَّبي قد ولد في مكة بين 570 و580 ميلادية في بيت بني هاشم وهو بيت مشهور من بيوتات قريش وإن لم يكن أحد أفراد الأوليغاركية [أي الطبقة]الحاكمة"**[4].

ثم عن نشأته الأولى بقوله:" **وقد نشأ محمد نفسه يتيماً في أحوال فقيرة، وكان ذلك على ما يُرجَّح في كنف جدِّه"**[5].

---

(1) Ibid, p196. والنص الإنجليزي هو

"Vindictive thoughts died out of Mecca…The thoughts of Mahomet, on the other hand, from the day of his flight, were not thought of peace. In his revelation vengeance was threatened against his enemies a vengeance not postponed to a future life,but immediate and overwhelming even now. Sheltered in his present refuge, he might become the agent for executing the divine sentence, and at the same time truimphantly impose the true religion on those who had rejected it. Hostility to the Coreish lay a seed germinating in his heart; it wanted but a favourable opportunity to spring up"

(2) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص49.

(3) برنارد لويس: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(4) برنارد لويس: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(5) برنارد لويس: المرجع السابق، نفس الصفحة.

وعن مرحلة شبابه ﷺ واشتغاله بالتجارة وسفرياته فيها فيشكك لويس قائلاً:" **أما الأخبار التي تنبئ عن رحلات تجارية إلى البلاد المجاورة فتدعو إلى التحفظ، إذ من الثابت أنَّ ثَمَّة بيِّنة ضئيلة في أقوال محمد تنبئ بمعرفته لتلك البلاد**"[1].

إنَّ كل ما ذهب إليه لويس وقرَّره من أراء، فلا تثريب عليه فيه، فهو لم يَأْلُ جهداً في البحث وتقصِّي الحقائق والأحداث، بل نقله كآلة صماء عن أساتذته من المستشرقين المتعصبين، وقد تأثَّر في ذلك أيَّما تأثر بأستاذه هاملتون جب وبخاصة ما كان حول النسب والولادة والحياة المبكرة له ﷺ[2].

قد يكون شبه إجماع عند الدارسين لحياة محمد ﷺ من المسلمين وغيرهم من غير المتعصبين، أنَّه لم يُحْتَف بسيرة من سير أولاد آدم عليه السلام، ولا عرفت البشرية عن دقائق حياة أيّ بشر كان، سواء كان نبيّاً أو مصلحاً أو زعيماً أو قائداً، مثل ما عرفت عن حياة محمد ﷺ، فلِمَ التشكيك إذن؟

لقد اعترف الأعداء الأُوَل لمحمد ﷺ ولدعوته ورسالته، وهم لا يحملون بين طيَّات عقولهم ولا جوانح أنفسهم لوثات الإستشراق الغربي الحديث، بأنَّه معروف النسب وكَعْبُه عالٍ بين قومه، وذلك لَمَّا سأل هرقل أبا سفيان-قبل إسلامه-:"**كيف نسبه فيكم؟ فأجاب أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، فقال هرقل:فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها**"[3].

وأما مكانة بني هاشم وهي الأسرة التي انحدر منها النبي ﷺ فهي من الأسر القرشية الكبرى عريقة النَّسب، ونسبه ﷺ فيها موصول إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام[4]؛ وقد كان

---

(1) برنارد لويس: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(2) Hamilton Gibb: Muhammadanism, 2nd edition, London, 1953, pp 16-17.

(3) ينظر: صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب بدء الوحي، ج1 ص8-9. أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني: الآحاد والمثاني، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية الرياض، ط1، 1411هـ/1991م، ج1 ص368-369. شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (773-852هـ/1372-1448م): فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، ط2، 1978م، ج5 ص223. أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي (849-911هـ/1445-1505م): الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية بيروت، 1405هـ/1985م، ج2 ص4، وفيه قال:" أخرج الشيخان عن ابن عباس أنّ أبا سفيان أخبره..."، ثم قصَّ الرواية.

(4) السهيلي: الروض الأنف، مصدر سابق، ج1 ص25. ابن كثير: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج1 ص181. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (691-751هـ/1292-1350م): زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة بيروت، ط27، 1415هـ/1994م، ج1 ص71.

التنافس بين بطون قريش على أشدِّه في الجاهلية وكان بنو هاشم من البطون المنافسة، وتجلَّى التنافس في سنوات ما قبل البعثة مع بني أميَّة، وكان أبو سفيان زعيمهم، ولذلك قال للعباس عم النبي ﷺ يوم فتح مكة:" **لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك اليوم عظيماً، فأجابه العباس: لا يا أبا سفيان، إنَّها النبوة**"(1).

وأما ولادته ﷺ فكما هو مجمع عليها عام الفيل فقد:" **ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وبين الفيل وبين الفجار عشرون سنة، وبين الفجار وبين بنيان الكعبة خمس عشرة سنة، وبين بنيان الكعبة وبين مبعث رسول الله ﷺ خمس سنين، فبُعِث ﷺ وهو إبن أربعين سنة**"(2).

وقد عُرِف الكثير عن حياته الأولى مما هو إشارات في القرآن الكريم، أو مما رُوي في كتب السيرة أو السنة الصحيحة وبطرق ثابتة من ولادته ورضاعته وإلى فطامه وكيف كان ينمو على غير عادة الأطفال، وحادثة شق الصدر، وخروجه مع عمه إلى الشام في قافلة التجارة القرشية، وحضوره حرب الفجار وكذا شهوده حلف الفضول، ورعيه الغنم لقريش على قراريط وما كان له فيها من حوادث ومعجزات، وخروجه للتجارة بأموال قريش ثم بأموال السيدة خديجة، ثم زواجه منها، وكيف كانت حياته معها قبل البعثة وفي مكة مع القرشيين، وما عُرِف عنه من خصال حميدة وصفات نبيلة، حتى أَسْموه الصادق الأمين، وكيف كانت عبادته قبل البعثة وأنَّه لم يسجد لصنم ولا عَبَد آلهة قومه، وكيف كان تحنُّثه بغار حراء حتى جاءه الوحي، ثم ما تلا ذلك من أحداث ما بعد البعثة من دعوة وهجرة وقيام دولة وأخيرا وفاته ﷺ، وكل ذلك مدوَّن ومسجَّل بتفاصيله ودقائق فروعه(3).

---

(1) ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، ج2 ص120. ابن خلدون، أبو محمد عبدالرحمن (ت808هـ/1406م): تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبطه خليل شحادة، راجعه: د.سهيل زكار، دار الفكر بيروت، ط2، 1408هـ/1988م، ج2 ص459.

(2) خليفة بن خياط العصفري (ت 240هـ/854م): تاريخ خليفة بن خيَّاط، تحقيق: د.سهيل زكار، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي دمشق، 1967م، ج1 ص10-11.

(3) ينظر كل ذلك وغيره كأمثلة في: القرآن كله وسورة الضحى كنموذج، وصحيح البخاري، صحيح مسلم، فتح الباري للعسقلاني، سير أعلام النبلاء للذهبي ج1-2، الآحاد والمثاني للشيباني، الخصائص الكبرى للسيوطي، الروض الأنف للسهيلي، السيرة النبوية لابن كثير، زاد المعاد لابن الجوزية، والكامل في التاريخ لابن الأثير ج1-2، تاريخ ابن خلدون ج2، تاريخ خليفة بن خياط ج1.

منهج النفي والافتراض واعتماد السقط والشاذ:

لن يكون برنارد لويس في استعماله لهذا النوع من المناهج نغمة نشاز في سمفونية العزف الإستشراقي، فهو يتبع ألحان المستشرقين الذين سبقوه والذين عاصروه نوطة نوطة؛ متأسياً في ذلك بأرباب هذا الفن الوضيع، لينتج لنا بعد ذلك ألحاناً تحبس أنفاس الحقيقة وتشنق الدلائل والبيِّنات بحبال فرضياته، معتمداً في ذلك على كل سقط وشاذ.

ولن يعدو برنارد لويس إلا أن يكون مثل صاحبه واط، بحيث يعمد إلى نفي كل ما لا يخدم هدفه الذي سطَّره ابتداءً ولو كانت حقائق مُثبتَة، ويأتي بفرضيات تخدم ما وضعه كنتائج لبحثه ويجمع له من الأدلة من كل سقطٍ وشاذٍ فيدلِّل بها ويدعو لما ذهب إليه بإصرار حتى يُصَدَّق ويثبت ذلك كحقيقة واقعية ملموسة.

وفي كثير من الأحايين كذلك، يوغل لويس في التشدُّد وفي اتباع منهج الإقصاء واعتماد الضعيف والشاذ، حتى يصبح مسرفاً في نفي الروايات الإسلامية حتى الصحيحة منها إما باللمز فيها أو بنسيانها من أصلها وعدم إيرادها، إذ لا تكاد رواية إسلامية في السيرة النبوية تنجو من تضعيفه لها دون إعطاء مسوّغ واضح لإقصاء هذه الرواية أو تلك.

وفي المقابل يعتمد على روايات ضعيفة وشاذة تحمل في طياتها التشكيك في وقائع السيرة بعمومها؛ ليبين أنه كان موضوعياً في أحكامه وأنه يعمد إلى المنطق ما لم يجد رواية تسنده أو فرية تؤيِّد مذهبه.

بل على العكس من ذلك كله حتى وهو ينقل بعض الروايات والأحكام من بعض المستشرقين فإنه يُجانب روايات المعتدلين من المستشرقين –إن كان فيهم بالأساس معتدلون– ويعمد إلى رواية المتعصبين والمتحاملين منهم، ثم لا يشير إلى مصدرية الرواية بالأساس إلا نادراً، وأمثلة ذلك كثيرة يكفي التدليل عليها بذكر بعضها.

يتحدَّث لويس عن فترة تدوين الحديث الشريف، وعن الأجيال التي عاصرت ذلك وكأنَّه يتحدَّث عن مرحلة ما قبل الإنتخابات في أمريكا أو مرحلة التحضير لها، وما يصاحب تلك الفترة من الدعاية والإدِّعاء لكسب أصوات الناخبين، ثم ما يصاحب كل ذلك من التلفيق والدسائس والتزوير.

ولعلَّ ذلك مباح في شريعة الغرب الحديث، إلا أن نُصوِّر العصور الأولى الإسلامية بتلك الصورة التي رسمها لويس فمن غير المنطق ولا الإمكان؛ فهو يقول:" **وقد يبدو الحديث عند النظرة الأولى مرجعاً موثوقاً به، ولكن ثمة صعوبات، فجمع الحديث وتدوينه لم يحدثا إلا بعد جيلين أو ثلاثة من وفاة النبي[ﷺ]، وفي تلك المدة كانت دوافع وضع الأحاديث وفرص تزويرها تكاد تكون لا حدَّ لها**"[1].

ونُسائل لويس ماهي قواعد البحث التي أخضعتم لها الحديث حتى تبين لكم زيفه؟ وما هي الصعوبات التي تحول دون قبول الحديث؟ ثم لِمَ يقع ذلك في تلك الفترة بالذات؟ ولِمَ كانت دوافع وضع الحديث وفرص تزويره التي لا حدَّ لها على حد تعبيركم في تلك الفترة بالذات وتحديداً؟

فيجيب لويس بوضع تخمينات عقلية وفرضيات لا أساس لها من الصحة ولا تمتُّ لواقع البحث بصِلَة، وينفي كل الروايات الإسلامية بعدم الرجوع إليها، ثم يقرِّر ما أراد معلِّلاً ما استنتجه بتعليلات واهية ويقول:"**ويكفي مجرَّد مرور الزمن وعجز الذاكرة البشرية وحدهما لأن يلقيا ظِلالاً من الشك على بيئة تنقل مشافهة مدة تزيد على مئة عام**"[2].

والذي لا يعلمه لويس أو الذي يريد تجاهله، هو أن تدوين الحديث قد بدأ على عهد الرسول ﷺ وبإذن منه لبعض الصحابة، وليس كما توهَّمه هو ثم أثبته، وهذه المرحلة هي التي عناها المشتغلون بهذا الفن وأطلقوا عليها صفة المرحلة الأولى من تدوين السنَّة، وقد كانت في صحف خاصة بمن يكتب دون أن تتداول بين الناس.

وقد ساعد على نقل السنة من جيل إلى جيل مجموعة عوامل وأسباب أهمها:

1_ صفاء أذهان الصحابة وقوة قرائحهم وذلك أن العرب أمَّة أميَّة لا تقرأ ولا تكتب[3].

2_ قوّة الدافع الديني عندهم وتحمُّسهم لتبليغه للنّاس.

3_ مكانة الحديث النبوي في التشريع الإسلامي فهو الركن الثاني بعد القرآن.

4_ أسلوب الحديث في حدِّ ذاته جذَّاب وممتع مما يستهوي النفس لحفظه.

---

(1) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص47.

(2) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص47.

(3) وذلك مصداقاً لقوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة:2]. فالكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة.

5 ـ حرص النبي ﷺ على التبليغ والأداء، ما جعله يسلك بالصحابة مسلكا تربويا ممثلاً في:

أ- أنه لم يكن يسرد الحديث سرداً متتابعاً، بل يتأنّى في إلقاء الكلام ليستقر في الأذهان.

ب- أنه لم يكن يطيل الأحاديث.

جـ- أنه ﷺ كثيراً ما يعيد الحديث لتعيه الصدور[1].

وإذا ما انتقلنا إلى مثال آخر استعمل فيه لويس منهجه هذا، فلا نَجِد خيراً من وصفه لهجرة النبي ﷺ وصحابته؛ فهو يرى في تلك الرحلة الشاقة والقاتلة والمرعبة إذا ما قيست بالميزان البشري ووفقاً لقانون السببية، بأنها رحلة نزهة وتمتُّع، لأنَّ قريشَ ما قامت ولا بمحاولة واحدة لمنعه ﷺ ولا لمنع أصحابه، وأن محمدَ ﷺ قد تخلَّف عمداً في تلك السفرية إلى المدينة حتى يجد من يستقبله فيها على شاكلة الوفود الرسمية الحديثة التي تصطفُّ جماهيرُها ويتكدَّس مناصرُوها على قارعة الطرقات لتستقبل زعماءها وقادتها فيقول: "**وكانت هجرة محمد من مكة إلى المدينة نقطة تحول... ولم تقم قريش بمحاولة جديَّة لمنعها، ورحل محمد عندما طاب له الرَّحيل، وكان قد أوعز إلى أتباعه دون أن يأمرهم أن يرحلوا، حتى كان هو آخر من بقي في مكة؛ وبعض ما هدف إليه من وراء تأخيره هذا هو وصوله إلى المدينة على رأس جماعة معيَّنة ذات وضع معروف لا وحيداً وطريداً مضطهداً**"[2].

إنَّ مراجعةً لمقولات لويس هذه بوضعها على ميزان الحق والبحث العلمي الصحيح ليبيِّن زيفَها ويفضحُها، وذلك من عدة جوانب باستقراء الحقائق التالية:

1ـ القرآن الكريم: جاء وصف الهجرة في حق النبي ﷺ في العديد من المواضع من القرآن الكريم أمثالها في ذلك[3]؛ فليراجع تفسيرها وقول العلماء في ذلك.

---

(1) للتوسع أكثر في هذا الموضوع، ينظر: نور الدين عتر: منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر دمشق، ط3، 1418هـ/1997م، ص45 وما بعدها.

(2) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص53.

(3)﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[الأنفال:30]؛ ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة:40]؛ ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا

كما جاء وصف هجرة الصحابة في القرآن الكريم فليراجع تفسيرها كذلك في مضانه مع ما قاله العلماء [1].

2_ السنة النبوية: وأما حديث رسول الله ﷺ فقد حوى ووعى الكثير من مواقف الهجرة وهي موضحة في بعض الأمثلة من المصادر كعيِّنات[2].

3_ السيرة النبوية: أما كُتُب السيرة النبوية فقد حوت على الكثير من وقائع الهجرة وحوادثها، **وما كان قبلها وفي أثنائها من قتل للأنفس، وسلب للأموال، وتعذيب للأجساد، وحبس، وإكراه على الارتداد عن الدين، والتبرأ من النسب، ومنع للأقوات والحصار المادي في شعاب مكة والمعنوي داخل مكة وأثناء المواسم مع الدعاية المغرضة والعريضة، والتعدِّي على أملاك المهاجرين وأموالهم، وآخرها كانت محاولة المكر بالنبي ﷺ وقتله في بيته، حتى جاء أمر الله، مع ما صاحب لحظات الهجرة وأوقاتها من أحداث كعملية الاستنفار القصوى التي أعلنتها قريش،**

لَّا يَلْبَثُونَ خِلَفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:76]؛ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾[محمد:13]؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[الممتحنة:1].

(1) ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:273]؛ وسبب فقرهم مذكور في قوله تعالى﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[الحشر:8]؛ فالإخراج كان بالقوة مع سلبهم الديار والأموال؛ وقوله تعالى ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[التوبة:13]؛ وقد كانت خشية المؤمنين من القوم من شدَّة ما عانوا وما لقوا منهم بالإخراج والإكراه على الخروج.

(2) ينظر: ابن حجر: فتح الباري، ج6 ص 696 وما بعدها، ج7 ص9 ومابعدها، ص297 وما بعدها. الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر(ت807هـ/1404م): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر، دار الكتب العلمية بيروت، 1408هـ/1988م، ج6 ص113. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي(384-458هـ/994-1065م): السنن الكبرى، مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الهند، ط1، 1344هـ، ج2 ص287-290.

والمكافأة العظيمة التي أعلنت عليها لمن يأتي بمحمد ﷺ حياً أو ميِّتاً، وقصة سراقة بن مالك[1] في تتبع الركب الطيب، حتى الوصول إلى المدينة، ومثال ذلك لا الحصر ما هو مثبت بالهامش[2].

منهج البناء والهدم:

إن السيرة النبوية بجميع ما فيها من قَصَص وحقائق، لا تعدو أن تكون في ميزان المدرسة الإستشراقية الغربية عموماً إلا كمجموعة كثبان رملية موضوعة على ساحل محيط الإستشراق المضطرب، فلا يكاد يُسْتَأنس بها حتى تصير في حُكم العدم، وذلك من خلال الموجات الإنتقادية الإستشراقية المتتالية، والتي لا تُبقي ولا تذر.

فكثيراً ما يستعمل المستشرقون منهج البناء والهدم في تحليلهم لحوادث السيرة بزعمهم أنّهم يطبقون المناهج الغربية الحديثة، ولا فرق في مناهجهم هذه ما بين مقدَّس ومدنَّس، كما لا فرق عندهم ما بين المادي المحسوس والغائب عن الإدراك والحس، فالكل يُفسَّر والكل يخضع لمنطق العقل والتجربة والتحليل والنقد، حتى لو كان العقل في ميدانه محدوداً عن الإدراك، والوسائل عاجزة عن التقصِّي والبلوغ.

يتحدَّث لويس عن حياة النبي محمد ﷺ وعن مصادر سيرته وأنَّه يمكن على حدِّ قوله أن نجمع ترجمة له من تلك المصادر، كما يمكن أن تكون تلك المصادر كافية والتي لا شكَّ فيها مثل القرآن الكريم والذي وصفه لويس بقوله:" **أما المصدر الذي لا شُبهة فيه عن حياة النبي فهو القرآن نفسه**"، وسببه أن القرآن هو:" **مجموعة الأقوال التي بلَّغها الله**"[3].

لم تكد حروف هذه الجُمَل تجِفُّ من حبرها حتى زالت هذه الصورة الجمالية التي بناها وهذه الحقيقة التي أثبتها من خِلْد القارئ لكتابه، فقد هدمها لويس وأتى عليها من الأساس مباشرة حيث

---

(1) سراقة بن مالك(000-24هـ/000-645م)سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني، أبو سفيان صحابي له شعر، كان ينزل قُديدا. له في كتب الحديث 19 حديثا. وكان في الجاهلية قائفا أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبي بكر. وأسلم بعد غزوة الطائف سنة 8 هـ. الزركلي: الأعلام، ج3 ص80.

(2) ينظر خبر الهجرة إلى المدينة وما صاحبها من أحداث ووقائع كعيِّنات في: ابن هشام 2: 111، وابن سعد 1: 152، وابن سيد الناس 1: 173، وتاريخ الذهبي 1: 190، وزاد المعاد 2: 136، وابن كثير 2: 141، والإمتاع: 37، وتاريخ الخميس: 322. والروض الأُنُف 4: 111. والاكتفاء 1: 252. والدرر: 80.

(3) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص48.

أنكرها وجعل القرآن الكريم الذي هو كلام الله أحد مصادر الأخبار الإسلامية التي تخضع لمناهج الغرب وهو مشكوك في صحته، وذلك حتى تزول قدسية محمد ﷺ النبي الموحى إليه، وإنَّما تبقى صورة محمد الدَّعي، الذي كان يرى فيه أبو لهب في زمانه غلام بني عبد المطلب وليس برسول، بقوله:"**ولا يُعرف إلا القليل عن نسب محمد وأوائل حياته، بل إن هذا القليل قد أخذ يتناقص شيئا فشيئاً كلما تقدَّم البحث الأوروبي وإثارة شبهة بعد أخرى حول المادة المضمَنة في الأخبار الإسلامية**"[1].

ولما زالت تلك الصورة القدسية من ذهن لويس وذهن كل من قرأ كتاب لويس، فلا مانع بعد ذلك أن يكيل له لويس ما يشاء من الأوصاف والنُّعُوت، فهجرة النبي محمد ﷺ إلى المدينة مثلاً، لم تكن هجرة نبي ورسول بقدر ما كانت خروجَ رجُلٍ دجَّال من بلدته، بعد أن رفضَه أهلُها، وكانت حاجة أهل يثرب لمثله ولمثل روحه الخارقة، وعبقريته الفذَة التي يستطيع من خلالها تنفيذ الأحكام وإيجاد الحلول لكل مشكلاتهم، فلذلك دعَوه، رغم أنَّهم لم يكونوا متفقين على ذلك بل كان منهم المخالفون-وبالطبع فإن المخالفين هم بنو جلدة لويس من اليهود- فيقول:" **وكان أهل المدينة قد دعوه بصفته رجلاً تَحِلُ فيه روح ذات قوة خارقة، ويستطيع أن ينفعهم كحَكم، وان يفصل في خلافاتهم الداخلية أكثر من دعوتهم له بصفته رسول الله؛ ولم يكن الإسلام أول الأمر ذا نفع لهم كدين جديد، بقدر ما كان نافعاً لهم كمنهج يمكن أن يهيِّئ لهم الأمن والنظام... وقد كان هناك خلاف في الرأي بين أهل المدينة منذ البداية على مسألة دعوة هذا الحكم الغريب(أي النبي) إلى المدينة**"[2].

وبعد هذا الإسفاف والخلط، هل توقف لويس عند هذا الحد؟؟ والجواب لا ولن يتوقف، لأنَّ ما جاء بعد هذه الأوصاف، كان أكثر إسفافاً وخلطاً، فهو يتقوَّل مدَّعياً أنّه ﷺ كان في مكة مواطناً مغموراً، لا أثر له في حياة المكِّيين، وفي المدينة أصبح رئيس جماعة، ممَّا أثر على سلوكياته وشخصيته التي استهوت العمل السياسي بعدما كان شغله الشاغل الجانب الديني فقط فيقول:"**في مكة كان مواطناً مغموراً، أما في المدينة فقد أصبح رئيس جماعة... وقد أثَّر التغيير بالضرورة في شخصيته وشخصية الإسلام وتعاليمه وأعماله... ولما كان يدرك أن العقائد الدينية التي كانت**

---

(1) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص49.

(2) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص53.

هدفه الحقيقي كانت في حاجة إلى مناصرة هيئة سياسية، أخذ يعمل سياسياً، واستطاع بلباقة سياسية أن يحوِّل قوته السياسية إلى سلطة دينية"[1].

والردُّ العلمي في مثل هذه المواقف يصبح أكثر من واجب، فيقال لكل من يحمل لوثة لويس ومن كان قبله أو جاء بعده قولاً واحداً لا أكثَرَ، لو كان محمد ﷺ كما تدَّعون، فلِمَ لقَّبه أهل مكة بالصادق الأمين قبل أن يوحى إليه؟؟

ثم جواب قومه وعشيرته لَمَّا جمعهم في صعيد واحد ونادى فيهم:"**يا بني فهر، يا بني عدي"، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال وهو على جبل الصفا:"أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟" قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: "فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟** فنزلت﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾[2]

وختاماً لهذا المبحث نقول **بأن شبهات برنارد لويس حول السيرة النبوية كثيرة وأن شكوكه كانت أكثر، وأنَّه لم يكن الباحث الملتزم المتزن في كل مواقفه الفكرية والأحكام العلمية التي اتخذها، ولا التزم المنهج العلمي الغربي الذي يدَّعيه أو تدَّعيه المدارس الإستشراقية والغربية عموماً، ويكفي التدليل على ذلك بفعله المقصود والمتعمَّد في إهمال المصادر الإسلامية الأساسية للسيرة النبوية من القرآن الكريم، وكتب الحديث الصحيحة، والشعر العربي المعاصر للحركة التاريخية للإسلام، وكتب السيرة والمغازي، وكتب الطبقات، وكتب التواريخ العامة والحوليات، وكتب الدلائل والشمائل وغيرها من المصادر.**

ولعلَّ لويس في اتخاذه لهذا الموقف من السيرة قد يكون موقفاً مبدئياً وقراراً لا رجعة فيه، أو تعصُّباً منه وحقداً وقد مرَّ بنا في الحديث عن مقوِّماته ومرتكزاته ومنابعه الفكرية ما يؤيِّد ذلك.

---

(1) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص53-55.

(2) رواه البخاري، عن ابن عباس ﷺ في كتاب التفسير لسورة الشعراء ورقمه((4770)) والآيتان(1-2) الْمسد. ورواه الإمام مسلم، كتاب الإيمان ورقمه((348)) بلفظ:" ناداهم بطنًا بطنًا، ويقول لكل بطن:"أنقذوا أنفسكم من النار...." ثم قال:"يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحما سأبُلها ببلالها".

الفصل الثاني:

المستشرقون الإنجليز المعتدلون في كتابتهم للسيرة النبوية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني: المستشرقون الإنجليز المعتدلون في كتابتهم للسيرة النبوية.

المبحث الأول: المستشرق بودلي.

المبحث الثاني: المستشرق هيدلي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني: المستشرقون الإنجليز المعتدلون في كتابتهم للسيرة النبوية.

المبحث الأول: المستشرق بودلي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة:

تَمَّ في الفصل السابق تفصيل الحديث عن منهج المدرسة الإستشراقية الإنجليزية الحديثة والمعاصرة في كتابة السيرة النبوية الشريفة، والتي تبيَّن لنا أنَّها كانت غير منصفة للكثير من حوادثها ووقائعها إن لم تكن نافية لها بالجملة، وذلك بعد التقصِّي والبحث، وقد تَمَّ اختيار كلاً من مونتغمري واط وبرنارد لويس كعيِّنتين لتلك الدراسة، للأسباب التي قد جئنا على ذكرها أثناء الحديث عنهما.

ونعتقد أنَّنا بيَّنا المطاعن والإدِّعاءات التي ذهب إليها كلا المستشرقيْن من خلال ما كَتَبَاه بما قدمناها كأمثلة لا الحصر، مع تقديم أقوالهما والردِّ عليها الردَّ العلمي، ملتزمين على ما نعتقد المنهجية العلمية في ذلك من غير أن نتقوَّل عليهما أو أن نبخسهما حقَّهما.

ولم يُطلب منهما أو من كل من يدرس السيرة النبوية من غير المسلمين أن يؤمن بمحمد ﷺ وما جاء به، ولكن على أقلِّ تقدير أن يلتزم الحياد والمنهج العلمي الذي تتطلَّبه الدراسات العلمية والأكاديمية، هذا المنهج العلمي الذي يدَّعونه هم؛ ويا ليتهما التزماه.

ولو درس هؤلاء السيرة بمنظار الحياد والباحث عن الحقيقة لأجل الحقيقة لما وسعهم إلا أن تنحني أعناق أقلامهم على أقل تقدير بالاعتراف بمقام هذا الرجل العظيم الذي لا يعدو إلا أن يكون بشراً سَوِياً، ثم تذعن القلوب والعقول لتعترف به نبيّاً ورسولاً ﷺ، وقد مرَّ بنا قول ابن حزم رحمه الله:" إن سيرة محمد ﷺ لِمَن تدبَّرها تقتضي تصديقه ضرورةً، وتشهد له بأنه رسول الله ﷺ حقاً، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى"[1].

وفي هذا الفصل نحاول دراسة النظرة المغايرة لتلك التي ذُكرت في الفصل السابق من نفس مدرسة المستشرقين الإنجليز في حدِّ ذاتهم، وكما سبقت الإشارة أن قلنا، أنَّه لا يُشترط في دارس السيرة من غير المسلمين أن يؤمن بما يؤمن به المسلمون أنفسهم تجاه النبي محمد ﷺ وأن يفسِّر أحداث سيرته بنفس كيفية تفسير المسلمين أنفسهم، ولكن على أقلِّ تقدير أن يدرس ذلك بعقلٍ نيِّرٍ وقلب واعٍ ومنهج معتدل، ليس فيه لجج ولا فيه تحامل وحقد، فإن التزم المستشرق كل ذلك كانت دراسته أقرب إلى الواقع وأبعد ما تكون عن الخيال والزيف.

---

(1) أبو محمد علي بن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، مصدر سابق، ج2 ص90.

وقد وقع الاختيار في ذلك على مستشرِقَيْن عاشا في القرن العشرين الميلادي، وهو القرن الذي عاش فيه كلاً من مونتغمري واط وبرنارد لويس كذلك، وقد كانا مُتعاصِرَيْن، غير أنَّ أحدهما كتب السيرة النبوية كتابة الأديب الهاوي والمؤرخ المبتدئ عن تجربة ساقته إلى بلاد العرب والمسلمين عموماً، كان فيها موظفاً للإمبراطورية الإنجليزية وتقلَّد خلالها من المناصب الشيء الكثير، فاستهوته طبائع العرب والمسلمين وامتلأ فؤاده دهشة وحيرة من مواقف المسلمين تجاه نبيِّهم ﷺ، والتعظيم الذي لاحظه لأنبياء الله جميعاً عليهم السلام من قِبَل أتباع محمد ﷺ في تلك البلاد.

فكانت كتاباته مجموعة من الأفكار، فيها ما كان حقاً وصدقاً، فتقاطعت تلك الأفكار في كثير من الأحيان مع أفكار المسلمين في حدِّ ذاتهم وتفسيراته كذلك للوقائع، وفيها ما جانب الصواب وكان فيها الكاتب المتجنِّي على حقائق السيرة ووقائعها، ولعلَّه كان فيها متأثِّراً بما تلقَّاه من لوثات الفكر الإستشراقي وبنشأته الغربية ومحيطه الذي لا يُذكر فيه نبيّنا ﷺ إلاّ ويوصف فيه بكل منقصة، وتلك الأفكار والتفسيرات هي مناط هذا البحث؛ هذا المستشرق هو الكولونيل بودلي.

وأما المستشرق الثاني الذي نشأ في إنجلترا نشأة تشابه حياة بودلي من جهة وتخالفها من جهة ثانية؛ فهو المستشرق هدلي، فأما جهة التوافق فهي أنَّه كان من الطبقة الحاكمة كذلك وكان مقامه كبيراً حيث كان أحد لوردات إنجلترا، وأما جهة الاختلاف فهي أنه استعمل جميع وسائله العلمية الذاتية والخارجية في تقصِّي الحقيقة حتى أدركها، فأيقنها ثم اعتقدها ثم صرَّح بها واتَّخذها منهجاً جديداً لحياته فدخل الإسلام وأصبح أحد المنافحين عنه في ديار الغرب، وكتب عن الإسلام وحياة نبي الإسلام ﷺ بما يليق بهما من مقام.

المطلب الأول: التعريف ببودلي وكتابه.

قليلة هي المعلومات المنشورة حول حياة هذا المستشرق، فرغم ورود ذكره في الكثير من مصادر ومراجع الإستشراق، وفي كُتب المشتغلين بهذا التوجّه المعرفي سواء في الغرب أو عند العرب والمسلمين، والذين كتبوا إمَّا مدحاً أو قدحاً أو كان بين ذلك، فالكل يذكر نَتَرات وشَذَرات ونُتَف، لا تشفي غليل القارئ ولا تجيب عن تساؤلات الباحث، ليكتب عنه بشيء من التفصيل والموضوعية، لأنَّه كما هو معلوم أنَّ معرفة تاريخ الميلاد والمحيط الذي وُلد فيه المستشرق والذي نشأ فيه ثم بداية حياته الأولى ثم تحصيله العلمي والمؤسسات التربوية والتعليمية التي تلقَّى فيها التعليم والتوجيه، كل ذلك يعطي للباحث الخيوط الأولى التي يتلمَّس فيها ومن خلالها المنابع الفكرية للمستشرق وأثر تلك المنابع والروافد في توجيه الفكر والإنتاج العلمي فيما بعد لذلك المستشرق.

ومعظم من ترجم له يعتمد في تعريفه والإشارة إليه على جملة أو جملتين، ذاكراً له إسمه مُختصراً، فإن كان بالعربية قيل هو: بودلي، ر.ف، وإن كان بلغة أجنبية كُتِب Bodley, R.V.E مع الإشارة إلى آثاره مكتفين بالإشارة إلى كتابه الذي عنوانه: الرسول؛ حياة محمد، وعدد صفحاته، ثم القول بأنَّه آمن في مقدِّمته بسلامة العقيدة الإسلامية وضل من بعدُ في تفسير الزكاة والجنّة والنّار والقضاء والقدر[1].

وكان من الصعوبة بمكان أن نعثر على ترجمة وافية شافية وكاملة لحياة وآثار هذا المستشرق الإنجليزي، ولعلَّ ذلك يرجع إلى حساسية الوظائف التي تقلَّدها والمهام التي أدَّاها في خدمة الإمبراطورية الإنجليزية، أو قد تكون كُتبه التي ألَّفها وكان فيها متأثراً بالبيئة العربية والإسلامية والتي ضمَّنها بعض جوانب الحقيقة عن تلك البلاد ومعتقدات أهلها ما جلب عليه سخط المدرسة الإستشراقية الغربية عموماً والمدرسة الإنجليزية على وجه الخصوص، فوضعته في طي النسيان وعلى هامش الفاعلية في المجتمع الغربي عموماً، واستغرق ذلك الوقت الطويل والجهد الكبير، وكمْ للسفر من فوائد، فقد تَمَّ العثور على شيء من ترجمته ولو كان قليلاً ولكنَّه يفي بالغرض للتتمَّ الدراسة على أحسن حال وإن لم تكن ولن تكون على أكمل وجه.

---

(1) العقيقي: المستشرقون، مرجع سابق، ج2 ص95. يحي مراد: معجم المستشرقين، مرجع سابق، ص284.

هو المستشرق البريطاني R.V.E. BODLEY. التحق بالجيش البريطاني عام 1908م، وتدرج في رتبه إلى أن وصل رتبة كولونيل؛ عمل في وحدة الجيش البريطاني بالعراق، ثم في شرقي الأردن عام 1922م، ثم مستشاراً لسلطنة مسقط عام 1924م؛ كان أول من عبر الربع الخالي، وكشف عن أسراره المجهولة بين عامي 1930-1931م.

وإذا كان قد التحق بالخدمة العسكرية وبالجيش البريطاني عام 1908م، فعلى أقلِّ ترجيح يكون ميلاده في بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أو بعدها بقليل، ثم إنَّ وظائفه التي تقلَّدها والمهام التي أدَّاها في خدمة إنجلترا آنذاك، لَتُوحي بظِلالٍ غير بريئة.

فقد حدَّثنا التاريخ عن مجموعة من المستشرقين، والذين دخلوا البلاد الإسلامية والعربية تحت أغطية متعدِّدة وألوان مختلفة وأسماء مستعارة لِكَشف عورات تلك البلاد، والتجسس لصالح بلدانهم الإستعمارية وذلك منذ زمن بعيد، ولن يكون بودلي بِدْعاً في ذلك؛ وقد ادَّعى بعضهم الإسلام، ومنهم من حضر حتى مواسم الحج، وحتى منهم من دُفن في البلاد الإسلامية وفي مقابر المسلمين، وكُتب على قبره هذا مقام الراجي رحمة ربه الحاج أو الشيخ فلان بن فلان ثم تضاف إلى إسمه نسبته الأصلية مثل الباريسي إن كان من مدينة باريس الفرنسية، أو اللوزاني إن كان من مدينة لوزان السويسرية وهكذا، ومثال ذلك لا الحصر جون اسبنسر درمنجهام[1]، وجون لويس بوركهارت[2]، وريتشارد بيرتون[3]،

---

(1) درمنجهام، جون اسبنسر(؟؟؟) Trimingham,J.S، مستشرق بريطاني أرسلته جمعيتان تنصيريتان بريطانيتان إلى إفريقية لدراسة مجتمعاتها الإسلامية وغيرها في إفريقية. وكان نتيجة عيشه وسط الشعوب الإفريقية كتابة مؤلفاته الكثيرة التي شملت معظم أنحاء إفريقية، أشهرها: تاريخ الإسلام في غربي إفريقية، الإسلام في شمالي إفريقية، الإسلام في السودان، الإسلام في إثيوبيا، الإسلام في شرقي إفريقية، وأثر الإسلام في إفريقية، له كتاب حول الرسول ﷺ طبع تحت عنوان محمد قام بترجمته محمد حسنين هيكل. العقيقي: المستشرقون، ج2 ص101، وحسين الهراوي: محمد قبل البعث، مجلة المنار، المجلد 35، عدد محرم 1354هـ، ص261-262.

(2) بوركهارت جون لويس(1784-1817م) J.L.Bourckhart مستشرق سويسري، ولد بمدينة لوزان، تخصّص في الكيمياء، زار إنجلترا وتعلَّم بجامعاتها الطب وعلم الفلك واللغة العربية، تجنّس بالجنسية البريطانية، زار المشرق العربي وقد تسمى بإبراهيم بن عبد الله وأدى مناسك الحج لعام 1814م، عاد إلى القاهرة وتوفي بها، أوقف جميع مخطوطاته على جامعة كمبردج، له مجموعة من الآثار أهمها رحلة الشام ورحلة الجزيرة. العقيقي: المستشرقون، ج2 ص52.

(3) ريتشارد بيرتون (1236-1308هـ/1821-1890م) Richard,Francis,Berton، مستشرق إنجليزي رحالة، ولد في هرتفورد شاير وتعلم مبادئ اللاهوت في أكسفورد. وذهب مع الجيش البريطاني إلى الهند، فخدم الشركة الانكليزية. واتسعت معرفته بالعربية والفارسية. ودخل الحجاز سنة 1853م ووضع كتابا سماه الحج إلى مكة والمدينة. وسافر

وسنوك هُرجرونيه[1] وغيرهم كثير.

والثابت تاريخياً أن إنجلترا قد وظفت الكثير من المستشرقين كطلائع لحملاتها الإستعمارية والتنصيرية بمساعدة ومباركة الكنيسة، ولعلَّ بودلي كان واحدًا مِمَّن قاموا بمهام استخباراتية استعمارية تنصيرية لمصلحة التاج البريطاني، وهي ظاهرة معروفة في الدوائر الاستشراقية والاستعمارية والتنصيرية في ذلك الزمان ولا زالت إلى يوم النَّاس هذا.

وعندما ترك بودلي الخدمة الحكومية ذهب ليعيش بين عرب الصحراء، لأنه -كما يقول في مقدمة كتابه- كان ضجراً من التعقيدات التافهة التي جاءت عقب الحرب العالمية الأولى، وبقي مع الأعراب سبع سنين، وسمع عن محمد ﷺ الرجل الذي وحَّد حفنة من القبائل المتنافرة المتنافسة، وجعلهم دعامة إمبراطورية من أعظم إمبراطوريات العالم قوة، وسمع عنه أنه الرجل ذو القلب الحار الذي حَوَّل الوثنيين وعبدة الأصنام إلى مؤمنين صادقين، يؤمنون بإله واحد وباليقين وبالموت والبعث في الحياة الأخرى. هذا ما خطَّه قلمه في مقدمة كتابه: "الرسول".

وعندما عاد بودلي من الصحراء، انقطع للدراسة والتأليف والكتابة بصفة خاصة عن المنطقة التي عاش فيها وعايش أحوالها وأحوال أهلها؛ فكان له من المؤلفات في ذلك: "الرسول، حياة محمد" و"عاصفة في الصحراء"، ((Wind in the Sahara))، و"دراما محمد الصحراوية"، ولم أعثر له ولا اطَّلعت على غير كتبه هذه المذكورة، بَيد أنّي قد وجدت لبعضهم إشارات أنّ بودلي ألَّف

إلى الصومال وهرر، ووضع كتاب خطوات في إفريقية الشرقية وأقام سنتين في تركيا. وأرسلته الحكومة البريطانية في بعثة لكشف منابع النيل، فكتب عن مناطق البحيرات في إفريقية الاستوائية وبحيرة طانجانيكا سنة 1858م، وعين قنصلا في فرناندوبو ثم في سانتوس بالبرازيل ونقل إلى دمشق سنة 1869 ومنها إلى تريستة سنة 1871 ومات فيها. ومن كتبه التجول في إفريقية الغربية وسورية غير المكتشفة وكتاب عن زنجبار وترجمة كتاب ألف ليلة وليلة وكتبه كلها بالانجليزية، نشرت وهو حي. الزركلي: الأعلام، ج3، ص37-38.

(1) سنوك هرجرونيه (1857-1936م) Christian,Snouck,Hurgronje هولندي درس بجامعة ليدن وتخصّص في اللاهوت، وفي نوفمبر 1879م حصل على الدكتوراه برسالة عنوانها: موسم الحج في مكة، وانتهى في بحثه بقوله أن الحج هو بقية من بقايا الوثنية العربية، دخل مكة متنكِّراً باسم عبد الغفار، ومكث بها 6 أشهر غير أنّه فاته موسم الحج لتلك السنة، ومن عام 1889م عمل بجامعة ليدن ثم تفرّغ للعمل بإدارة الإستعمار الهولندية بأندونيسيا، ومن عام 1906م إنقطع عن العمل العلمي للعمل السياسي كمستشار للحكومة الهولندية في الشؤون العربية والداخلية. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص245-247.

كتباً أكثر من الذي تمَّت الإشارة إليها، وقد بلغ عند بعضهم 14 مؤلَّفاً ولم يذكروها ولكنَّهم أشاروا فقط لكتابه "الرسول، حياة محمد" و"عاصفة في الصحراء" ونسبوه على أنَّه أمريكي[1].

هذا ورغم النُتف التي استقيناها من بعض المراجع التي طالتها يد البحث، تبقى جوانب عديدة من حياة هذا المستشرق تلفُّها الظِلال وتحتاج إلى بحث أوسع وأعمق[2].

وقد ترجم كتابه "الرسول حياة محمد" إلى العربية: محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار[3].

والسبب في اختيار هذا الكتاب أنَّه لاقى من الاستحسان والترحيب العلميْن الشيء الكثير، وخاصة من قِبل النخبة المثقَّفة العربية وتحديداً في القرن الماضي[ق20م]، كما أنَّه أصبح أحد المراجع المعتمدة في الدراسات الحديثة والخاصة بالكتابة في السيرة النبوية في المدرسة الإستشراقية المعتدلة أو غير المتحاملة؛ وسواء في ذلك نسخته الأصلية بالإنجليزية أو نسخته المترجمة إلى العربية.

زد على ذلك أن الترجمة المشتركة التي قام بها كل من محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار-وهما في ذلك مشكوران- لم يهتمَّا فيها بالرد أو إبداء الملاحظات في هامش الكتاب أو في مُؤَلَّف مستقل حول ما جاء من شبهات وتحريفات لأنه في بعض الأحيان تصل أقواله وأفكاره التي دوَّنها ويؤمن بها إلى حدِّ الادِّعاءات، لذا آثرت أن يكون كتابه، برغم ما فيه من جوانب

---

(1) عائض القرني: لا تحزن، مكتبة العبيكان الرياض، ط22، 1427هـ/2007م، ص108. باب ومن يؤمن بالله يهد قلبه.

(2) ينظر: العقيقي: المستشرقون، ج2 ص95. د.محمد سعيد السرحاني: موقف المستشرقين من العبادات في الإسلام من خلال دائرة المعارف الإسلامية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإمام، كلية الدعوة بالمدينة، قسم الاستشراق، 1422هـ/1423هـ، ص 621-624، نذير حمدان: الرسول في كتابات المستشرقين المنصفة، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة، ط2، ص 175، 190، بودلي: الرسول حياة محمد، ترجمة محمد محمد فرج وعبدالحميد جودة السحار، لجنة النشر للجامعيين مكتبة مصر القاهرة، ط1، 1945م،[وأعيد طبعه سنة1946م ثم عام 1989م من نفس الدار] ص 107، وص 356.

(3) قام المترجمان بطبع الكتاب أول مرّة عام 1945م، في 439 صفحة مع مقدمتين، وطبعته الإنجليزية في 355 صفحة. ويتكون من أربعة وعشرين فصلاً، وخاتمة. ذكر في الخاتمة شيئاً يسيراً عن سير الخلفاء الراشدين وزوجات النبي ﷺ وسراريه مرتبات حسب زواجهن منه ﷺ، وشرح بعض الكلمات الواردة في كتابه، مثل كلمة عبد وأبو وال وأمير وحج.. إلخ. وذكر في نهاية كتابه المراجع التي اعتمد عليها، وعددها ثمان وعشرون مرجعاً، ليس فيها من المراجع العربية سوى ثلاث ترجمات لمعاني القرآن الكريم، بأيدي مستشرقين، وعمل فهرساً للأعلام الوارد ذكرها في كتابه.

مستحسنة وحقائق ثابتة لم ينكرها كغيره من المستشرقين الحاقدين، محلَّ الدراسة ومجال هذا البحث؛ وسيُقصَر الجُهد والردُّ فقط على بيان تلك المزاعم والشبهات العِظام التي لا مناصَ منها إلا بالردِّ عليها وتفنيدها. وأهم تلك المزاعم والشبهات العظام هي ما سيأتي ذكره.

المطلب الثاني: شبهات بودلي.

الشبهة الأولى: الوحي والقرآن من تأليف محمد ﷺ.

لن تحيد العقلية الغربية عن المسار الذي وضع قواعده القساوسة والرهبان الأُول قيد شَعْرَة، ولن تنمحي تلك الصورة النمطية التي رسمتها الأفكار الإستشراقية الكنسية عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ ما دام الجميع ينهل من معين واحد ويرى بمنظار واحد، لذا فلا عجب أن نجد تلك الأفكار وتلك الصورة مجسَّدة في كتاباتهم كما هي منذ اليوم الأول من ميلاد حركة الإستشراق، أو أن نجد آثارها على أقل تقدير، ما دامت اللوثة الفكرية موجودة والتعصب الأعمى هو الحَكَم في تقدير وتقويم حركة الإسلام وأحداثه.

وبودلي واحد من الأبناء البررة للحركة الإستشراقية الإستعمارية الغربية الحديثة، فلا غرو إن وجدنا له الكثير ممّا قاله حول هذه الشبهة أو غيرها من الشبهات، سواء كان في ذلك مردِّدا لِما قيل أو مؤكداً أو مبدِعاً ومنتجاً.

وحول هذه الشبهة، فقد جاء ذكرها في العديد من مواضع كتابه، ففي معرض حديثه عن العلاقة الحميمية التي كانت بين رسول الله ﷺ وزوجه خديجة وبالتحديد في فترة الوحي الأولى وما كان فيها من شدَّة الوحي عليه ﷺ، يتعثَّر فكرُه فيكتب قلمُه قولَه:" **وإنَّ هذا العطف قد دفع محمداً فيما بعد أن يكتب هذه الآيات كجزءٍ من القرآن؟**[سورة الضحى]" [1].

وملاحظة عامة قد تغنينا في الردِّ عن مزاعم بودلي حول نسبته لسور القرآن وآياته للنبي ﷺ أن يعود الباحث- أي باحث عن الحقيقة لِذَاتها- إلى تفاسير القرآن والكتب التي اهتمت بعلوم القرآن وسيجد أسباب نزول السور والآيات ومعانيها ودلالاتها والحِكَم المتضمَّنة فيها، رغم اختلاف الروايات في ذلك من أقوال للصحابة وعلماء الإسلام[2].

---

(1) بودلي: الرسول حياة محمد، مرجع سابق، ص 57.

(2) مثال ذلك لا الحصر: أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف(654-745هـ/1256-1344م): تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1422هـ/2001م. القرطبي، أبو عبد الله محمد

وأثناء حديثه عن الحوار الذي دار بينه ﷺ وبين عمه أبي لهب، يؤكد بودلي أنَّه ﷺ يعرف الكتابة والقراءة وأنَّه في تلك اللَّحظات قد اشتاط غضباً فكتب قرآناً وصف فيه عمَّه وزوج عمه والنار وصفاً دقيقاً مرعباً في قوله:"**ولم يكن في استطاعته أكثر مِمَّا احتمل، ففارقه طبعه الكريم، فلعن عمه وزوجته في صوت عال واضح النبرات، وأضاف إلى اللعن أن أم جميل ستحمل حطب الجحيم، وقد وصف الجحيم وصفاً مروعاً، وقد عنى كل ما قاله، وجاءت هذه اللعنة فيما بعد في سورة (111) من القرآن**[سورة المسد]" [1]. ثم يعقِّب بعد ذلك بقوله:" **ولما كان العرب بطبعهم قوماً يتطيَّرون، ولَمَّا كانت لعنة محمد في غاية من الحبكة والبلاغة، فقد انسحب أبو لهب وأم جميل من مجلسه، فانسحب القرشيون في أثرهم**"[2].

يفنِّد بودلي ما ذهب إليه في فكرته السابقة، بفكرة قد ساقها قبْلُ غير أنَّه في ذات الوقت يؤكد شبهة أخرى ويأتي بادِّعاء كان له السبق فيه حيث يقول:" **كان محمد رجلاً أميناً، فشاء أن يثق بأن الرسالة التي سيعلنها لم تصدر عن نفسه، فكان من الواجب أن يكون كل ما يقوله من عند الله، ولكَمْ حاسب نفسه لكي لا يكون في رسالته أثر لإنسان، فكان يفضل أن تكون الآيات التي يأتي فيها ذكر الله مبتدئة بـــ (قُلْ) "**[3]؛ **وأعطى كمثال على ذلك سورة "الكافرون".**

ويتحدَّث بودلي عن الحرب في حياة النبي ﷺ وأوَّل سرية في الإسلام، فيصف الرسول ﷺ بأنَّه أخطأ في التقدير، وأنّ رأيه في الحرب كان سابقاً لأوانه، وأنَّ تلك السرية قد أحدثت زعزعة في مقامه في المدينة، لذا فالمخرج الوحيد لذلك هو كتابة قرآن يتماشى ووقع الحادثة فيقول:" **فلما**

بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين (671/600هـــ /1204-1273م): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب الرياض 1423هـــ/2003م. أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي(ت375هـــ/985م): بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي،دار الفكر بيروت[د ت ط]. الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع تونس،1997م. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري(ت468هـ/1075م): أسباب النزول، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة، 1968م. ابن حزم الأندلسي(384-456هـــ /995-1063م): الناسخ والمنسوخ، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية بيروت[د ت ط].

(1) بودلي: المرجع السابق، ص 62.

(2) بودلي: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) بودلي: المرجع السابق، ص56.

هدأت الضجة الأولى، لجأ إلى شيء كان يفعله كلما وجد حرجاً، وهو أنّه يوحى إليه، وأن هذا الوحي يحمل إليه رأي الله في الأمر الذي يقلق رسوله، قال:(الآية 217 من سورة البقرة[1])" [2]

ويقول مدَّعياً في موضع آخر:" **فهو يعترف بالمسيحية دون تحفظ، وقد كتب محمد في السورة الثانية(ويقصد بها البقرة الآية 62) ثم في السورة الخامسة(ويقصد بها سورة المائدة) الآية69**"[3]؛ **وذكر الآية**[4]، **ثم أتبعها بالآية 89 من سورة المائدة**[5].

أمَّا في معرض حديثه عن حادثة الإفك فإنّ بودلي يتيه بين خلجات نفسه المضطربة وبين فيافي فكره الحائر، فلا يكاد يستقر كل ذلك منه حتى يكتب مدَّعياً في قوله:" **وعرف محمد أنه الوحيد الذي يُلام، فإن الفضيحة ستستمر ما دام مترددا، فمن واجبه أن يحكم ببراءة عائشة أو إدانتها، فقام بعمل حاسم كما هي عادته في المعارك**"[6]. وليته سكت هنا والتزم الصمت، غير أن الصواب يجانبه متجنِّياً في وصف عقوبة الإفك –وكأنَّ محمدَ ينتقم من أعدائه وينتصر لنفسه على ما ألفوا هم في قوانينهم وتشريعاتهم الوضعية في الغرب–بقوله:" **فلما انتهى أمر، تنفيذ العقوبة التي شرَّعَهَا الآن في حسّان**[7]

---

(1) المقصود قول الله تعالى:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

(2) بودلي: المرجع السابق، ص137.

(3) بودلي: المرجع السابق، ص283.

(4) المقصود قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(5) المقصود قوله تعالى:﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(6) بودلي: المرجع السابق، ص199.

(7) حسان بن ثابت(60ق.هـ–60هـ/543–680م) ابن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي ثم النجاري شاعر رسول الله ﷺ وأمه الفريعة بالفاء والعين المهملة مصغرا بنت خالد بن حبيش بن لوذان خزرجية أيضا أدركت الإسلام فأسلمت وبايعت وقيل هي أخت خالد لا ابنته يكنى أبا الوليد وهي الأشهر وأبا المضرب وأبا الحسام وأبا عبد الرحمن روى عن النبي ﷺ أحاديث روى عنه سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن

وحمنة[1] ومِسْطح[2]، وكان مسطح صديقاً لأبي بكر، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة"[3].

ويصور بودلي عملية جمع القرآن على أنّها عملية بشرية خالصة، وأنَّ الكاتب للقرآن وهو زيد بن ثابت[4]، قد كان أميناً في نقل الكتاب الذي أوكلت له مهمَّة كتابته وإخراجه، فهو لم يزد و لم ينقص من كلام محمد العبقري مؤلف القرآن شيئاً، غير أنَّه اتبع طريقة خاصة به في تبويب وترتيب السور على حسب طولها وليس على حسب نزولها، ولذا جاءت النتيجة عملاً مرقَّعاً مفكَّكاً، فيقول:" **فلما جمع زيد كل كلمة كتبها محمد أو أملاها أو حفظها لأصحابه نَشَرَها دون أن يتبع أية طريقة، فما كان يفعل إلا أن يخرج الرقاع من الصندوق كيف ما اتفق، ثم يكتب الوحي دون النظر إلى الترتيب الزمني، وعلى ذلك وضعت السور المدنية الأخيرة قبل السور المكية**

وعروة بن الزبير وآخرون قال أبو عبيدة فضل حسان بن ثابت على الشعراء بثلاث كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ في أيام النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل (773-852هـ/1372-1448م): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الجيل بيروت، 1412هـ/1992م، ج2 ص62-63.

(1) حمنة بنت جحش الأسدية أخت أم المؤمنين زينب وكانت زوج مصعب بن عمير فقتل عنها يوم أحد فتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت له محمدا وعمران، قال أبو عمر كانت من المبايعات وشهدت أحدا فكانت تسقى العطشى وتحمل الجرحى وتداويهم؛ وقال ابن سعد أطعمها رسول الله ﷺ من خيبر ثلاثين وسقا وهي والدة محمد بن طلحة المعروف بالسجاد. العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج7 ص586.

(2) مسطح بن أثاثة (22ق.هـ-34هـ/601-654م) ابن عباد بن المطلب بن عبد مناف بن قصي المطلبي كان اسمه عوفا وأما مسطح فهو لقبه وأمه بنت خالة أبي بكر أسلمت وأسلم أبوها قديما وكان أبو بكر يمونه لقرابته منه فلما خاض مع أهل الإفك في أمر عائشة حلف أبو بكر ألا ينفعه فنزلت ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى الآية فعاد أبو بكر إلى الإنفاق. العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج6 ص93.

(3) بودلي: المرجع السابق، ص200.

(4) زيد بن ثابت (11 ق هـ-45 هـ/611-665م) زيد بن ثابت بن الضحاك الانصاري الخزرجي، أبو خارجة صحابي، من أكابرهم،كان كاتب الوحي، ولد في المدينة ونشأ بمكة، وقتل أبوه وهو ابن ست سنين وهاجر مع النبي ﷺ وهو ابن 11 سنة، وتعلم وتفقه في الدين، فكان رأسا بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض. وكان عمر يستخلفه على المدينة إذا سافر، فقلَّما رجع إلا أقطعه حديقة من نخل وكان ابن عباس يأتيه إلى بيته للاخذ عنه، ويقول: العلم يؤتى ولا يأتي. وأخذ ابن عباس بركاب زيد، فنهاه زيد، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فأخذ زيد كفه وقبلها وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا. وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ من الانصار، وعرضه عليه. وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الامصار. ولما توفي رثاه حسان بن ثابت، وقال أبو هريرة: اليوم مات حبر هذه الأمة وعسى الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفا، له في كتب الحديث 92 حديثا. الزركلي: الأعلام، ج3 ص57.

التي نزلت أوَّلاً... وإنَّ المرء لغالباً ما يتصوّره يقيس بشريط قياس... فلم ينظر إلى استمرار الموضوع **ومطابقة الأسلوب الذي كان يرتقي كلما نضج محمد، فكانت النتيجة عملاً رقعاً مفككاً، ولا يحمل أية فكرة عن تكوين أية خطة في رأس محمد"**[1].

يضفي بعد هذا الخلط الفكري والسطحية في التحليل مع ما صاحبهما من نظرة مادية بحتة في تفسير حركة السيرة وحوادثها، مسحة جمالية على أمانة زيد في النقل، وعوض أن يرتقي بمستوى التحليل والتخريج والتدليل لحوادث السيرة فنجده يغرق كلية مع قصور فكره في وحل بشريته فلا يكاد يظهر بالجملة، ولا يكاد يَبِين في قوله حيث يقول:"**وإن الحسنة الوحيدة في طريقة زيد، أنها كانت أمينة فوق الشبهات، فلم يفعل شيئاً ليضيف فقرات، أو يضع جمل ربط، أو يحذف أو ينسخ تفاصيل تشين الإسلام، لقد عمل بإخلاص لا يمكن تصوره، حتى أنه لما انتهى من "نشر القرآن" كان الكتاب من عمل مؤلِفه خالصاً، ومؤلِّفه فقط"**[2]. والمقصود بالمؤلف هنا هو النبي محمد ﷺ.

وأما عن تعليقه عن موقعتين من مواقع المسلمين مع أعدائهم وهما **موقعتي تبوك**[3]

وحنين[4] وما كان فيهما من أحداث وما صاحب تلك الأحداث من أحكام وتشريعات، ففيه من التهكُّم والسخرية الشيء الكثير مع نفيه الدائم للقرآن على أنَّه كلام الله وإنَّما هو من صنيع محمد ﷺ.

---

(1) بودلي: المرجع السابق، ص210.

(2) بودلي: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) غزوة تبوك: في رجب سنة تسع أمر الرسول ﷺ الناس بالتهيؤ لتبوك، وذلك في زمان من عسرة الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد وحين طابت الثمار وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيَّنها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبته فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم ولم يقع فيها قتال وحج بالنّاس أبو بكر ﷺ ونزلت بها سورة براءة (التوبة). السهيلي: الروض الأنف، ج7ص383-412.

(4) غزوة حنين في سنة ثمان بعد الفتح، لَمَّا سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النضري فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نصر وجشم كلها، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال، ولما سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم. فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فتجهَّز ﷺ في

ورغم أنَّه يؤكد صراحة أنّ الوحي كان ينزل تَتْراً، وفعل النزول لا يكون إلا من فوق إلى تحت أو من أعلى إلى أدنى، فيقول عن موقعة تبوك وعن الذين تخلَّفوا عنها: "**ولم ينظُر إليهم على أنّهم جبناء فحسب، ولكن حرِّمت عليهم الراحة الروحية، فقد نزل الوحي يتبعه الوحي على الرسول في شأن هؤلاء المنافقين، وقد وُصفوا وصفاً سيئاً في القرآن**"[1]؛ ثم ذكر الآية 42 من سورة التوبة[2]؛ وألمح إلى الآيات التي بعدها والتي جاءت فيها أحكام وتشريعات الجهاد في الإسلام[3].

وأما عن حديثه عن موقعة حنين وما كان فيها من بأسٍ شديد وما لقي المؤمنون من عدوهم وما صاحب ذلك من اضطراب في بداية الغزوة في صفوف المسلمين وقد باغتتهم هوازن وأحلافها في شعب من شعاب وادي تهامة، لَمّا أعجبتهم كثرتهم وقالوا لن نغلب اليوم من قلَّة فامتحِنُوا وصبروا ورجعوا إلى الله، وعلموا أنَّ النصر ليس للكثرة وإنَّما بالطاعة لله واتباع أوامره وإخلاص النِّية له، فيعلِّق بودلي على ذلك وعلى الآيات التي نزلت ناسباً الآيات إلى الرسول ﷺ قائلا:" **وعَرَف ضعف الغرور الذي لا يغتفر، فَكَتَبَ في السورة التاسعة عشرة[كذا والأصل التاسعة] الآية 25**"[4]؛ وذكر الآية[5].

وفي الفصل الخامس عشر، والذي عنوَنَه بقلادة عائشة أو حديث الإفك، وأثناء حديثه عن آية الطلاق من سورة البقرة وما كان فيها من أحكام، يصف بودلي الرسول ﷺ بأنَّه عبقري ومشرع

12ألف وغرَّت المؤمنين يومئذ كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً، وزلزلوا زلزالاً شديداً وثبت القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم بعدها جاء النَّصر المؤزر وانكشفت هوازن ومن معها. السهيلي: الروض الأنف، ج7 ص274- 328.

(1) بودلي: المرجع السابق، ص279-280.

(2) وهي قوله تعالى:﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [التوبة:42]

(3) والآيات التي ألْمح إليها بودلي تبدأ من الآية 43 إلى غاية الآية 103 من سورة التوبة، فلتراجع في كتب التفسير وما قيل في أسباب نزولها، والأحكام التي استنبطها العلماء منها.

(4) بودلي: المرجع السابق، ص273.

(5) وهي قوله تعالى:﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ التوبة[25].

بارع، وأنَّه واضع قوانين محكمة، حيث أنصف المرأة وأعطاها من الحقوق ما يحفظ لها بها كرامتها، وأنَّه قد سجَّل ذلك في قرآنه، فيقول:" **ووضع محمد قوانين محكمة للطلاق، ولم يفعل في هذا أكثر مِمَّا فعل في تعدُّد الزوجات، ولكنه كان يعرف أنَّه شيء من الأشياء التي لا يمكن تجنّبها، وقد حتَّم ضرورة معاملة المطلقة معاملة عادلة؛ ففي السورة الثانية من القرآن نجد وذكر الآية**[1]"[2].

وأما في الفصل السادس عشر من كتابه والذي عنوانه القرآن، فينحو فيه نفس المنحى الذي سبق تأكيده، وهو أنَّ بودلي اختلطت عليه أوراقه فأصبح لا يفرق بين كلام البشر وكلام خالق البشر، والذي هو معجز بلفظه، ومعجز بنظمه، ومعجز بأسلوبه، ومعجز بتأثيره ومعجز بكل ما حواه من أخبار وعلوم.

فقد ختم ذلك الفصل وهو يؤكد على بشرية المصدر القرآني ومشبهاً له بالكتاب المقدَّس، غير أن الفرق بينهما في فكر بودلي، أن الكتاب المقدَّس قد اشترك الكثير من الكُتَّاب في تأليفه وكتابته واستغرق منهم القرون من الوقت، أما القرآن فقد انفرد بكتابته محمد ﷺ ولم يستغرق منه إلا الشيء القليل من الوقت، فيقول:" **وكان محمد يقول إن هناك معجزات خارقة للطبيعة، وإن القرآن معجزة في نفسه، وربما كان على صواب، فقد عاون كثيرون في كتابة الكتاب المقدَّس وقد استغرق ذلك منهم قروناً، وقد كتب محمد القرآن بمفرده، وقد استغرق ذلك منه ما يقارب من عشرين سنة**"[3].

ونختم حديثنا حول شبهة بودلي ومزاعمه من حيث بشرية القرآن وأنَّه من تأليف محمد ﷺ حول ما قاله عن الرحلة القدسية الخالدة، رحلة الإسراء والمعراج، في الفصل السابع من كتابه والذي جاء بعنوان: السماوات السبع، وبعد أن نفى أن تكون الرحلة الليلية قد تَمَّت، ينفي كذلك كل الروايات الصحيحة من السنة والأحاديث، ولا يثبُتُ عند بودلي شيء من ذلك إلا ماكتبه محمد ﷺ في قرآنه-بزعمه- في سورة الإسراء والتي هي كذلك لا يستبين بودلي ملامِحَها

---

(1) وهي قوله تعالى:﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[227].

(2) بودلي: المرجع السابق، ص204.

(3) بودلي: المرجع السابق، ص218-219.

جيِّدا فيقول:" **فلا يوجد عن محمد ما يثبت أن هذه الرحلة الليلية قد تمت... وإنَّ كل ما جاء فعلاً عن هذه الرحلة الإلهية على لسان محمد هو ما ذكره في سورة الإسراء، وفي هذه السورة خاصة لا توجد أية إشارة... وكل ما جاء عن الإسراء في هذه السورة هو وذكر الآية الأولى منها**"[1][2].

كما وجب التنبيه إلى أنَّ بودلي قد ذكر هذه الشبهة والفرية تلميحاً وليس تصريحاً كما سبقت الإشارة إليه، في بعض المواضع من كتابه، زاعماً في بعضها أنَّ هذا القرآن إنَّما صدر عن عقلية فذَّة كبيرة تمتَّع بها محمد ﷺ وفاق بها أقرانه وأهل زمانه، لذا انعكست آثار ذلك الفكر المحمدي على القرآن فكان هذا المؤلَّف المبهر:"**إنَّه انعكاس هذا الفكر الثاقب**"[3].

وفي موضع آخر يمدح العقل المحمدي الراجح، والذي جاء بقرآن فيه من الشبه من الشعر العربي الشيء الكثير ولكنَّ ميزة قرآن محمد أنَّه يتفوق على الشعر العربي بما أُودِع فيه من المعلومات والأفكار الخلاَّقة فيقول:" **وإنها لتعطي فكرة عن نوع العقل الذي كان يتمتع به محمد، وإنها لتجعل المرء يعجب كيف عرف كل هذا، ومتى فكر في كل هذا، وأين تعلم نظم الشعر المرسل الرنان؟**"[4]

ولعلَّ بودلي وهو يكتب حول هذا المحور الأساس من حوادث السيرة ووقائعها، كان يستحضر ذلك من كلام كفَّار قريش الذين نسبوا هذه الفرية-أنَّه شاعر- لرسول الله ﷺ والتي حملتها فيما بعد عقلية الفكر الإستشراقي الغربي كَلَوْثة فكرية، وأصبحت الملاذ المفضَّل عندهم أو عند البعض منهم، للطعن والشك في الوحي، وقد أثبت القرآن هذه الفرية في بعض الآيات على لسان أولئك فاضحاً أقوالهم ومسفِّهاً أحلامهم ورواداً لزعمهم، وما أشبه الليلة بالبارحة[5].

---

(1) والآية قوله تعالى:﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾

(2) بودلي: المرجع السابق، ص101.

(3) بودلي: المرجع السابق، ص7.

(4) بودلي: المرجع السابق، ص218.

(5) مثاله قوله تعالى:﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء:5]، وقوله سبحانه:﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾[يس:69]، وقوله عز وجل:﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا

وملاحظة جديرة بالذكر والتنبيه عليها، وهو أن بودلي قد جاء بتلك الأقوال مصرِّحاً ببعضها وموعزاً إيحاءً للبعض الآخر حتى يثبت عدم قدسية القرآن، وينفي عن رسول الله ﷺ الوحي والنبوَّة، ثم يصير محمد ﷺ المصلح الإجتماعي والملهم المبدع البارع ومن ثَمَّ يستوي مع كل صاحب فكرة إصلاح، ثم ليصل إلى هدم الدين الإسلامي من أساسه وأساسه العقيدة وأساس العقيدة الوحي.

المطلب الثالث: الشبهة الثانية: الطعن في الصحابة.

درس المستشرقون الإسلام عقيدة وشريعة ونبي الإسلام ﷺ سيرة وسلوكاً وقولاً وفعلاً، وديار الإسلام شبرا شبرا، فما وجدوا من أين يبتدئون هجماتهم، فالقرآن محمكم لا تبديل فيه منذ نزل، وحديث الرسول ﷺ قيَّض الله له من رِّجال العلم ما نفوا عنه الزيف وما لحق به من وضع ومَحَّصوه، وديار الإسلام ولو تحل بها البلاوي من فينة وأخرى، بما كسبت أيدي أهلها يهيئ الله لها من حين لآخر الرجال الذين يدفعون عنها غصب الغاصب ويردُّونها لرشدها، فما السبيل إذن؟

من خلال بحوث ودراسات المستشرقين الذين أخذت منهم الجهد والوقت، وتحلّوا فيها بكثير من الصبر والأناة، اهتدى البعض منهم إلى أن الطعن في وسائل العلم والطرق الموصلة له طعن في العلم ذاته وفي نتائجه، وعلموا أن الإسلام قائم بذاته ولكن تسنده في ذلك وسائل ومعدَّات منذ الزمن الأول إلى هذه الساعة، فطعنوا في أحد ركائز العلم وهم حملة العلم في حد ذاتهم، سواء كانوا من الصحابة أو من العلماء الذين جاؤوا بعدهم.

وإن الذين جاء الطعن فيهم من الصحابة أو من العلماء بعدهم من المستشرقين على اختلاف مللهم ونحلهم ومدارسهم الإستشراقية وحدودهم الجغرافية كثير.

لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾[الصافات:36]، وقوله تعالى:﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴾ [الطور:30]، وقوله سبحانه:﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾[الحاقة:41].

غير أن بودلي إختار واحداً من صحابة رسول الله ﷺ وصوَّب له سهام فكره، وأبرى له رؤوس قلمه عسى أن يرديه قتيلاً بين طيات صفحاته أو أن يخدشه أو يترك فيه من الآثار بين تراكم كلماته وفقراته، وأيُّ صحابي هذا الذي اختاره بودلي؟ إنه زيد بن حارثة[1]، إبن محمد ﷺ قبل الإسلام بالتبني، وحِبَ محمد ﷺ بعد نزول الوحي ومجيء الرسالة.

فما تهمة زيد؟ وما قصَّته مع المستشرقين وبالخصوص بودلي؟

يقول بودلي:"**وكان زيد ثالث الثلاثة، وكان نصرانياً، اختطفه قريب لخديجة في غارة على الشام... وكان زيد شديد السمرة، قبيح الشكل**"[2]. وفي موضع آخر يقول:" **ولكن وجود زيد بين أبويه في الدار، يجعله يسمع ما يدور بينهما، فلما رأى زيد في مبادئ محمد نفس السمو الديني الذي في المسيحية، أعلن إيمانه وتصديقه لما جاء به الرجل الذي حرره**"[3].

إنّ بودلي في قوله الأول والثاني قد جنى على الحقيقة، وأتاها من أصلها فخرَّ عليها سقف الموضوعية العلمية فانهارت شتاتاً إن لم يُرْدها هباءً، وإنّه قد ضمَّن في قَوْلَيْه الشيء الكثير من المزاعم والأباطيل، ظناً منه أنَّه بقوله هذا أو بفعله هذا قد يأتي على الإسلام جملة واحدة.

إن الحقائق العلمية والروايات الصحيحة دالة في حدِّ ذاتها على حقيقتها دون التعصُّب لها أو المجادلة فيها ومن أجلها، ونسأل بودلي ونُسائل حقائق التاريخ هل كان زيد كما وصف في عقيدته؟ وفي بنيته الفزيولوجية؟ وفي بشرته؟ ثم ما المقصود من قول بودلي، وهل يقصد زيداً في حدِّ ذاته الإنسان أو الكائن البشري أم أنّ الغاية أبعد من ذلك؟

في البداية لا بد من القول بأنَّ قول بودلي هذا قول مُجترٌّ، لأنه فيه متّبع وليس بمبدع، فالمستشرقون كما سبق القول أنّهم يكرِّرون المزاعم والفرضيات والأباطيل ويصرِّون على تأكيدها ويتناقلونها جيلاً بعد جيل حتى تصير من الحقائق الثابتة عندهم، فقد سبق قولَ بودلي هذا قول

---

(1) زيد بن حارثة(ت8هـ/629م) ابن شراحيل أو شرحبيل الكلبي صحابي، أختطف في الجاهلية صغيرا، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبي ﷺ حين تزوجها، فتبناه النبي- قبل الإسلام - وأعتقه وزوجه بنت عمته واستمر الناس يسمونه زيد بن محمد حتى نزلت آية ادعوهم لآبائهم، وهو من أقدم الصحابة إسلاما. وكان النبي ﷺ لا يبعثه في سرية إلا أمّره عليها، وكان يُحبّه ويقدّمه، وجعل له الامارة في غزوة مؤتة، فاستشهد فيها. الزركلي: الأعلام، ج3 ص57.

(2) بودلي: المرجع السابق، ص50.

(3) بودلي: المرجع السابق، ص59.

الكثير من المستشرقين منهم كايتاني، والمستشرق هنري لامانس[1] وغيرهم، واجترَّه بعدهم كثير منهم كذلك ومنهم رودنسون وغيره[2].

ومن المؤكد أن بودلي أخذ من لامانس ولكنَّه ما أشار إليه وهذه عادة المستشرقين، لأن الفرية ذاتها ذكرها لامانس في كتابه"جمهور مكة التجارية"، وهو أحد مراجع بودلي، ثم إنّ لامانس أخذها كافتراض قاله أستاذه كايتاني[3].

وقد أفردت كذلك موسوعة المعارف الإسلامية الصادرة بالإنجليزية بحثاً مفصَّلاً حول زيد بن حارثة ﷺ وأثبتت فيه الفرية ذاتها[4]، متلمِّسين أعذارهم في ذلك من بعض الأخبار التي جاء ذكرها في بعض كتب الأدب والأخبار غير الموثوقة والمتروكة[5].

ولعلَّ كايتاني في تخريجه لهذه الفرية كان قد استند على فرضية أنَّه ما دام هناك نصارى عرب في شبه الجزيرة، فلا بد وأن تكون لهم علاقات مع القبائل، وبالتحديد قبيلة كلب[6] التي ينتمي إليها

---

(1) لامنس (1278-1356هـ/1862-1937م) هنري لامنس اليسوعي: H Lammens مستشرق، بلجيكي المولد، فرنسي الجنسية، من علماء الرهبان اليسوعيين، تعلم في "لوفان" وفي "فينة" وتلقى علم اللاهوت في انجلترة. وكان أستاذا للاسفار القديمة في كلية رومة. واستقر في "بيروت" فتولى إدارة جريدة "البشير" مدة، ودرس في الكلية اليسوعية، وصنف كتبا عن العرب والاسلام، بالفرنسية، وكتبا بالعربية، منها "فرائد اللغة-ط" الجزء الاول منه، و"المذكرات الجغرافية في الاقطار السورية-ط" رسالة، و"تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار-ط" جزآن، و"الألفاظ الفرنسية المشتقة من العربية-ط" و"مختارات للترجمة من العربية إلى الفرنسية وبالعكس-ط" وكتب اسمه على بعض كتبه "هنريكوس لامنس". ومات في بيروت. الزركلي: الأعلام، ج8 ص99-100.

(2) للتوسع حول رد شبهات وأباطيل المستشرقين في الطعن في الصحابة ينظر رد د.محمد محمد أبو ليلة: محمد ﷺ بين الحقيقة والافتراء، دار النشر للجامعات القاهرة، ط1، 1420هـ/1999م، ص126-127، ص133-140.

(3) لمراجعة الزعم والإدِّعاء والتحقّق منه في: حوليات الإسلام، نقلا عن هنري لامنس: النصارى في مكة قبيل الهجرة، بحث منشور في مجلة المشرق البيروتية التنصيرية، السنة 35 لعام 1937م.

(4) كاكا، ف: زيد بن حارثة، بحث ضمن موسوعة المعارف الإسلامية، ليدن هولندا[د ت ط]، ج4 ص1194.

(5) ومثال ذلك ينظر: جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي (ت597هـ): صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري ود. محمد رواس قلعة جي، دار المعرفة بيروت، ط2، 1399هـ/1979م، ج1 ص381؛ حيث قوله:" وكان زيدا رجلا قصيرا آدم شديد الأدمة في أنفه فطس وكان يكنى أبا أسامة".

(6) قبيلة كلب: تنسب إلى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحلف بن قضاعة، وهي من القبائل العربية التي اهتمت بعبادة الأصنام، وموطنها الحالي منطقة الجوف بالسعودية. د. جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي بغداد، ط4، 1422هـ/2001م، ج11 ص253.

حارثة والد زيد، وقبيلة طيء[1] التي تنتمي إليها أم زيد سعدى بنت ثعلبة؛ وقد نسي هؤلاء جميعاً أن قبيلة كلب كانت تعبد في جاهليتها صنم "ود" والتي تتعبّد له في دومة الجندل والذي جاء ذكره في سورة نوح عليه السلام[2]، وأما قبيلة طيء فكانت لها آلهة متعدِّدة أشهرها رضى، وهي من الأصنام التي كانت معروفة ومعبودة عند قوم ثمود.[3]

وقد أشار إلى مثل هذا الرأي لويس شيخو[4] حين كتب عن النصرانية في شبه الجزيرة العربية، العربية، وأكّد فيه انتشار النصرانية بين عرب الجاهلية دون أن يقدِّم دليلاً ملموساً أو سنداً تاريخياً، بل كل ما ذهب إليه كان من وضع الخيال والفرضيات العقلية[5].

وإذا ما تجاوزنا هذه الفرية إلى التي بعدها وهي أن زيد قد اختطفه قريب لخديجة في غارة على الشام، فإن هذا لم يثبت تاريخياً وكل المصادر الموثوقة والتي أتت على التعريف بزيد وبحياته الأولى تقول:" **زارت سعدى أم زيد بن حارثة قومها وزيد معها فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية على أبيات بني معن فاحتملوا زيدا وهو غلام يفعة فأتوا به في سوق عكاظ فعرضوه**

---

(1) قبيلة طيء: من القبائل اليمانية في عرف النسابين، وهم من القبائل القديمة التي كان لها شأن يذكر قبل الإسلام، بدليل أن "بني إرم" والفرس، أطلقوا على العرب عمومًا كلمة "طيايه" "طيايو" من أصل "طيء" اسم هذه القبيلة. وأن العبرانيين أطلقوا "طبعًا" "ط ي ي ع ا"، "طيايا" "طياية" في مرادف "عرب" مما يدل على أنها كانت أقوى قبائل العرب. د. جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ج16 ص 223.

(2) الآية 23 في قوله تعالى:﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾

(3) د. جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ج11 ص 268.

(4) لويس شيخو (1275-1346هـ/1859-1927م)Louis Cheikho اليسوعي: منشئ مجلة "المشرق" في بيروت، وأحد المؤلفين المكثرين، كان اسمه قبل الرهبنة "رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو " ولد في ماردين "بالجزيرة الفراتية" وانتقل إلى الشام يافعا، فتعلم في مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير بلبنان وانتظم في سلك الرهبانية اليسوعية سنة 1874 وتنقل في بلاد أوربا والشرق، فاطلع على ما في الخزائن من كتب العرب، ونسخ واستنسخ كثيرا منها، حمله إلى الخزانة اليسوعية في بيروت. وانصرف إلى تعليم الآداب العربية في كلية القديس يوسف، ثم أنشأ مجلة "المشرق" سنة 1898 فاستمر يكتب أكثر مقالاتهما مدة خمس وعشرين سنة. وكان همه في كل ماكتب، أو في معظمه خدمة طائفته، وتوفي في بيروت. الزركلي: الأعلام، ج5 ص246.

(5) لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، القسم الأول في تاريخ النصرانية وقبائلها في عهد الجاهلية، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت، 1912م، ص 130-151.

للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بأربعمائة درهم فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له"[1].

وقول بودلي أن زيد بن حارثة كان شديد السمرة، قبيح الشكل، فذلك فيه من الإيحاء القبيح المبيّت، وهو الطعن غير المباشر في رسول الله ﷺ وفي شرفه، لأن أم أسامة هي المقصودة من هذا الطعن، وهي حاضنة الرسول ﷺ وعتيقتُه، وهو إيعاز من بودلي غير موضَّح بأن بيت النبوّة لم يسلم من الفواحش والكبائر؛ وعلى العكس من ذلك تماماً، فإن الثابت تاريخياً أن زيداً كان أبيض مثل القطن أو من القطن، والذي كانت بِشْرته سوداء فهو ابنه أسامة؛ فقد ذكر غير واحد من أهل السير وأصحاب السنن أنَّ النَّاس قد طعنوا في أسامة بن زيد لاختلاف لون بشرته عن أبيه وجاء وصفهما: "**كان[زيد] أبيض شديد البياض وكان ابنه أسامة أسود**".[2]

وجاء في رواية أخرى قولهم:" **كان[أسامة] أكبر من الحسن بأزيد من عشر سنين وكان شديد السواد خفيف الروح، شاطرا، شجاعا، رباه النبي ﷺ وأحبه كثيرا، وهو ابن حاضنة النبي ﷺ أم أيمن وكان أبوه أبيض**"[3].

ولَمَّا دخل مُجزَّز المدلجي القائف[4] على زيد وابنه أسامة وهما ممدَّدان في مسجد رسول الله ﷺ وقد غطَّيا أجسادهما بقطعة من قطيفة، ولا تظهر منهما إلا أقدامهما، قال:" **إنَّ هذه الأقدام**

---

(1)العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج2 ص598. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي(ت463هـ/1070م): الإستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الجيل بيروت، ط1، 1412هـ، ج2 ص543.

(2) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله(499-571هـ/1105-1175م): تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر بيروت، 1415هـ/1995م، ج19 ص351.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1 ص 498.

(4) مُجزّز بن الأعور بن جعدة بن معاذ بن عتوارة بن عمرو بن مدلج الكناني المدلجي كان عارفا بالقيافة حكى عنه النبي ﷺ قوله لما رأى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد نائمين وقد بدت اقدامهما ورؤوسهما مغطاة أن هذه الأقدام بعضها من بعض وكان زيد أبيض وأسامه أسود فدخل النبي ﷺ وهو مسرور على عائشة فذكر لها ذلك وأخرج البخاري هذا الحديث ومسلم في صحيحهما وأصحاب السنن وأحمد وغيرهم. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (773-852هـ/1372-1448م) : تهذيب التهذيب، دار الفكر بيروت، ط1، 1404هـ/1984م، ج10 ص42.

بعضها من بعض"[1]؛ فسُرَّ بذلك النبي ﷺ أيَّما سرور وتهلَّلت تقاسيم وجهه.

المطلب الرابع: الشبهة الثالثة: خصوبة أراضي ديار بني سعد ومراعيهم.

يقول بودلي في فصل طفولة محمد ﷺ:" **عاش في الخيام السود خمس سنين، وكانت قبيلة بني سعد من أعرق قبائل العرب، وكانت مراعيها خصبة ممتدَّة، فنطق محمد أول ما نطق، وخطا أول ما خطا بين أسياد البادية هؤلاء**"[2].

إنّ قول بودلي بخصوبة أراضي ديار بني سعد قول مردود، ولا يسنده من الوقائع التاريخية ولا الروايات حتى الواهية منها شيء، ولذلك فهو في قوله هذا زاعم، والقصد الذي أراده هو نفي فضائل ومعجزات الرسول ﷺ وبركاته ودلائل نبوته، لأنَّه ما من حادثة ولا حديث للرسول ﷺ إلا وله فيه معجزة، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها علم ذلك من علم وغاب ذلك عن من حرم لذَّة الفهم.

وبودلي في قوله هذا كذلك لا يعدو إلا أن يكون مردِّداً ومحتراً لما قالته المدرسة الإستشراقية الغربية عموماً والإنجليزية على وجه الخصوص، ولم يثبت ذلك في أي رواية من روايات التاريخ.

والثابت هو أن أراضي ومراعي ديار بني سعد في تلك الأيام قد كانت جدباء قاحلة، والأدلَّة الصحيحة في ذلك كثيرة منها:" **عن حليمة بنت الحارث أم رسول الله التي أرضعته أنها قالت: قدمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر ألتمس بها الرضعاء وفي سنة شهباء، فقدمت على أتان لي قمراء كانت أذمت بالركب ومعي صبي لنا وشارف لنا والله ما تبض بقطرة ... أخذته[محمدَ] فجئت به إلى رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل فحلب ما شرب وشربت حتى روينا فبتنا بخير ليلة فقال صاحبي يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة ألم تر ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً حتى خرجنا راجعين**

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1 ص 222. والهامش رقم 4 من نفس الجزء والصفحة وفيه: أخرجه أحمد 6 / 82، 226 والبخاري (2555) في المناقب: باب صفة النبي ﷺ، و(3731) في فضائل الصحابة: باب مناقب زيد بن حارثة و(6770) و(6771) في الفرائض: باب القائف. وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج19 ص351.

(2) بودلي: المرجع السابق، ص29.

إلى بلادنا ... حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله تعالى أجدب منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً، فنحلب ما شئنا وما حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً، حتى إنهم ليقولون لرعيانهم: ويحكم انظروا حيث تسرح غنم ابنة أبي ذؤيب فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فيريحون أغنامهم جياعاً، ما فيها قطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً، نحلب ما شئنا، فلم يزل الله تعالى يرينا البركة ونتعرفها حتى بلغ سنتيه فكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً [1]

فأين هي الأراضي الخصبة والمراعي المزدانة بالاخضرار التي يزعمها بودلي ومن هم على شاكلته، بل هي بركات النبوة ودلائلها.

المطلب الخامس: الشبهة الرابعة: الغريزة الشهوانية في أواخر حياة محمد ﷺ.

يذكر بودلي وقائع حقيقية عن حياته ﷺ وأخلاقه وفضائله، راسماً له صورة جمالية عالية المقام، فيرفع فيها النبي ﷺ إلى مقام النبوة وهو لم يوح إليه بعد، ويذكر أنه بقي على دماثة خلقه الذي عرف به بين أهله وأقرانه وعشيرته، حتى لقَّبوه بالأمين.

لكن كعادة المستشرقين ما لبثت أن تستقر هذه الصورة الجمالية رفيعة المقام والتي رسمها بودلي حتى أتاها من جذورها فاقتلعها من الأذهان اقتلاعاً، واضعا مكانها صورة مقزِّزة منفِّرة لا تليق حتى بمقام البشر العاقل، بأن جعل محمدَ ﷺ الرجل الحازم العاقل طول فترت حياته السابقة إلى رجل شهواني، يتحرَّك بتحرك غرائزه وشهواته، مدَّعياً في ذلك قائلاً:" **وبقيت غرائزه الجنسية التي تحرّكت في أواخر أيامه خامدة**"[2].

وفي هذا تلميح إلى تعدُّد زوجاته ﷺ وهو تلميح أوّل، وتلميح ثان فيه قبح غير مصرَّح به كذلك وهو الطعن في تشريع التعدّد في الإسلام وأنَّ محمدَ ﷺ لم يلتزم حتى بالتشريع الذي جاء به-أربع زوجات- وقال أنه قرآن.

---

(1) البيهقي، أبو بكر احمد بن الحسين بن علي (384-458هـ/994-1065م): دلائل النبوة، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1405هـ، ج1 ص133-135.

(2) بودلي: المرجع السابق، ص38.

وللرد على مثل هذه المزاعم والإدِّعاءات يكفي الرجوع إلى مجموعة من الردود والتي تضمّنتها كتب مفردة أو في شكل بحوث ومقالات[1].

ولكن من باب النافلة يقال لهم لو كان الأمر كما تدَّعون فلِمَ لم تقم هذه النوازع الشهوانية فيه وهو شاب يافع؟ ثم إن كان من عُبَّاد الشهوة- وحاشاه الله مما يقولون- لِم يتزوج ثيِّباً ولا يتزوج غيرها طيلة حياتها معه؟ ثم هل اللواتي تزوجهنَّ كنَّ أبكاراً باستثناء عائشة أم كنَّ ثيِّبات؟ وما حكمة التشريع التي غابت عن فكر هؤلاء من زواجه ﷺ بكل تلك النسوة؟ ثمَّ ألا يعلم بودلي وأشكاله أنَّ آية القرآن التي حدَّدت السقف الأعلى من الزوجات نزلت بعد زواجه ﷺ بكل نسوته اللاتي كنَّ في عصمته[2]؟ أم هي العقول الكليلة والقلوب المريضة والمناهج الملتوية واللوثة الإستشراقية والتعصب الأعمى؟ أم أنّ كل ذلك مجتمع حين يكون الإسلام ونبي الإسلام ﷺ هو موضوع الدراسة والبحث؟!!

المطلب السادس: الشبهة الخامسة: قوله أنّ رسول الله ﷺ كان فاشلاً في التجارة.

من البديهي عند كل متمرِّس في فن التجارة أنه يعلم أن هذه الحرفة لا تقوم إلا إذا كانت مسندة لمجموعة مقوِّمات لا غنى فيها ولا عنها لكل مشتغل بها، وتأتي الدعامة الأولى لها ممثلة في الجانب الأخلاقي، الذي أساسه صفة الأمانة والصدق، وقد كانت هذه الصفة تاجاً تحلَّى به النبي ﷺ في حياته المهنية التجارية حتى أصبح لقباً خاصاً به قبل مجيء الوحي، وهذه أحد أوجه الرد على ما سيأتي من أقوال بودلي والتي يزعم فيها غير ذلك.

---

(1) عبد الغني عبد الرحمن محمد: زوجات النبي وحكمة التعدد، مكتبة مدبولي القاهرة، ط1، 1408هـ/ 1988م. الشيخ طنطاوي جوهري: السر العجيب في تعدّد زوجات الحبيب، زوجات النبي ﷺ، دار صادق للنشر الإسكندرية، ط1، 1318هـ. د. جمعة علي الخولي: ردود على الشبهات الواردة في تعدّد الزوجات، ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية والسنة، راجعه عبد الله الأنصاري، منشورات المكتبة العصرية بيروت، ط1، 1401هـ/1981م، ج2 ص 25-123. عبد التواب هيكل: دحض الشبهات الواردة على تعدّد الزوجات في الإسلام، ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية والسنة، ج2 ص221-427.

(2) سورة الأحزاب، الآية52، وهي قوله تعالى:﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَاجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾.

يقول بودلي وهو في قوله متجنِّياً على الحقيقة الساطعة:"**وكان رجال قريش أكثر الناس غنى ووجاهة في المجتمع، فكانوا يشغلون مراكز إدارية ودينية واجتماعية هامة في البلدة... ثم ظهر هناك رجل في منتصف العمر، له أفكار غريبة كل الغرابة، وكان من أسرة طيبة، تجري في عروقها دماء قريش، ولكنه ما كان من أمراء التجارة وكان فاشلاً في تلك الناحية**"[1].

ويقول في موضع آخر:" **ونضج عقله ونما جسمه، ولم يجمع مالاً كثيراً لنفسه، فقد كان يعمل أجيراً، ويتقاضى نصيباً من الأرباح، وعلى الرغم من ذلك لم يصبح غنياً، وما أثّرت المادة في نفسه**"[2].

وللاكتفاء بالرد على ما يقوله بودلي أن نذكر له قولاً له يناقض فيه نفسه ويرد فيه على جميع ادِّعاءاته السابقة، وهو قوله:" **عُرف محمد بالأمانة والجد، فما تخطى الخامسة والعشرين من عمره حتى كان من أكبر تجار القوافل وأنشطهم غربي بلاد العرب، فعهد إليه كثيرون غير عمه بأمر تجارتهم، وقد اختلف محمد عن زملائه من التجار**"[3].

وإذا كان من تعليق أو قول بعد هذا فهو من باب النَّافلة فإن هذا التناقض في كلام بودلي يدل دلالة واضحة على عدم فهمه لطبيعة شخصية محمد ﷺ فمن أول مفاتيح شخصية النبي محمد ﷺ التجارية هو أنه كان يكسب المال وينفقه في أوجه الخير؛ لأن روحه كانت فوق الماديات الأرضية، فهو غني النفس طوال حياته متواضع[4]، حتى لما فتح الله له أبواب الرزق من كل مكان، وجاءته الأموال من كل أبيض وأحمر، فكان يوزعها في أبوابها الشرعية التي حددها الشرع وما شغلته الدنيا

---

(1) بودلي: المرجع السابق، ص306.

(2) بودلي: المرجع السابق، ص38.

(3) بودلي: المرجع السابق، ص37.

(4) من كمال تواضعه وتمام عبوديته ﷺ لله تعالى، أنّه لَمَّا خير بين أن يكون نبياً ملكا أو نبيا عبدا، إختار الثانية، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: بَيْنَا جِبْرِيلُ مَعَهُ رسول الله ﷺ يُنَاجِيهِ، إِذِ انْشَقَّ أُفُقُ السَّمَاءِ، فَدَخَلَ جِبْرِيلَ مِنْ ذَلِكَ خَوْفٌ، فَإِذَا مَلَكٌ قَدْ تَمَثَّلَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْتَارَ عَبْدًا نَبِيًّا، أَوْ مَلِكًا نَبِيًّا، فَأَشَارَ إِلَيَّ جِبْرِيلُ بِيَدِهِ أَنْ تَوَاضَعْ فَقُلْتُ: "عَبْدًا نَبِيًّا". أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي (ت297هـ/ 909م): العرش وما روي فيه، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ/ 1998م، ص 461-462.

ولا كل أموالها، وما قَصَّته مع زوجاته في أمر توسيع النفقة حين سألنه ذلك إلا خير دليل وقد أثبتها القرآن وبقيت آياتها تتلى إلى يوم الدين[1].

المطلب السابع: الشبهة السادسة: تشكيكه واتهامه في براءة الطاهرة عائشة رضي الله عنها.

أفرد بودلي فصلاً –وهو الفصل الخامس عشر من كتابه– كاملاً أسماه قلادة عائشة أو حديث الإفك، في مجموعة صفحات على اختلاف طبعات الكتاب؛ وفيه كال من التشكيك والتهم الشيء الكثير على ما سيأتي ذكره وبيانه.

ولن يعدو بودلي وكل المستشرقين الذين كتبوا حول هذا الموضوع إلا أن يكونوا مرآة عاكسة للصورة التي رسمها المنافقون على عهد رسول الله ﷺ، والذين فضحهم القرآن وبيَّن دسائسهم وحتى خلجات أنفسهم وذكَّرهم بما ينتظرهم في الدنيا من خزي وفي الآخرة من عذاب عظيم.

وأما المؤمنون الذين وقعوا في هذا المحظور فقد نالوا ما يستحقّون بإقامة الحد عليهم، وجاء ذلك من فوق سبع سماوات ولا دخل في ذلك لواحد من البشر فيه بما في ذلك رسول الله ﷺ.

يقول بودلي:" **ولما كانت عائشة هي موضوع الافتراء، كان الشك يحتمل الوجهين فقد كان في رأس هذه الفتاة أكثر مما في رأس ألف نَابِهٍ، وكان لها قدرة الحصول على ما تبغي، فقد كانت متمتعة بكل ما يخلب الألباب، وكانت فاتنة**"[2].

وقوله كذلك:" **إن محمداً يحب عائشة وإنه ليحبها كما أحبّ خديجة ولكن بطريقة أخرى، فإنه أحبها أكثر مما أحب أية امرأة أخرى كانت في حياته، وما كان يستطيع أن يصدِّق أن هذه**

---

(1) الأحزاب، الآية[28-29] في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

(2) بودلي: المرجع السابق، ص195.

الفتاة الصغيرة التي كانت له دائماً صديقة كما كانت حبيبة، قادرة على أن تخونه متعمِّدة، وإن ما بلغه أزعجه، حتى إنه لم يقدر على أن يتهم عائشة مباشرة ولكنه أعرض عنها"[1].

وجاء قوله كذلك في موضع آخر:" **وإن السؤال الذي يظهر أنه لم يجد الجواب العملي المعقول بعد هو: هل كانت عائشة بريئة أو غير بريئة؟ كانت حَمنة**[2] **تصر دائماً على أن مقابلة عائشة لصفوان**[3] **كانت مدبَّرة، فلعلها كانت تتألم من الثمانين جلدة، وحتى لو كان الأمر كذلك ففي رواية عائشة نُقَطٌ ضعيفة. كيف تنطلق دون أن تخبر أحداً، وهي تعلم أن القافلة وشيكة الرحيل، ثم تضيّع وقتاً طويلاً في البحث عن قلادتها؟! إن عنصر الوقت هنا هام"**[4].

لو كان بودلي ومن كان على شاكلته يؤمنون بالمنطق والمنهج العلمي، لعلموا أن القرآن وهو كتاب الله، هو الكتاب الوحيد الذي لم تطله يد البشر بالتحريف أو الزيادة والنقصان، ولو حكَّموا في ذلك منطقهم ومناهجهم لوجدوه كذلك.

لكن ما يدَّعونه في دراساتهم لغير الإسلام لا يطبِّقونه على دراساتهم للإسلام، وإن التفسير الوحيد لموقف هؤلاء من قصة الإفك هو رغبتهم التشكيك في القرآن والسنة وأخلاق نساء بيت النبوة والصحابة الكرام، والصحابة هم نقلة القرآن والسنة إلينا، والطعن في الناقل طعن في المنقول.

---

(1) بودلي: المرجع السابق، ص195.

(2) حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، سبق تخريجها.

(3) الذكواني(ت19هـ/670م) صفوان بن المعطل بن رحضة السلمي الذكواني، أبو عمرو: صحابي، شهد الخندق والمشاهد كلها، وحضر فتح دمشق، واستشهد بأرمينية، وقيل: في سميساط. وهو الذي قال أهل الافك فيه وفي عائشة ما قالوا. روى عن النبي ﷺ حديثين. الزركلي: الأعلام، ج3 ص206.

(4) بودلي: المرجع السابق، ص201.

وقد كفانا القرآن مُؤْنَة الردِّ على مثل تشكيكات وادِّعاءات هؤلاء[1]، ثم إن ما ثبت في صحيح السنة[2] من أحاديث ومرويات لهو داحض لادِّعاءاتهم وما يزعمون. ثم ما تأكد من صحيح الأخبار والمرويات في السيرة النبوية[3].

وقد وجدت في تفسير الآيات الخاصة بهذه الحادثة الشيء الكثير من الأقوال والأحكام التي استنبطها العلماء من لدن الصحابة إلى وقت يوم النّاس هذا على اختلاف وجهات وأنماط تفسيراتهم، وقد وجدت الكثير كذلك من الأحاديث وشروحاتها في مضانها والكثير من الأحكام التي استنبطها علماء الإسلام منها في أبوابها، وكذا الشيء الكثير من روايات السيرة والتاريخ عند كل المؤرخين المسلمين الذين كتبوا وتعرضوا في مصنّفاتهم لهذه الواقعة التاريخية.

ولوفرة كل هذا الكم الهائل من التفسيرات والأحاديث ووقائع السيرة والتي لا يتسع مجال مثل هذا البحث لها رغم أهميتها فقد اكتفيت بالإشارة إلى بعض من مصادرها لمن أراد التوسع والاستزادة.

وبقيت هنالك بعض السقطات التي تنكَّب فيها بودلي المنهج الصحيح حين ذكرها ولكنَّها لا تحتاج إلى ردّ أو لا تحتاج أن يُفرد لها شيء من مساحات الرد، وذلك لأنّها لا تمس جانب العقيدة والتشريع ولا حتى شخص الرسول ﷺ.

وإنما قد تكون لها علاقة ببعض الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو حتى الثقافية لبعض حياة الصحابة حتى قبل إسلامهم، أو لبعض ما له علاقة بهم، وقد جاءت متفرِّقة في عموم فصول كتابه.

---

(1) من قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:11-20]. للمزيد من الفائدة ينظر سبب نزولها وتفسيرها وما استنبطه العلماء منها من أحكام.

(2) مثال ذلك ما روى الإمام البخاري: فتح الباري، حديث عائشة في الإفك، ج2 ص932 الحديث رقم 2494. والإمام مسلم: في صحيحه،ج8 ص113-118، وهو أتم سياق لحديث عائشة في قصة الإفك. وأبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني: المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي بيروت، ط2، 1403هـ، ج5 ص 410-419. وأبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي:السنن، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي بيروت، [د ت ط] ج5 ص13-17.

(3) السهيلي: الروض الأنف، ج7 ص30-50. و علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية، المسمى إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة بيروت،[د ت ط]، م3، ج5 ص5-15. وابن كثير: السيرة النبوية، ج3 ص304-311.

مثال ذلك لا الحصر قوله أن أتباع الرسول ﷺ كانوا في غالبيتهم من التجار المخفقين، وأنّهم كانوا من الناقمين على أوضاعهم الاجتماعية، والخلط في تتبع هجرة الحبشة وعدد المهاجرين فيها، وإشارته لقصة الغرانيق، وقد تمَّ الردُّ عليها فيما سبق حين مناقشتنا لمن سبقه من المستشرقين وقد سميت عند بعضهم بالآيات الشيطانية.

وادِّعاؤه لبعض الوقائع على غير الصورة الحقيقية التي كانت مثل الحكم الخاص بإجلاء اليهود من المدينة وفتح مدينة الطائف؛ وتزييف سير بعض النساء لذلك العهد مثل هند بنت عتبة[1] والنابغة والدة عمرو بن العاص رضي الله عنه[2].

(1) هند بنت عتبة(ت14هـ/635م) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف: صحابية، قرشية، عالية الشهرة، وهي أم الخليفة الأموي "معاوية" بن أبي سفيان. تزوجت أباه بعد مفارقتها لزوجها الاول "الفاكه بن المغيرة" المخزومي، وكانت فصيحة جريئة، صاحبة رأي وحزم ونفس وأنفة، تقول الشعر الجيد وأكثر ما عرف من شعرها مراثيها لقتلى "بدر" من مشركي قريش، قبل أن تسلم؛ وكانت لها تجارة في خلافة عمر وشهدت اليرموك وحرضت على قتال الروم. الزركلي: الأعلام، ج8 ص98.

(2) النابغة بنت خزيمة سبية من بني عَنَزة بن أسد بن ربيعة بن نزار. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج46 ص111، ص115.

الفصل الثاني: المستشرقون الإنجليز المنصفون للسيرة النبوية.

المبحث الثاني: المستشرق هيدلي(سيف الرحمن رحمة الله الفاروق).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدّمة:

كان القرآن بلسماً شافياً للذين نزل فيهم وبين أحضانهم من العرب الأوائل، فهداهم من ضلالة وعلّمهم من جهالة، وجمعهم على الهدى المبين، ولا يزال كذلك يهدي كل من كان في قلبه ولو ذرة من صفاء الفطرة وصدق النيّة في التوجّه للبحث عن الحق المبين، وقد بدأ هذا الدين في مكة برجل واحد هو محمد ﷺ، ثم ما لبث أن دخل في هذا الدين زماناً وحداناً وزرافات أمم وجماعات، وما هي إلا أزمنة معدودة حتى أصبح صوت الحق مدوّياً في كل أرجاء المعمورة، وقد دخل النّاس فيه أفواجاً.

وقد أخذ كل معتنق لهذا الدين منه ما استطاع بحسب فهمه وقدرة استيعابه، وبحسب طاقته في التطبيق والسير به في الناس كسلوك، مع ما يصاحب ذلك من إقبال صادق في العقيدة؛ وكان نصيب مجموعة من المستشرقين الغربيين من هذا الدين الهداية والرشاد، بعد أن بدأوا دراساتهم حوله كأعداء له أو كخائفين متوجّسين منه، أو كَحَيَارى تائهين في دروب الحياة يخبطون فيها خبط عشواء.

وقد هدى الله بهذا الدين الكثير من المستشرقين الدارسين له، على أساس البحث فيه عن ملجإ ومنجى، فبلغوا مقصدهم وتحقّق هدفهم، وأمثال هؤلاء كثير على مرِّ زمن الإسلام، حقبة بعد حقبة، ويحدّثنا التاريخ وبخاصة في الأزمنة الأخيرة عن مثل هؤلاء سواء كانوا من الأكادميين أو من أصحاب الفكر والبحث الأحرار، وسواء كانوا بأوروبا موطن الإستشراق الأول أو في غيرها من مناطق العالم.

ولن تكون إنجلترا وأهل إنجلترا بمعزل عن هذا، وقد كان معنا فيما مضى من البحث العدد الكثير من المستشرقين الإنجليز الذين درسوا الإسلام-وقائمتهم لازالت طويلة- والذين كانوا كعيِّنات للدراسة لا الحصر، والذين كان منهم المنصف في موضع والمجحف في مواضع أخرى حول الإسلام وأهله.

وقد كان أن هدى الله البعض منهم والذين كانوا مخلصين في طلبهم للعلم وللحقيقة فبلغوا، سواء كانوا من الطبقة الحاكمة أو من طبقات الشعب، ولن يعدو اللورد هيدلي أو هدلي[1] على اختلاف كتابة الإسم إلا أن يكون واحدا من هؤلاء.

---

(1) إعتمدت رسم كتابة إسم هيدلي وليس هدلي في كامل البحث وذلك تماشيا مع نطق الإسم بالإنجليزية.

المطلب الأول:التعريف باللورد هيدلي.

معلومات قليلة على شكل ومضات للباحث أن يَجِدَّ في البحث عنها بين طيات الكتب وصفحات المجلاّت، وحتى بين الأوراق الإلكترونية في الشبكة المعلوماتية العالمية، ليتصيَّدها لتخريج تعريف شامل ووافٍ عن حياة هذا الرجل[1]، غير أن ذلك لم يكن؛ وأغلب الأسباب الظاهرة، إما أن الرجل قد غُيِّبَ اسمه وتاريخ حياته رغم أنّه كان أحد الوجوه البارزة في السياسة البريطانية بسبب إسلامه، أو قد يكون عدم حب الظهور والتستّر هو الذي دفع بصاحب الترجمة إلى عدم التعريف بشخصه رغم العديد من مؤلفاته وكتاباته عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، وقد يكون السببان معاً.

ولد هيدلي، وإسمه الكامل قبل أن يسلم(جورج رولان ألانسون) المشهور، والمعروف باسم اللورد هيدلي[2] والمعتنق للديانة الإسلامية تحت اسم سيف الرحمن رحمة الله الفاروق، بمدينة لندن عام 1855م، في عائلة من أشراف عائلات إنجلترا، سليل الأسرة المالكة في بريطانيا من أغنى البريطانيين، ومن أرفعهم حسبا، درس الهندسة في جامعة كامبردج؛ حصل على لقب شريف عام 1877م، ويعدُّ اللورد هيدلي البارون الخامس في بيته (عائلته) وقد ارتقى إلى هذه الرتبة في جانفي 1913م بعد وفاة ابن عمه.

وبرغم مولد اللورد هيدلي في بيت نصراني عريق، فإنه لم يشعر يوماً في قرارة نفسه بإيمان صادق نحو النصرانية، بل طالما راودته الشكوك في صحة التعاليم التي تروج لها الكنيسة، والطقوس التي يمارسها الآباء بالكنيسة في صلواتهم وأقداسهم، وطالما توقف بفكره عن أسرار الكنيسة السبعة.

إذ لم يستطع -وهو الإنسان المثقف الواعي- أن يهضم فكرة أكل جسد المسيح عليه السلام أو شرب دمه كما يتوهم النصارى وهم يأكلون خبز الكنيسة ويشربون نبيذها، كذلك لم يقتنع بفكرة فداء البشرية التي هي من أسس عقيدة الكنيسة... كان في دخيلة نفسه ثائراً على الديانة المسيحية

---

(1) أرجأت جميع مصادر ومراجع التعريف باللورد هيدلي في آخر هذا المبحث لأن جميع الفقرات والمعلومات المثبتة هي في الأصل متناثرة الأوصال في كل تلك المصادر والمراجع المثبتة سواء كانت باللغة الإنجليزية أو بالعربية، وجمعت شتاتها على الشكل المبيّن رسمه في فقرات لتعميم الفائدة المرجوّة وهي رسم لوحة تعريفية بشخص وشخصية هذا الرجل؛ لذا فلا عجب أن جعلت التعريف به في المتن و لم أجعله في الهامش على عادة تخريج الأسماء والأعلام.

(2) ينظر الملحق رقم: (01) صورة اللورد هيدلي، ص362.

منذ السادسة عشرة من العمر، عمل بالتعليم والصحافة فقد كان محرراً لجريدة سايسبرى، وشاءت الأقدار أن يسافر إلى منطقة "كشمير[1]" التي يدين أهلها بالإسلام، وذلك من أجل مشروعات هندسية، وإنشاء طرق وتعمير تلك الولايات على الطرق الحديثة الفنية حيث كان يعمل ضابطاً في الجيش البريطاني ومهندساً وكان ذلك عام 1883م.

وهناك اجتمع بصديق له رمز له باسم الكولونيل!! ولم يذكر إسمه الحقيقي، والذي أهداه نسخة من القرآن الكريم؛ وكان من حين لآخر يطالع ذلك الكتاب فيجد فيه من بساطة الدين الإسلامي المبني على الفطرة الطبيعية الصادقة التي تدفع الإنسان إلى الخير وتنهاه عن المنكر، ما يوافق طبيعة نفسه ويلائم روحه.

وكلما قرأ في ذلك المصحف الكريم اكتشف بنفسه أنّه مسلم دون أن يبشره أحد بالإسلام، ودون أن يدعوه أحد إلى الإسلام؛ وكان إهداء هذا الكتاب هو البداية الأولى على التعرّف الحقيقي على الإسلام.

أعلن هيدلي إسلامه بالهند غير أنّه بقي متخفياً على أمره مع أهله وذويه لمدة ما يقارب العشرين سنة، وبخاصة أقرباءه من جهة زوجته وذلك لأسباب شخصية[2]، وكان له أربعة أولاد، توفيت زوجته وبعض كبار أقاربه في الحرب الأوروبية الشاملة الأولى- الحرب العالمية الأولى-.

وفي 16نوفمبر من عام 1913م أعلن إسلامه في مقر اللجنة العامة لمسلمي إنجلترا، وذلك بما وجده من دعم نفسي ومساعدة من قبل أحد أصدقائه، وفي ذلك يقول:" **أنا أؤمن أن لا إله إلا الله وأؤمن أن محمدًا وموسى وعيسى أنبياء الله لا نفرق بينهم بحسب تعاليم القرآن، وأجد الدين الإسلامي دينًا بسيطًا يفهمه قلبي ويتفق معه عقلي؛ لأني لا أستطيع أن أؤمن بما لا يفهمه القلب ولا يتفق مع العقل وقد خطر لي أن أعلن إسلامي منذ صغري لكني كنت مضطرًا إلى مراعاة عواطف أنسبائي المتقدمين في العمر الذين كنت من غير شك سأجرح عواطفهم،**

---

(1) كشمير(في المصادر العربية القديمة قشمير): بالكسر ثم السكون وكسر الميم وياء مثناة من تحت ساكنة وراء مدينة متوسطة لبلاد الهند مجاورة لقوم من الترك فاختلط نسلهم بهم فهم أحسن خلق الله خلقة يضرب بنسائهم المثل لهن قامات تامة، وصورة سوية، وشعور على غاية السباطة والطول والغلظ، وهي مدينة كبيرة عظيمة لها سور وخندق محكمان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج4 ص352.

(2) لم تفصح المصادر التي ترجمت له عن الأسباب الشخصية هذه ولا عن إسم زوجته وهل أسلمت معه أم لا؟ ولا عن أسماء أبنائه الأربعة وهل أسلموا أم بقوا على دين أسلافهم؟

وأكسر قلوبهم إذا أعلنت أني خرجت عن دينهم الذي يعتقدونه ويعتقدون أن لا خلاص لمن لا يؤمن به، لكن في السنوات الأخيرة قبل الحرب مات جميع المتقدمين في السن من أقربائي، وفي ذلك الحين تعرفت بصديقي خوجه كمال الدين[1] فكنا نتحادث ونتباحث كثيرًا في أمور الدين الإسلامي، ولا أنكر أن له الفضل الأكبر في مساعدتي وإرشادي لإعلاني الانضمام إلى حظيرة الدين الإسلامي، أما زوجتي فقد توفيت منذ زمن طويل ولي أربعة أولاد لهم الخيار في اعتناق أي مذهب يشاءون".

ثم يسترسل في ما قاله عن نفسه وما حدَّثته عن زيارة البقاع المقدّسة وسبب تأجيله ذلك في قوله:" **وإني أفتخر بديني الجديد وأشكر الله عليه فهو دين بسيط جدًّا مفهوم تمامًا، أعرفه كما هو وأعيش بموجبه مسترشدًا بما يوحيه إليَّ ضميري ووجداني؛ وقد كنت عقدت النية على أداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي المصطفى ﷺ في أوائل اعتناقي الإسلام لكن الحرب العالمية الكبرى جاءت فجأة فاضطررت إلى تأجيل زيارتي هذه إلى هذه السنة**[1923م]".

ويقول هيدلي عن أصله ونسبه الشريفين والعلاقة الشرعية التي كانت بين والديه ويعتز أنّه لم يكن ابن سفاح أو ولد خنى ويعتز بدينه الجديد الذي هداه الله إليه فيقول:" **إنني بإسلامي أعتبر نفسي أقرب إلى النصرانية الحقة مما كنت من قبل، ومن يعادي النصرانية الحقة فلا أمل فيه...لم أولد في الخطيئة، ولست مولود سخط وغضب، ولا أحب أن أكون مع الخاطئين... لقد تملك الإسلام لُبِي حقاً، وأقنعني نقاؤه، فأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي، اذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل**".

بعد إعلان إسلامه تسمى باسم سيف الرحمن رحمة الله فاروق، وكان لاشهار إسلامه صدىً واسعاً في بريطانيا، نظراً للّقب الذي يحمله، ولكونه سياسياً بارزاً وعضواً قيادياً في مجلس اللوردات، حيث انتقدته الصحف البريطانية واتهمته في صدق دينه[2]، تفرّغ للكتابة والدعوة وأنشأ

---

(1) خوجة كمال الدين: هو رئيس جمعية هندية تدعو إلى الإسلام في لندن ولها مجلة هنالك ، ويقال :إنه من المعتدلين من شيعة ميرزا غلام أحمد القادياني. محمد رشيد رضا: مجلة المنار، م24، ع5، جمادى الأول 1341هـ/ يناير1923م، ص555.

(2) مثاله ما كتبته جريدة الديلي ميل اللندنية (The Daily Mail) الصادرة في 17 نوفمبر سنة 1913م تحت عنوان "إسلام اللورد هيدلي".

مجلة الإسلام، والتي اتخذ منها منبراً للدعوة وللردّ على ادِّعاءات المغرضين من الغربيين، وكان كثير السخاء والعطاء على المشاريع الخيرية والدعوية.

زار هيدلي البقاع المقدّسة بنيَّة الحج عام1341هـ/ 1923م مع مجموعة من رفقائه وأثناء ذلك قامت مصر ومن كان على إدارتها يومذاك من أشراف رجالها وأهلها، بإقامة حفل بهيج بدأ في الإسكندرية وانتهى في القاهرة، حيث أقام بها ثلاثة أيام، وكانت له في ذلك لقاءات مع علماء المسلمين حيث تَمَّ تكريمه ثم تابع طريقه إلى الحج وقد لقي من الحفاوة وبهجة الإستقبال كذلك هناك مثل ما لقي بمصر، فقد أكرمه وأعطاه الشريف حسين عربة تجرّها الخيل ذهبت به من مكة إلى عرفات وكان فيها مُحْرِمًا حاسر الرأس أصهب الشعر[1].

وقد آلت إليه قيادة الجمعية البريطانية الإسلامية، وكان كثير الأسفار رغم تقدم سِنه وبقي ذلك ديدنه حتى وافته المنية عام 1354هـ/ 1935م وعمره ثمانون سنة[2].

---

(1) ينظر الملحق رقم: (02) صورة اللورد هيدلي بلباس الإحرام، ص363.

(2) للوقوف على مادة تعريف هيدلي ينظر: كُتب هيدلي(وسيأتي ذكرها في الهامش الموالي)، مجلة الإسلام (Islamic Revue) لسنة 1932-1935م [08 أعداد]. خوجة كمال الدين: المثل الأعلى في الأنبياء ﷺ، ترجمة: أمين محمود الشريف، دار الفكر المعاصر بيروت، ط1، 1409هـ/1989م، الهامش 1، ص15-16. ياسر حسين: الإسلام ومستقبل أوروبا، دار الأمين للطبع والنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 1418هـ/1997م، ص102. محمد كامل عبد الصمد: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، مرجع سابق، ج1 ص 30-34. د. عبد المنعم الدالاتي: ربحت محمدا و لم أخسر المسيح، مؤسسة الرسالة دمشق، ط1، 1424هـ/2003م، ص44-45. محمد رشيد رضا: مجلة المنار القاهرة، المجلد17، العدد1، محرم 1332هـ/ ديسمبر1913م، ص34. مجلة المنار، م17، ع3، ربيع أول 1332هـ/فبراير1914م، ص225. مجلة المنار، م18، ع3، ربيع أول 1333هـ/فبراير1915م، ص73. مجلة المنار، م19، ع8، شعبان 1334هـ/ جوان1916م، ص97. مجلة المنار، م24، ع5، جمادى الأول 1341هـ/يناير1923م، ص555. مجلة المنار، م26، ع9، رمضان 1343هـ/أبريل1925م، ص60. مجلة المنار، م27، ع9، رمضان 1344هـ /أبريل 1926م، ص354. مجلة المنار، م28، ع8، شعبان 1345هـ/مارس1927م، ص543. مجلة المنار، م29، ع9، رمضان 1346هـ/مارس1928م، ص344. مجلة المنار، م32، ع6، جمادى الآخرة 1350هـ/أكتوبر1931م، ص280. مجلة المنار، م33، ع11، ذو القعدة 1351هـ/مارس1933م، ص138. مجلة المنار، م34، ع1، رمضان 1353هـ/مايو1934م، ص129. جريدة الديلي ميل اللندنية (The Daily Mail) الصادرة في 17 نوفمبر سنة 1913م تحت عنوان "إسلام اللورد هيدلي". جريدة الملاحظ اللندنية (The Observer) الصادرة في 23 نوفمبر 1913م تحت عنوان "لماذا أسلمت" بقلم اللورد هيدلي.

ألّف اللورد هيدلي العديد من الكتب، كما كتب العديد من مقالاته وبخاصة في المجلة التي أنشأها -مجلة الإسلام- مع مجموعة من إخوانه[1]؛ وقد وقفت على مجموعة من كتبه[2] وكلها باللغة الأم (الإنجليزية) [3] وكذا مجموعة من مقالاته ومقولاته مبثوثة في ثنايا المجلاّت باللغة العربية وأهم تلك المجلاّت المنار، والتي سبق تخريج أعدادها.

اللورد هيدلي والسيرة:

تميَّز اللورد هيدلي، كما هو حال أصحاب الفكر الحر في الغرب، بسعة الأفق والقراءة المتعمِّقة والمتأنية، ولذلك كانت كتاباته حول أي موضوع يطرقه رصينة، ولا يدخل الموضوع محور الكتابة مباشرة بل يقوم بتقديم وتمهيد يجمع فيهما شتات فكر القارئ ثم يوجِّهه، مع إعطاء الأدلة العقلية والواقعية، ثم ياتي بالأدلة النقلية سواء كانت من شواهد الكتب المقدّسة أو من القرآن الكريم

---

(1) ينظر الملحق رقم: (03) نماذج من الصور للأغلفة الخارجية للأعداد الأولى الصادرة سنة 1913م، ص364.

(2) ينظر الملحق رقم: (04) نماذج من الصور للأغلفة الخارجية لبعض كتبه بالإنجليزية، ص365.

(3)- Lord Headley: A Western Awakening To Islam, J.S. Philips 99 Shoe Lane, London.

- Lord Headley: The Three Great Prophets of The World; Moses, Jesus and Muhammad, 1st printed january 1923, London.

- Al Hajj Lord Headley (Al Forooq): The Affinity Between The Original Church of Jesus christ and Islam, London.

- Al Hajj Lord Headley (Al Forooq): Where The East meets West, In *The Islamic Review* issue for June–July 1923, London.

- Al Hajj Lord Headley (Al Forooq): Khwaja Kamal-ud-Din and Lord Headley in Egypt, In *The Islamic Review* issue for September 1923, London.

والسنة النبوية أو من كلام علماء الإسلام أو حتى من كلام علماء الغرب المعتدلين أو أصحاب الفكر الحرِّ فيه.

وذلك ملاحظ في جميع ما كتب حول الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ أو في طريقة تفنيده لمزاعم وافتراءات المستشرقين والغربيين عموماً.

ففي معرض حديثه مثلاً، عمَّا آلت إليه حالة المرأة في الغرب، كتب هيدلي عن تاريخ المرأة في الغرب وكيف كان حالها، ثم كيف كانت طبيعة علاقتها بالمجتمع وعلاقة المجتمع بها ونظرته لها، ثم كيف هي حال المرأة في واقعها وكيف انسلخت عن كل مفيد وعن كل مقدّس، فيَذكُر حتى لباسها غير المحتشم الذي لبسته باسم المودة، ثم ينعطف انعطاف العارف ليذكِّرها بدورها وكيف هي نعمة من نعم الله في هذا الوجود، لذا وجبت المحافظة عليها ثم يسترسل في تقديم الأدلة العقلية والواقعية ثم الأدلة النقلية لتأكيد ما ذهب إليه، ويدعوها كما يدعو المجتمع بنَبرة خفيفة إلى المحافظة عليها لأنها هدية الله للبشرية في هذا الكون وكتب كل ذلك في فصل مطوّل بعنوان: أفضل هدية من الله[1].

ومثله كذلك في السيرة النبوية، فحين طرق أبوابها لم يأت على الحديث عنها مباشرة و لم يفصِّل فيها بقدر ما قام بتقديم معلومات أولية حول الموضوع شارحاً أهمية الأخلاق في حياة النّاس، ومهمة أنبياء الله في الأرض، وأنهم يتلقّون الوحي من مصدر واحد ولا فرق في ذلك بينهم، وإنَّما تفاضلهم قائم على ما جاؤوا به من نور للبشر، واجتهاد كل نبي في إيصال ذلك النور لقومه الذين بُعث فيهم، مثال ما قام به النبي موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام أو محمد ﷺ؛ ثم يأتي على تفصيل حياة النبي محمد ﷺ وما تفضَّل الله به عليه على سائر الأنبياء والمرسلين –عليهم السلام– فيقول:" **والأنبياء والرسل قوم اصطفاهم الله واختارهم وفضلهم على الناس، وبعثهم إليهم مبشرين ومنذرين** كما يقول القرآن الكريم: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾؛ **وقد تَحقَّقتُ بعد طول البحث والاستقراء أن محمداً نبي الإسلام ﷺ لم يكن مدعياً ولا دجالاً كما**

---

(1) Lord Headley: A Western Awakening To Islam, J.S. Philips 99 Shoe Lane, London, Chap 3, pp 48-58.

يدعيه خصومه، ولكن كان رسولاً نبياً جاء برسالة إلهية صادقة لا ريب فيها هدى للمتقين، أوحى الله بها، وكلفه بتأديتها فجاءت مخففة لصرامة التوراة ومكملة لكتاب المسيح عليه السلام"[1].

وهيدلي لم يخصِّص كتاباً بعينه للسيرة النبوية، جاء فيه على حوادثها ووقائعها من البدء إلى المنتهى، كما فعل الكثير من الغربيين الذين كتبوا سيرته ﷺ، وخير ما جمع فيه من وقائع السيرة مجموعة فصول لها علاقة بحوادث السيرة مباشرة وعناوينها دالة عليها، وإنما اختار هيدلي من السيرة ما وضَّح به صورة كانت في أذهان الغربيين باهتة، أو أجلى إشكالاً كان في أذهان المشككين عالقاً، أو ضرب مثالاً ولا يكون ذلك المثال إلا لنبي مرسل على شكل الخوارق والمعجزات ويدلِّل على ذلك بشيء من المنقول والمعقول، وكانت مثل هذه الأمثلة وغيرها كثيرة ومبثوثة في كتب هيدلي التي ألَّفها أو في مجموع البحوث التي نشرها في الجرائد والمجلاَّت[2].

وستقتصر الدراسة حول تلك الفصول كنماذج، لأن معظم ما جاء في تأليفاته هي كلها من وجهة نظر إسلامية صافية لا شوب فيها؛ فالرجل أصبح مسلماً قلباً وقالباً وفكراً وسلوكاً، وكتاباته خير شاهد على ذلك.

فالسيرة النبوية عند هيدلي هي مَجمع الشمائل البشرية وهي خير تطبيق لأوامر الله ونواهيه على يد أكمل البشر، لذا فالنبي ﷺ وسيرته هي المرآة الصافية التي يرى فيها جميع البشر مَجْمع الخير كله ومجمع الفضائل كلّها، وهي القدوة لمن أراد مرشداً، وفي ذلك يقول:" **بما أننا نحتاج إلى نموذج كامل لِيَفي بحاجاتنا في خطوات الحياة، فحياة النبي ﷺ تسد تلك الحاجة، فهي كمرآة نقية تعكس علينا الأخلاق التي تكوِّن الإنسانية، ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة ... خذ أي وجه من وجوه الآداب، تتأكد بأنك تجده موضحاً في إحدى حوادث حياة الرسول** ﷺ"[3].

وهذه نماذج من المحاور الأساسية التي كتب فيها هيدلي وضمَّنها أفكاره ومعتقداته ومنهجه.

---

(1) Lord Headley: The Three Great Prophets of The World; Moses, Jesus and Muhammad, 1st printed january 1923, London, chap 6, pp 97-116.

(2) ينظر جميع أعداد مجلة الإسلام من أول عدد فيفري 1913م إلى آخر عدد شارك فيه سنة 1935م وهي سنة وفاته رحمه الله.

(3) Lord Headley: The Three Great Prophets of The World, chap 1, pp 19-20.

المطلب الثاني: هيدلي وصفاء العقيدة الإسلامية.

كما تمت الإشارة إليه سابقاً في قول هيدلي أنه لم يكن في يوم من أيّام حياته الأولى التي قضاها تحت سقف الكنيسة مسيحياً، ولم يستطع أن يهضم فكرياً ثم عقدياً تلك الأفكار التي نادت بها الكنيسة زمانا ولا زالت تنادي أتباعها بها متخذة شعار"**إعتقد ولا تنتقد**"، وتلك الصراعات التي أدّت إلى انشقاق الصف المسيحي على طول زمان ولم يرتئب صدعه ولم يلتئم جرحه ولا يُرجى بُرؤه.

ثم تلك الطقوس الكهنوتية الجامدة التي يؤديها القساوسة والرهبان في كنائسهم وأديرتهم، ومعتقدات الشعوب الغربية المسيحية التي لا تدين للمعبود إلا في ساعة من يوم في أسبوع تحت سقف الكنيسة أو الدير، ثم تنقطع صلتهم من جديد لتتجدّد في الوقت ذاته والمكان ذاته من الأسبوع الموالي وهكذا وفي هذا المعنى يقول:" **إن طهارة الإسلام وسهولته وبُعده عن الأهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته، كانت كل هذه الأمور أكبر من أثَّرَ في نفسي، وقد رأيت في المسلمين من الاهتمام بدينهم والإخلاص له ما لم أَرَ مثله بين النصارى، فإن النصراني يحترم دينه عادة يوم الأحد، حتى إذا ما مضى يوم الأحد نسي دينه طول الأسبوع... وأما المسلم فبعكس ذلك، يُحب دينه دائماً، سواء عنده أكان هو الجمعة أو غيره، ولا يفتر لحظة عن التفكير في كل عمل يكون فيه عبادة الله**"[1].

ناقش هيدلي بعض أراء المستشرقين في أمر العقيدة الإسلامية والتي أساسها القرآن والسنة، ودحض أراءهم وما ذهبوا إليه ادِّعاءً بالحجة القائمة، وبرهن على صدق العقيدة الإسلامية التي أساسُها عبادة الله الواحد، وليس الثالوث أو تمثال محمد ﷺ كما يدَّعيه هؤلاء، وأن النبي ﷺ قد حارب عبادة الأصنام في كل الجزيرة العربية، وأنه ما سجد لصنم قط، وقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم أو أكثر في ذلك العهد، ثم ختم حديثه قائلا:" **كنت أطَّلع من وقت إلى آخر على كتابات الإرساليات المسيحية التي يطبعونها بشكل كراسات صغيرة، ويدَّعون فيها أنهم يُدْلُون للقراء بمعلومات قيِّمة عن الدين الإسلامي وواضع أسسه ﷺ، وإنَّني لأعترف وأنا عظيم**

---

(1) Ibid, chap 2, pp 33-34. Al Hajj Lord Headley (Al Forooq): The Affinity Between The Original Church of Jesus Christ and Islam, London, chap 7, pp 135-136.

الأسف بأنّني أشعر بذلة عظيمة وخجل شديد عندما أجد أن أحد رجال وطني يضطر إلى الأخذ بالرياء والتمويه والتحريف لكي يعزز آراءه نحو الدِّين، فإن الدِّين الحق يُعلِّم النَّاس العدل والآداب وعدم الافتراء والكذب؛ وإنه ليذهل أن يرى القارئ إلى أي مدى تسير التعصّبات الدينية المسيحية"[1].

ويعلِّق بعدها على هذا الدجل المُدَّعى حول عقيدة التوحيد الصافية من قِبل هؤلاء بأن لا عجب فيه، ويقول:"**لا عَجَبَ أن يكذب المبشرون المنصرون وقد افتروا على الله كذباً، فكم تظاهر اللص بالأمانة والداعر بالاستقامة والزنديق بالتدين، ولكن لا عجَبَ، فقد غاض من وجههم ماء الحياء، وقد قال نبي الإسلام ﷺ: "إذَا لَمْ تَسْتَحِ فاصنع ما شِئْتَ"**[2]**، فلو كانوا يستحيون من أنفسهم أو على الأقل من الناس لَما أقدموا على هذا الادعاء الباطل، والافتراء الواضح"**[3].

ويدعو هيدلي بعد ذلك في هدوء وسكينة كل الدارسين من الإنجليز أو غيرهم من أهل الغرب عامة، إلى التعقُّل وإعمال الفكر النيِّر والبحث المتأني ثم التدبّر قبل إصدار الأحكام على الآخر ومعتقداته والكف عن الكيل له من الادِّعاءات الباطلة والتي لا يسندها دليل حتى تتضح الصورة جليّة ليس فيها شطط؛ فيقول:" **نحن البريطانيين تعوّدنا أن نفخر بِحُبنا للإنصاف والعدل، ولكن أي ظلم أعظم من أن نَحْكم –كما يفعل أكثرنا– بفساد الإسلام قبل أن نلم بشيء من عقائده، بل قبل أن نفهم معنى كلمة الإسلام؟"**[4].

---

(1) اللورد هيدلي: مطاعن المبشرين في صاحب الرسالة ﷺ، مجلة المنار، م29، ع9 رمضان 1346هـ/ مارس1928م، ص344.

(2) خرَّج الحديث أكثرمن واحد، فعن أحمد بن يونس حدثنا زهير حدثنا منصور عن ربعي بن حراش حدثنا أبو مسعود قال: قال النبي ﷺ : "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت" صحيح البخاري ،مصدر سابق، ج5 ص2268، الحديث رقم:5769. باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

(3) اللورد هيدلي: المرجع السابق، م29، ع9 ص345.

(4) اللورد هيدلي: المرجع السابق، م17، ع1 ص34.

المطلب الثالث: هيدلي ومنهجه في بيان أخلاق الرسول ﷺ.

تغمر مشاعر المحبة كل جوانح هيدلي وهو يتحدَّث عن أخلاق الرسول ﷺ وكيف سمت به إلى أن جعلته كاملاً في كل حركاته وسكناته، مع ما صاحب تلك المحبة موقف الإعجاب الذي كان مصدره تلك النفس العالية والتي لا تعرف الكلل ولا الملل في سبيل إعلاء كلمة الله وهداية الخلق إلى الحق والتي تمتَّع بها ﷺ.

وتزداد تلك النفس العالية كمالاً ويتعاظم معها القدر إجلالا لَمَّا تعفو وتصفح عن أكابر المجرمين من خصومها ومحاربي العقيدة، وقد كان هؤلاء الأعداء في يوم قوتهم وضعف غريمهم ينوون قتله والتنكيل به بل لقد باشروا فعل القتل بتدبير المكيدة، ولكن يد الله فوق أيديهم؛ فيقول:"**كان ﷺ مثابرًا في عمله لا يخشى لومة لائم؛ لأنه كان يدرس المسؤولية التي ألقاها الله تعالى على كاهله، وقد أثارت تلك الشجاعة التي لا تعرف الجفول –تلك الشجاعة التي كانت حقًّا إحدى مميزاته وأوصافه العظيمة– إعجاب واحترام الكافرين، وأولئك الذين كانوا يحاولون قتله، ومع ذلك فقد انتبهت مشاعرنا وزاد إعجابنا له في حياته الأخيرة أيام انتصاره بالمدينة عندما كانت له القوة والقدرة على الانتقام واستطاعته الأخذ بالثأر ولم يفعل من ذلك شيئًا بل عفا عن كل أعدائه؛ إن العفو والإحسان والشجاعة والحلم كل ذلك كان يرى منه في خلال تلك المدة، وإن عددًا عديدًا من الكافرين اهتدوا إلى الإسلام عند رؤيتهم ذلك؛ عفا بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذَّبوه؛ آوى إليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة وأغنى فقراءهم وعفا عن ألدِّ أعدائه عندما كانت حياتهم في قبضة يده وتحت رحمته؛ تلك الأخلاق الربانية التي أظهرها النبي الكريم ﷺ أقنعت العرب الكافرين بأن حائزها لا يمكن إلا أن يكون مرسلاً من عند الله وأن يكون رجلاً هاديًا إلى الصراط المستقيم، وإن تلك الأخلاق المُضَرِيَّة الشريفة حولت كراهيتهم المتأصلة في نفوسهم إلى محبة وصداقة متينة**"[1].

(1) اللورد هيدلي: المرجع السابق، م29، ع9 ص346.

المطلب الرابع: هيدلي ومنهجه في ردِّه فِرية استعمال الرسول ﷺ للسيف والقوة.

يردُّ هيدلي على هذه الفرية كما هو معهود عليه ومشهود له، بالرّصانة والجدية مع الأدب الرفيع في التصدي بالمنطق العقلاني، لأن مثل هذه الإدِّعاءات ما ثبتت يومًا في حياته ﷺ، بل العكس من ذلك هو الثابت، ولا ثبتت حتى في تاريخ الإسلام بعد ذلك بعد أن فصل القرآن في ذلك بأنه لا إكراه في الدين وأن النّاس يولدون أحراراً.

ومبدأ الحرية مقدّس، فلا يجوز بأي حال من الأحوال التعدي عليه، فيقول:"**لا أظن أبدًا أن المسلمين اجتهدوا في حين من الأحيان أن يحشروا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية في حلوق الناس وصدورهم بالقوة والفظاعة والتعذيب، وإذا كان هناك مثل هذه الحالات فحينئذ يمكننا أن نقول: إن مرتكبي هذه الآثام ليسوا بمسلمين مطلقًا؛ لأننا لا نستطيع أن نقر بأن القرآن الشريف يصادق على أفعالهم. إن محمدًا ﷺ كان قانونيًّا ومحاربًا وعندما امتشق الحسام هو وتابعوه لم يكن ذلك إلا للدفاع عن أنفسهم فقط، ولم يعتدوا قط على أحد، والسيرة النبوية تثبت لنا ذلك. نحن نعتبر أن نبي بلاد العرب الكريم ﷺ هو ذو أخلاق متينة وشخصية بارزةحقيقية وزنت واختبرت في كل خطوة من خطى حياته، ولم ير فيها أقل نقص أبدًا وبما أننا باحتياج إلى نموذج كامل يفي بحاجاتنا في معترك هذه الحياة فحياة النبي ﷺ المقدس تسد تلك الحاجة**"[1].

وفي موضع آخر جاء ردُّه مفحماً للخصوم وبيّن فيه أن الرسول ﷺ ما امتشق السيف إلا لردِّ عدوان المعتدين والقائمين سَداً وحاجزاً أمام دعوة الخلق للحق فيقول:"**لم يشهر محمد ﷺ السلاح إلا حين الحاجة القصوى لحماية الحياة البشرية، ولربما يدَّعي بعض المبشرين أن الإسلام استعمل السيف في نشر الدين، ولكن لحسن الحظ عجز ألدُّ أعداء الإسلام القادحين عن أن يأتوا بأقل دليل أو مَثل من الأمثلة التي أثَّرت فيها الحرب على هداية قبيلة واحدة أو شخص واحد؛ إن هذه الوقائع كانت سببًا لإظهار كرم أخلاق محمد ﷺ الذي امتلك كل قلوب مواطنيه، والذي كان أشد تأثيرًا في الهيئة من أي شكل من أشكال الإكراه، وقد أظهرت تلك المعاملة النبيلة السامية التي كان يعامل بها النبي ﷺ المنهزمين عجائب وغرائب أدهشت العالم أجمع**"[2].

---

(1) اللورد هيدلي: المرجع السابق، م29، ع9 ص347.

(2) اللورد هيدلي: المرجع السابق، م29، ع9 ص350-351.

المطلب الخامس: هيدلي ومنهجه في ردِّه فِرية شهوانية الرسول ﷺ.

لقد لفت انتباه هيدلي لمثل هذه الفرية سؤال أتاه في كتاب من نصراني متمسك بدينه يقول له فيه: "**إن الإسلام هو دين شهوات، وإنه كان لنبيِّه عدة زوجات؟!!**".

فردَّ هيدلي في نفسه متمتماً: "**ما أعجبها من فكرة عن الإسلام!!**"؛ غير أنّه أدرك بعد ذلك بُعْد مثل هذه المقولة في واقع النّاس في الغرب وما يروِّجه المستشرقون وأعداء الإسلام لمثل هذه الفرية.

وقرّر بعد أن رأى: " **أن مثل هذه الفكرة هي السائدة والمنطلية على عقول تسعة وتسعين من كل مائة بريطاني، فإنهم لا يتعبون أنفسهم في البحث عن حقائق دين يدين به مائة مليون من إخوانهم الخاضعين لهم**"[1]؛ أن يردَّ عليهم رداً واقعياً تاريخياً يتماشى وقدر النبي محمد ﷺ.

خاطبهم بقوله:" **نبيّ العرب المقدس كان على الأخص حصورًا عن الشهوات طاهرًا، فكان مخلصًا لزوجته الوحيدة خديجة التي كانت أكبر منه بخمس عشرة سنة، وكانت أول من آمنت ببعثته؛ وبعد موتها تزوج عائشة ثم تزوج أيضًا عدة أرامل لأصحابه الذين قتلوا في الحرب**".

ثم بيَّن لهم سبب زواجه ﷺ من كل تلك النسوة وأنه لم يكن شهوانيا و:" **لا لأنه كان له أدنى رغبة فيهن بل ليعولهن ويقوم بكفالتهن ويرفع مقامهن إلى منزلة ما كن يصلن إليها بغير ذلك؛ وكان عمله هذا ملتئمًا مع بعده عن الأنانية، ومع حياته الشريفة العالية؛ وكان من شدة زهده في هذه الحياة أنه ما كان يملك ما يكفيه من العيش**"[2].

المطلب السادس: هيدلي ومنهجه في ردِّه فِرية عبادة الرسول ﷺ للأصنام.

كثيرا ما يردِّد مثل هذه الأفكار والإدِّعاءات المستشرقون ومن سار في فلكهم، ظناً منهم أن إشاعتها لا محالة منقصٌ من قيمة شخص محمد ﷺ وطعنٌ فيما يدَّعيه من دين بزعمهم، غير أنه من الثابت تاريخياً أن الرسول ﷺ ما سجد لصنم ولا عبد وثناً، وهو الذي كلأته العناية الإلهية من قبل أن يولد وحين ميلاده وما كان بعد ذلك من أحداث في حياته ﷺ.

---

(1) هذا العدد يمثل سكان البلاد الإسلامية التي كانت خاضعة لإنجلترا الإستعمارية في ذاك الزمان وليس عدد المسلمين في العالم.

(2) اللورد هيدلي: المرجع السابق، م17، ع1 ص36. و Lord Headley: A Western Awakening To Islam, Chap 2, pp 35.

وقد انزعج هيدلي من مثل هذه الأقوال والإدِّعاءات والتي كثيراً ما كانت تُبثُّ في كتيِّبات التبشير الكنسي والتي توزِّعها الكنيسة مجاناً على روادها يوم الأحد، فكتب قائلاً:"**لقد اتهم بعض المسيحيين النبي محمد ﷺ بعبادته للأصنام في طفولته وصباه وكذا في شبابه، غير أنّ كل هذا ادِّعاء ولا يصح ويفتقر إلى أدنى دليل ومرتكز، زاعمين في ذلك أنه وقع ذلك عندما خرج الفتى مع عمه أبي طالب إلى الشام وكان عمره آنذاك عشر سنين أو أحد عشرة سنة، ولم يقع له ذلك أبدا، ويعزِّز ذلك سؤال أبي طالب لأخيه العباس بأنه لم يَرَ محمدَ يسجد لصنم قط، ولا شهد عليه كذب ولا رآه يثرثر ولا كسلان**"[1].

ويستمر هيدلي في توضيح هذه الصورة على حقيقتها للغربيين عموماً والمبشرين على وجه أخص فيقول:" **لقد عاف محمد ﷺ وهو في صباه كل تقاليد المحيط المنحطّة، وحتى ما كان يفعله أترابه من سلوكات، فكان متميِّزا حتى في لباسه الذي كان نقياً وعلى خلاف أترابه من أبناء عمّه أبي طالب، وطبيعته الجانحة للسلام جعلته مرتاحاً ويعلوه الوقار ولا يهتم بالأشياء التافهة فكان مميّزا بين أبناء جيله؛ وما كان شرهاً ولا ملحاحاً في طلب الأكل والشرب**"[2].

ويضيف هيدلي إلى كل ما سبق ذكره من صفات وخصال حسنة ميّزت حياة الطفولة والصبى للرسول ﷺ أنه اتصف بالصدق والجدية حتى لقبوه بعد ذلك بالصادق الأمين، وقد كان كذلك طول حياته، فيقول:"**وملاحظة جديرة بالتنويه وهي أن حياته ﷺ كانت كلها صدقاً وجِدا حتى لُقِّب بالصادق الأمين**" The Trusty" **وبقيت هذه الصفة ملازمة له طول حياته؛ وكان وافر العقل يساعد في حل مشاكل بيئته لتفادي أي خصام أو إراقة دم، وقصة تحكيمه في وضع الحجر الأسود في مكانه لما تصدّعت جدران الكعبة–البيت العتيق– لخير دليل فقد حفظ دماء قومه وأطفأ حرباً كادت أن تكون**"[3].

وقد شنَّ الرسول ﷺ حملة كبيرة على عبادة الأصنام، فما توانى في ذلك لحظة منذ بعثته، حتى أن قومه الذين لقبوه بالصادق الأمين لم يستصيغوا ذلك فجاهروه بالعداء والحرب من أجل تلك

---

(1) Lord Headley: The Three Great Prophets of The World; chap 6, p 100.

(2) Ibid. chap 6, pp 100-101.

(3) Ibid. chap 6, pp 101-102.

الأصنام، يقول هيدلي:"**إن الهمّة العظيمة التي لا تَعْرِف الكلل أو الوهن التي كان يبذلها النبي الكريم ﷺ لمنع عبادة الأصنام قد أثارت معارضة مريعة ضده، فلم تكن هناك قبيلة من قبائل العرب بدون معبود صنمي، وقد أشعلت كل قبيلة لظى الحرب كي تؤيد أصنامها وتحميها**"[1].

وإذا كان هيدلي بعد إسلامه وتشرّبه من معين الحق والصدق الشيء الكثير من الإيمان والتقوى مع ما لازمهما من إخلاص لدينه والعمل له، وكتبه وآثاره دالة على ذلك، وهو غير متهم، إلا أن نشأته الغربية ومحيطه الأسري والمحيط العام، وكذا بعده عن اللغة العربية وعدم امتلاك ناصيتها، جعل كل ذلك من بعض ما كتب وخاصة ما كان حول السيرة النبوية أن وقع في بعض الأخطاء وأنه تأثر ببعض الأفكار الموروثة، وإن كان في ذلك غير قاصد ولا متعمّد، لذا وددت أن أنبِّه على تلك المآخذ والأفكار وإن كانت في الأصل قليلة ومعدودة.

المطلب السابع: مآخذ هيدلي في كتابته للسيرة النبوية.

1_ زواجه ﷺ من خديجة: ردّد هيدلي قول بعض المستشرقين الذين ناصبوا محمدَ ﷺ العداء، من غير أن يدري، وذلك بتهمتهم إيّاه أنّ زواجه كان من السيدة خديجة زواج طمع في الاستغناء من مالها ورفع مقامه الاجتماعي، علماً أن مكة في ذلك الزمان كانت حاضرة المال والأعمال التجارية؛ ومن لا يملك نصيباً من المال يرفع له مقامه في الأسياد بقي خادماً وعالة على غيره. وقد مرّت مثل هذه الأفكار فيما سبق من البحث وتّمت مناقشتها[2].

وأما قول هيدلي الذي ردَّده فهو:" **إنّ محمدَ ﷺ بزواجه من خديجة، هذا الزواج الذي كان مُسعِداً ومُفرحاً للطرفين، قد انتهت متاعبه المالية... إن هذا الزواج قد رفع قدر محمد بين التجار وحسن من وضعه الاجتماعي في مكة** "[3].

2_ ما كُنتَ تَدْرِي ما الكِتَابُ ولا الإيمان: إن حقيقة الرعاية الإلهية لمحمد ﷺ من قبل أن يولد وحينها وبعدها، لا مراء فيها ولا جدال، غير أنّ القول بأنه ﷺ كان يعلم بعقله الثاقب أو بفكره

---

(1) اللورد هيدلي: المرجع السابق، م29، ع9 ص350-351. و

The Three Great Prophets of The World; chap 6 p106

(2) ينظر منهج مونتغمري واط في كتابته للسيرة من هذا البحث جزئية المنهج العلماني.

(3) Lord Headley: The Three Great Prophets of The World; chap 6, p 103.

الخلاق بطلان ديانة العرب الوثنية أو تحريف كتب اليهود والنصارى، فهذا ما لا يجوز في حقِّه ﷺ، ولعلَّ التأثيرات الناشئة من المحيط أو الترسبات الفكرية والعقدية لدى هيدلي، هي التي جعلته يقول من غير قصد أن:" **محمد بنظره الثاقب، قد ميَّز بين ما كان عند اليهود والنصارى من ديانة، وبين ما كان يعبد قومه من أصنام وأوثان، فعلم أن ذلك ضلال وأنّه دين محرَّف ولا يمكن أن يقبله**"[1].

وقد جاء القول الفصل في أن النبي ﷺ لم يكن يعلم ذلك من قبل أن يوحى إليه في قوله تعالى:﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [القصص:86]؛ وقوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[الشورى:52].

3_ ما كان محمد يوما مَلِكاً ولا إمبراطوراً: إن الانسياق وراء المصطلحات العامة المتداولة في أي فن معرفي دون وضعها في نسقها المعرفي وتحديد مجالاتها العلمية بالاضافة إلى وضعها في إطارها التاريخي الزمكاني، قد تضع الباحث أو الكاتب في حرج المساءلة، إن لم تقوِّض أركان ما كَتَب، فوصف محمد ﷺ مثلاً بالزعيم أو المصلح أو المَلِك أو الإمبراطور، هي من الصفات الناقصة والمنقصة من حق النبي ﷺ والنبوة، وقد استعمل هيدلي مثل هذه الأوصاف ظناً منه أنها من الأشياء التي تزيد في المدح والرفعة، وهو في ذلك غير متقصِّد.

ففي معرض حديثه عن فتح مكة وما دانت له أرض الجزيرة لأمر الإسلام وما آل إليه من أمر قادتها ورؤساء قبائلها، والفتوحات التي فتح الله بها على دينه في أرضه، جاء وصفه للنبي ﷺ على أنه:" **المسيطر والمورِّث لأهل دينه إمبراطورية، وترك جانبهم مهاباً من جهتين، جهة القوة المادية وجهة القوة الروحية**"[2].

---

(1) Ibid. chap 6, p 103.

(2) Ibid. chap 6, p 114, p116.

الباب الثالث:

كارين أرمسترونغ و كتاباتها في السيرة النبوية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثالث:

كارين أرمسترونغ وكتاباتها في السيرة النبوية في الميزان.

الفصل الأول: التعريف بكارين أرمسترونغ وبمنتوجها العلمي.

الفصل الثاني: ترسبات الموروث الحضاري الإستشراقي في فكر أرمسترونغ.

الفصل الثالث: مفترق الطرق بين أرمسترونغ وبين المدرسة الاستشراقية الإنجليزية المعاصرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثالث: كارين أرمسترونغ وكتاباتها في السيرة النبوية في الميزان.

الفصل الأول: التعريف بكارين أرمسترونغ وبمنتوجها العلمي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة:

إن الحقيقة البادية للعيان والمستقرة في الوجدان والتي لا مراء فيها ولا جدال، هي تلك المكانة الرفيعة التي تحتلها شخصية الرسول محمد ﷺ في تاريخ الإنسانية عموماً، وفي تاريخ الإسلام على وجه الخصوص؛ فشخصه ﷺ هو ثاني ركيزة مثبتة عقدياً بعد الإقرار بالوحدانية لله.

بل إن هذا الإقرار لايتم ولا يُقْبَل من صاحبه إن لم يتم اقترانه بهذه الركيزة، فهو متعلّق بالإقرار بنبوّة محمد ﷺ؛ لذا فإن مركزية شخصية النبي محمد ﷺ في المجتمعات الإسلامية تاريخاً وثقافة ووجوه حياة مختلفة، فضلاً عن مركزيتها في الدين الإسلامي عقيدة، فالمسلم لا يؤمن ولا يكتمل إيمانه حتى يشهد بأن محمداً عبد الله ورسوله ﷺ.

كما أنّ له عبادات يتأسى فيها بالنبي ﷺ في كل ما يؤدّيه منها في حياته اليومية، من صلاة وصوم وزكاة وحج وغيرها، ومعاملات يلتزم فيها بسنّته ﷺ وما صدر عنه من قول أو فعل أو صفة أو تقرير، ومكارم أخلاق لأنه جَسَّد الإسلام إنسانياً وواقعياً وأنه كان باستمرار الدليل الحي على جدوى اتباعه طريق حياة.

وهكذا اتّخذت سنّته ﷺ مصدراً أساسياً من مصادر التشريع على أساس أنه لا ينطق عن الهوى، وأنه في كل ما أتاه كان يلتزم التوجيه الإلهي، وباتت محبته مُحركاً فعالاً في حياة المسلمين.

لذا فلا غرو إن وجدنا الاهتمام الكلي والمستمر من قِبل المسلمين بحياته وسيرته ﷺ، وقد سبق القول في أن البشرية بحاجة إلى أخلاق وسلوكات وفضائل حميدة ولكن تكون كلها مجسّدة واقعياً في شخص بشر، ولن توجد مثل تلك المحامد مجتمعة ومكرّسة واقعياً إلا في سيرته وحياته ﷺ؛ ومن هنا جاءت أهميتها وسبب اهتمام المسلمين بها.

ومحمد ﷺ هو النموذج الإنساني الكامل الذي باشر الحياة بما فيها، بأفعال وأقوال بشرية غير أنّها منزّهة عن الزلل والخطإ، لذا لم يكن هذا النموذج الكامل مقصوراً على فئة معيّنة أو جماعة بعينها، بل الإنسانية مجتمعة تحثو على ركابها لتتعلّم من معلِّمها الكامل الموحى إليه ﷺ.

وإذا كان المسلمون قد اهتمّوا بشخصه ﷺ وبسيرته لأنهم أتباعه، فإن فريقاً آخر من البشرية كان له كذلك هذا الاهتمام بهذه الشخصية المتكاملة، وفي ذلك الاهتمام اختلفت توجّهاتهم

ونظراتهم ونظرياتهم، وتقطّعوا أمرهم في ذلك زبرا كل حزب بما لديهم فرحون، هم الغربيون عموماً وعلماؤهم الموصوفون بالمستشرقين على وجه الخصوص[1].

وقد أولى المستشرقون لسيرته ﷺ من الأهمية الشيء الكثير، وكلٌ نظر إليها من زاويته التي يؤمن بها ويريد أن يتقمّص من خلالها هذه الشخصية ثم ينزلها على الواقع الذي هو في مُخيِّلته، فتعدّدت في ذلك أوصافهم له ﷺ كما تعدّدت بعد ذلك أحكامهم عليه[2].

وقد شهدت المرحلة الأخيرة من تاريخ الغرب وبخاصة القرن الماضي (القرن 20م) والذي يمثل منعرجاً حاسماً في تطور وبلورة الصورة المرسومة في مُخيِّلة الكُتّاب الغربيين لشخص النبي محمد ﷺ، فقد شهدت ارتقاءً نسبياً ولكنّه نوعيٌّ إذا ما قيست بتلك التي توارثتها أوروبا عموماً عن أسلافها من قرون خلت[3].

ورغم هذا الاهتمام وتلك التآليف الموجودة والتي توارثوها فهي لا تكاد تُعدُّ شيئاً إذا ما قيست بالصورة القاتمة والباهتة والمشوَّهة والراسخة في أذهان الغربيين عموماً، حتى قال بعضهم:"

---

(1) تأكيداً لذلك يقول أحد الباحثين:" إن اشتغال غير المسلمين بعلوم المسلمين يفتقر إلى عامل مهم في الدراسة الموضوعية والمنهجية، وهو الانتماء لهذه الثقافة التي تنبع منها تلك العلوم والمعارف التي يدرسها غير المسلمين. وليس الانتماء مقصودا لذاته معيارا للقبول أو الرفض، إلا أن كونها صادرة عن بشر فهي تخضع لمقابلتها بالمعيار الذي تقاس عليه هذه الإسهامات، وهو مأخوذ من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وهذا المعيار ليس معتدا به لدى كثير من المستشرقين لأنهم لا يؤمنون به، أي لا ينتمون إليه، مما يؤثر على النتائج التي يتوصلون إليها". إبراهيم النملة: الاستشراق والدراسات الإسلامية، مرجع سابق، ص125.

(2) جاءت أوصاف تلك الدراسات والأحكام الناتجة عنها في قول أحدهم:" وهكذا ففي الوقت الذي يتصف فيه الباحث الأوروبي أثناء دراسته للأديان والحضارات الأخرى بالرصانة والاتزان، وفي أحيان كثيرة بتقدير وإكبار وِدِيِّين، نراه يتنكر عند بحثه في الإسلام لهذا المنهج، فتعمل المحاباة العاطفية فعلها في هذه الرصانة الغربية بصورة تكاد تكون دائما وثابتة، فتضطرب وتختل، فتتنكب الحق وتحيد عن الصواب". د.عرفان عبد الحميد: دراسات في الفكر، مرجع سابق، ص133.

(3) وهذا ما أكده غير واحد من الباحثين بقوله:" إن ما يفكر الغربيون فيه ويشعرون به نحو الإسلام اليوم، متأصل من انفعالات وتأثيرات ترجع إلى خبرات سابقة عميقة الجذور في الفكر الأوروبي فهي تعود إلى فترة الحروب الصليبية والقرن الذي سبقها مباشرة، أي أنها حقبة الألف سنة الأولى من التاريخ المسيحي والتي وصفها محمد أسد بالطفولة المبكرة للمدنية الغربية". د.عرفان عبد الحميد: المرجع السابق، ص133.

هناك ندرة مذهلة في الكتب التي تتناول سيرة محمد [ﷺ] بين أيدي عموم القراء عندنا في الغرب"[1].

إلا أنّ أسباباً عديدة تدعوا الغربيين عموماً والمختصين في هذا النسق المعرفي تحديداً إلى إضفاء شيء من الجدية في الأبحاث والدراسات حول الإسلام وسيرة نبيِّه ﷺ، والتي هي كثيرة إلا أننا نذكر جملة منها لتأكيد الفكرة والتي منها:

أ- **الاطلاع المتنامي للغرب** على المصادر الإسلامية للسيرة النبوية، وذلك بعد العمل الكبير الذي قام به مجموعة من أبنائهم المستشرقين في البحث والتحقيق والنشر.

ب- **الاحتكاك الواسع** مع جل الشعوب الإسلامية على اختلاف بلدانهم بعد انقشاع ظلمة واندحار ظُلاَّم الإستعمار عن الأراضي العربية والإسلامية، وما صاحب ذلك من تطور في وسائل النقل والاتصال والتي سهّلت عملية التواصل اليومي والمباشر، بالاضافة إلى الاحتكاك المباشر داخل المجتمع الغربي مع الجالية الإسلامية أصلية كانت أم وافدة.

ج- **إطِّلاع الغربيين عموما** والمهتمين بهذا الفن المعرفي خصوصاً على إنتاج المسلمين وكتاباتهم حول السيرة، سواء كان باللغات الغربية أو المترجمة أو العربية أصلاً.

د- **إطِّلاع الغربيين** على كتب الردّ أو النقد التي ألّفها العرب والمسلمون في بيان عيوب ونقائص كتابات ومناهج المستشرقين حول السيرة النبوية خصوصاً.

هـ- **تباعد الشُقّة** بين كتابة السيرة النبوية في مناهج الغربيين وبين كتابة السيرة عندهم أو ما يعرف بـ: Biography من تطورات، هذه التطورات وللأسف الشديد لم تمس سيرة وشخص النبي محمد ﷺ و لم تحسِّن الصورة النمطية المرسومة في الغرب[2].

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، محاولة جديدة لفهم الإسلام، ترجمة: محمد الجورا، دار الحصاد دمشق، ط1، 2002م، ص18.

(2) يقول مونتغمري واط:" منذ القرن الثاني عشر جد الباحثون من أجل تقويم الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا للإسلام، ولكن ورغم الجهد العلمي المبذول فإن آثار الموقف المجافي للحقيقة والتي ولدتها كتابات القرون الوسطى في أوروبا لا زالت قائمة، فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتثاثها كليا".

Muhammad, Prophet And Statesman,oxford,1961,p3

و- **النظريات المعرفية الحديثة** والتي قدّمها مجموعة من العرب والمسلمين في الغرب عن صلة الشرق بالغرب والعكس، مع ما صاحَبَها من تطورات في حقول المعرفة الإنسانية والمتصلة بما يعرف بدراسة ثقافة الآخر The other والتي كانت لها انعكاسات كبيرة وإيجابية ولكنّها للأسف لم تخدم سيرة النبي محمد ﷺ لا من قريب ولا من بعيد مع بعض الإستثناءات[1].

ولَمَّا كانت الدعوة ملحَّة للغربيين للكتابة عن سيرة النبي محمد ﷺ لمعرفته وبيان حياته، فقد انبرى لها مجموعة من أبناء الغرب لا سيما الإنجليزيون منهم، وقد تمَّ ذكر البعض منهم في مباحث سابقة كعيِّنات وشاهد عيان، وتمَّ بيان ما لهم وما عليهم وإن كانت الدراسة قد خصت الجانب السلبي – لغلبته أكثر في كتاباتهم- منه للجانب الإيجابي، وغيرهم كثير.

والحقيقة التي يجب التأكيد عليها حتى يكون الحُكم علمياً وعادلاً أن من أولئك وعلى مَرِّ الزمن من كان منهم قادراً على بلوغ رسم صورة النبي ﷺ وكتابة سيرته أقرب ما تكون إلى الحقيقة والواقع بنظرة متوازنة أو أقرب إلى التوازن، لكن هؤلاء وأولئك كانوا دائماً قِلَّة في تاريخ الغرب[2].

ومن هؤلاء القِلِّة، **كارين أرمسترونغ** نموذج هذه الدراسة، والتي أبدت النية الحسنة في تأليفها حول السيرة النبوية والتي أدّعت أنّها ستتلتزم منهجاً هو أقرب إلى الوسطية والعلمية منه إلى التطرف والأحكام المسبقة، والتي أَلِفه المستشرقون حين طَرْقِهم لأي موضوع ذي صلة بالإسلام والمسلمين، إلا أنّنا لا نستبق الأحداث ونحكم بذلك لها إلا بعد البيان والوقوف على ما ادَّعت وطبَّقت في كِتاباتها فيما هو آت من جزئيات البحث.

---

(1) ينظر مثال ذلك ما قام به عبد اللطيف الطيباوي رحمه الله حين إقامته بإنجلترا ومناقشته لكبار المستشرقين هناك، فتجربة الطيباوي والتي تكاد تكون فريدة من نوعها حيث كشف خبايا الإستشراق وخطط المستشرقين وأساليبهم في التأليف والتعليم، فقد طالت معايشته للإستشراق الإنجليزي تحديداً ودارت بينه وبينهم مساجلات لسانية وجلسات فكرية وجدالات وكشف حتى عن المؤامرات التي حاكوها ضده وما ذلك إلا أنه قال كلمة الحق فيهم وقد سجّل كل ذلك في كل ما كتب ونشر، ومثاله لا الحصر كتابه: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، مرجع سابق، ص5 وما بعدها.

(2) ينظر مثاله ما ذكر من أسماء المستشرقين في هامش 1-4 من مبحث الهدف العلمي من هذا البحث كعيِّنات ويضاف لهم توماس كارليل(1210-1299هـ/1795-1881م): فيلسوف، مؤرخ وأديب إنجليزي، من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر تأثر بجوته وشيلر وترجم بعض أعمالهما، آمن كارليل بدور البطولات والشخصيات القيادية في صناعة التاريخ وإصلاح المجتمعات فكتب الأبطال والبطولة في التاريخ. توماس كارليل: محمد المثل الأعلى، ترجمة: محمد السباعي، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 1993م، ص8.

المبحث الأول: كارين أرمسترونغ: المولد، النشأة والحياة العلمية.

كارين أرمسترونغ إنجليزية الأصل والموطن[1]، ولدت يوم الثلاثاء 29 ذو القعدة 1363هـ الموافق لـ 14 نوفمبر 1944م، في مدينة وايلدمور Wildmoor بمقاطعة وورسسترشاير Worcestershire بإنجلترا، تنحدر أصولها من عائلة إيرلندية الموطن والجذور، وبعد مولد كارين نزحت الأسرة في أول أمرها نحو مدينة برومسغروف Bromsgrove ثم بعد ذلك نزحت من جديد نحو مدينة بيرمنغهام Birmingham[2].

تلقت تعليمها الأول في مدارس عادية كأي طفل إنجليزي، ثم ما لبثت أن دخلت عالم الرهبنة، وقد قضت فيه ما يقارب سبع سنوات، وكان ذلك بمدرسة الطفل المسيحي المقدّس الاجتماعية من سنة 1962م إلى سنة 1969م، غير أنّها ضجرت من حياة الرهبنة، ولم تجد فيها طريق الخلاص ولا الراحة النفسية.

تركت كارين وراءها ذلك الموروث الديني، وخرجت إلى عالم آخر عساها تجد مبتغاها، فالتحقت بثانوية القديسة آن St Anne's College التابعة لجامعة أوكسفورد[3]

---

(1) مثلما فعلت مع اللورد هيدلي في تأخير تخريج مصادر ومراجع التعريف به فقد أرجأت جميع مصادر ومراجع التعريف بكارين أرمسترونغ كذلك في آخر هذا المبحث لأن جميع الفقرات والمعلومات المثبتة هي في الأصل كذلك متناثرة وغير مجتمعة في كل تلك المصادر والمراجع المثبتة سواء كانت باللغة الإنجليزية أو بالعربية، وجمعت شتاتها على الشكل المبيّن رسمه في فقرات لتعميم الفائدة المرجوّة وهي رسم لوحة تعريفية بشخص وشخصية هذه الكاتبة؛ لذا فلا عجب أن جعلت التعريف بها في المتن ولم أجعله في الهامش على عادة تخريج الأسماء والأعلام.

(2) ينظر الملحق رقم (05): الخريطة السياسية لإنجلترا لمعرفة مواقع المدن التي ذُكرت سلفاً والتي سيأتي ذكرها، ص366

(3) جامعة أوكسفورد: أنشئت جامعة أكسفورد في القرن الثاني عشر الميلادي، وهي أقدم جامعة في بريطانيا وتقع في مدينة أكسفورد بإنجلترا، وتبعد 80كم شمال غربي لندن. ويبلغ عدد طلابها أكثر من 13,000 طالب. وتتألف من 35 كلية وخمس قاعات خاصة. أسستها جماعات دينية مختلفة. هناك كليتان من مجموع الـ 35 كلية مخصصتان للنساء، وهما كلية سانت هيلدا، وسومر فيل. أما باقي الكليات فهي للنساء والرجال معًا. ومن هذه الكليات كلية أوسولز، وكرايست تشرش، وجيس، وسانت مارجريت هول، ومودلن، ونفيلد، وسانت جون وترينيتي.كل كلية من هذه الكليات هيئة متضامنة ومستقلة عن الجامعة، ويديرها رئيسها الخاص وأعضاء الكلية. ومعظم هؤلاء الأعضاء من هيئة التدريس يطلق عليهم إسم المرشدين، أما باقي الأعضاء فهم إما أساتذة أو أساتذة مساعدون وإما محاضرون. وتهتم كل كلية بأبنيتها وممتلكاتها، وتنتخب أعضاءها، وتختار وتقبل الطلاب الذين يودُّون الالتحاق بها. توفر الجامعة بعض المكتبات والمختبرات والمرافق الأخرى، ولكنها تولي تثقيف الطلبة ورعاية شؤونهم العامة اهتمامًا أوليًا وأساسيًا.أما البرنامج التعليمي، فأي طالب في الجامعة له مرشد يشرف على برنامجه التعليمي، من خلال اللقاءات الشخصية. وهي عبارة عن اجتماعات أسبوعية لطالب أو اثنين مع مرشدهم وبإمكان

Oxford University، أين تخصّصت في الأدب الإنجليزي، غير أن تكاثف مجموعة أسباب جعلتها تترك مقاعد الدراسة مرة أخرى و لم تكمل مشوارها العلمي في هذا التخصّص ثانية، مثلما تركت عالم الرهبنة والكهنوت أول مرة.

وبعد إنهائها للدراسة مرحلة الليسانس، إلتحقت بقسم الدراسات العليا بجامعة أوكسفورد، وكان مشروع الدراسة حول اللورد ألفرد تنيسون Alfred, Lord Tennyson[1]، وبالمقابل كانت تدرِّس ساعات إضافية بجامعة لندن في الأدب الإنجليزي.

لم يَلْقَ مشروع بحثها القبول الكامل من قِبل لجنة التقييم، فقد رفضه أحد الأساتذة الخارجيين عن جامعة لندن دون أن يقدِّم سبب ذلك، والنتيجة أن رُفض مشروعها وغادرت بعده الدراسات العليا و لم تكمل البحث ولا مشوارها العلمي الأكاديمي.

تفرغت كارين للعمل والبحث التاريخيين وكانت منكبَّة على الكتابة التاريخية عامة، ثم استرعى انتباهها فترة الحروب الصليبية و لم يكن لها في ذلك أي دافع أكاديمي كما لم يكن لها قبل ذلك أي حقل معرفي لتتخصَّص فيه.

في هذه المرحلة من حياتها، عانت كارين أرمسترونغ ولفترة طويلة من مرض عضال، وبعد

الطلاب الاجتماع بمدرسين آخرين من أجل الحصول على تعليمات تخص مجال تخصصهم. تطوَّرت جامعة أكسفورد تدريجيًا منذ القرن الثاني عشر الميلادي، حيث كانت تتكون من مجموعة من المدارس في مدينة أكسفورد. وساعد انقطاع العلاقات بين إنجلترا وفرنسا عام 1167م على تطوير الجامعة، حيث حال الخلاف بين البلدين دون ذهاب الطلبة الإنجليز للدراسة في جامعة باريس، فذهب العديد منهم إلى جامعة أكسفورد. حصلت الجامعة على أول اعتراف رسمي بها عام 1214م. ويعود تاريخ أقدم كليات جامعة أكسفورد (يونيفرسيتي وباليول ومرتون) إلى القرن الثالث عشر الميلادي. وتأسست بين 1300م و1555م اثنتا عشرة كلية أخرى. أما أولى الكليات للنساء فتأسست في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، و لم تمنح الجامعة درجات لهن حتى عام 1920م. الموسوعة العربية العالمية: ج2 ص455-456.

(1) اللورد ألفرد تنيسون(1224-1310هـ/1809-1892م) Tennyson, Lord Alfred وُلد في سمرزبي في لنكولنشاير بإنجلترا أحد أهم الشعراء الإنجليز خلال القرن 19الميلادي. خلف وليم وردزورث شاعرًا للبلاط في بريطانيا عام 1850م. وقد حاز تنيسون هذه المرتبة في الأدب نظرًا للمدى الرائع الذي وصلت إليه مواهبه الطبيعية وتفانيه في إتقان فنه خلال المرحلة الطويلة لحياته. وضاح الخطيب: ألفرد تنيسون، الموسوعة العربية دمشق، ط1، 2003م، ج7ص66.

والملاحظة الجديرة بالتنويه هنا أن تنسون هذا ماكان ليبلغ كل ذلك في حياته إن لم يسرق جل أشعار إمرؤ القيس ويحوِّر فيها بما يتلاءم وواقعه آنذاك، وللمزيد حول هذه الملحوظة ينظر: د. يوسف عز الدين: التنافذ الأدبي بين العربية والإنجليزية، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، 1999م، م81،ع2 ص1-20.

التحاليل الطبية والمراجعات أثبت الأطباء أنّها تعاني من نوبات الصرع[1]، مما اضطرها إلى اعتزال المجتمع والحياة الإجتماعية على كافة الأصعدة، إلى سنة 1976م، بعد أن خضعت لفحوصات طبية ومرت بفترة نقاهة أهلتها بعد ذلك للعودة للحياة من جديد.

أصبحت كارين أستاذة مادة اللغة الإنجليزية بمدرسة البنات بمنطقة **دولويش Dulwich**[2]، إلا أن نوبات الصرع التي ظنت بُرأها منها قد عاودتها من جديد، وهذه المرة بحدَّة أكبر ممّا سبق، فاضطرتها تلك النوبات إلى الانقطاع والتغيُّب عن الوظيفة ولفترات متقطِّعة ولأيام طويلة، مما أضطر المسؤولين بالمؤسسة أن طلبوا منها مغادرتها لوظيفتها وترك المؤسسة، وكان ذلك سنة 1981م.

لم تنقطع كارين عن القراءة والكتابة رغم نوبات الصرع تلك، ورغم أيام العزلة التي قضتها في بيتها، فقد أثمرت أتعابها بصدور أوّل مؤلَّف لها عام 1981م، بعنوان "**عبر البوابة الضيِّقة**" **Through the Narrow Gate**[3]، والذي ضمنته تجربتها القصيرة التي قضتها في عالم الرهبنة ومدة حياتها بالدير، والذي جلب عليها عداوة الكثير من البريطانيين الكاثوليك[4]؛

---

(1) الصرع: Epilepsy الصَّرَع واحد من مجموعة اعتلالات في أداء الدماغ تتميز بصدمات مفاجئة ومتواترة ففي الوضع الطبيعي تقوم خلايا الدماغ بإنتاج بعض الطاقة الكهربائية ترسل عبر الجهاز العصبي وتحرك العضلات وفي بعض الأحيان يفشل دماغ المريض بالصرع في التحكم في إنتاج الطاقة، وتحدث صدمة الصرع، والتي تدعى نوبة الصرع، عندما تخرج هذه الخلايا دفعة عنيفة ومفاجئة من الطاقة الكهربائية. وهناك ثلاثة أنواع رئيسية من نوبات الصرع: 1- نوبة الصرع الكبير 2- نوبة الصرع الخفيف 3-النوبة النفسية الحركية. وفي حالة نوبة الصرع الكبير- وهي أكثر نوبات الصرع خطورة - يفقد المريض الوعي فجأة ويسقط مالم يسنده أحد وتتراخى العضلات وتدوم معظم نوبات الصرع الكبير لدقائق معدودة يغط المريض بعدها في نوم عميق. وخلال نوبة الصرع الخفيف يشحب لون المريض ويفقد الوعي لثوان وقد يبدو مرتبكا ولكنه لايسقط. وكثير من هذه النوبات لاتلاحظ وتحدث معظم نوبات الصرع الخفيف عند الأطفال، وفي النوبة النفسية الحركية، يتصرف المريض بشكل انطوائي وغريب لعدة دقائق، وقد يجوب أرجاء الغرفة فجأة أو يمزق ثيابه. الموسوعة العربية العالمية، ج15 ص92. ويستعمل عقار طبي يسمى البربيتورات، Barbiturate كمسكِّن كما تساعد الفيناوباربيتون والبَرْبيتُورات ذات المفعول الطويل على منع نوبات الصرع. الموسوعة العربية العالمية، ج4 ص298.

(2) ينظر الملحق رقم (05)، لتحديد مكان المدينة، ص366.

(3) Through The Narrow Gate; St Martin's Press 1st pub1981, New York, USA.

(4) الكاثوليك: أكبر الكنائس النصرانية في العالم، ويزعم أن مؤسسها بطرس الرسول، وتتمثّل في عدّة كنائس تتبع كنيسة روما وتعترف بسيادة بابا روما عليها، وسميت بالكنيسة الغربية أو اللاتينية لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتيني خاصة. الموسوعة

ثم اتبعته بعد ذلك بكتابها بداية العالم The World Beginning [1] ، عام 1983م.

بقت حياة كارين بين مدٍّ وجزرٍ في مصارعتها للمرض، وفي سنة 1984م، طُلِب منها إعداد وكتابة وتقديم بحث وثائقي حول القديس بولس St Paul[2]؛ هذا البحث دفع بكارين للعودة وتجديد نظرها إلى عالم الأديان من جديد، والذي تكاد تكون تخلَّت عنه وعن العبادة منذ مغادرها لدير الرهبنة، هذا البحث الوثائقي الذي عنونته بالمسيحي الأول: القديس بولس وأثره في المسيحية.

كانت لأرمسترونغ خواطر وخلجات نفسية وكذا إسهامات شعرية ضمنتها كلها في كتاب أسمته: ألسنة اللهب:مختارات من التجربة الدينية والشعرية[3] Tongues of Fire : An Anthology of Religious and Poetic Experience وكان ذلك عام 1985م.

الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة د: مانع بن حمّاد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع الرياض، ط4، 1418هـ، م2، ج2 ص 600.

(1) The World Beginning; St Martin's Press 1st pub1983, New York, USA.

(2) القديس بولس: أو بول(؟ - بعد 60م) من الشخصيات الكَنسية الأولى، ويعرف أيضاً باسم القديس بولس اشتهر بوصفه منصِّرًا ومؤسسًا لمجموعات الأديرة التي انتشرت في آسيا الصغرى وجنوب شرقي أوروبا أرسل عددًا من الرسائل الإنجيلية إلى أتباعه وهذه الرسائل الإنجيلية الرسمية تكوِّن جزءاً رئيسيا من إنجيل العهد الجديد ولشدة أهميته فإن بعض النصارى يسمونه الحواريّ رغم أنه لم يكن واحدًا من الحواريين الاثني عشر الذين كانوا مع عيسى عليه السلام بداية حياته وُلِد بول الذي كان من أصل يهودي بعد ميلاد المسيح بسنوات قليلة في طرسوس وفي بداية حياته ذهب إلى القدس ليدرس على يد الحاخام اليهودي جاماليل وفي تلك الفترة ازداد إيمانه باليهودية وخلال إقامته في القدس قابل عددًا من اليهود الذين تحولوا من اليهودية إلى النصرانية وكانوا يزعمون بأن عيسى عليه السلام الذي صُلب في تلك الفترة هو المسيح المنقذ الموعود لليهود وبدأ بول باضطهاد من تنصر من أولئك اليهود لأن معتقداتهم وتصرفاتهم كانت تستفز غضبه وفي يوم من الأيام كان بول مسافرًا إلى دمشق فزعم أنه رأى ضوءاً خاطفاً وسمع صوت المسيح وقد أثرت فيه هذه التجربة لدرجة جعلته يصبح نصرانيًا عمله في التنصير يوضح عمل بول في نقل النصرانية لغير اليهود مدى طاقته ومدى تفانيه في عمله، وقد لقب برسول الوثنيين وذهب بول بعد أن تحوَّل إلى النصرانية مباشرة إلى منطقة مما يعرف الآن بالأردن ثم انتقل إلى سوريا ولا يعرف المؤرخون كثيرًا عن حياته بوصفه منصِّرًا خلال الخمس عشرة سنة التي تلت تلك الفترة. الموسوعة العربية العالمية، ج5 ص295-296.

(3)Tongues of Fire: An Anthology of Religious and Poetic Experience (1985).

ثم توالت مؤلّفات كارين حول الأديان وتاريخ الأديان، وأصدرت في ذلك العديد منها[1]، حتى غدت بعدها أحد الرواد في هذا الفن، وأصبحت غزيرة الإنتاج وأحد الدّاعين الكبار لكل ما له علاقة أو يمس الديانات عموماً والديانات السماوية الثلاثة الأكثر انتشاراً في العالم، والمقصود بها الإسلام، المسيحية واليهودية والتي تدعوها كارين ديانات إبراهيم عليه السلام[2].

هذا الانشغال بالتعليق على الشؤون الدينية عامة، جعلها تغدو واحدة من أبرز المعلّقين على هذه الشؤون في العالم الأنكلو-أمريكي، ثم يحفِّزها ويؤهلها أن تدرِّس لاحقاً في كلية ليو بايك Leo Baeck لدراسة اليهودية وتدريب الحاخامات والمدرسين، وتؤلف الكتب المعنية بالتجربة الدينية وعلاقات الأديان السماوية فيما بينها بشكل خاص، محفوزة بما يجري في العالم المعاصر[3].

---

(1) Karen Armstrong: –The Gospel According To Woman (1986).
-Holy War: The Cruasades and Their Impacts on Today's World (1988).
-The English Mystics of the Fourteenth Centary (1991).
-Muhammad: A Western Attemp to Understand Islam (1992).
-A Histotory of God: From Abraham to The Present, The 4000 Year Quest of Judaism, Christianiaty and Islam (1993).
-In The Beginning: A New Interpretation of Genesis (1996).
-Jerusalem: One City, Three Faiths (1996).
-The Battle for God (2000).
-Buddha, a Biography (2000).
-Islam, a Short History (2000).
-The Spiral Staircase: My Climp Out of Darkness (2004).
-A Short History of Myth (2005).
-The Great Transformation: The Beginning of Our Religious Traditions (2006).
-Muhammad: Prophet For Our Time (2007).
-History of Bible (2009).

(2) نسبة الديانات إلى إبراهيم عليه السلام نسبة صحيحة وذلك لأن أنبياء ورسل تلك الديانات ينحدرون جميعاً من سلالة إبراهيم عليه السلام ثم إن الذي جاء به هؤلاء من وحي صادر من نفس المصدر مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا، وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء:163-164].

(3) ينظر الملحق رقم (06)، نماذج لأغلفة كتب كارين حول التجربة الدينية وعلاقات الشرائع السماوية، ص367.

شاركت في الكثير من الملتقيات والمؤتمرات الدولية والتي تمحورت حول الأديان وتاريخها والدعوة للحوار بينها والتقارب سواء داخل إنجلترا أو خارجها، كما أنّها تلقت العديد من الدعوات للتدريس في المؤسسات والمراكز ذات الاهتمام بالأديان عموماً إلا أنّها قابلتها بالرفض.

كما أنها كانت لها دعوات تكريمية من قبل بعض المؤسسات العلمية العالمية ومنها تلك التي كانت من قِبل المركز الإسلامي بجنوب كاليفورنيا عام 1999م بالولايات المتحدة الأمريكية، دعماً لها وتشجيعاً لجهودها في نشر دعوة التسامح بين الأديان عامة والأديان السماوية خاصة. كما تمت ترجمة مجموعة كبيرة من كتبها إلى لغات عدة من جميع أنحاء العالم، ومنها اللغة العربية- غير أنها قليلة جداً-.

لم تعد كارين، وهي التي نشأت على المسيحية ودخلت الرهبنة وتلقت علوم الدين الأولى في الأديرة، تعتقد في دين ولا تتبع ملَّة معينة، رغم كتاباتها المتعدِّدة حول الأديان السماوية، فحين تجيب عن معتقدها تقول:"**لم أعد مؤمنة بالمسيحية أو ممارسة لشعائرها ولم أعد أنتمي رسمياً إلى أي دين آخر، لكنّني أخذت أراجع أفكاري عن الإسلام وفي الوقت نفسه رُحت أعيد النظر في التجربة الدينية ذاتها**"[1].

وأما عن الكتب التي خصَّتها في كتابتها للسيرة النبوية فهما كتابان في الأصل، إلا أنّها ضمنت مجموع ما كتبت إشارات حول الإسلام ونبي الإسلام ﷺ؛ مع مجموعة أبحاث خارجية، سواء تلك التي ضمّنتها في الموسوعات العالمية أو غيرها من البحوث والتي نشرتها في المجلاّت والدوريات والجرائد.

وبخصوص كتابيْها اللذين جمعت فيهما السيرة النبوية وأحداثها وإن كانت لم تلتزم فيهما ذكر الحوادث ذكراً زمنياً مرتباً بل اقتصرت فيهما على ذكر مجموعة أحداث والتي كان لها صدًى أكبر في حياته ﷺ وحياة الجماعة الإسلامية الأولى، وما صاحب ذلك من ردود أفعال من محيط مكة وأهلها ثم ما كان من ردود أفعال على المستوى العالمي يومها وبعدها.

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب،مرجع سابق، ص17.

والكتابان هما: محمد [ﷺ]محاولة غربية لفهم الإسلام Muhammad: A Western Attemp to Understand Islam؛ ومحمد [ﷺ] نبي لزماننا Muhammad: Prophet For Our Time.[1]

دراسة وتعريف بالكتاب الأول: محمد [ﷺ]محاولة غربية لفهم الإسلام[2] Muhammad: A Western Attemp to Understand Islam.

ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة 1992م من نشر Harper Collins Publishers N.York, U.S.A.

والكتاب يلقي بصيصاً من نور الحق والحكم بقليل من العدل على ما يوجَّه للإسلام ونبيِّه ﷺ من تُهَم، والمحاولات العديدة والمتجدِّدة كل مرّة لتأكيد هذه التُّهم على ما هو واقع في الواقع الدولي عموماً والواقع العربي والإسلامي على الخصوص.

وتقارن كارين في كتابها بين طرفي المعادلة المثَّلة في الشرق والغرب وتخلص بعدها إلى نتيجة مفادها أن صورة الإسلام ونبي الإسلام ﷺ كانت ولا تزال مشوَّهة على جميع فترات التاريخ الأوروبي، وأن مرآة الغرب لا تزال فيها الصورة تعشوها الضبابية، والمسؤول الأول في ذلك وعن ذلك هو الغرب كله وخاصة المثقفون منه، وإذا لم يغيِّر هذا الغرب من حدَّة ما يقول ومن غطرسته في الأفعال والواقع ثم البحث عن نقاط مقاربة أو نقاط التقاء فإن ذلك مُؤْذِن بكارثة لا محالة.

ويقع الكتاب في عشرة فصول مع مقدمة ومراجع وهوامش لكل فصل، بدءً بـــ: محمد عدو الغرب، ومحمد رجل الله، والجاهلية، والوحي، والنذير، والآيات الشيطانية، والهجرة، والحرب المقدّسة، والسلام المقدّس، وأخيراً وفاة النبي[ﷺ].

---

(1) للتعرف أكثر حول حياة كارين أرمسترونغ ينظر: http://en.wikipedia.org/wiki/karen_Armtrong؛ وكتابها: عبر البوابة الضيِّقة بجميع فصوله[280ص في أصله وباللغة الإنجليزية]، ومقدمة كتابها: تاريخ الإله، ص10-14. وكتابها: القدس مدينة واحدة، ص 7-8 وملحق الكتاب بعنوان: ملاحظة حول الكاتبة. وكتابها: محمد[ﷺ] محاولة غربية لفهم الإسلام، ص 9-10.

(2) قام بترجمته لأول مرة كل من فاطمة نصر ومحمد عناني سنة 1998م ونشرته شركة سطور القاهرة ويقع الكتاب في 415 صفحة، ثم قام بترجمته كذلك محمد الجورا سنة 2002م ونشرته دار الحصاد دمشق ويقع الكتاب في 328صفحة.

دراسة وتعريف بالكتاب الثاني: محمد [ﷺ] نبي لزماننا[1] Muhammad: Prophet For Our Time.

ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة 2006م من نشر Harper Collins Publishers N.York, U.S.A.

والكتاب يكاد يكون صورة طبق الأصل من الكتاب الأول من حيث أسلوب الكتابة والتوجّه العام وكذا الهدف من كتابته وهو وجوب إلتقاء الشرق بالغرب هذا اللقاء الذي تُمثِّل فيه شخصية النبي محمد ﷺ نقطة الإنطلاقة والبدء.

ثم هو يبيِّن المستوى الراقي الذي توصّلت له الكاتبة ومدى استغنائها في هذا الكتاب عن ملامح التوجه الإستشراقي الغربي عامة ومنهج الموجِّهين في هذا الفن وبخاصة مونتغمري واط، والذي اتخذته الكاتبة في كتابها الأول أحد الموجِّهين لها منهجياً واتخذت من كتبه المصادر الأساسية وأحد الأدلاَّء في هذا الطريق ولم تستطع أن تنتقده ولا أن توجِّه له أيَّة ملاحظة لا من قريب ولا من بعيد.

ولذلك فهي قد استطاعت الانفكاك من ذلك في كتابها الثاني هذا وأعطت لنفسها شيئاً من حرية الفكر والتوجّه، ورغم أنّها أعادت بعض فصول الكتاب الأول إلا أنّ صياغتها لها كانت مخالفة تماماً لِما كانت عليه في كتابها الأول.

ويقع الكتاب في خمسة فصول مع خرائط ومقدّمة ثم هوامش بمراجع الكتاب لكل فصل، وفصول الكتاب تبدأ بـــ: مكة، والجاهلية (وهو فصل مكرّر)، والهجرة (وهو فصل مكرّر)، والجهاد (وهو فصل مكرّر)، وأخيرا السلام (وهو فصل مكرّر).

وكما تمت الإشارة سلفاً رغم أن مجموعة من الفصول مكرّرة إلا أن صياغتها وأسلوبها كان شبه مغاير تماماً لما جاء في فصول كتابها الأول.

وكلمة أخيرة حول ما كتبت كارين، وهي الكاتبة الحرّة في فكرها، أنّها وفي أوائل التسعينيات من القرن الماضي ولخطورة ما تروِّجه وسائل الإعلام في الغرب عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ،

---

(1) وقد ترجمته فاتن الزلباني، وقامت مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة بنشره، ويقع الكتاب في 211 صفحة وكانت أول طبعة له سنة 2008م.

وخوفاً منها أن تنتهي تلك الحملة الإعلامية المسعورة بحملة عسكرية في أي بقعة من بقاع الإسلام وضعت كتابها الأول[1].

ثم ما لبثت أن كتبت كتابها الثاني بعد أحداث 2001/09/11م[2]، وقد رأت ما تدعو له وسائل الإعلام الغربية وما تحيكه اليد الخفية للسياسيين الغربيين والقادة العسكريين من شرور، وخشية التصادم العسكري بين الشرق والغرب[3]، جاء كتاب محمد[ﷺ] نبي لزماننا، تدعو فيه الشرق والغرب على السواء أن يتخذوا من شخص محمد ﷺ نموذج النبي المرسل، والرجل المصلح الذي كان يحمل في قلبه الحب للبشرية، والذي كان أساس دعوته السلم والسلام، ويكفي الواحد من هؤلاء وأولئك أن ينظر ويتدبّر في الدين الذي أسَّسه لا على السيف ولكن على السلام كما يعني إسم الدين[4].

---

(1) كان خوف كارين مبرراً وفي محلّه وحتى أنها كانت قد استبقت الأحداث في ذلك، فما كان منها ظناً قد أصبح حقيقة ماثلة للعيان، فقد كان لقوات العالم الغربي العسكرية تدخلات متقطّعة ومتفاوتة الشراسة والخطورة في العديد من دول العالم الإسلامي، وما تدمير بلاد الرافدين إلا خير مثال والدور آت لا محالة على دول أخرى هي في القائمة أو هي قيد الدراسة والبرمجة لدى ساسة الغرب وقادته العسكريين.

(2) أحداث 2001/09/11م: أسالت هذه الأحداث الكثير من الحبر سواء كان ذلك على شكل كتب أو مقالات أو بحوث، عدا الشبكة العنكبوتية المعلوماتية العالمية فلا تكاد تخلو صفحة إلكترونية من ذكر وتعقّب هذه الأحداث، إضافة إلى اللقاءات والمؤتمرات والجلسات الإعلامية سواء كان ذلك عبر موجات الأثير أو عبر قنوات التلفزيون المحلية منها أو العالمية، وكل ذلك سواء كان باللغة العربية أو بغيرها من اللغات. وقد ترتّب عنها الكثير من النتائج على كل المستويات والأصعدة في كل أنحاء الكرة الأرضية سواء كان ذلك سلباً أو إيجاباً. وللمزيد حول هذه الأحداث تراجع البرامج التلفزيونية العربية منها والعالمية، وكذا الصحف والمجلاّت الورقية، وكذلك ما هو مخزّن في الأوعية الإلكترونية للشبكة المعلوماتية العالمية، منذ وقوع تلك الأحداث إلى حد كتابة هذه الأسطر والزمان الذي نحن فيه ونحيا فيه.

(3) روّج العديد من المستشرقين المتأخرين لنظرية صدام الحضارة الغربية مع غيرها وبخاصة الحضارة الإسلامية في الكثير من المواقف والمؤلّفات، وأشهر هؤلاء: صموئيل هنتيجتون: الإسلام والغرب آفاق الإصطدام، ترجمة مجدي شرشر، مكتبة مدبولي القاهرة، ط1، 1415هـ/1995م.[وهي دراسة أعدَّها المُؤلف في إطار مشروع لمعهد أولين بجامعة هارفارد بأمريكا عن البيئة الأمنية المتغيّرة والمصالح القومية الأمريكية].

(4) « A good place to start is with the figure of Muhammad: a complex man, who resists facile, ideologically driven categorization, who sometimes did things that were difficult or impossible for us to accept, but who hade profound genius and founded a religion and cultural tradition that was not based on the sword but whose name ''Islam'' signified peace and reconciliation''. Karen Armstrong : Muhammad, A Prophet for our Time, p 202.

المبحث الثاني: دراسة وصفية لمنتوج أرمسترونغ العلمي.

أشارت كارين في مقدّمة كتابها الأول، إلى تلك الصورة النمطية التي رسمها الغربيون عموماً حول الإسلام ووصفه بدعوى أنّه دين تجديفي ملفّق، كما شجبوا نبيَّه ﷺ بدعوى أنّه المدّعي الأكبر الذي أسّس دينا يقوم على العنف واستخدم السيف لفتح ربوع الأرض.

وتردّ مثل هذه الدعاوى التي لا أساس لها ولا يسندها من الواقع شيء من الحقيقة إلا الموروث الغربي والمخيِّلة الغربية التي تربت فيها مثل هذه البذرة السَمِجة وأينعت وأصبحت حقيقة ذات أغصان وارفة الظل، فهي تؤتي أُكلها كلما احتاج إليها الغربيون.

ثم ما قامت به وسائل الإعلام الغربية التي غذت مثل هذه الدَّعَاوى وغطت عن الحقيقة عن جمهور الغرب عموماً، ولذلك فلا عجب أن وجدنا أن معظم الغربيين لا يعرفون ما يكفي عن التراث الإسلامي عموماً وعن سيرة وحياة النبي محمد ﷺ وما جاء به من مثل على الوجه الأخص.

وبعد هذا ما ولَّد ذلك التعتيم واللامبالاة من الغربيين من حقد وكراهية لأقطاب المعادلة بين شعوب الشرق والغرب، مع ما صاحب ذلك من الصورة غير المشرفة والحالة الراهنة للشعوب الإسلامية مِمّا يعطي مسوِّغاً لنظرة الغرب النمطية والأحادية، ولذلك فليس غريباً أن يوجِّه الناس عموماً والغربيون خاصة اللوم في ذلك على الإسلام.

كل تلك الأسباب مجتمعة مع الندرة الهائلة للكتاب العلمي المحايد في الغرب عن سيرة الرسول ﷺ بين أيدي عموم القراء الغربيين، جعل من سيرة النبي ﷺ هدفاً للشهرة لكل من لا هدف له، وجعلت من كل كِتاب يُكتب ولو كان منحطاً مرجعاً أساسياً لمن لا مرجع له، وحتى المتخصِّصون يعانون من هذه الندرة في المراجع لذا وجدنا أنه حتى صاحبة الترجمة قد اعتمت اعتماداً يكاد يكون كلياً على ما كتبه مونتغمري واط في كتبه حول السيرة والتي تمت الإشارة إليها وتمَّ نقد ما فيها من هنّات وسقطات، وخاصة كتبه محمد[ﷺ] في مكة، ومحمد[ﷺ] في المدينة، ومحمد[ﷺ] نبي ورجل دولة.

هذه بعض ملامح ما كتبت أرمسترونغ حول تاريخ الإسلام عموما وسيرة المصطفى ﷺ على وجه الدقّة، وقبل الخوض في بيان منهجها في كتابة السيرة النبوية وجب الحديث ولو وصفا عن منتوجها العلمي والذي هو في تزايد مستمر كلّما تقدَّمت بها السِنُون وتعمَّقت تجربتها أكثر، والذي له علاقة أو صلة وطيدة مع الدين الإسلامي أو تاريخ الإسلام أو نبي الإسلام ﷺ وهي

مرتبة في ذلك بحسب تاريخ صدورها من غير الإشارة إلى كتابيها اللذيْن خصّصَتهما لسيرته ﷺ واللذيْن تمت الإشارة لهما سلفاً.

01_ الحرب المقدَّسة: الحروب الصليبية وتأثيراتها على عالمنا اليوم؛

Holy War: The Cruasades and Their Impacts on Today's World (1988)

لقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة 1988م من نشر Harper Collins Publishers N.York, U.S.A، ثم أعيد طبعه أكثر من مرّة، ويقع الكتاب في 703 صفحة من الأصل الإنجليزي[1].

والفكرة العامة والمحورية لهذا الكتاب كما تذكر أرمسترونغ فتقول:" **إن الحملات الصليبية لم تكن مجرد حركة هامشية في العصور الوسطى، بل كانت حركة محورية بالنسبة للهوية الغربية التي كانت قيد التبلور في ذلك الحين وهي ما فتئت مستمرة إلى يومنا هذا ناهيك عن أنها أظهرت الدين في أشنع صوره... ولأول مرة، أصبحت الروح الصليبية حقيقة تاريخية ملموسة ... هذه ليست أساطير غامضة، فإن ما يقرب من ألف عام، حين كانت أوروبا لا تزال ترتع**

---

(1) قام بترجمته سامي الكعكي ونشرته دار الكتاب العربي بيروت ويقع في 709 صفحة طبعة 2001م موزعة على ثلاثة أقسام بها 11فصلاً، مسبوقة بإهداء توطئة فمقدّمة ثم خرائط، ومشفوعة بهوامش فمسرد ألفبائي بأهم المصطلحات الواردة في الكتاب ثم قائمة المراجع.

القسم الأول: رحلة إلى ذات جديدة، به ثلاثة فصول، في البدء كانت الحروب المقدّسة..لماذا؟ وما قبل الحملة الصليبية، الغرب يلتمس لنفسه روحاً مسيحية جديدة؛ والنزاع الراهن، اليهود والعرب يلتمسون لأنفسهم هوية علمانية جديدة.

القسم الثاني: الحرب المقدّسة، به خمسة فصول، (1096-1146م) الحملة الصليبية تستحيل حرباً مقدّسة وتشعل"جهادا" جديداً؛ و(1146-1148م) القدِّيس برنار والحملة الصليبية الأشدُّ تديّناً؛ و(1168-1192م) جهاد ديني وصليبية علمانية؛ و(1967م) الصهيونية تستحيل حرباً مقدّسة؛ و(1981م) مقتل الرئيس أنور السادات، الحرب المقدّسة والسلام.

القسم الثالث: الروح الصليبية والهوية الغربية، وبه ثلاثة فصول، (1199-1221م) حملات صليبية ضد المسيحيين والسلام المسيحي الجديد؛ و(1220-1291م) نهاية الحملات الصليبية؛ ومن 1300م إلى يومنا الحاضر، الصليبيون الجدد في الغرب؛ وأخيرا خاتمة الكتاب مع المسرد وقائمة المراجع.

يعالج هذا الكتاب موضوع الحروب الصليبية معالجة تاريخية وبمقاربات سياسية من الواقع القائم على نحو يبدو تاريخيا سياسيا تحليليا ودينيا أيضا، ويركز على الصراع بين اليهود -المسيحيين والمسلمين والذين يفترض أنهم يتبعون جميعا نبيًّا واحداً هو إبراهيم عليه السلام ويؤمنون بنبوة ذريته من الأنبياء عليهم السلام ويتّبعونهم.

في الهمجية وأبعد ما تكون عن التمدن، شّق آلاف المسيحيين طريقهم بجهد جهيد نحو الشرق الأوسط، وأنشأوا دولاً وممالك هناك"[1]. وإذا ما تمت الإشارة إلى كتاب كارين هذا، فلأنها قد ذكرت فيه-في مواطن متفرِّقة- تلك الصورة النمطية التي رُسمت في أوروبا للنبي محمد ﷺ وكيف رسَّخت الحروب الصليبية تلك الصورة، حتى أعطتها أبعاداً هي أقرب للخيال والأسطورية منها للواقع.

02_ تاريخ الإله: من إبراهيم إلى وقتنا؛ 4000 سنة من المسعى في اليهودية المسيحية والإسلام؛

A Histotory of God: From Abraham to The Present, The 4000 Year Quest of Judaism, Christianiaty and Islam

صدر الكتاب في طبعته الأولى سنة 1993م من نشر Publishers Harper Collins N.York, U.S.A، ويقع الكتاب في عشرة فصول ومجموعة خرائط توضيحية، مع هوامش الكتاب، ويضم بين دفّتيه 219 صفحة على الأصل الإنجليزي[2].

وخلصت في بحثها إلى نقطة البدء التي انطلقت منها وهي أنّ ثمة حقيقة واحدة لا غير وأن الإله الذي كتبت عنه موجود وهو الحقيقة المطلقة في هذا العالم " God really exist and that he was the most important reality in the world. "[3].

والسبب في ذكر هذا الكتاب هو الفصل الخامس منه والذي خصَّصته كارين للحديث عن الإله في شريعة الإسلام وكيف قدَّم محمد ﷺ هذا الإله لأتباعه من المسلمين وللنّاس كافة، وكيف

---

(1) كارين أرمسترونغ: الحرب المقدّسة، ترجمة: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي بيروت، ط1، 2004م، ص11-12.

(2) قام بترجمته محمد الجورا وقامت بنشره دار الحصاد دمشق، 1996م ويقع في 422 صفحة، بدأت فيه المؤلِّفة بفصل عنوانه" في البدء" وتحدَّثت فيه عن ماهية الإله وكونه الأول والخالق لكل شيء في السماوات والأرض وكيف هي حاجة الإنسانية لإله معبود، ثم ما لحق ذلك المعبود من تحريف في العقيدة حتى اختلفت معتقدات الناس بعدها وتعدّدت توجّهاتهم حتى صار لكل طائفة إله تعبده وتتقرّب إليه بما هو ثابت في مخيِّلتها الجماعية، لذا عنونت باقي فصول كتابها بـ: إله واحد، وضوء للوثنيين(نور إلى غير اليهود)، والثالوث إله المسيحية، والوحدانية إله الإسلام، وإله الفلاسفة، وإله الصوفية، وإله المصلحين، وعصر التنوير، وموت الإله(الإله في القرن التاسع عشر) وهل للإله من مستقبل.

(3) Karen Armstrong: A Histotory of God, p10.

استطاع أن يقنع قريشَ قبيلته الأولى بذلك، ثم مجموع المغالطات التي قدّمتها الكاتبة للقارئ في هذا الفصل والتي تستحق المتابعة العلمية والرد[1].

03_ القدس: مدينة واحدة ثلاث عقائد؛

Jerusalem: One City, Three Faiths

صدر الكتاب في طبعته الأولى الإنجليزية عن دار: Alfred A.Knopf N.Y. USA عام 1996م ثم أعيد طبعه بعد ذلك عدّة مرات؛ ويقع في 640صفحة[2].

والمحور الأساس للكتاب تاريخ مدينة القدس منذ النشأة الأولى لها والمراحل التاريخية التي مرت بها سواء كانت تحت حكم اليهود أو غيرهم من الأجناس من غير الديانة اليهودية، والأسماء التي حملتها تلك المدينة عبر تاريخها الطويل، مروراً بالفترة التاريخية الإسلامية وكيف تعايشت فيها كل الدِّيانات والرسالات السماوية تحديداً، ووصولاً بها إلى العصر الحديث في الأزمنة الأخيرة.

مع ما صاحب ذلك من حكايات وأساطير نُسجت على مر التاريخ من كل الأجناس الذين قطنوها وكيف حاول كل واحد من تلك الأجناس أن يضفي على تلك المدينة من الظِّلال حتى يكسبها صفة الشرعية لِما يدَّعيه.

هذه الأساطير التي أكسبتها شيئاً من المهابة والقدسية في نفوس ساكنيها وخاصة أتباع الديانات السماوية الثلاثة مع ما لازمها من اعتقاد بأنها مدينة الخلاص والنجاة، فهل سينعم فيها أهل تلك الاعتقادات بالتعايش ويسكنونها بشيء من التسامح-كما أمرت بذلك شرائع الأنبياء- أم أنها ستكون غير ذلك؟[3] وبخاصة في مجموعة من فصول الكتاب بدءً ببيت المقدس والجهاد والتي حملت الكثير من لوثات الفكر الإستشراقي الغربي سواء كان ذلك تصريحاً أو تلميحاً.

---

(1) Ibid, pp71-88.

(2) قام بترجمته للعربية كل من: فاطمة نصر ومحمد عناني، وقامت دار سطور القاهرة بنشره عام 1998م، ويقع الكتاب مترجماً في 721 صفحة، ويتألف من 18 فصلٍ مع مقدّمة وخرائط وفهرس. وقد احتوى فهرس الكتاب عناوين الفصول التالية: المقدّمة، صهيون، وإسرائيل، ومدينة داود، ومدينة يهودا، والمنفى والعودة، وأنطاكية في يهود، والتدمير، وإليا كابيتولينا، وأورشليم الجديدة، ومدينة مسيحية مقدّسة، وبيت المقدس، والقدس، والحملات الصليبية، والجهاد، ومدينة عثمانية، والإحياء، وإسرائيل، وأخيرا صهيون؛ مع الهوامش والفهرست.

(3) كارين أرمسترونغ: الحرب المقدّسة، ترجمة: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي بيروت، ط1، 2004م، ص11-12.

هذه الفصول التي حوت في طياتها ذكر تاريخ الإسلام عامة وسيرة نبيّه ﷺ خصوصاً ولكن وفق المناهج الغربية سواء كان ذلك بالقليل أم بالكثير بحسب ما يقتضيه السياق وتتضح به الفكرة، كما سيأتي بيانه.

04_ **الإسلام: تاريخ مختصر؛ Islam, a Short History**.

صدر الكتاب في طبعته الأولى الإنجليزية عن دار: Alfred A.Knopf N.Y. USA عام 1992م ثم أعيد طبعه بعد ذلك عدّة مرات؛ ويقع في 220صفحة، وقد اعتمدنا طبعة 2000م من نفس الدار، و لم تتم ترجمته لحد كتابة هذه الأسطر[1].

والفكرة العامة التي تحاول الكاتبة بيانها هي عرض علاج حيوي للنظرة الضيقة الغربية للإسلام وحضارته ولنبي الإسلام ﷺ، وأن العالم الأكثر تديّناً غني ومتنوع وتقل به الظواهر السيئة إن لم تنعدم نهائياً، وأنه من خلال فحص ما نشأ من فكر وكتابة حول الإسلام ونبيّه ﷺ في الفترة الأخيرة في العالم الإسلامي يتبين تزايد ظاهرة الأصولية مع ما صاحبها من تنظير.

والذي يهمنا من هذا الكتاب هو الفصل الأول منه والذي عنوانه: الهجرة إلى المدينة، والذي ذكرت فيه مؤلِّفته ما يستحق القراءة والتقويم حول الرسول ﷺ.

(1) يتألف الكتاب من مقدّمة وثمانية فصول، بدءً بـــ: الهجرة إلى المدينة، جذور الخلاف بين المسلمين الشيعة والسنة، ظهور الصوفية في الإسلام، إنتشار الإسلام في شمال إفريقيا المشرق وآسيا، تأثير الحملات الصليبية المرعب على العـــالم الإســـلامي، إزدهار الإسلام الإمبراطوري وزيادة نفوذه في القرن الرابع عشر والخامس عشر في العالم الإسلام الثوري أصـــوله وتأثيراتـــه، إسلام اليوم تقييمه وتحدِّياته، مع خاتمة وفهرس للمصادر والمراجع.

05_ **التاريخ المختصر للأسطورة؛**

A Short History of Myth.

خرج الكتاب إلى عالم القراءة في طبعته الأولى الإنجليزية عن دار: Alfred A.Knopf N.Y. USA عام 2005م ثم تَمَّ طبعه بعد ذلك عدّة مرات من نفس الدار ومن غيرها، وترجم إلى العديد من لغات العالم ويقع في 123صفحة في أصله[1].

والفكرة الأساس في كتاب كارين هذا هو أن كلمة الأسطورة اليوم غالباً ما تستعمل لوصف شيء غير صحيح وغير واقعي، رغم أنه من الخطأ اعتبار الأسطورة نمطاً متدنّياً في التفكير.

فالأسطورة قد صمِّمت لمساعدة البشر على التعامل مع المآزق البشرية المستعصية وإعانة الناس على تحديد موقعهم في العالم وتحديد وجهتهم فيه[2].

والأسطورة صحيحة لأنها مؤثِّرة لا لأنّها تزودنا بمعلومات عن حقائق، وإنما هي تدفعنا إلى تغيير ذهنيتنا وقلوبنا وتعطينا أملاً جديداً، وتحفّزنا على أن نعيش حياتنا بغنى أكثر؛ ولذلك فأرمسترونغ ترى أن بعض الأشياء سواء كانت حقائق أو قريبة من ذلك فستبقى غير مدركة وغريبة ما لم نطّلع على كُنْهِها، ولذا فلا عجب أن ترتبط بها معجزات الأنبياء -عليهم السلام- والتي عادة ما لا تظهر لعامة الناس، فما هو حظ سيرة النبي محمد ﷺ ومعجزاته في ذلك؟ وكيف تمت المعالجة – العلمية- الاستشراقية لها؟

---

(1) ترجمه إلى العربية وجيه قانصو عن طبعة Canongate, London؛ وقامت بنشره الدار العربية للعلوم بيروت عام1429هـ/ 2008م في طبعته الأولى، ويقع الكتاب في 143صفحة موزّعة بين سبعة فصول مع قائمة المراجع. بدءً: ما هي الأسطورة، والفترة الباليثية أو ميثولوجيا الصيادين، والفترة النيوليثية أو ميثولوجيا المزارعين، والحضارات الأولى، والعصر المحوري، وما بعد العصر المحوري، والتحوّل الغربي الكبير.

(2) كارين أرمسترونغ: تاريخ الأسطورة، ترجمة: وجيه قانصو، دار العربية للعلوم بيروت، ط1، 2008م، ص11-15.

06_ **موسوعة الأديان**[1]؛

Encyclopedia Of Religion

والشيء الأساس في هذه الموسوعة الجزء التاسع منها، حيث احتوى على بحث مطوّل عن حياة النبي محمد ﷺ وشمل بذلك جميع جوانبها.

ويعدُّ هذا البحث عصارة توجُّهها في الكتابة عن السيرة النبوية، ولذلك فقد ضمنته الكثير من المعلومات وجمعت فيه ما تفرَّق في عموم كتبها بشيء من الاقتضاب وفق النظرة الإستشراقية[2]، وجالت فيه بشيئ من التفصيل والشطط حين عرضها لمحاربة الرسول ﷺ لليهود بالمدينة المنورة بجميع فصائلهم وقبائلهم وتحديداً ما وقع لبني قريظة[3].

بالإضافة إلى ذلك فإنها قد جمعت ومزجت فيه بين معظم المناهج الغربية في كتابتها كما سيأتي بيانه، مع العلم أن البحث لا يزال باللغة الأم ضمن دفات الموسوعة.

---

(1) تقع الموسوعة في 14جزء وضمت 10017 صفحة، شارك في تأليفها أكثر من 200 متخصص، وقد صدرت في طبعتها الثانية عام 2005م عن دار توماس جايل أمريكا وبإشراف: أ.د/ ليندسي جونز، ويقع البحث المعتمد في الدراسة في الجـــزء التاسع، بدءً من ص:6220 إلى ص 6228.

Karen Armstrong: Encyclopedia Of Religion, Tomson Gale, 2nd ed, 2005, NY,USA, Vol 09,pp 6220-6228.

(2) إعتمدت كارين أرمسترونغ في كتابتها لهذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع، غير أن نصيب المراجع كان الغالب فيه، وكلها لمستشرقين غربيين باستثناء كتاب حياة محمد ﷺ لمحمد حسنين هيكل، وعلى رأس المستشرقين هؤلاء برنارد لويس بتآليفه"محمد في مكة" "محمد في المدينة" و"مكة في عهد محمد: تاريخها من خلال القرآن".

أما المصادر فقد اعتمدت على مصدر واحد تمثّل في سيرة محمد بـــن اســـحاق والمترجمـــة بقلـــم ألفـــرد غيـــوم Alfred Guillaume طبعة لندن 1955م.

وعليه ومما تقدّم بيانه في الببليوغرافيا يمكن تلمّس المنهج الذي كتبت به كارين هذا البحث وكذا الرؤية العامة التي طغت على السياغة ومنه يمكن تتبع السقطات والهنات التي وقعت فيها الكاتبة ومحاولة بيان ذلك مع الرد العلمي ما أمكن حين المناقشـــة والشرح.

(3) بنو قريظة: أحد القبائل اليهودية الثلاثة المشهورة بالمدينة المنورة، وكانوا حلفاء الأوس وكانت ديارهم بضواحي المدينة. صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، دار الوفاء مصر، 1424هـــ/2003م، ص 171.

الباب الثالث:

كارين أرمسترونغ وكتاباتها في السيرة النبوية في الميزان.

الفصل الثاني: ترسبات الموروث الحضاري الإستشراقي في فكر أرمسترونغ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدّمة:

لايخلو كتاب من كتب المستشرقين من اللوثة الإستشراقية ومن تأثير المحيط الغربي المادي، وفي بعض الأحيان المحيط اللاديني، رغم أن النشأة الأولى للإستشراق كما تَمَّ التفصيل فيه كانت دينية صرفة ولاهوتية تحت أنظار وتدبير القساوسة والرهبان، وتحت أسقف الدير والكنائس.

ولعل ذلك يرجع إلى التكوين الأوَّلي الذي يتلقاه ابن البيئة الغربية سواء كان ذلك في الأديرة والكنائس أو في دور التنشئة ودور الحضانة أو حتى في البيوتات عامة.

وهذا ممّا يدعو إلى التبصُّر وإمعان النظر ومراجعة العرب والمسلمين لمناهجهم التربوية والتعليمية سواء الخاصة منها أو العامة.

وقد وجدنا بعض أمثلة اللوثات الفكرية الغربية عند أغلب مجموع المستشرقين الذين تمت الإشارة إليهم ودراستهم سواء الموغلون منهم في الإستشراق المتعصِّبون له، أو حتى الناقدون له.

وكان اللورد هيدلي وهو أحد الإنجليز المسلمين والذين حسُن إسلامهم وأصبح من الدَّاعين له والمنافحين عنه سواء داخل إنجلترا أو خارجها، وبذل في ذلك من وقته وماله الكثير، إلا أنّ اللوثة الغربية بقيت مؤثرة وموجودة حتى ولو بغير قصد، وقد تمّت الإشارة إلى بعض تلك المؤثرات التي بقيت جاثمة في اللاشعور الفكري واللاوعوي الثقافي والتي يعبِّر الواحد منهم عنها من غير أن يقصِدها لذاتها.

مثل تلك اللوثات الفكرية والترسُّبات الثقافية في الفكر الغربي لا تزول بسهولة ولا مندوحة في تجنُّبها، فهي كظل الشيء لا يفارقه أبداً، في كتابات الغربيين على وجه العموم مهما بلغ ذلك الغربي أو المستشرق من الحياد والعلمية والمنهجية، لأن ذلك أصل فيه.

وقد لاقت كتب كارين أرمسترونغ من الترحيب والاستحسان العلميْن الشيء الكثير وذلك في كل ما كتبت، وسواء كان ذلك من بني جلدتها وملَّتها من الغربيين أو حتى من ذوي التخصّص والتوجه عند غيرهم من العرب والمسلمين، حتى أن جلَّ أعمالها قد ترجمت إلى لغات العالم وكان نصيب العربية منها اليسير.

وكل أعمال أرمسترونغ التي تمت ترجمتها إلى العربية والتي وقفْتُ عليها وجدت إما في مقدِّمة المترجم أو في مقدِّمة الناشر أو في الوجه الأخير للكتاب الكثير من الثناء والمدح على ذلك الكتاب

وعلى ما دعت أو ذهبت إليه كارين من أفكار، وفي أحسن الأحوال التي يوجَّه إليها أو إلى بعض أفكارها بعض النقد بالتلميح أو بالتصريح يكون على استحياء.

فهل يعني ذلك أن كارين في جميع ما كتبت قد اهتدت إلى المنهج العلمي الموضوعي وقد التزمت بالعلمية والحياد وكذا الجدِّية وتخلَّت كلية عن الموروث الحضاري والفكري الغربي وعن مناهجه؟

أم أنّ طريقة التلقِّي التي أملاها الغرب ومدارس الغرب مازالت قائمة مرئية للعيان صريحة؟ أو حتى إن لم تكن صريحة واضحة فهل لظِلالها من وجود في الحواشي والمتون في كتاباتها وأفكارها ومناهجها؟

إن التفحّص الدقيق والغربلة العلمية لما كتبت كارين أرمسترونغ وبخاصة كل ما كان له علاقة بالكتابات التاريخية حول الإسلام ونبي الإسلام ﷺ-وتمَّ الإطلاع عليه- ليُرْشِدنا إلى تلمُّس تلك السقطات التي وقعت فيها بقصد أو بغير قصد، وإلى ذلك المنهج العلمي-المزعوم- المعوجّ والذي يُنِمُّ عن عدم صفاء السريرة الغربية مهما ادَّعى في ذلك صاحبه كل ادِّعاءات العلمية ومهما رفع من شعارات، غير أن تلك الشعارات تبقى جوفاء وتلك الادِّعاءات تبقى من غير سند.

كما يمكننا أن نلج عالم النفسية الغربية وما تنطوي عليه من انحباس قاتل ومدمِّر وما تحمله من ضغائن للآخر الذي لا ولن يكون غير العرب والمسلمين ومعتقداتهم ونبيِّهم ﷺ.

ويكفينا في ذلك دراسة المناهج المختلفة التي كتبت بها كارين عن تاريخ الإسلام عامة والسيرة النبوية خاصة، ومقارنتها بمناهج المستشرقين الذين سبقت دراستهم في الفصول السابقة، وكيف بقي الموروث الغربي مؤثرا من قريب أو من بعيد أو في بعض الأوقات كيف بقي مجسّداً كما هو لم يتزحزح من فكر وأحاسيس كارين.

وستشمل الدراسة كل كتبها وأبحاثها وكتاباتها- والتي لها علاقة بالإسلام ونبي الإسلام ﷺ- مع التركيز على كتابَيْن من كُتُبها وهما: محمد [ﷺ]محاولة غربية لفهم الإسلام :Muhammad A Western Attemp to Understand Islam؛ وكتاب: محمد [ﷺ] نبي لزماننا Muhammad: Prophet For Our Time؛ كما لا يجب إغفال غيرهما ما دعت الحاجة العلمية لذلك في توضيح فكرة أو بيان منهج أو تأكيد معلومة.

ثم إن الأمر الذي يجب التأكيد عليه في مثل هذا المقام هو ذلك الاعتماد الشبه كلي لصاحبة الترجمة على كتب **مونتغمري واط**، والذي يؤكد تقليدها له والنقل عنه حتى إننا نكاد نجزم أنها نقلت ليس الأفكار فقط بل حتى جملة من الفقرات كما هي من غير أن تنقص منها حرفاً واحدًا، إلا أنّها لم تشر إلى ذلك، وذلك واضح جلي في كتابها محمد [ﷺ]محاولة غربية لفهم الإسلام، في معظم فصوله وفقراته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المناهج الإستشراقية في كتابات كارين أرمسترونغ:

منهج الأثر والتأثر:

لقد تمت الإشارة سلفاً أن هذا المنهج يتم فيه إفراغ الإسلام من ذاتيته المجرَّدة والمستمدَّة من السماء، وإرجاعها إلى مصادر خارجية مثل اليهودية والنصرانية وغيرها من المذاهب والعقائد الوضعية كالبوذية والمجوسية ومن ثمَّ التشكيك في الإسلام كمنهج للعقيدة ودستور للحياة، والتشكيك في نبوة محمد ﷺ وفي كل ما جاء به.

فإذا كان مونتغمري واط وهو المرشد لكارين في كتاباتها الأولى حول السيرة النبوية قد قال كما سبق بيانه أن النبي ﷺ قد عقد صِلات مستمرة مع ورقة بن نوفل قبل مجيء النبوة وبعدها فإن كارين تجعل هذه الصلات تحديداً من اتجاره ﷺ بمال السيدة خديجة، وما أخبر به الراهبُ مَيْسَرَةَ على حد زعمها بالخوارق التي رآها، وقول ورقة لخديجة بأن ذلك له دلالات وبِشَارات النبي المنتظر؛ فتقول:" **رأى ميسرة هذا خلال الرحلة أشياء غريبة كثيرة ذكرها لخديجة لدى عودته، لقد أخذه راهب على انفراد وأخبره أنّه هو النبي المنتظر الذي طال انتظار مجيئه، وبعد ذلك دُهش لما رأى ملكين يظلّلانه من الشمس الحارقة، عندما سمعت خديجة هذا القصص ذهبت مباشرة إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل الحنيف كي تستشيره، وكان ورقة قد أصبح مسيحياً ودرس الكتاب المقدَّس، وكان ورقة ينتظر النبي العربي متلهِّفاً فصاح متعجِّباً عندما سمع أخبار خديجة: إذا صحَّ ما تقولين يا خديجة فمحمد هو حقاً نبي هذه الأمة**"[1].

---

(1) Muhammad A Biography of the prophet: p 80. والنص الأصلي هو:

« One Maysara who accompanied him, saw many strange thinks, which he duly reported back to Khadija. A monk, he claimed, he taken him aside and told him that Muhammad was the prophet whose coming was so eagerly awated in Arabia. Later and to his astonishment, he said, he had seen two angels shading Muhammad from the fierce sun. When Khadija heard this stories, she went straight to consult her cousin Waraqa Ibn Naufal, the hanif, who had become a christian and had studied the scruptures. Waraqa was also eagerly awaiting the Arabian prophet, however, and he heard Khadija's news he exclaimed:'If this is true, Khadija, verely Muhammad is the prophet of this people".

ذكرت كارين هذه الحوادث وكأنّها مسلّمات، فالراهب في معتقدها وموروثها الكهنوتي له من القدرة ما لغيره من البشر.

ولنسأل: لِمَ لم ير ميسرة وهو المرافق اللّصيق لمحمد ﷺ الملائك تظلل صاحبه -رغم أنّه أخبر خديجة بأشياء غريبة وكثيرة عند عودته- ورآها الراهب لوحده؟

ثم ما هي القدرة التي يتمتع بها هذا الراهب حتى أنّه كان بمقدوره الرؤية ثم له كذلك الاستطاعة على أن يَعدَّ الملائكة؟

وهي قد ذكرت مصدر الأخذ لهذه المعلومة وبعد الرجوع إلى المصدر ما وجدنا لها من أثر مثبت؛ بل هي من إضافات المستشرق المترجم للكتاب وقد زادها تلفيقاً وتدليساً[1].

ومنه يثبت أن المستشرقين في كثير من أحوالهم العلمية لا يكونون كذلك حين تعاملهم مع كل ما له صلّة بالإسلام.

ورغم أنّ المصادر العربية الموثوق بها في مثل هذا الموضوع موجودة ومتداولة إلا أن المستشرقين لا يرجعون إليها إلا بالقدر الذي يحقّق لهم أغراضهم البحثية والمطلوبة منهم في بعض الأحيان وليست العلمية[2].

---

(1) ذكرت كارين أن المعلومة مأخوذة من سيرة ابن إسحاق، ترجمة ألفرد غيوم: حياة محمد[ﷺ]، ص83. وحين الرجوع إلى سيرة ابن إسحاق لم نجد لها أثراً ولا ذكراً، وإنما هي من زيادات غيوم حتى يوهم القارئ-مهما كان القارئ- وهو في ذلك متجنٍ على الحقيقة العلمية، غير صدوق في نقله وترجمته لتراث الآخر.

(2) تمت مناقشة مثل هذا القول في الرد على ادِّعاء مونتغمري واط في فصول سابقة وهذه الحادثة قد وقعت لما عاد ﷺ من غار حراء وملاقاته جبريل عليه السلام لأول مرة وليس حين عودته من تجارة السيدة خديجة ومعه غلامها ميسرة. وللمزيد والتوضيح ما ساقه السهيلي حين حديثه عن قول خديجة بين يدي ورقة تحدثه حديث رسول الله ﷺ حيث يقول: ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع فقال ورقة بن نوفل: قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت. فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة، فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل، وهو يطوف بالكعبة، فقال يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ فقال له ورقة والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة. الروض الأنف، ج2 ص 264.

وتتحدّث كارين عن قدسية الراهب ومسالك الرهبنة، وهي في ذلك متأثرة بما تلقته من تعليم وتدريب في الأديرة حين نشأتها الأولى، على أن لهؤلاء -لما لهم من علم بالكتب السماوية السابقة- القدرة على التنبئ بما سيكون من أمر الخليقة بما في ذلك مجيئ النبي العربي، غير أنها لا تحدّد إسم الراهب ولا مكانه ولا متى قال ذلك حين لقائه بزيد بن عمرو[1] ولا المصدر الذي اعتمدته مستعملة صيغة "قيل" ثم تؤكد بأن ذلك كان ثابتاً ويقيناً في بداية الدعوة الإسلامية، فتقول:"**لقد قيل إن أحد الرهبان المسيحيين قد تنبأ بمجيء النبي العربي للحنيفي زيد بن عمرو، وهذه فكرة ثابتة في بداية محمد والجماعة المسلمة**"[2].

وحين كلامها عن تأثّر النبي ﷺ والقرآن بالمحيط سواء الوثني منه أو اليهودي-المسيحي تقول في مواضع عديدة ومتكرِّرة، سواء كان ذلك تصريحاً أو تلميحاً، فتقول:"**إنني أنظر إلى النبي من منظور شخص لديه تصورات محدّدة مسبقة عن الإسلام**"[3].

فمحمد ﷺ في مثل هذا الموضع شخص ألمعي وعبقري له تصوراته الخاصة حول الإسلام من غير أن تحدّد كارين من أين له بتلك التصورات المحدّدة والسابقة، وهو في ذلك ناقل عن غيره ولكن من غير أن تصرّح بمصدر التلقي.

والتجربة التي خاضها محمد ﷺ ومرّ بها هي كتلك التي مرّ بها أنبياء سبقوه من غير أن يقرأ عنها أو سمع بها فتقول:"**ظهر تاجر عربي من مدينة مكة المزدهرة في الحجاز في نحو عام 610م لم**

---

(1) زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي (...-17ق.هـ/...-606م): نصير المرأة في الجاهلية وأحد الحكماء، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، لم يدرك الإسلام وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها ورحل إلى الشام باحثاً عن عبادات أهلها فلم تستمله اليهودية ولا النصرانية، فعاد إلى مكة يعبد الله على دين إبراهيم رآه النبي ﷺ قبل النبوة، وسئل عنه بعدها فقال: يبعث يوم القيامة أمة وحده، توفي قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين وله شِعْر قليل. الزركلي: الأعلام، ج3 ص60.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب ، ص84.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص19.

يكن قد قرأ الإنجيل أبداً ومن المحتمل أنه لم يكن قد سمع بأشعيا أو إرميا وحزقيال ومرّ بتجربة خارقة ومماثلة لتجاربهم"[1].

وتقول في موضع ثانٍ ولكن مع توضيح مصدر النقل والتلقي والتأثير:" **نعم لقد أثّرت الأخلاق القبلية القديمة على رسالة القرآن**"[2].

وفي مكان آخر مع تشابه في مصدر التلقي والنقل تقول:"**كان محمد مدركا أنّه على الرغم من أن للوحي جذوره في التراث الوثني القديم، إلا أنّه سيهدِّد من هم أكثر محافظة في قريش، ولهذا السبب أبقى دعوته في حدِّها الأدنى طوال السنوات الثلاث الأولى**"[3].

والفارق فيما جاء به محمد ﷺ وما يعتقد فيه ليس كبيراً ولا بعيداً عمّا يعتقده العرب قبله ما دامت الأخلاق العربية القبلية وكذا التراث الوثني القديم هما المصدران لوحيه، فهو في ذلك على شاكلة من سبقوه فتقول:"**فعلى شاكلة الكثير من العرب أصبح محمد يؤمن أن الله الإله الكبير في مجمع الآلهة العربية القديمة كان مماثلاً لله الذي عبده اليهود والمسيحيون**"[4].

ثم تبين -بحسب زعمها- أثر التراث اليهودي المسيحي في الدين الإسلامي وتشريعاته فتقول:" **وكما يبدو من القرآن فإن معظم الإنتقادات الأولى تركّزت حول مفهوم يوم الحساب الذي كان يتفق فيه مع محمد التراث اليهودي-المسيحي**"[5].

---

(1) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان على امتداد 4000سنة من إبراهيم الخليل حتى العصر الحاضر، ترجمة محمد الجورا، دار الحصاد دمشق سوريا، ط1، 1996م، ص19.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، مرجع سابق، ص79. والنص الأصلي هو:

« The old tribal ethic affected the Qu'ranic message ».

(3) « Muhammad was aware that, despite its roots in the old pagan tradition, his revelation from Allah would threaten the more conservation Quraysh, whish was one reason why he kept a low profile for the first three years of his misson ». Karen Armstrong: Muhammad A Biography of the Prophet, p102.

(4) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، مرجع سابق، ص146.

(5) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص123.

وفي معرض حديثها عن الحج وأداء مناسكه وشعائره تقول:"**في شهر ذي الحجة شهر الحج تراثياً أعلن النبي أنّه سيقود قافلة الحج بنفسه تلك السنة... لقد كان محمد مصمماً على تجذير هذا الدين الجديد في تراثات العرب المقدّسة القديمة...بدأ النبي بالصيحة التراثية "لبيك اللهم لبيك" ثم بدأ يقودهم عبر الطقوس الوثنية المقدّسة التي كانت عزيزة جداً على قلوب العرب معطياً إيّاها أهمية جديدة بينما كان يؤكد على إستمرارية إبداعية وأساسية مع الماضي**"[(1)].

وتحدِّثنا كارين عن الركن الخامس هذا في الإسلام في موضع آخر مسبلة عليه نفس الرؤية سابقة الذكر ولكن بتجليات فكرية إستشراقية جديدة موضِّحة الهدف الرئيس من استبقاء هذا الطقس الوثني في الديانة الجديدة أو الدعوة التجديدية التي قام بها محمد ﷺ في قومه، بأن الحج كان عزيزاً جداً في نفوس العرب ومن باب المجاراة لهم تمَّ اعتماده كركن خامس من أركان الدين الجديد، فتقول:" **وفي عام 632م أي قبل وفاة محمد بوقت قصير قام بحجة الوداع فأبقى على الشعائر الوثنية العربية القديمة كالحج**[(2)] **الـــــــــــــــــــــــــــــــــذي كان**

---

(1) « So in the Dhu al-hijja, the **traditional month for the hajj**, Muhammad announced that he would lead the pilgrimage him self that year…and Muhammad was determined to root his new religion into the **sacred traditions of the Arabs**…He began to utter the **ancient cry** of the pilgrims 'here I am at your service, oh God' then he began to lead them through the old pegan rituals so dear to the hearts of the Arabs, giving them a new significance at the same time as he was assuring an essential and creative **continuity with the past**». Karen Armstrong:ibid, pp 252-253.

(2) تؤكد كارين أرمسترونغ على أن محمد ﷺ قد أبقى العدد الكبير من الشعائر الوثنية العربية القديمة كمرتكزات في دينه لا سيما في فريضة الحج، وحين التقصِّي يجد الباحث أن الحج في الجاهلية غيره في الإسلام وإن كانت هنالك بعض نقاط التقاطع الموجودة بين التشريعين، لأن أهل مكة في جاهليتهم بقوا محافظين على بعض مراسيم الحج المتوارثة من عهد إبراهيم عليه السلام وأنهم أضافوا البعض الآخر لما رأوا فيه من مصلحة دنيوية لهم ولتجارتهم. ومن الشعائر الوثنية العربية القديمة التي أضافها العرب لدين إبراهيم عليه السلام أنهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة، وكانت العمرة في الجاهلية في أشهر الحج من كبائر الذنوب وأفجــر الفجور، وكانوا لا يقفون بعرفة إلا بمزدلفة، وأنهم كانوا ينصرفون من عرفة قبل غروب الشمس ولا يدفعون من مزدلفة إلا بعد شروقها، وأنهم كانوا يطوفون طوافاً مختلطاً وهم عراة، وزادوا في التلبية ما لم يشرَّع وغيرها من الأمور فهل أبقاها الإســـلام وأكَّدها محمد ﷺ أم أنه هدمها قولاً وفعلاً؟

عزيزاً جداً على العرب وجعله الركن الخامس من أركان دينه"[1].

ولما عرضت في حديثها عن نشأة الإسلام!!(ظهور الإسلام) تقول:" **إلا أن الإسلام شأنه شأن اليهودية ليس فيه للهرطقة العقائدية أي وجود وبالتالي ليس لها أي دور في انقساماته الرئيسة**"[2].

إذا كان هذا هو حال الإسلام وتشريعاته من حيث أصوله ومصادره، فإن محمدَ لم يأت بجديد وإنما هو ناقل ومتبع لما قبله، ولذلك فالفضل يعود لمن تأثر بهم وليس له فتقول:" **ولم ينظر محمد إلى وحيه على أنه أمر جديد، فما أوحي إليه به كان ببساطة الدين القديم الذي عبده اليهود والمسيحيون**"[3].

وتكرر نفس الكلام والفكرة مؤكّدة ذلك في موضع آخر ولكن بأسلوب مغاير وسياق مختلف مع بيان استمداد محمد ﷺ العون والتشجيع وبخاصة في سنوات الوحي الأولى من زوجته خديجة وورقة بن نوفل الذي تحوّل للمسيحية[4].

لم يُبْقِ الإسلام ولا شعيرة واحدة من شعائر الجاهلية إلاّ وأتاها من القواعد هدماً ما لم توافق تشريعه وذلك إما بنص قطعي الثبوت والدلالة وإما بسلوك فعلي منه ﷺ، ففي الصفا والمروة يقول المولى سبحانه:﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 158]، فأثبتهما الله أنّهما من شعائر الله وأبطل حكم الجاهلية فيهما، وأما العمرة في أشهر الحج فقد أدّاها ﷺ وأبطل إدِّعاءات الجاهلية ومثلها كذلك الوقوف بعرفة والانصراف منها وكذا الطواف المختلط وهم عراة كما جاء ذلك كله في حديث جابر بن عبد الله، لما رواه البخاري، ج5 ص175 كتاب الحج باب التمتّع والاقران بالحج، ومسلم، ج2 ص909 كتاب الحج باب جواز العمرة في أشهر الحج، والنسائي، ج5 ص180 كتاب الحج باب إباحة فسخ الحج بالعمرة لمن لم يَسُق الهدي. وقد أورد الإمام الطحاوي شيئاً من التفصيل حول هذه المسائل مجتمعة لمن أراد المزيد ينظر: الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري (ت321هـ/933م): أحكام القرآن الكريم، تحقيق: د. سعد الدين أونال، مركز البحوث الإسلامية إستنبول، ط1، 1418هـ/1998م، ج2 ص 99 وما بعدها.

(1) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، مرجع سابق، ص164.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص304.

(3) كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، دار سطور القاهرة ط1، 1998م، ص379-380.

(4) « For the first two years, Muhammad kept quiet about this revelation, confinding only in his wife khadijah and her cousin, Waraka ibn Nawfal who had

وتقول عن اتباع المسلمين للنبي ﷺ بأنها محاكاة للمسيحيين في اتباعهم للمسيح عليه السلام:" **فكما طوّر المسيحيون عادة محاكاة المسيح كذلك يسعى المسلمون إلى محاكاة محمد في حياتهم اليومية كي يقتربوا قدر الإمكان من هذا الكمال كي يقتربوا قدر استطاعتهم من الله ذاته**"[1].

والقَصَص القرآني عن أنبياء الله في القرآن الكريم يدلُّ دلالة واضحة بأنّ القرآن والكتب السماوية السابقة إنما صدرت من مشكاة واحدة ومن مصدر علوي قبل أن تحرَّف، إلا أن اللوثة الإستشراقية دائمة التأثير بوعي أو بغير وعي.

فأرمسترونغ لا تجد حرجاً في نَسْب القصص القرآني إلى تأثّر القرآن بالكتب السماوية السابقة، وأن معرفة المسلمين بكتاب اليهود بدأت تتّسع وقد وجدوا فيه من السُلوى لما يعانون، فتقول:" **ويبدو أن معرفة المسلمين لكتاب اليهود قد بدأت تتّسع خلال هذه الفترة العصيبة**[وتقصد فترة الجهر بالدعوة] **بدأ القرآن يسرد قصصاً جديدة عن أنبياء سابقين كي يواسي المسلمين**"[2].

والفكر اليهودي المسيحي قائم ولا مناص منه وهو مؤثر ودائم التأثير، هذا خُلاصة الفكر الإستشراقي حين يتعلّق الأمر بالإسلام وبتشريعاته، فتأكيد الخلاص والنجاة في يوم القيامة إنّما يكون بعد رحمة الله بالإيمان الصافي والعمل الخالص لله، وهذا هو الأصل في القرآن وقد أكّده في أكثر من موضع[3]،إلا أن المستشرقين يرجعون ذلك إلى التأثير المستمر وغير المنقطع للديانة اليهودية

---

converted to christianity. Both encaraged him to believe that this was a genuine **revelation from God**, **who had chosen him to bring the old religion of the Jews and the Christians to the Arabs** ». Karen Armstrong: Encyclopedia of Religion, Tomson Gale, 2nd ed, 2005, NY, USA, Vol 09,p 6221.

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص308.

(2) « It seems that **the Muslims'knowledge of the jewish scriptures was beginning to expand during this hard period**, **the Qu'uran stars to tell new stories about the previous prophets** to console the Muslims which reflect the excitement of discovery ». Ibid, p 130.

(3) مثاله قوله تعالى:﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف:110]. وأكده الرسول ﷺ في أكثر من حديث، مثاله ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:" لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ قَالُوا وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَلا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ

والمسيحية في تشريعات الإسلام وعقائده؛ فتقول كارين:" **فمحمد[ﷺ] كان يتبنى الفكرة اليهودية–المسيحية القائلة: إنّ مَن يقرّون بالدين الحق هم وحدهم من يستحقّون الخلاص**"[1].

والسبب في قولها هذا هو أنّ مفهوم اليوم الآخر لم يكن واضحاً في تشريعات الإسلام حتى أُخِذت تشريعاته الكثيرة ومنها الإيمان باليوم الآخر من الديانات السابقة وبالأخص المسيحية التي كان لها التأثير الواضح، وقد جاء قولها:" **كان مفهوم اليوم الآخر المسيحي محورياً في الرسالة المبكِّرة للقرآن**"[2].

لم يكن المسلمون جميعاً وعلى رأسهم محمد ﷺ يعلمون عن أصولهم ولا عن أجدادهم وأرومتهم شيئاً إلا حين اتصالهم بأهل الكتاب وبكتبهم التي ورثوها.

فتتحدّث كارين عن المسلمين وعن معرفتهم للتوراة بعد حصار مشركي أهل مكة للمسلمين في شعب أبي طالب، بأنها كانت قبل هذا منعدمة أو سطحية، إلا أن ذلك قد تغيّر بعد ذلك حين بدأ القرآن يحدِّثهم عن قصص الأنبياء السابقين وعن أتباعهم وذلك كي يواسيهم ويسرِّي عنهم ما يلاقونه من أنواع العذاب والمحن، فتذكر قائلة:"**ويبدو أن معرفة المسلمين لكتاب اليهود قد بدأت تتسع خلال هذه الفترة العصيبة، بدأ القرآن يسرد قصصاً جديدة عن أنبياء سابقين كي يواسي المسلمين**"[3].

وإذا كان حال المسلمين ما تم ذكره فكيف هو حال نبي الإسلام ﷺ مع الكتاب المقدّس؟ وكذا معرفته بأصوله وسلالته وأجداده؟

فمعرفة محمد ﷺ بالكتاب المقدّس كانت محدودة، ودليل كارين في ذلك ما ساقته من شواهد تاريخية –بزعمها- من الكتاب المقدّس حين تلحظ الخلط الذي وقع فيه محمد ﷺ [وحاشاه أن يكون كذلك وهو المنزّه بمنطوق القرآن] بين مريم أخت موسى ومريم أم يسوع، وكذا التسلسل

سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنْ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا". صحيح البخاري، ج8 ص 98، باب من انتظر حتى تدفن الجنازة، الحديث رقم 6463.

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ترجمة فاتن الزلباني، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط1، 1429هـ/2008م، ص55.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص158.

(3) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص150.

التاريخي لظهور أنبياء بني إسرائيل، فتقول:" **كانت معرفة محمد بالكتاب المقدّس ما تزال محدودة، فالشخصيات النبوية التي كان يجلّها العرب في تراثهم**[1] **وضعت جنباً على جنب مع أنبياء الكتاب المقدّس وكأنما يحتلون مكانة مساوية ... لم يكن محمد مطّلعاً على التسلسل التاريخي لظهور الأنبياء في الكتاب المقدّس، فيبدو أنه ظن أن مريم أم يسوع هي مريم أخت موسى في الكتاب اليهودي**"[2].

إذاً متى بدأ محمد ﷺ يعرف السرد التاريخي لإخوانه من الأنبياء الذين سبقوه؟ ومتى بدأت مداركه تتسع في هذا الميدان؟؟

ممّا لا شك فيه أنّ كل ذلك كان لّما جلس محمد ﷺ وجالس اليهود بعد هجرته إليهم في يثرب، ودرس معهم الكتاب المقدّس –على زعم من زعم ذلك- فتأثّر بالذي كان وهذا ما أثبتته كارين قائلة:"**إن بعض اليهود كانوا على علاقة طيبة بمحمد، ويبدو أنهم شاركوا المسلمين مقدرة مشرفة، كانوا يناقشون التوراة معه ويبيِّنون له كيف يردُّ على انتقادات اليهود، فساعدته معرفته الجديدة بالتوراة على تطوير رؤاه، فقد تعلّم محمد ولأوّل مرة التسلسل التاريخي الدقيق للأنبياء، وكان ذلك ضبابياً له فيما سبق**[3] **فأصبح باستطاعته الآن أن يرى**

---

(1) يقصد بالشخصيات النبوية التي كان يجلّها العرب في تراثهم القديم والتي لم تصرِّح بها كارين حتى لا تثبت صلة العرب بأرومتهم الأولى والتي تعود إلى أصول الأنبياء الأطهار وهما إسماعيل عليه السلام وأبيه إبراهيم خليل الله عليه السلام، وذلك مصداقاً لقوله تعالى:﴿وعهدنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طهِّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود﴾ [البقرة:124] وقوله تعالى:﴿وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [البقرة:126]، وقوله ﷺ:"إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم". رواه الإمام مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، الحديث رقم 01، والترمذي: كتاب المناقب، باب فضل النبي ﷺ، الحديث رقم3605 عن خَلاَّد بْن أَسْلَمَ الْبَغْدَادِيّ عن مُحَمَّد بْن مُصْعَبٍ عن الأَوْزَاعِيّ عَنْ أَبِى عَمَّارٍ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ رضى الله عنه.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص151.

(3) ما صرّح ولا لّمح محمد ﷺ على أنّه هو مصدر الوحي ولا ادّعى ذلك –حاشاه ﷺ- وإنما كان مصدر التلقي وكان قوله دائماً مصداقاً لقول الحق سبحانه في القرآن المكي:﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ **أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ**﴾ [الأنعام: 50].وقد تكرّر مثل هذا التأكيد في غير موضع من القرآن، ومثاله سورة [يونس: 15] وسورة[الأحقاف: 09]. كما يخبرنا القرآن المكي كذلك عن ترتيب الأنبياء -لا كما تدّعي كارين ومن كان على شاكلتها- بأن إبراهيم عليه السلام كان قبل موسى عليه السلام وهذا معلوم في ذلك الوقت بالضرورة في أكثر من موضع في القرآن الكريم

الأهمية الكبيرة بأن إبراهيم قد عاش قبل كل من موسى أو يسوع"[1].

هل توقف الشطط الإستشراقي عند هذا الحد من التجنّي العلمي المزعوم؟؟ فكارين تخبرنا الخبر اليقين الذي لا شك فيه حين استقى محمد ﷺ معلوماته الأولى عن أرومته من يهود يثرب تحديداً في أكثر من موضع قائلة:" **وعلم محمد من يهود يثرب الأكثر مودّة أن هناك اعتقاداً بأن العرب هم سلالة إسماعيل ولد إبراهيم**[2]**، أي أنهم مثل اليهود والمسيحيين من نسل إبراهيم"**[3].

عند المسلمين جميعاً فكيف بالذي نزل عليه الوحي ﷺ؟؟ ومثاله قوله تعالى:﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[الأعلى:18-19]. وسورة الأعلى من بين السور الأوائل التي نزلت بمكة المكرمة وبسنوات عديدة قبل الهجرة إلى المدينة المنوّرة-يثرب- فلما التجنّي والادّعاء إذاً؟؟

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص162.

(2) كثيرا ما يغالي هؤلاء ومن يحمل لوثتهم في الإدّعاء ما ليس لهم بحق وبالمقابل ينتقصون من حق وقدر غيرهم، فهم من نسل إبراهيم عليه السلام وغيرهم يسمونهم الهاجريون نسبة إلى هاجر أم إسماعيل عليهما السلام، أو يسمونهم أبناء الأَمَة، غير أن الحقيقة التاريخية مثبتة بأن إسماعيل بن إبراهيم الأكبر، وأن الولد ينسب لأبيه، وقد جاء ذلك على لسان من يدَّعون أنّهم من نسله الطاهر الشريف، نبي الله يعقوب عليه السلام، في قوله تعالى:﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 133]، وثبت تاريخياً كذلك أن إبراهيم عليه السلام قد هاجر بولده هذا وأمه إلى مكة بأمر من الله، في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: 37]، وبيَّن في موضع آخر هذه الذرية التي أسكنها قرب البيت المحرّم، وهي إسماعيل وذريته في قول الحق سبحانه:﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 127-128]، ومنه يثبت من الناحية التاريخية وكذا من الناحية العقدية أن العرب من ولد إسماعيل وأن إسماعيل الولد الأكبر لنبي الله إبراهيم خليل الله عليه السلام، وليس ذلك زعماً ولا ادّعاء كما يصفه هؤلاء ويتقوَّلونه.

(3) كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ص373-374. وللرد على مثل هذا القول غير العلمي نورد ما أورده أهل السير والتراجم في نسبه الشريف ﷺ، فكلهم مجمعون بلا خلاف من أن نسبه يتصل بإبراهيم عليه السلام فهو:"محمد بن عبدالله بن عبد المطلب واسمه شَيْبَة بن هاشم واسمه عمرو بن عبد مناف واسمه المغيرة بن قُصَيّ واسمه زيد بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فِهْر وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة بن مالك بن النَّضْر واسمه قيس بن كِنَانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكة واسمه عامر بن إلياس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عدنان بن أُدَد بن الهَمَيْسَع بن سلامان بن عَوْص بن بوز بن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخى بن عيض بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حَمْدان بن سنبر بن يثربى بن يحزن بن يلحن بن أرعوى بن عيض بن ديشان بن عيصر بن أفناد ابن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمى بن مزى بن عوضة بن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام". وهذا الجزء

وتستمر كارين في بيان مراحل التشريع الإسلامي وتقييد أزمنة ذلك بأن تضفي هالة غير حقيقية وتدرج حوادث تاريخية لا وجود لها في واقع التاريخ الإسلامي وحركة التشريع حتى تلصق بالإسلام وتشريعاته ما هو براء منها.

فكيف تفسِّر كارين توجه المسلمين في صلاتهم إلى بيت المقدس بادئ الأمر ثم عدولهم عنها بعد ذلك؟؟

وكيف تفسِّر تعامل اليهود ثم عدولهم وإعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ ومناهضتهم له بعد الهجرة؟؟ ثم مراحل التشريع بين المرحلة المكية والمدنية وكيف هي تجلِّياتها في فهم وتفسيرات كارين؟؟

وإذا ما صادف أن التقت التشريعات السماوية السابقة مع تشريعات ما جاء به محمد ﷺ فما الحكم فيها من منظور الفكر الإستشراقي عامة وتأثيراته في فكر كارين بصفة خاصة؟

تفسر كارين توجّه المسلمين في بداية الدعوة الإسلامية حين صلاتهم إلى بيت المقدس بأن ذلك كان تقليداً للديانات السماوية القديمة –اليهودية والنصرانية- لاستلهام الروحانية الحقّة من مصدرها لأن مكة في تلك الفترة كانت مليئة بالشرك والأوثان، وأن محمدَ ﷺ كان في ذلك متكافلاً مع أهل تلك الشريعتين حتى يكسب ودهم ولا يعادونه فهو في أمس الحاجة لمن يدعمه، فتقول:"**بيد أن محمداً ﷺ حينما عَلَّم معتنقي الإسلام الأول السجود لله في صلواتهم، كرمز خارجي لتسليمهم الباطني، أخبرهم ألا يتوجّهوا نحو الكعبة بل نحو أورشليم، فقد كانت الكعبة حينئذ ملوّثة بالأوثان، ولذلك كان على المسلمين التوجه نحو المركز الروحاني لليهود والنصارى الذين كانوا يعبدون الله وحده ... وأيضاً كان ذلك تعبيراً عن تكافل محمد ﷺ مع أهل الكتاب وعن استمرارية عقيدة الوحدانية**"[1].

من أجل ذلك الهدف الذي كان يترجّاه محمد ﷺ من اليهود – وهو الرضا عنه وعدم التعرّض له بالأذية والتكذيب- على ما هو مثبت في فكر أهل اللوثة الإستشراقية، ترى كارين أنّه كان

المتفق فيه بين كل النسّابة والمؤرخين وأهل السير والتراجم غير أن بعض المصادر قد اختلفت في نطق بعض هذه الأسماء وفي إثبات البعض منها وإسقاطها. وللمزيد ينظر مثاله: السهيلي: الروض الأنف، ج1 ص23-38.

(1) كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة، ص377.

لزاماً على محمد ﷺ أن يغيّر ويعدّل ما جاء به من وحي حتى يتماشى وعقيدة اليهود القاطنين يثرب، ثم تحدِّد جازمة بذلك تاريخ تحويره وتعديله لما جاء به من شريعة ودين وأضاف ما يتماشى وشريعة هؤلاء بحسب ما يراه هو لا كما يوحي إليه ربه سبحانه، فتثبت أنّه:" **في السنة التي سبقت الهجرة إلى يثرب عدّل محمد دينه كي يجعله أقرب إلى اليهودية كما فهما هو**[1]**، فبعد سنوات عديدة من العمل في عزلة لا بدّ أنّه كان يتطلّع إلى العيش مع أفراد من تراث أقدم وأكثر رسوخاً، ولذلك فرض صوماً على المسلمين في يوم الغفران اليهودي وأمر المسلمين أن يصلّوا ثلاث مرات كل يوم كما كان يفعل اليهود بدلاً من الصلاة مرتين حتى ذلك التاريخ... زد على ذلك كان المسلمون يممون وجوههم أثناء الصلاة نحو القدس مثلما كان يفعل اليهود والمسيحيون**"[2].

لم يتأثّر محمد ﷺ ولا دينه الجديد الذي حمله لقومه في مكة ثم للعرب بعد ذلك بالقدر الكافي كما كان منتظراً، ثم إنه لم يتشبّع بالمبادئ اليهودية والمسيحية التي كانت يومها سائدة ورائدة كما

---

(1) إذا استنطقنا التاريخ وسألناه على ما تمَّ ذكره على لسان المستشرقين جاء جوابه بالنفي قطعاً، ولكن إذا ما سألنا هؤلاء على ما ذكروا إستدلوا بغير بيِّنة واحتجوا بغير دليل، فهم يذكرون التعديل الذي قام به محمد ﷺ دون تقديم الحجة ثم يسوِّغون لأنفسهم مسوِّغات واهية للتشكيك ليس إلا. ولو وضعنا ما قدّموه كأمثلة لوجدناها بعد التمحيص والدراسة المدقّقة ما هي إلا أمثلة تضليلية خرجت عن نسقها التاريخي والمعرفي. فالصوم المقصود هاهنا والذي يصادف يوم الغفران اليهودي هو صوم يوم عاشوراء فقد كان معروفاً قبل الهجرة بل إن قريشَ كانت تصومه في الجاهلية ولما هاجر ﷺ صامه مرة واحدة في المدينة وأمر المسلمين بذلك، فلما فرض الله صيام شهر رمضان – وكان ذلك في السنة الثانية للهجرة- جعل صوم يوم عاشوراء من باب النافلة والاستحباب، مصداقاً لحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قَالَتْ:" كَانَتْ قُرَيْشٌ تَصُومُ عَاشُورَاءَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُهُ فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ صَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ فَلَمَّا فُرِضَ شَهْرُ رَمَضَانَ قَالَ :" مَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ". صحيح مسلم: مصدر سابق، ج2 ص792، باب صوم يوم عاشوراء، والحديث رقم:1125، رواه زهير بن حرب عن جرير عن هشام بن عروة عن أبيه. أما الصلاة فقد أداها الرسول ﷺ ومن كان معه من المؤمنين الأول ركعتين في الصباح وركعتين في المساء على ما كان مفروضاً على دين إبراهيم الخليل عليه السلام إلى أن فرضت الصلاة خمساً في الأداء وخمسين في الأجر ليلة الإسراء والمعراج، وكان المسلمون يؤدونها ركعتين ركعتين إلا صلاة المغرب فكانت ثلاثاً، فلما استقروا واطمأنوا بالمدينة المنورة بعد الهجرة أصبحت أربعاً إلا صلاتي الفجر والمغرب، وللتدليل على ذلك ما رواه مسلم وغيره باب صلاة المسافرين وقصرها من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:" فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ". والحديث رواه صَالِح بن كَيْسَانَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، ج1 ص478، تحت رقم: 685.

(2) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، ص162.

هو مطلوب، لذا فلن يلاقي محمد ﷺ ودينه الجديد إلا الصدود والإعراض في أحسن أحواله إن لم تكن هناك معارضة ومصادمة من قبل اليهود خاصة وقد حلَّ بين ظهرانيهم كوافد جديد، هذا ما يروِّج له الفكر العلمي الإستشراقي!!؟ في كل ما يكتبونه ويسوِّدون به كتبهم وصحائفهم، ثم إذا ما صدَّ عنه هؤلاء اليهود فلهم أسبابهم الواقعية والدينية والتاريخية والسياسية والمسوِّغات في ذلك كثيرة.

لن تشذّ كارين عن هذه القاعدة الإستشراقية، فتثبت وهي متقصِّدة في ذلك مثل هذا التجنِّي – العلمي– على أن اليهود ومن كان في فلكهم إن عارضوا محمدَ ﷺ ومن كان معه على دينه فهم صائبون فيما قَدِموا عليه، لأن عملية التأثير والتأثّر لم تكن كافية ولذلك كانت نتائجها غير مرضية للطرف الآخر ولذا حق لهذا الطرف ومن معه أن ينازعوا محمدَ ﷺ وأتباعه الأمر وهم في ذلك غير ملومين، فتقول:"**في البداية كان يهود المدينة مستعدين لإعطائه أي فرصة فالحياة قد أصبحت لا تطاق في الواحة وكانوا يشكُّون فيه خاصة منذ أن بدا ميالاً إيجابياً تجاه دينهم، في النهاية تحوّلوا ضده وانضموا إلى الوثنيين الذين كانوا معادين للوافدين الجدد من مكة، كان لدى اليهود أسباب دينية سليمة لرفضهم لأنهم كانوا يعتقدون أن عصر النبوة كان قد انتهى**[1]، **وكانوا**

---

(1) إن كارين أرمسترونغ تكتب أفكارها على أساس أنها مسلّمات ثابتة، وهي بذلك تنكر ما ثبت كحقيقة تاريخية ودينية، فتبحث لكل فكرة معادية للإسلام وأهله عن أي وجه من أوجه التدليل لتدفع بها كل حقيقة وقد نسيت أو تناست أن تبحث لمثل تلك الأفكار التي أثبتتها السند التاريخي أو التدليل العقدي. ففي الكتب المقدّسة لهؤلاء نجد ما يفنِّد ما ذهبت إليه، فعندهم مكتوب ومفصَّل حتى أدقَّ صفات نبي آخر الزمان وهو النبي المنتظرﷺ.

فقد قال الله لموسى عليه السلام:"أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به".[سفر التثنية 18/18]، وفي سفر [أشعيا12/29]:"يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له إقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة..". وما جاء على لسان عيسى عليه السلام:" وأمّا مَتَى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنّه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلّم به"[يوحنا:12/16] وقوله:"إني ذاهب وسيأتيكم الفارقليط[يعني كثير الحمد] روح الحق لا يتكلّم من نفسه إنّما هو كما يقال له".[يوحنا:14-15].وللمزيد حول هذه الفكرة ينظر كتاب: محمد ﷺ في الكتاب المقدّس للبروفيسور عبد الأحد داوود، ترجمة:فهمي شما، مطبعة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية قطر، ط1، 1405هـ/1985م، وكتاب: ماذا تقول الإنجيل والتوراة عن محمد ﷺ لأحمد ديدات وغيرهما كثير في هذا الباب.

وما جاء في القرآن الكريم فهو كثير ومثاله قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ

ينتظرون المسيح المنتظر، ومع ذلك كانت تحركهم اعتبارات سياسية إذ في الأيام الغابرة كانت لديهم سلطة في الواجهة عن طريق رمي ثقلهم مع هذا الطرف أو ذاك من القبائل العربية المتحاربة، لكن محمداً جمع هذه القبائل مع قريش في الأمة الإسلامية الجديدة"[1].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.[الأعراف:157] وجاء على لسان عيسى عليه السلام قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف:6].

أما ما جاء كوقائع تاريخية مثبتة فحال سلمان الفارسي رضي الله عنه بعد إسلامه وكيفية ذلك وخروجه من بلاد فارس إلى بلاد العرب بحثاً وانتظاراً للنبي ﷺ. ينظر السهيلي: الروض الأنف، ج1 ص371 وما بعدها. وإسلام أهل يثرب وتصديقهم بالنبي ﷺ حتى قبل أن يهاجر إليهم لشدّة ما سمعوا من صفاته وأوصافه حين مجاورتهم لليهود بيثرب، وصفة إعلان عبدالله بن سلاّم رضي الله عنه إسلامه حين قدوم النبي محمد ﷺ المدينة المنوّرة والحوار الذي دار بينهما وقد كان عبد الله هذا من أكبر أحبار اليهود وأشرفهم يومها. ينظر السهيلي: الروض الأنف، ج2 ص373 وما بعدها.

(1) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، ص162.

المنهج العلماني:

وهو المنهج الذي يتم فيه استبعاد وقوع الظواهر والحوادث الدينية وتفسيرها تفسيراً دينياً لأنها لا تخضع لنفس القانون الذي تخضع له الأجسام المادية الطبيعية.

فالنبي محمد ﷺ في المنهج العلماني ما هو إلا بطل من أبطال العرب الجاهليين حقّق إنجازات عظيمة عجز عنها وعن الوصول إلى مستواها أقرانه في زمانهم، ولذلك فكل ما تحقّق لا يعدو إلا أن يكون صفة لإنجازات سياسية وأخرى إجتماعية وهكذا.

ولذا فمثل هذه الصفات والنعوتات سترد كثيراً في مقاطع كثيرة من كتبها وفي نصوص من أبحاثها، ومنها قولها:" **فإن محمداً ﷺ لم يمتلك عبقرية روحانية ولكنه أيضاً كان ذا مواهب سياسية من طراز رفيع جداً**"(1).

وحين دفعت تهمة الإكراه وفرض الإسلام بالقوة والتي قدّمهما الدارسون الغربيون كصفات لمحمد ﷺ في دعوته ودينه للغرب أثبتت مواهب محمد السياسية رفيعة المستوى و لم تثبت له صفة النبوة فتقول:" **كان محمد يتمتّع بمواهب سياسية رفيعة المستوى**"(2).

وقريباً من كلامها سالف الذكر تكرّر كارين نفس الكلمات ولكن بأسلوب وقالب يغلّب فيه النجاح السياسي الباهر لا غير فتقول:"**لقد حقّق محمد نجاحاً سياسياً باهراً**"(3).

ولعلّه من نافلة القول أن نسأل كل من يحمل مثل هذه الأفكار لمحمد ﷺ وعنه، فنقول لهم: لماذا **لم تتفجّر قريحة الرجل العظيم هذا قبل سن الأربعين؟؟ ثم ما هو البرنامج السياسي الذي اعتمده لحركته التغييرية** في مجتمعه؟؟ وهل لاقى هذا البرنامج كل الإستحسان ومن قومه كلهم أم **أنّ عبقريته السياسية قد لاقت من المعارضة الشيء الكثير؟؟** ومن هي الشخصيات التي عارضته هل هي تلك التي تحمل **برنامجاً مماثلاً أم تلك التي تحمل برنامجاً مغايراً؟؟ ولِمَ كُتب له ولبرنامجه السياسي هذا كل النجاح ولم يكتب لغيره؟؟** وما هي **المعايير المعتمدة في قياس النجاح السياسي الباهر في ذلك الزمان؟؟ وهل المجتمع الجاهلي الذي عاش فيه هذا الرجل العظيم هو من أنتجه**

---

(1) كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة، ص370.

(2) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، ص164.

(3) كارين أرمسترونغ: محمد نبي لزماننا، ص19.

وسقل مواهبه وطوّرها أم أن **عظمة هذا الرجل فاقت كل عظمة في زمانه** فلاقى برنامجه السياسي هذا كل الترحاب وأُخِذت محاوره بكل عناية وباعتبار رفيع؟؟ ثم **لماذا لم يُنتِج هذا المحيط الذي خرج منه هذا السياسي العظيم مثله ومَن على شاكلته؟؟** أم أنّ **هنالك سراً** غاب عن أعين وعقول هؤلاء الذين يحملون مثل هذه الأفكار التنويرية لم يستطيعوا إدراكه واستيعابه- وهذا ضرب من المحال والزعم-؟؟ **أم هو التعمّد والتقصّد** لأن الأمر لا يعدو أن يكون **تأريخاً لدين الإسلام وتاريخ نبي الإسلام** ﷺ، فلا يجرأون أن يَصْدُقوا أنفسهم وأن يصدقوا قومهم ثم يصدقوا العالم كله بما في ذلك الآخر، **ليقولوها صراحة إنها النبوّة والاصطفاء الإلهي أولاً وأخيراً**[1].

تحدِّثنا كارين عن محمد ﷺ في بداية حياته وعن محيطه البدوي الذي نشأ فيه ومدى تأثير هذا الأخير في نفسيته وتكوينه، وكيف هي المعتقدات في ذاك الزمان والمكان، وكيف أن العرب لم يكونوا مهتمين بالجانب الديني والأديان التقليدية التي عرفتها البشرية حينها، وكيف هي آلهتهم التي كانوا يعبدونها والتي أصبحت عديمة الفائدة لأنها لم تقدِّم لهم الحل الأمثل لتحسين وضعيتهم الاجتماعية وبيئتهم المادية القاسية فتقول:" وعلى الرغم من أن أهل مكة تركوا حياة البداوة، فإنهم ظلوا ينظرون للبدو على أنهم حراس للثقافة العربية الأصيلة، **أرسل محمد في طفولته ليعيش في الصحراء مع قبيلة مرضعته ليتشرّب الحياة البدوية وكان لهذا أثر عميق في نفسه، لم يكن البدو**

---

(1) تحدِّثنا كتب التاريخ العائدة للفترة المدروسة أن هنالك مجموعة من الحركات التغييرية في المجتمع العربي قد وقعت وأخذت العديد من الأشكال سواء ما أخذ منها المنحى الفردي أو الجماعي لتصحيح الأوضاع التي كانت موجودة حينها على الكثير من الأصعدة والمستويات، وبخاصة على الصعيد العقدي الديني أو الإجتماعي، غير أن تلك الحركات المنادية بالتصحيح والتغيير لم تلق النجاح الباهر في مجتمعهم ولا تميَّز أصحابها بما تميَّز به محمد ﷺ.

مثال ذلك لا الحصر في المنحى الفردي ما قام به زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي، وقد تمت الإشارة إليه وترجمته سلفا، وما كان من أمره وأمر أصحابه ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وما تعاهدوا عليه وتناجوا به لتصحيح الوضع الديني القائم في مجتمعهم وكيف اهتدى هؤلاء إلى ما تم تحريفه وانحراف القوم عن دين أبيهم إبراهيم عليه السلام. وللمزيد حول هؤلاء ينظر: السهيلي: الروض الأنف، ج1 ص 379-381.

أما مثاله في الحركة التصحيحية على المستوى الجماعي ما قامت به بعض قبائل قريش لرفع الظلم الإجتماعي وتصحيح مسار المجتمع واصطلح على تسمية هذه الحركة في التاريخ بحلف الفضول والذي تم في دار عبد الله بن جدعان. ينظر للمزيد حول هذا الحلف: السهيلي: الروض الأنف، ج1 ص 242 وما بعدها.

مهتمين بالأديان التقليدية ولم يكن عندهم أمل في الحياة بعد الموت وكانت ثقتهم قليلة في آلهتهم التي بدت عديمة الفائدة في تحسين بيئتهم القاسية"[1].

استعاد العرب ثقتهم في آلهتهم المعبودة والتي بدت عديمة الفائدة في لحظة من لحظات تاريخهم بأن تدخّلت وبإصرار منها حتى تثبت لهم أنها ما كانت بعيدة ولا غائبة عنهم وأنه قد آن الأوان لهم أن يعودوا إليها، واختارت منهم رجلاً على الطريقة العلمانية وبأسلوب كله تهكم مجسَّد فتثبت أنه:"**حوالي عام 12ق.هـ/610م، ومحمد معتكف في غار حراء تعرَّض لهجوم مباغت مذهل، الكلمات التي اعتصرت وكأنّها من أعماق روحه، أصابت جذر مشكلة مكة،**[ثم ذكرت سورة العلق كاملة]، **مثّلت تلك الكلمات امتداداً لاعتقاد قريش أن الله قد خلق كل شخص منها، وكشفت وَهْمَ مروءة الاستغناء، وأظهرت الاعتماد الكلي للبشر على الله، أخيراً أصرَّ الله على أنه ليس إلهاً بعيداً غائباً، بل حاضراً لهداية مخلوقاته ويجب عليهم الاقتراب منه ولكن بدلاً من اقتراب بروح استغناء المروءة عليهم السجود له"**[2].

لقد تَمَّ الاختيار في غار حراء لهذا القرشي-لا على أساس أنه نبي من منظار الغربيين العلمانيين- بل لأنه كان مؤهلاً قيادياً وذلك من خلال فهمه وتطويره للحقيقة الدينية لأنّه ببساطة كان قائداً دينياً بالفطرة وهو الوحيد المؤهّل في العرب حينها كي يجلب إليهم دين الله الأزلي ووحيه القديم، فتؤكد أنّه:" **غالباً ما نستخدم كلمة وحي لِوَصف فكرة أو رؤية أصيلة كلياً، لكن يُبيِّن أصل اللفظة وتاريخها أنه شيئ كان وقد جرى الكشف عنه، فالمفهوم أو الرؤيا الدينية بطبيعتها لا يمكن أن تكون مبتكرة ذلك أنها تزعم أنها تشير إلى الحقيقة الأصلية السابقة للوجود، وقد فهم محمد هذه الحقيقة وعبَّر عنها بوضوح أكبر مما عبَّر عنها أيٌّ من القادة الدينيين الآخرين، لم يكن هناك جديد حول الوحي على جبل حراء، فهذا كان ببساطة الدين القديم لله الذي أوحاه مرة تلو مرة، وهو الدين الذي عُهِد به إلى محمد كي يجلبه للعرب"**[3].

---

(1) كارين أرمسترونغ: محمد نبي لزماننا، ص29.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص44-45.

(3) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص100-101.

وعن عظمة محمد ﷺ في التاريخ وعن القرآن الكريم تقول:" **لو كان باستطاعتنا أن ننظر إلى محمد مثلما ننظر إلى أية شخصية تاريخية هامة فإننا بكل تأكيد سنعتبره واحداً من أعظم العباقرة الذين عرفهم العالم**[1]**، فقد أبدع رائعة أدبية وأسّس ديناً رئيسياً وقوة عالمية جديدة وهذه كلها إنجازات غير عادية، لكن كي نقدِّر عبقريته إلى مداها ينبغي أن نتفحّص المجتمع الذي ولد فيه والقوى التي صارعها**"[2].

---

(1) تم سلفاً في متن الصفحة طرح الكثير من الأسئلة على كارين أرمسترونغ ومن كان على شاكلتها في حمل الأفكار المسبقة والتخريجات العلمية المزعومة والقراءات التاريخية مع إسقاطاتها في غير محلها ونسقها التاريخيين، ثم هي تعيد نفس الأفكار ولكن بتخريجات متقاربة ومتغايرة في آنٍ واحد، فمحمد ﷺ هو من أعظم العباقرة العالميين في ميزان هؤلاء ولا ندري سبب ذلك. أما وإن كان بسبب كتابه الذي جاء به وعدَّه هؤلاء أنَّه رائعة أدبية فهو ليس له ولا من تأليفه حتى ينسب له، لأن صريح القرآن يقرُّ في الكثير من الآيات بأن الكتاب الموحى به هو لله ومن الله كقول الله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى:52]، وقوله تعالى:﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:3]، ومحمد ﷺ في كل ذلك متبع لِما يوحى إليه وليس بمبتدع وهو حلقة في سلسلة النبوة والأنبياء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾[النساء:163-165]. فلم يكن ﷺ بدعاً من الرسل ولا متقوّلاً غير الذي أوحي إليه- وحاشاه أن يتقوَّل- لقول الحق سبحانه:﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ، قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[الأحقاف:8-9]، وقوله سبحانه:﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[يونس:15]، وينفي الحق سبحانه عن محمد ﷺ صفة التقوّل والادِّعاء ما ليس له بحق في قوله تعالى:﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ، لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴾ [الحاقة:44-46]. فهل بعد هذا الكلام العلمي والتدليل الدقيق الواضح من كلام عن العبقرية والعظمة والإبداع والرائعة الأدبية وتقدير العبقرية خارج إطار الحقيقة المطلقة وهي الرسالة والنبوّة والاصطفاء الإلهي؟؟

(2) « If we could view Muhammad as we do any other important historical figure we would surely consider him to be one of the greatest geniuses the world has known, to create a literary masterpiece, to found a major religion and a new world powerare not ordinary achievments. But apreciate his genius to the full, we

تتحدّث كارين عن الرائعة الأدبية في موضع آخر وتجعل من محمد ﷺ مؤلّف روائع أدبية وروحية بعد أن جعلت منه السياسي العبقري الذي يجد الحلول السريعة والممكنة لكل معضلة يلاقيها شعبه وذلك استناداً إلى ما يجده في نفسه من إيحاءات حتى وإن كانت هذه الايحاءات ثقيلة في بعض الأحيان ولا يستطيع تحمّلها فتقول:" **ليس مستغرباً إذا وجد محمد هذه الايحاءات عبئاً هائلاً عليه، فهو لم يكن يعمل فقط في إيجاد حل سياسي جديد كل الجدة لشعبه بل كان أيضاً يؤلّف إحدى الروائع الأدبية الروحية العظيمة على مرّ العصور**"[1].

وإلى أي حدٍّ بلغ مستوى الرائعة الأدبية التي جاء بها محمد ﷺ فهل بلغ بها درجات التحدّي لقومه وهم الشعراء والخطباء والفصحاء في زمانهم؟؟ أم أن الروائع الأدبية لم يكن لمحمد ﷺ فيها يد لا من قريب ولا من بعيد وإنما هي وحي يوحى، فتعدَّت بذلك مقدرة هؤلاء العقلية والبشرية، لكن الفكر العلماني لا يثبت ذلك ولا يعترف بل يعزوها إلى فكره الخلاَّق المبدع والذي بلغ مستويات يعجز غيره أن يبلغها فيقول مبتدراً من شخص كارين:" **يستطيع المرء أن يقول أن محمداً في مستوى من المستويات قد أتى بشكل أدبي جديد كل الجدَّة، كان بعضهم مستعداً له بينما وجده آخرون مفحماً لهم ومربكاً، لقد كان جديداً جداً وقوياً جداً في تأثيره إلى درجة أن وجوده بحد ذاته بدا معجزة بعيدة منال القدرة البشرية العادية**"[2].

ما قالته كارين سلفاً تعيده في موضع آخر بطريقة المقارنة بين الروائع الأدبية الكلاسيكية والحديثة، حيث يلتقي فكر محمد ﷺ النبي الموحى إليه مع دعاة الإصلاح والإبداع في الغرب المحدثين ممثّلاً في شخص جورج شتاينر[3] الأديب الناقد وما توصَّل إليه من أفكار وإبداعات فنيّة،

---

must examine the society into which he has born and the forces with which he contended ». Ibid, p 52.

(1) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، ص150.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص145.

(3) جورج شتاينر: George Steiner، (1929-...) مؤلف وعالم لغوي يعمل حالياً أستاذاً في جامعتي كامبردج وجنيف، من أهم مؤلفاته تولستوي أو دوستوديفسكي (1959م) و موت المأساة (1960م) حيث يذهب إلى أن سبب موت المأساة هو المنظومة المعرفية المسيحية ثم الماركسية، وفي اللغة والصمت (1967م) يتناول مسألة التآكل التدريجي للرؤية الإنسانية (الهيومانية) بسبب إفساد اللغة عن طريق الدعاية السياسية والإباحية والماركسية، ومن ثم يصبح الصمت الاستجابة

غير أن محمد ﷺ يأتي في المقام الأول، لأنه يمثل المثل الرائع والمبدع في جمعه بين التجربة الدينية والتجربة الفنية في تأليفه لرائعته الأدبية المذهلة، والمقصود بها القرآن الكريم، فتؤكد أنه:"**قوبل كتاب شتاينر**[1] **بترحيب لا بأس به عند نشره، وهذا يعني أنه كان يعكس تجربة كثيرين من قرائه، ونظريته قد تعطينا بعض المعرفة بالتأثير الكبير لهذا العمل الكلاسيكي الرائع في الأدب العربي[وتعني به القرآن الكريم]، فمحمد كنبي موحى إليه والقرآن كنص وتجلٍ لا بد أن يكونا أحد الأمثلة الأكثر إذهالاً على الوثيقة بين التجربة الدينية والتجربة الفنية**"[2].

وحتى تكتمل التجربة الروحية والعبقرية التي تميَّز بها محمد ﷺ كان لزاماً عليه أن يحتك باليهود والمسيحيين أصحاب التجربة الدينية السابقة له، غير أنه لم يحظ بذلك، وهذه عقبة كؤود كان على محمد ﷺ أن يجتازها بنجاح كبير، وقد كان له ذلك.

لقد اجتاز تلك العقبة بمعرفته الفعلية وقدرته على النفوذ إلى قلب التجربة التوحيدية في حدِّ ذاتها لأنه عبقري، لأجل كل ذلك اعترف به الغربيون العلمانيون، فأكدوا على لسان كارين أنه:" **لا يسع المرء إلا أن يؤخذ بعبقرية محمد الروحية وهو الذي لم يكن تقريباً على احتكاك مع اليهود أو المسيحيين الممارسين، وكانت معرفته الفعلية بهذه الإيحاءات القديمة دونما شك محدودة جداً، مع ذلك استطاع أن ينفذ إلى قلب التجربة التوحيدية**"[3].

وتؤكد كارين على صفة العبقرية هذه في موضع آخر مع تغيّر الأسباب، ففي هذا الموضع محمد ﷺ عبقري لأنه استطاع أن يجمع كلمة العرب وجميع قبائل الجزيرة العربية تحت لواء واحد وفي جماعة واحدة أسماها الأمة مع بقاء الروحانية التي جلبها والتي تتناسب وتراث العرب القديم

الوحيدة اللائقة لفظائع عصرنا. وفي قلعة بلو بيرد (1971م) يبين أن ثمة علاقة بين التجريد الموضوعي الذي يتسم به البحث العلمي وبين عدم اكتراث البشر بالحقائق السياسية الاجتماعية المتعينة طوَّر ستاينر موضوع اللغة في كتابيه خارج حدود الدولة (1971م)، و بعد بابل (1975م)، حيث يحاول أن يقدم نموذجاً لعملية الفهم والإدراك. عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق القاهرة، ط1، 2003م، م3 ج2 الباب11: المفكِّرون من أعضاء الجماعات اليهودية، ص39.

(1) تقصد كارين أرمسترونغ كتاب جورج شتاينر: حضورات حقيقية: هل هناك أي شيئ فيما نقول؟ لندن 1989م.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص146.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص113.

فتقول:" **لقد كان محمد ذا عبقرية إستثنائية** فعندما توفي في عام 632م **كان قد جمع جميع القبائل في الجزيرة العربية في جماعة موحدة أو أمة، لقد جلب للعرب روحانية فريدة تتناسب مع تراثهم** "[1].

وعن العقيدة الإسلامية وما كابد فيها رسول الله ﷺ من مشاق لتثبيتها في المجتمع وفي نفوس أهل زمانه، تقول:" **فالمسيحيون الأوائل أتوا من اليهود وأعوانهم** الذين يتعبّدون الله في الكُنُس، **لقد ضربت المسيحية جذورها في الإمبراطورية الرومانية أي حيث كانت الجماعات اليهودية قد مهّدت لها الطريق، وأعدّت عقول الوثنيين، لكن محمداً كان عليه أن يبدأ من نقطة الصفر**"[2].

وإذا كانت بدايته ﷺ من الصفر مع الذين يدعوهم فهل حقّق في دعوته النّجاح المرجو؟ وما نوع النّجاح الذي تحقّق؟ وإلى ما يُعزى ذلك النّجاح؟

يبقى محمد ﷺ في نظر المستشرقين بميزانهم المعوَج وبمنهجهم العلماني تلك الشخصية العبقرية الفذة والبطل الذي يستحقُّ التنويه على شاكلة كل المصلحين الناجحين من الاجتماعيين أو السياسيين والدليل في ذلك قولها:" **لقد حقّق محمد نجاحاً سياسياً باهراً**"[3].

والسبب في نجاحه هذا هو:" **كان محمد يتمتع بمواهب سياسية عالية المستوى، لقد حوّل ظروف قومه كلياً وأنقذهم من عنف لا طائل من وراءه ومن انحطاط، وأعطاهم هوية جديدة**[4]

---

(1) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، ص146.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص158.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص19.

(4) تذكر كارين أن محمدَ ﷺ يتمتع بمواهب سياسية عالية وأنّه أعطى قومه هوية جديدة حري بكل من انتمى وينتمي إليها أن يفتخر بها ويعتز، وكل ذلك من منظار المنهج العلماني، وهي في ذلك متجنية، غير أنّها وهي تكتب مثل هذه الأفكار في موضع آخر تنفي كل ما قالته من هذا المنظار وتثبت بأنّه ﷺ تمتع بكل ما تمتع به وعمل كل أعماله وفق ما أمر به القرآن فتقول:"وفي عام 622م أجبر محمد على مغادرة مكة مع سبعين عائلة ليستقر بيثرب على بعد حوالي 250 ميلاً إلى الشمال إلى مكة، وأصبحت تلك الهجرة بعد ذلك بداية التاريخ الإسلامي، **لأن محمد في ذلك الوقت تمكّن أن يضع مبادئ الإسلام موضع التنفيذ الكامل ويكوّن المجتمع الأول–الأمة الإسلامية– التي جسَّدت تعاليم القرآن روحانيتها ونظامها الاجتماعي**". القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ص371.

تدعو إلى الاعتزاز بها"[1].

فهل وجب التنويه بمجهوداته التي بذلها مع قومه والهوية الجديدة التي أعطاها إيّاهم على أساس أنه نبي ﷺ أم أنّه استحق الإعجاب والتنويه لأنه كان سياسياً محنّكاً؟

تجيب كارين:"**حتى لو أن هذه المأثرة السياسية كانت هي الإنجاز الوحيد الذي قام به محمد لاستحقَّ أن ينال إعجابنا**"[2].

وهل برمج محمد ﷺ لما حقّقه من نجاح سياسي باهر؟ وهل كان يراوده شعور القائد السياسي حين كان يقدم برنامجه الإصلاحي لشعبه وأمته؟ أم أن الظروف المحيطة به هي التي شجعته وكانت له خير معين لأن يصبح كذلك ويحقق كل تلك النجاحات غير المتوقّعة في ذلك الزمان وبالدرجة التي بلغها، والجواب في قول كارين أنه:" **لم يكن في نية محمد أن يصبح قائداً سياسياً في البداية، لكن الأحداث التي لم يكن بوسعه التنبؤ بها دفعته باتجاه حل سياسي جديد كلياً للعرب**"[3].

ولقد تنبأ خصوم محمد ﷺ بهذا التوجه السياسي وهذا النجاح لدعوته ورسالته وإن كانت هذه الغاية –غاية النجاح- غير مدركة في فكر محمد ﷺ وفي توجُّهاته السياسية هو ذاته، لأن هذا الداعية القرشي الجديد بدا وكأنّه يشكل عشيرة جديدة، أفرادها شباب قد رموا ولاءاتهم العائلية والقبلية القديمة جانباً وارتموا في أحضان الدعوة الجديدة واتّبعوا منهج صاحبها ﷺ، فتقول كارين:" لقد بدا أن محمداً كان يشكل نوعاً من عشيرة جديدة معظم أفرادها من الشبان الذين رموا ولاءاتهم العائلية القديمة جانباً، **ويحتمل أن خصوم محمد قد فهموا المعاني السياسية لرسالته قبل أن يراها هو، لقد استمرَّ القرآن في التأكيد على أن ليس لمحمد وظيفة سياسية في مكة**"[4]. غير أن كارين لم تحدِّد أو على أقل تقدير أن تشير أو تومئ إلى مواضع القرآن الكريم التي كانت تأمر محمد ﷺ أو تنهاه على استغنائه عن الوظيفة السياسية في مكة، غير أنّها تثبت عدم الفهم لمحمد ﷺ على أنها حقيقة تاريخية وعلمية من خلال قولها: "ويحتمل".

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب ، ص53.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، ص164.

(4) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب ، ص140.

وتؤكد كارين مقولتها هذه في موضع آخر ببحثها المنشور بالموسوعة اليهودية، **أن محمدَ ﷺ على الأقل في مرحلة ما قبل سنة 617م لم يكن له إهتمام سياسي ولا دافع سياسي في دعوته الإصلاحية بمدينته مكة**، إلا أنه إلى متى يبقى هذا الحال على هذه النمطية وهو يتلقى الأمر والوحي من السماء؟؟ هل لأن الأمر لا يتعدَّى إلا أن يكون نذيراً أومذكراً فقط[Warner]أو[Reminder]أم أن الأمر خاضع للزمان والمكان وأن الوقت لم يحن بعد[1]؟؟

وعبقرية محمد ﷺ في نظر هؤلاء لا حدود لها، كما وأنّ إدراكه العقلي لا يوصف ولا مثيل له، فهو بهذا الإدراك الخارق عَلِم أشياء غابت عن فهوم وإدراك من كان حوله.

ومن تلك الأشياء حاجة العربي –تحديداً والبشر كلهم بعد ذلك في ذاك الزمان – إلى رموز تستحوذ على تركيزهم وتأخذ بعقولهم وتكون وجهة تيمُّنهم وبخاصة المكان الذي ينتمون إليه فجعل لهم مجموعة أماكن مقدَّسة يرتبطون بها واستحوذت على أفئدتهم وأوَّلها مكة[2] فتقول:"

---

(1) والنص الأصلي مذكور بالموسوعة اليهودية وهو نص طويل نختصره كالتالي:

« At first the most powerfull and successful men in Mecca ignored the Muslims, but by 616 they hade become extremely angry with Muhammad, who, they claimed, reviled the faith of their fathers … At this stage the Qur'an insisted that Muhammad shoud have no political function in the city he was simply a Nadhir (a warner) …». Ibid, p 6222.

(2) تذكر كتب التاريخ العديد من الروايات في نشأة مكة وبداية استيطان الإنسان بها وكيفية تعميرها، وكيف ظهرت الحياة بها، وهي في ذلك غير موثّقة ولا مثبتة على ما يعتمد فيه في هذا العلم، إلا ما كان مثبتاً في كتاب الله. فالمصادر تذكر بالإجماع أن أول من سكنها وعمّرها هو إبراهيم ﷺ وبنوه من بعده من جهة ولده إسماعيل عليه السلام مصداقاً لقوله تعالى على لسان نبيِّه إبراهيم:﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم:37]، ثم بوّأ له مكان البيت وأرشده إليه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج:26]، ثم أمره برفع قواعد ذلك البيت مع إبنه فقال عز من قائل: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: 127]، وكل هذا بعد أن بيّن لهما الطريقة المثلى في رفع البيت والقواعد التي يبنى عليها وهي الطهارة التامة والنيّة الخالصة لله، وماذا يمثل هذا البيت لإبراهيم عليه السلام ولولده من بعده فقال سبحانه: ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة:125]، وبعد كل تلك المراحل أمر الله إبراهيم عليه السلام برفع الآذان كوسيلة من وسائل الدعاية والدعوة في آن واحد للمثوبة إلى هذا البيت وتعمير ما حوله، وقد كان ذلك وتحقّق، لقوله

ولقد **أدرك محمد احتياج البشر جميعهم إلى رموز تكون بؤرة تركيزهم، وبناء على ذلك، ومنذ السنوات الأولى، تعلم المسلمون أن ينظروا إلى أماكن ثلاثة على أنها مراكز مقدَّسة للعالم، وتأتي مكة في مقدِّمة تلك الأماكن، فهناك في قلب تلك المدينة يقع بناء عتيق مكعّب من الغرانيت يسمى الكعبة، وكان ينظر إليها على أنها أقدس مكان في بلاد العرب**"[1].

وقد ذكرت كارين مكة دون الأماكن الأخرى حتى تربطها فيما بعد بشعيرة دينية عظيمة وهي الصلاة، ثم هي تبيِّن كيف أدّاها المسلمون في بداية الدعوة وأين توجّهوا؟ فالمؤمنون الأوائل أدوا صلاة طقسية مثلهم في ذلك مثل الجمادات سواء كانوا في ذلك مشابهين للنجوم في سمائها أو للأشجار في فيافيها وجبالها فتقول:" **ولكي يساعد محمد المؤمنين الأوائل على الإقرار بالله طالبهم أن يسجدوا لله في صلاة طقسية مرتين في اليوم مثل النجوم والأشجار**"[2].

ثم حين تمَّ تغيير التوجّه للمكان في الصلاة وما ترتب عن ذلك التغيير كيف كيَّف -المنهج العلماني الذي لا يؤمن إلا بالمحسوس والملموس-ذلك؟؟.

فمحمد ﷺ العبقري ذو النظر الثاقب والسياسي المجرِّب أراد إدخال السرور على نفوس أتباعه وهم في منفاهم الجديد-المدينة المنوَّرة- بأن أحالهم على موطنهم المقدَّس القديم مكة وغيّر بذلك

سبحانه:﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴾ [الحج:27-29]. ومن خلال ما تقدّم من الأدلّة من الذكر الحكيم يتبيَّن أن محمدَ ﷺ كان في كل ما قام به متَّبعاً لملة أبيه إبراهيم عليه السلام، وأنّه ما كان ليدرك مقام مكة ولا البيت العتيق لو ما كان نبيّاً، لذا فصفة الإدراك التي يتكلّم عنها هؤلاء والتي تميّز بها محمد ﷺ ما كانت لتلازمه ما لم يوحِ إليه رب العزة. وقد اكتفيت بذكر الآيات القرآنية دون غيرها من الأدلّة، لأنها تغني كل باحث في الاستطراد عن البحث، وللمزيد حول مكة ونشأتها وعمرانها عبر العصور وما كان فيها وحولها من أخبار ينظركمثال لا الحصر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عقبة بن الأزرق الغساني(ت250هـ/864م): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق:د.علي عمر، مكتبة مدبولي القاهرة، ط1، 1424هـ/2003م [2ج]، ابن الضياء، أبو البقاء محمد بن أحمد بن محمد المكي الحنفي (ت854هـ/1450م): تاريخ مكة المشرّفة والمسجد الحرام والمدينة المنوّرة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم الأزهري وأيمن نصر الدين الأزهري، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1418هـ/1997م.

(1) كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ص375.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب ، ص53.

قبلة الصلاة في رمزية قلّما تضاهى، فتذكر كل ذلك قائلة:"**كما أدخل تغيير القبلة الراحة أيضاً على قلوب مسلمي مكة الذين هاجروا إلى يثرب وكانوا يعيشون في منفى، وكان عزاء لإحساسهم بالاغتراب، كما وجَّههم بشكل رمزي إلى الارتباط بموطنهم المقدّس**"[1].

وبنفس السياق والفكرة ذاتها ولكن في موضع مغاير تذكر كارين هذا الإبداع والألمعية التي تميَّز بها هذا القرشي مع إضافة أسباب كانت مجتمعة لتحويل القبلة إلى مكة بعد أن احتك الدين الجديد باليهود الذين ناصبوه وناصبوا صاحبه ﷺ العداء وأبدوا ذلك في أفعال وسلوكات، ففي:"**كانون الثاني** 624م، **أي عندما أصبح واضحاً أن عداوة يهود المدينة كانت أبدية، أعلن دين الله الجديد إستقلاله، فأمر محمد المسلمين أن يبمموا وجوههم في الصلاة شطر مكة بدلاً من أورشليم، فكان هذا التغيّر في الاتجاه أثناء الصلاة الإشارة الدينية الأكثر إبداعاً، فعن طريق التوجّه إلى الكعبة التي كانت مستقلة عن الدينين الأقدم أدرك المسلمون وبكل براعة أنهم لا ينتمون إلى دين راسخ سابق بل كانوا يسلمون أنفسهم إلى الله وحده**"[2].

تقرُّ كارين كما يُقرُّ غيرها من الكتاب الغربيين في ساعات استحضار العقل بنبوّة محمد ﷺ ونزول الوحي عليه كغيره من إخوانه الأنبياء الذين سبقوه، إلا أنّ المرض العضال الذي ينخر فكرهم و لم يتداووا منه هو المنهج غير العلمي الذي يعالجون به كل ما يتَّصل بتاريخ الإسلام ونبي الإسلام ﷺ وشريعته.

فالوحي عندهم رائعة أدبية، وتلقّيه يحتِّم لا محالة فقدان الشعور والغوص في اللاشعور مثل الشعراء والمبدعين الذين يبلغون درجات متفاوتة من النشوة وبطرائق غامضة حتى يبلغ الجهدُ منه مداه فيفقد محمد ﷺ وعيه، فتؤكد بأن:" القرآن نزل على محمد آية آية وسطراً تلو آخر في فترة تبلغ 23سنة، **كان نزول الوحي تجربة مؤلمة ... كان عليه أن يصغي متمعِّناً إلى الكلمات الإلهية ... مصغياً باهتمام إلى ما ندعوه الآن اللاشعور، أي بالأحرى كشاعر يصف عملية الاستماع إلى قصيدة كانت تعلو إلى السطح من أعماق عقله الدفينة معلنة نفسها بسلطة وكمال لدرجة**

---

(1) كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ص377.

(2) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، ص163.

تبدو فيها منفصلة عنه بطريقة غامضة ... لقد كانت عملية صعبة مثلها مثل أي عملية إبداعية كان محمد يدخل في حالة نشوة وكما يبدو كان يفقده وعيه أحياناً"[1].

وبالرغم من اعترافها بأن محمدَ ﷺ كان يتلقى الوحي من الله إلا أن ذلك في الفكر الملوّث والمنهج العلماني لا يكفي، فلا بد له من تدخل وسائل وأسباب وَضِيعَة وَضْعِية حتى يرتاح الفكر العلماني كي تنجح مهمّته المكلّف بها، فتقول كارين:"**وإن كان محمد يعتقد أنّه كان يتلقى خلال سنوات الخطر تلك إيحاءات مباشرة من الله، إلا أنّه كان مضطراً لاستخدام كل مواهبه الطبيعية، لقد كان المسلمون يدركون مقدرة النبي الإستثنائية، وكانوا يعون أن النبي يغيِّر مسار التاريخ**"[2].

وفي مواضع أخرى تؤكد كارين على مثل هذه المواهب والأسباب الخارقة والخارجة عن منطوق الوحي وتثبتها مُسبلة عليها المنهج العلماني الذي يلقي الضوء على الشخصانية الأحادية في تغيير مسار التاريخ ومنحنيات رسم دالته مُرجعة كل ذلك إلى العبقرية وغيرها من الأسباب الدونية دون الوحي الإلهي فتقول:"**وكانت ديناميات التغيّر الاجتماعي الداخلية الآن في صف محمد الذي حقّق إنجازات خارقة، إنه لم يعتمد فقط على الوحي بل وفقاً للمنطق القرآني**[3] **استخدم كل مصادره الطبيعية وعبقريته الشخصية الكبيرة حتى تمكّن من الظفر ومواجهة عصره**"[4].

---

(1) كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، ص149-150.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص53.

(3) تذكر كارين أرمسترونغ المنطق القرآني غير أنها لا تفصح عن المعنى الحقيقي الذي تريده بهذا الذكر، فهل تقصد بذلك منطوق القرآن الصريح، وهي لم تذكره و لم تستدل به وقد سبق لها وأن استدلّت في الكثير من المواضع بصريح القرآن، أم بالإيماء والتلميح وهي لم تشر إلى ذلك كذلك، أم أن الأمر لا يتعدَّى أن يكون إلا تشويشاً وتشكيكاً حتى توهم القارئ بأنها تؤصِّل للإسلام وتكتب عن تاريخ نبيه ﷺ من المصدر الأول وهو القرآن، وهي في ذلك متجنِّية كغيرها من المستشرقين أصحاب المنهج غير السوي ولا العلمي، وهذه ميزة أصيلة في منهجهم حين معالجتهم لكل ما له علاقة بالإسلام وتاريخه وشريعته وتاريخ نبيه ﷺ وسيرته.

(4) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب ، ص292.

فإذا ما استخدم محمد ﷺ كل مصادره الطبيعية وعبقريته الشخصية الكبيرة في تحقيق النجاح أفليس ذلك مدعاة بأن يرفع في مصاف الأبطال الحقيقيين؟

بلى وذلك الذي يريده المنهج العلماني وتؤكده كارين قائلة:"**ومع ذلك لم يكن بالامكان تحقيق خلاص الفرد إذا استمرت حلقة سفك الدم اللامتناهية والاستغلال في الجزيرة، فلا بدّ لمجتمع فاسد أو منحل، أن يولّد اللاأخلاقية والانحراف واليأس في جميع الأفراد ما عدا الأبطال الحقيقيين منهم... لقد استطاع محمد أن يخلق مجتمعاً في المدينة، مجتمعاً قوياً ومستقلاً عن الفوضى المحيطة به**"[1].

ثم إن الوحي الذي كان يتلقّاه محمد ﷺ من ربه، والذي كان محدود المفعول في نفسه وفي محيطه والذي استدعى منه **أن يستعمل عبقريته وكل طاقاته وإبداعاته حتى يجعل منه رائعة أدبية، ما أنزله عليه ربه إلا ليطرب مسامع نبيّه وأتباعه لِما في هذا الوحي من موسيقى وألحان تهتز لها الأنفس وفق السياق اللغوي وتراتيب الآيات والسور ثم اللغة المستعملة والتي نجد آثارها في كل سورة أو صفحة**، وكل ذلك حتى ينفي هؤلاء وأمثالهم نبوة محمد ﷺ وإذا لم يتحقّق لهم ذلك فأقل تقدير ما عاد الذي أوحي به إليه صالحاً للهداية أو الحكم به في النّاس، وسبب هذا كله هو اللوثة الإستشراقية والتعصب الأعمى وفق المنهج العلماني المتجاسر على الحقيقة والواقع[2].

وغير بعيد عن المقامات السابقة، حين تذكر كارين فريضة الحج، لا تذكرها على أنّها أحد الفرائض الدينية في الإسلام، وأنّه يتوجّب على كل معتنق لهذا الدين أن يؤدي هذه الشعيرة التعبّدية

---

(1) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص294.

(2) والنص الأصلي لهذا الكلام ذكرته كارين ضمن بحثها في الموسوعة اليهودية وهو التالي:

« This was the core teaching of the new scripture,which became known as the qur'an (recitation) because it was an aural revelation designed to be listened to for the music of its language, rather than perused page by page. Most of the believers, including Muhammad himself, were not learned, and they absorbed its teachings by listening to public recetation of its chapters (surahs) ". Karen Armstrong: Encyclopedia of Religion, Vol 09,p 6221.

ولو مرة واحدة بحياته ما كان ذلك ممكناً وقدر الاستطاعة، وكيف يؤديها، وممّن يأخذ المسلمون طريقة تأديتها وأحكامها؟

بل هي تذكر الحج على أساس أنه طقس من طقوس العبادة الوثنية التي كانت سائدة في فترة من فترات الجاهلية وأنّ صاحب الشريعة ﷺ في حدِّ ذاته ما أدى الحج إلا من خلال ما ورثه من مجتمعه الجاهلي غير أنّه أضفى عليه شيئاً واحداً كي يخالف في ذلك موروث قومه بأن جعل لكل فعل يقوم به حين تأديته لهذه الشعيرة التعبّدية تأويلاً خاصاً به مربوطاً بقضية التوحيد، فتقول:" **وقبيل وفاته أدّى الرسول شعائر الحج المتوارثة مضفياً عليها تأويلاً توحيدياً، فأصبحت الشعائر إعادة تمثيل لتجربة هاجر وإسماعيل بعد أن تركهما إبراهيم في الصحراء**"(1).

ويخبرنا الدارسون الغربيون الذين تشبَّعوا بالمنهج الغربي العلماني بحقيقة علمية اكتشفوها في شخص محمد ﷺ ولم يبلغها غيرهم وهو أن هذا القرشي العبقري صاحب العقل الكبير والروائع الأدبية والمصلح الإجتماعي والمفكِّر اللبيب والزعيم الروحي صاحب التجلِّيات الروحية الخارقة، كان يمثِّل حلقة من حلقات الفكر الإشتراكي وكان إشتراكياً حقيقياً بل كان أعمق من ذلك، وأن فكره الإشتراكي قد ترك أثراً كبيراً في نفوس أتباعه، كل ذلك على لسان كارين فتقول:" **يخبرنا الدارسون الغربيون أن من الخطأ رؤية محمد كاشتراكي ويشيرون إلى أنه لم ينتقد الرأسمالية التي فعلت لقريش أشياء عظيمة، وأنه لم يحاول إلغاء الفقر كلياً، إذ كان ذلك مهمّة مستحيلة في الجزيرة في القرن السابع، قد لا يكون محمد ملتزماً بجميع المفاهيم الحديثة للاشتراكية كما نشأت في الغرب لكنه كان بمعنى أعمق إشتراكياً بكل تأكيد، وترك أثراً لا يمحى على روح الجماعة المسلمة**"(2).

هذا هو محمد ﷺ وهذا هو دين الله الذي أوحاه إلى نبيِّه محمد وهذا هو تاريخ محمد والإسلام من منظور الفكر الغربي المتشبع بالأفكار المسبقة والتقويم الجاهز الخاضع للتنشئة غير العلمية والمنهج العلماني سواء كان ممثلاً في فكر كارين أرمسترونغ أو في غيرها من المفكِّرين وسواء كانوا من الغربيين أو من غيرهم أو كانوا من القدامى أم كانوا من المحدثين.

---

(1) كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ص378.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص107.

المنهج المادي:

وهو منهج بدأ ظهوره في الغرب في تفسير الحوادث التاريخية بعد ظهور ونجاح الثورة الشيوعية في روسيا والتي ترجع كل حركة أو ظاهرة في المجتمع إلى العامل الاقتصادي المادي وقد رأينا من قبل في فصول سابقة كيف استخدم المستشرقون هذا المنهج في تفسير بعض حوادث السيرة النبوية؛ فهل تخلّصت كارين من مثل هذا المنهج في كتابتها للسيرة النبوية أم أنّ دمغة الفكر الإستشراقي وجميع ما فيه من لوثات تبقى ذات أثر؟

تبدأ كارين جديثها عن صاحب الرسالة ﷺ بشيء من الأدب والاحترام معرِّجة في ذلك بذكر عمره ووصف عائلته **والمهنة التي يزاولها**، والمدينة التي نشأ فيها وفق المنهج المادي، دون أن تتعرَّض له بسوء أو بمنقصة ولعلَّها فعلت ذلك حتى لا تجعل بينها وبين القارئ حواجز فكرية أو نفسية، متجنِّبة ما وقع فيه غيرها من المستشرقين وهم كثرة، ولكن هل سيدوم هذا الحال وهذا المنهج في كتاباتها؟؟ وفي ذلك تقول:" **كان في الأربعين من عمره، رجل عائلة وتاجر محترم في مكة، المدينة التجارية المزدهرة في الحجاز**"[1].

وتذكر قولاً آخر قريباً من الذي سلف في موضع آخر، واصفة محمدَ ﷺ **بالتاجر المكي** وما مرَّ به هذا **التاجر من تجربة** غيَّر بها هذا الأخير مجرى التاريخ البشري لاحقاً، جاء فيه:" **في شهر رمضان من سنة 610م، مرَّ تاجر عربي من مدينة مكة في الحجاز بتجربة غيَّرت لاحقاً تاريخ العالم كله**"[2].

ثم يبدأ معول الإستشراق ولوثته الغربية بالاشتغال، فهذا التاجر المكي كان كسائر المكيين الذين لا همَّ لهم في مدينتهم إلا جمع المال والتفاخر به وبمدينتهم التي أصبحت –وفق المنظار المادي ومنهجه- مركزاً مالياً مهمّاً في الحجاز وحاضرة قوية إقتصادياً في الجزيرة العربية، فتقول:"**كان محمد- كسائر المكيين- فخوراً جداً بمدينته التي أصبحت مركزاً مالياً، وأقوى حاضرة في الجزيرة العربية**"[3].

---

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص27.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص51.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة. والنص بلغته الأصلية كما يلي:

وسبب ذكر كارين لما سلف من الصفات والخصائص لمحمد ﷺ ولمدينته مكة، حتى تثبت أثر المال والمادة في حياة العرب عامة وحياته ﷺ بصفة خاصة؛ لذا نجدها تصف مكة بأنها لم تعد مركزاً تجارياً في الحجاز فقط، بل هي بالمنظار المادي أصبحت مركزاً تجارياً دولياً لما حققته من نجاح إقتصادي وبما أصاب أهلها من ثراء فاحش إذا ما قيس بما كان عليه العرب والقرشيون من الأجداد في سالف عهدهم، فتثبت قائلة:" **لقد بلغت مكة مؤخراً نجاحاً مذهلاً، حيث أصبحت المدينة مركز تجارة دولياً، وأصاب تجارها وممولّوها ثراءً لم يحلموا به، فقد كان أسلافهم القريبون يعيشون حياةً بائسة يائسة في الصحاري العنيدة في شمال الجزيرة العربية**"[1].

وقد حققت مكة تلك المكانة السامية والمركز الراقي بين حواضر الحجاز والسبب عند الماديين هو الحرم وقداسته، ولكن هم ينظرون إليه على أساس أنه ملاذ للتجارة والتنافس التجاري وليس مكان عبادة، ولهذا عللت كارين نجاح أهل مكة وما بلغوه من شأو لقدسية الكعبة والتي كانت المكان الوحيد الآمن الذي يوفر الجو المناسب للتبادل التجاري حين القدوم إليها والتواجد بجوارها، فتقول:" **وكانت قداسة الكعبة تحميها مساحة مقدَّسة نصف مداها عشرون ميلاً، وقد أصبحت تلك المساحة منطقة حراما تحرم فيها جميع أنواع العنف، وملاذاً من الممارسات الحربية القبلية المستمرة، ويعزى إلى هذا نجاح مكة التجاري، فقد كان بإمكان العرب أن يلتقوا هناك في ظروف بعيدة عن التوتر ويتبادلوا التجارة دون خوف من هجوم عدائي**"[2].

«Like all meccans, Muhammad was very proud of his city, which had become a center of finance and the most powerful settlement in Arabia". Karen Armstrong: Muhammad a biography of the prophet, p 45.

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص28. والنص الأصلي هو:

« Mecca had achieved astonishing success. The city was now an international trading center and its merchands and financiers had become rich beyond their wildst dreams. Only a few generations earlier, their ancestors had been living a desperate, penurious life in the intractable deserts of northern Arabia". Karen Armstrong: Muhammad a prophet for our time, pp 10-11.

(2) كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ص376.

وتحدِّثنا كارين عن ميلاد الدين الجديد-الإسلام- وعن ميلاد أمّته في جوٍّ مشحون بالمادية والمفعم بالرأسمالية والموارد المالية الضخمة فتقول:" **غالباً ما يقال إن الإسلام هو دين الصحراء لكن ذلك ليس صحيحاً، نعم لقد أثّرت الأخلاق القبلية القديمة على رسالة القرآن، لكن الدين الجديد الذي انبثق من مكة في جوٍّ لا يرحم من الرأسمالية و الموارد المالية الضخمة، كان نتاج المدينة مثله في ذلك مثل الأديان العظيمة والعقلانية الفلسفية في اليونان ... لقد لفت الرخاء الجديد انتباه الناس إلى التفاوت بين الأغنياء والفقراء وجعلهم مهتمين جداً بمشكلات العدالة الاجتماعية، وجميع القادة الدينيين والأنبياء تناولوا هذه المسائل وقدَّموا حلولهم المتميِّزة ... وفي هذه المرحلة بالذات أحضر نبي الإسلام رسالة دينية جديدة إلى العرب**"[1].

وتتكرَّر ذات الفكرة فيما كتبت كارين من وجهة نظر مادية صرفة محمِّلة رسالة القرآن ما لا يمكن لها أن تحتمل، بأن تجعلها مناهضة للثورة الرأسمالية ومعادية للثروة، ثم تعلِّل بعدها سبب إقبال المسلمين الأوائل على الإسلام واتباعهم لرسالة القرآن، لأنهم في زعم الماديين ومن كان على شاكلتهم، قد وجدوا ضالتهم المنشودة وملاذهم الآمن ومنفَذ الخلاص، حيث دعت تعاليم رسالة القرآن كل ذي مال وثروة أن ينفق منها ولا يستأثر بها لا لنفسه ولا لخاصته، وأن المال هو مال الله والناس فيه مستخلفون حتى وإن كانوا هم السبب في جمعه واكتسابه كثروة، فتؤكد كارين ذلك بقولها:" **وكانت لرسالة القرآن أيضاً علاقة مباشرة بالأحوال في مكة التي كانت كما ذُكر في مخاض ثورة رأسمالية حدث إبّانها أن نُحِّي أفراد أقل حصانة من قبيلة محمد جانباً في خضم**

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص79. والنص الأصلي مختصراً تقول فيه كارين:

« It is often said that Islam is a religion of the desert, but this is not true, the old tribal ethic affected the Qu'ranic message, but the new religion was first received by the Arabs of Mecca in an atmosphere of cut-throat capitalism and high finance … All the great religious leaders and prophets had adressed themselves to these issues and provided their own distinctive solutions … The prophet of Islam brough a new religious message to the Arabs". Karen Armstrong: Muhammad a biography of the prophet, p 68.

السباق من أجل الثروة[1]**؛ ولذلك فقد كان الكثير ممن استجابوا مبكراً للقرآن من العبيد والنساء وآخرين من المحرومين والمهمّشين، خاصة من بين العشائر الأكثر فقراً والأقل نجاحاً**"[2].

ثم إنّ محمداً ﷺ الذي نشأ في مثل هذا المحيط مع قريش وهي التي تعرف كل صغير وكبير من حياته لن تقبل منه أمره هذا لأنّه لم يكن يمثّل رمزاً من رموزها ولا أحد قادتها المشهورين، وحتى أنبياء الله الذين سبقوه كانت لهم معجزات أفحموا بها كل ادّعاءات أقوامهم ومحاججيهم وأنّى لمحمد ﷺ مثل هذا أو ذاك، وهو الذي عُرِف عنه اعتزاله لما يعبده قومه من الحجارة والأوثان، وكذا لم يُرو عنه قرضه للشعر ولا مجالسة الشعراء، ولم يمتهن العرافة ولا الكهانة، فكيف يكون له ذلك وما السبيل؟؟ تقول كارين:" **ولكن أدرك محمد (ﷺ) أن معظم قريش سوف تعتبر ذلك**

---

(1) لم يذكر لنا التاريخ ولا أهله فيما صنَّفوه وكتبوه عن تاريخ بني هاشم أن قريشَ قد أبعدت بعض أفراد هذه العشيرة لأنهم نافسوها المال والجاه والريادة، بل العكس من ذلك ما هو مثبت ومتواتر، وأن شرف بني هاشم معلوم وقدرهم مرفوع بين عشائر القبيلة وبطونها وسواء كان ذلك قبل مجيئ الرسول ومبعثه ﷺ أوبعده. وللمزيد حول هذا الموضوع تحديداً، ينظر: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي (849-911هـ/1445-1505م): الخصائص الكبرى، مصدر سابق، ج1، ص65-67. ومن مجمل ما ذكر الإمام السيوطي مجموعة كبيرة من الأحاديث بيَّن من خلالها مكانة وشرف بني هاشم، ومنها: ما رواه مسلم عن واثلة بن الأسقع قال قال رسول الله ﷺ :"إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم". وما أخرجه البيهقي والطبراني وأبو نعيم عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ :"إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم واختار من بين آدم العرب واختار من العرب مضر واختار من مضر قريشا واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم فأنا من خيار إلى خيار". وأخرج البيهقي عن محمد بن علي أن رسول الله ﷺ قال:" إن الله اختار فاختار العرب ثم اختار منهم كنانة ثم اختار منهم قريشا ثم اختار منهم بني هاشم ثم اختارني من بني هاشم". وأخرج البيهقي والطبراني في الاوسط وإبن عساكر عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ قال لي جبرئيل:" قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد ولم أجد بني أبٍ أفضل من بني هاشم". وأخرج إبن عساكر عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ:"ما ولدتني بغي قط منذ خرجت من صلب آدم ولم تزل تنازعني الأمم كابرا عن كابر حتى خرجت من أفضل حيين من العرب هاشم وزهرة".

(2) كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ص371.

أمراً لا يمكن قبوله، لأن معظم رسل الله كانوا رموزا ضخمة في مجتمعاتهم، ومؤسِّسة لها، وكان بعضهم أصحاب معجزات، فكيف يمكن قياس محمد بموسى أو عيسى"[1].

---

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص49. ومن باب النافلة يُقال لمن يحمل لوثة الفكر الإستشراقي ومن سار في فلكهم وكان مغرقاً في مناهجهم إن كان ولا بدَّ من معرفة مقام محمد ﷺ عند الله وبين أنبياء الله عليهم السلام، فهذه مقاربة قرآنية صِرْفة بينه ﷺ وبين سيدنا موسى عليه السلام وهو أحد أنبياء الله من أولي العزم- ونحن في ذلك لا نفرِّق بين أحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام جميعاً- ولكن ليتضح المقام ويخرص بعدها كل ناعق، فالقرآن يحدِّثنا عن مقام النَبِيَّيْن من منظور من اصطفاهما سبحانه وتعالى عن العالمين في قوله تعالى:

أـ جاء بحق موسى عليه السلام في مقام الرضا:﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[طه:84]، وجاء في حق محمد ﷺ:﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾[الضحى:5] وشتان بين مقام موسى عليه السلام ومقام محمد ﷺ.

بـ وجاء بحق موسى عليه السلام في مقام المغفرة: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[طه:84]، وجاء في حق محمد ﷺ:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[الفتح:1-2] وشتان بين مقام موسى عليه السلام الذي يدعو دعاء الطلب وبين مقام محمد ﷺ الذي يُعطى دون طلب.

جـ وجاء بحق موسى عليه السلام في مقام شرح الصدر: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾[طه:25]، وجاء في حق محمد ﷺ: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[الشرح:1] وشتان بين مقام موسى عليه السلام ومقام محمد ﷺ.

دـ وجاء بحق موسى عليه السلام في مقام التيسير: ﴿ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾[طه:26]، وجاء في حق محمد ﷺ:﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى:8] وشتان بين مقام موسى عليه السلام الذي يدعو دعاء الطلب وبين مقام محمد ﷺ الذي يُعطى دون طلب.

هـ وجاء بحق موسى عليه السلام في تكليم ربه سبحانه له: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم:52]، وفي آية أخرى قوله سبحانه:﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[القصص:30]، وجاء في حق محمد ﷺ وتكليم ربه سبحانه له:﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[النجم:5-10] وشتان بين مقام موسى عليه السلام ومقام محمد ﷺ.

وـ وجاء بحق موسى عليه السلام في عناية الله سبحانه به وله: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[طه:39]، وجاء في حق محمد ﷺ وعناية الله سبحانه وتعالى به وله:﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[الطور:48] وشتان بين مقام موسى عليه السلام ومقام محمد ﷺ؛ فالباء هنا – بأعيننا- للإستغراق كما قال المفسرون.

ولولا طول المقال لاستزدنا من بيان مقام سيد الأولين والآخرين ﷺ عند الخالق وبين الخلق من القرآن الكريم، فقد أقسم الحق به ولا يقسم العظيم إلا بالعظيم، وعَظَّمه ومدحه في سورتي يس والقلم، وشق له من اسمه إسماً له فذو العرش محمود وهذا محمد ﷺ، وأعطاه من أسمائه سبحانه إسمي رؤوف رحيم، وجعل النبوة للأنبياء جميعا خاصة بأقوامهم وله ﷺ عامة للخلق، وانتهت معجزات الأنبياء عليهم السلام بزمانهم وبقيت معجزته ﷺ خالدة أبد الدهر بل تكفَّل الحق سبحانه بحفظها كرماً له ﷺ، وإذا

ثم تصف كارين المؤمنين الأوائل الذين صدَّقوا محمداً ﷺ وحملوا معه دعوته أنهم كانوا من المستضعفين والذين لا ذكر ولا وزن لهم في مجتمعهم، بل تنظر إليهم نظرة ازدراء واحتقار مثلها في ذلك مثل أبي لهب وأصحابه زمن الرسالة الأول مع ما يضفيه السياق والأسلوب من تهكّم فتقول:" **ولكن كانت الأجيال الشابة هي التي آمنت به، وبدأ الوحي بالفعل بإبعاد محمد (ﷺ) عن الأعراف السائدة، ولم يمكنه تجاهل أن كثيراً من أتباعه كانوا من المستضعفين من الطبقات الدنيا**[1]**؛ كان كثير منهم من النِّساء ورجال محرّرين، وخدم وعبيد، وكان في مقدِّمتهم بلال العبد الحبشي**[2]**..... وعندما كانوا يتجمّعون للصلاة في الحرم، كان يحيط به صغار وضعفاء**

كان موسى عليه السلام قد ذكر في القرآن أكثر من مئتي(200) مرّة فمحمد ﷺ قد ذكر أكثر من ألف وثلاثمائة (1300) مرة بين تصريح وتلميح، وكل الأنبياء عليهم السلام قد نودوا في القرآن الكريم بأسمائهم من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام إلا هو ﷺ فتارة يُنَادى "يا أيها النبيء"، وتارة "يا أيها الرسول" تكريماً وتعظيماً لجلال قدره ورفيع مقامه ﷺ، بل يتعدّى أمر تعظيمه ﷺ من لدن خالقه سبحانه له إلى الجزاء العظيم والعطاء غير المحذوذ والنعيم المقيم الذي يتمتَّع به أهل الجنّات ما بعد يوم القيامة إليه ﷺ وليس لهم ولا لأعمالهم، [سورة النبأ: 31-36]. فهل اتضحت صورة محمد ﷺ ومقامه العلي وانقشعت سحب اللوثة الإستشراقية أم التعصب الأعمى ما زال يحجب النور البادي وميزات المَعْلَم والمعلِّم الهادي؟

(1) يحدِّثنا القرآن الكريم عن أتباع الرسل عليهم السلام من لدن نوح عليه السلام إلى عيسى عليه السلام أنهم كانوا من طبقات مختلفة ومن مستويات متباينة، غير أن الغالبية منهم كانوا من المستضعفين، ولذلك فلن يكون محمد ﷺ بدعاً من الرسل ولن يخرج عن هذه القاعدة ولا هذا الناموس الكوني، وإن كان هؤلاء المستضعفين في نظر الملأ الكافرين من أقوامهم والمستكبرين منهم بأنهم يمثلون الطبقة الدونية والأراذل، وقد جاء وصف ذلك في الكثير من آي القرآن. مثاله قوله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ، أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ، فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾[هود:25-27]، وقوله سبحانه:﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ، إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾[الشعراء:105-111]، وقوله جلّ شأنه:﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ، قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[الأعراف:75-76]

(2) بلال الحبشي(000-20هـ/000-641م) بلال بن رباح الحبشي، أبو عبد الله: مؤذن رسول الله ﷺ وخازنه على بيت ماله من مولدي السراة، وأحد السابقين للاسلام وفي الحديث: بلال سابق الحبشة وكان شديد السمرة، نحيفا طوالا، خفيف العارضين، له شعر كثيف وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولما توفي رسول الله أذن بلال، و لم يؤن بعد ذلك وأقام حتى خرجت البعوث إلى الشام، فسار معهم وتوفي في دمشق. روى له البخاري ومسلم 44 حديثا. الزركلي: الأعلام، ج2 ص73.

القوم، كان محمد (ﷺ) يرحب بهم بحرارة، ولكن لا بدّ وأنّه كان يتعجّب، كيف تنجح حركة بمثل هؤلاء الخاملي الذكر[1]؟.... وفي الواقع بدأ بعض كبار قريش يسألونه لماذا يرافق مثل هؤلاء الرعاع ... وكثيراً ما لجأ إليه شباب مكة الذين أزعجتهم شراسة رأسماليتها طلباً للنّصيحة"[2].

وتنزل كارين منازل المستشرقين الغاصِّين بمحمد ﷺ وبدعوته وبأتباعه فتنزلق أقدامها ويزلُّ قلمها فتهوي إلى مكان سحيق من التهكّم والسخرية والانتقاص، ويستغرق المنهج المادي كلَّ كيانها الفكري فتكتب وهي في ذلك مدَّعية فتقول:" **ولكن برغم جحد قريش لدعوة محمد**

---

(1) لم يكن ولا أحد من أتباع محمد ﷺ من خاملي الذكر كما تذكر كارين، حتى وإن كان البعض منهم من الفقراء والمستضعفين، فالتاريخ يحدِّثنا عن مجموعة كبيرة منهم على أنهم كانوا من سادات قومهم وأنهم من الأشراف في أنسابهم في قبائلهم، منهم أبو بكر الصديق[(51ق هـ-13 هـ/573-634م) عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التيمي القرشي أول الخلفاء الراشدين وأول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال وأحد أعاظم العرب ولد بمكة ونشأ سيدا من سادات قريش وغنيا من كبار موسريهم وعالما بأنساب القبائل وأخبارها وسياستها وكانت العرب تلقبه بعالم قريش وحرَّم على نفسه الخمر في الجاهلية، فلم يشربها] وعمر بن الخطاب[(40ق هـ-23هـ/584-644م) ابن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص ثاني الخلفاء الراشدين وأول من لقب بأمير المؤمنين يضرب بعدله المثل كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرافهم وله السفارة فيهم ينافر عنهم وينذر من أرادوا إنذاره وهو أحد العمرين اللذين كان النبي ﷺ يدعو ربه أن يعز الإسلام بأحدهما أسلم قبل الهجرة بخمس سنين] وعثمان بن عفان[(47ق هـ-35هـ/ 577-656م) ابن أبي العاص بن أمية من قريش أمير المؤمنين ذو النورين ثالث الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين من كبار الرجال الذين اعتز بهم الإسلام في عهد ظهوره ولد بمكة وأسلم بعد البعثة بقليل وكان غنيا شريفا في الجاهلية] وعلي بن أبي طالب[(23ق هـ-40 هـ/600-661م) ابن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أبو الحسن أمير المؤمنين رابع الخلفاء الراشيدين وأحد العشرة المبشرين وابن عم النبي وصهره وأحد الشجعان الابطال ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء] وهؤلاء أصبحوا فيما بعد الخلفاء الراشدون الأربع. ينظر ترجمتهم مفصَّلة على التوالي في كتاب الزركلي: الأعلام،ج4 ص102؛ ج5 ص45؛ ج4 ص210؛ ج4 ص295.

(2) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص50. والنص الأصلي بلغة كارين مختصراً تقول فيه:

« It was the younger generation who responded to his message … He could not help noticing that many of his followers came from the lower classes. A significant number were women, others freedmen, servents and slaves … but he have wondered how a movement of such perepheral people could succeed … many of younger generation, who were disturbed by the aggre -ssive capitalism of Mecca, came to him for advice". Karen Armstrong: Muhammad a prophet for our time, pp: 42-43.

(ﷺ)، فمعظمهم اقتنع بترك محمد (ﷺ) في حاله، فقد كانوا رجال أعمال، شهيتهم ضعيفة للجدال الفكري[1]، وعرفوا أنّ صراعاً داخلياً خطيراً سوف يضر تجارتهم؛ ورأوا أنّه على أي حال من الأحوال، تلك العصابة الصغيرة من حفنة العبيد، والشباب الغاضب، والتجّار الفاشلين[2]، لا تشكّل تهديداً حقيقياً، وأن مصير حركتهم المحتوم هو التلاشي"[3].

---

(1) لعل كارين أرمسترونغ قد قاست الجدال الفكري عند العرب حين نزول الرسالة على الرسول ﷺ بالجدال الفكري الذي كان موجوداً وسائداً عند اليهود، فالمعلوم أن اليهود كانوا أكثر الخلق جدالاً لأنبيائهم لأنهم ورثوا الكتاب عن آبائهم وأنبيائهم، فكانوا أصحاب علم لما ورثوا، لذلك كثر عندهم الجدل، وخير مثال لذلك جدالهم مع نبي الله موسى عليه السلام والمراجعات الكثيرة التي كانت بينه وبينهم فيما أمرهم الله تعالى، وجدالهم في بيان أمر البقرة التي أمروا بذبحها في سورة البقرة خير مثال لذلك.[ينظر سورة البقرة:67-73]

أما العرب فلم يبعث فيهم نبي من بعد إسماعيل عليه السلام لذا فالجدال عندهم كان محدوداً ومحصوراً في بعض الأمور التي ورثوها عن ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أو بما دخل عليهم من تراث اليهودية والمسيحية المحرّفتين.

ورغم هذا فالقرآن الكريم يحدّثنا عن بعض الوقائع الجدلية الفكرية التي أقامها الكفار من العرب مع رسول الله ﷺ ومنها كأمثلة لا الحصر: مجادلتهم له ﷺ في الذبائح [الأنعام:116-121]، مجادلتهم له ﷺ في عبادة الأصنام [الأنعام:71-73]. ومجادلتهم له ﷺ في يوم القيامة وما فيه من أهوال ومشاهد وأحوال[غافر:1-22].

(2) لم يكن أتباع الدين الجديد من التجار الفاشلين، وهذه فرية يدحضها التاريخ وتكذّبها وقائعه، فصاحب الرسالة ذاته ﷺ كان تاجراً ماهراً ناجحاً مرموقاً، وقد عرفوا صدقه وأمانته حين تعاملاته معهم، فلقّبوه بالصادق الأمين، وقد كانوا يستودعون عنده أماناتهم وأموالهم[فقد كان بمثابة خزينة الدولة اليوم]، فكيف يقال عنه أنه كان فاشلاً، ثم إن أصحابه وأتباعه ﷺ وقد تم ذكر البعض منهم سلفاً كانوا من سادات القوم وأشرافهم ومن التجار الناجحين ومن أصحاب المداخيل الكبيرة مما تدرُّه عليهم تجارتهم منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعثمان بن عفان رضي الله عنه وغيرهم كثير. وللمزيد ينظر على التوالي: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله (168-230هـ/785-845م): الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط1، 1968م، ج3 ص186، ج7 ص78.

(3) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص61. وقولها باللغة الأصلية هو:

« But despite their Skepticism, most of the Quraysh were content to leave Muhammad alone. They were businessmen who hade little taste for ideological debate, and they knew that a serious internal conflict would be bad for trade. **In any case**, **this little band of slaves**, **angry young men**, **and failing merchands was no real threat and their movement would surely peter out** ». Karen Armstrong: Muhammad a prophet for our time, pp: 55-56.

ثم تأتي كارين بشيء من التضليل الذي لا سند له وتزعم أن قريشَ لم تنـــزعج في يوم من أيام دعوة محمد ﷺ بالتوحيد الذي يدعو له[1]؛ والسبب في ذلك عند كارين هو أن التوحيد كان معروفاً عند القرشيين ودليلها في ذلك أن اليهودية والمسيحية تتوافقان مع معتقدات قريش منذ زمن طويل وكأن الديانتين كانتا بمكة هما الأساس في الاعتقاد والسلوك لأهلها، ولكن الذي إهتم له القرشيون هو ذلك التغيير الذي يدعو إلى الإصلاح الإجتماعي والذي له تأثير مباشر على الجانب المادي والاقتصاد المكي فتقول:" **لم تكن قريش لتصدَم بالتوحيد في حدِّ ذاته، فهو لم يكن فكرة جديدة بالنسبة لهم، فلقد وجدوا منذ زمن طويل أن اليهودية والمسيحية تتوافقان مع تقاليدهم**[2]**، ولم ينزعجوا بشكل خاص من محاولة الحنيفيين خلق توحيد عربي أصيل؛ ولكن محمداً (ﷺ) كان يفعل شيئاً مختلفاً، فقد بقي معظم الحنيفيين**[3] **على احترامهم العميق للحرم،**

---

(1) كيف ذلك؟؟ وحوادث التاريخ تخبرنا عن مراجعة كفار قريش وسادتهم عم النبي ﷺ أبا طالب في أمر النبي ﷺ، في أمر التوحيد في العديد من المرات وفي العديد من المصادر والمراجع، فعن ابن عباس قال مشوا إلى أبي طالب فكلموه وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشرافهم فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ له منا وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا ودِيننا وندعه ودينه فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال يا ابن أخي: هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك. قال فقال رسول الله ﷺ "نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم" . قال فقال أبو جهل نعم وأبيك وعشر كلمات قال: "تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه". قال فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا إن أمرك لعجب ثم قال بعضهم لبعض إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه قال ثم تفرقوا. السهيلي: الروض الأنف، ج4 ص17. وهناك مراجعات أخرى مطوَّلة ذكرت بنفس المصدر، ج3 ص9-13.

(2) لو وجد العرب أن اليهودية والمسيحية تتوافقان مع تقاليدهم وعاداتهم لاعتنقوها منذ أمد بعيد، ونحن نعلم أن الديانتين قد دخلتا إلى بلاد العرب في القرن الثالث الميلادي، فيحدِّثنا التاريخ أن من العرب من دخل المسيحية وهم قلة قليلة جداً، سواء كانوا بمنطقة نجران أو بالشام، غير أنه ما وُجِد إسم واحد من العرب من اعتنق اليهودية.

زد على ذلك أن اليهودية لّما دخلت شبه الجزيرة العربية كان أهلها متقوقعون على أنفسهم و لم يدعوا لها ولا رغّبوا فيها ولا في اعتناقها، فكانت حكراً على الشعب العبراني، رغم مجاورة الأوس والخزرج وهما بطنان من العرب للعديد من القبائل اليهودية ولآماد عديدة وبعيدة. ينظر: السهيلي:الروض الأنف، ج1 ص91-94، ص 102-135، ج2 ص140، ص217، ص229، ص245.

(3) ما بقي بمكة وما جاورها من أرض العرب من أهل الحنيفية إلا الرهط القليل، وهم: عثمان بن الحويرث وعبيد الله بـــن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل، فقال بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم

ولم يبذلوا أي محاولات لإصلاح النظام الاجتماعي؛ ولكن مهاجمة محمد (ﷺ) لأصنام الكعبة، عنت أن الحرم الذي يقوم عليه الاقتصاد المكي عديم القيمة"[1].

وبالرغم من المجهود الذي أشارت إليه كارين من قِبل الرسول ﷺ في تبليغ دعوته للقرشيين الذين كانوا معاندين ومستمسكين بدين أبائهم إلا أن ذلك لم يُجْدِ نفعاً مع ما تملّكهم من اهتمام مادي، حتى بلغ به اليأس وترك الأغنياء وشأنهم واهتم أكثر بالفقراء الذين كانوا يجدون عزاءهم ومتنفسهم في الدين الجديد ويتطلّعون إلى رسالته فالدين الإسلامي في اعتقاد كارين هو دين الضعفاء والفقراء لا غير وللطبقة الدونية في المجتمع أياً كان المجتمع والدليل في ذلك أنْ:" **أصبح محمد (ﷺ) فاقد الأمل في تغيير المؤسسة المكية، وأدرك أنّ عليه التركيز على الفقراء الأقل إخلاصاً للنظام المكي السائد، والذين كانوا يتطلّعون إلى رسالة"**[2].

وقريب من كلامها السابق، كلام تؤكد فيه ذات الفكرة وتزيدها توضيحاً بحيث جعلت المنتمين للدين من غير كبراء قريش الشباب والمستضعفين الفقراء جداً، وذلك منهج الماديين في تفسيرهم لكل ما يغيب عن الإدراك أو يتعالى عن الإحساس البشري الدوني فتقول:"**إن المؤمنين الأوائل كانوا ينتمون إلى فئتين: الشباب والمستضعفين؛ وكان من بين الفقراء جداً في هذه**

إبراهيم ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. للتوسعة حول هؤلاء النفر ينظر: الروض الأنف، ج2 ص228-245.

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص67. والنص الأصلي لكارين مختصراً كما يلي:

« The Quraysh would not have been shocked by monotheism perse, which was not, after all, a new idea to them … But in attacking the effigies that surrounded the kabah, Muhammad implied that the Haram, on which the Meccan economy depended, was worthless". Karen Armstrong: Muham- mad a prophet for our time, pp: 62-63.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص70. والنص الأصلي هو:

« Muhammad had now given up of converting the Meccan establishment and realized that he must concentrate on the disaffected poorer people, who were eager for his message". Karen Armstrong: Muhammad a prophet for our time, pp: 65-66.

الطائفة الجديدة من جذبتهم التعاليم الإجتماعية للدعوة الجديدة فأصبحوا شخصيات هامة في الإسلام، من بين هؤلاء عبد الله بن مسعود[1] الراعي ... وخباب بن الأرت[2] حداد وصانع سيوف، وإثنان من الرقيق هما صهيب بن سنان[3] وعمار بن ياسر[4] ... وجماعة من العبيد

---

(1) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن:(00-32هـ/00-653م) صحابي ﷺ من أكابرهم فضلا وعقلا وقربا من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الاسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة وكان خادم رسول الله الأمين، وصاحب سره، ورفيقة في حله وترحاله وغزواته، يدخل عليه كل وقت ويمشي معه نظر إليه عمر يوما وقال: وعاء ملئ علما وولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة،ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاما وكان قصيرا جدا، يكاد الجلوس يوارونه وكان يحب الإكثار من التطيب فإذا خرج من بيته عرف جيران الطريق أنه مر، من طيب رائحته له 848 حديثا". الزركلي: الأعلام، ج 4 ص136-137.

(2) خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد التميمي، أبويحيى أو أبو عبد الله: (00-37هـ/00-657م) صحابي ﷺ من السابقين قيل أسلم سادس ستة وهو أول من أظهر إسلامه كان في الجاهلية قينا يعمل السيوف بمكة ولما أسلم استضعفه المشركون فعذبوه ليرجع عن دينه فصبر إلى أن كانت الهجرة ثم شهد المشاهد كلها ونزل الكوفة فمات فيها وهو ابن 73 سنة ولما رجع علي من صفين مر بقبره فقال: رحم الله خبابا أسلم راغبا وهاجر طائعا وعاش مجاهدا روى له البخاري ومسلم وغيرهما 32 حديثا". الزركلي: الأعلام، ج2 ص 301.

(3) صهيب بن سنان بن مالك من بني النمر بن قاسط:(32ق هـ-38هـ/592-659م) صحابي ﷺ من أرمى العرب سهما وله بأس وهو أحد السابقين إلى الاسلام كان أبوه من أشراف الجاهليين ولاه كسرى على الأبلة (البصرة) وكانت منازل قومه في أرض الموصل على شط الفرات مما يلي الجزيرة والموصل وبها ولد صهيب فأغارت الروم على ناحيتهم فسبوا صهيبا وهو صغير فنشأ بينهم فكان ألكن واشتراه منهم أحد بني كلب وقدم به مكة فابتاعه عبد الله بن جدعان التيمي ثم أعتقه فأقام بمكة يحترف التجارة إلى أن ظهر الاسلام فأسلم (و لم يتقدمه غير بضعة وثلاثين رجلا) فلما أزمع المسلمون الهجرة إلى المدينة كان صهيب قد ربح مالا وفيرا من تجارته فمنعه مشركو قريش وقالوا: جئتنا صعلوكا حقيرا فلما كثر مالك هممت بالرحيل؟ فقال: أرأيتم إن تركت مالي تخلون سبيلي؟ قالوا: نعم فجعل لهم ماله أجمع فبلغ النبي ﷺ ذلك فقال: "ربح صهيب، ربح صهيب" وشهد بدرا وأحد والمشاهد كلها له 307 أحاديث وتوفي في المدينة. وكان يعرف بصهيب الرومي، وفي الحديث: "أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق فارس وبلال سابق الحبشة"". الزركلي: الأعلام، ج3، ص209-210.

(4) عمار بن ياسر بن عامر الكناني المذحجي العنسي القحطاني أبو اليقظان: (57ق هـ-37هـ/567-657م) صحابي ﷺ من الولاة الشجعان ذوي الرأي وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به هاجر إلى المدينة وشهد بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان وكان النبي ﷺ يلقبه " الطيب المطيب " وفي الحديث: "ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما". وهو أول من بنى مسجدا في الإسلام (بناه في المدينة وسماه قباء) وولاه عمر الكوفة فأقام زمنا وعزله عنها وشهد الجمل وصفين مع علي وقتل في الثانية، وعمره ثلاث وتسعون سنة له 62 حديثا. الزركلي: الأعلام، ج 5، ص36-37.

رجالاً ونساءً وكان بلال الحبشي الذي أصبح أول مؤذن في الإسلام هو الأكثر شهرة من بين هؤلاء"[1].

وتنظر كارين للمعاهدات التي قام بها الرسول ﷺ مع بعض القبائل بعد غزوة تبوك[2] على أنّها معاهدات هزيلة لا قيمة لها، لأن الذين تمت معهم لا يمثّلون إلا بعض مناطق البدو وليسوا من التكتّلات الإقتصادية أو السياسية ذات السيادة والتأثير العالميين، كما أن المعاهدات أسفرت عن دفع بعضهم الجزية لاغير، وهذا كله تفسير مادي لا يُمِتُّ للواقع بِصِلة؛ فتقول:" **وصل الجيش إلى تبوك... بقي محمد هناك عشرة أيام**[3] **... ولا بدَّ أن البدو في تلك المنطقة قد تأثروا بذلك، فأخذ يعقد معاهدات مع الحكام المحلّيين، ومنهم ملك أيلة المسيحي يُحنَّة بن رؤبة**[4] **الذي دفع**

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص120. والنص كما أوردته كارين في أصله مختصرا كما يلي:
« The early converts came from two particular groups: the young and the weak … These included abdallh ibn Ma'sud a shephered … Khabbab ibn al-Aratt, a smith and maker of swords; the two freedmen Suhayb ibn Sinan and Ammar ibn Yasir … the most famous of whom was the Abyssinian Billal, who became the first muezzin to call the faithful to prayer". Karen Armstrong: Muhammad a biography of the prophet, p:104.

(2) ينظر الملحق (07): طريق سير الموكب الطاهر إلى تبوك وما حولها، وكيف هي التضاريس يومها، ص368.

(3) لم يثبت ولا أحد من كتّاب السيرة والتاريخ هذا العدد من الأيام أو الليالي التي أثبتتها كارين، أما الثابت قطعاً فهو أن عدد الأيام والليالي كان أكبر من ذلك بكثير، ولا ندري لِمَ يعمد هؤلاء إلى مثل هذا الجنوح في تعاملهم مع التاريخ الإسلامي وسيرة الرسول ﷺ على وجه الخصوص، هل لنقص المصادر والمراجع أم لقلّة المعلومات أم لحاجة في أنفسهم ما هم ببالغيها. أما المُجمع عليه عند أهل التاريخ والسير أن رسول الله ﷺ قد مكث في تبوك ما يربو عن العشر بكثير [مكث بضع عشرة ليلة] و لم يثبتوا عدد الليالي تحديداً، وقال ذلك غير واحد، مثاله: ابن هشام، ج4 ص170، وابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج2 ص258، والسهيلي: الروض الأنف، ج4 ص302. ومنهم من أثبت عدد الليالي وجعلها عشرين ليلة، وقال ذلك غير واحد كذلك، مثاله: الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي المدني، أبو عبد الله(ت207هـ/ 823م): المغازي، تحقيق:د. ماردسن جونس، دار عالم الكتب بيروت [د ت ط]،ج3 ص1033، وابن سعد: الطبقات، ج2 ص121، وابن حزم: جوامع السيرة، ص253، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج5 ص463.

(4) يحنّة بن رؤبة: لم يخرج أهل السير والتراجم تعريفاً شاملاً لهذه الشخصية غير الأمور التي ذكرها هؤلاء حين مجيئ الرسول ﷺ منطقة تبوك وما كان فيها من أهل المناطق المجاورة ومجيئهم إلى رسول الله ﷺ ونزولهم على أمره ومصالحتهم على الجزية،

له الجزية، وكذلك فعلت ثلاث مستوطنات يهودية في جرباء وأَذرُح على ساحل البحر الأحمر[1]**... لقد كان نجاحاً متواضعاً لكنه كان هاماً**"[2].

وأما فتح الطائف وما كان فيه من نتائج باهرة للمسلمين، إذا ما علمنا أن الطائف هي المعقل الثاني للوثنية وعبادة الأصنام بعد مكة في شبه الجزيرة العربية، فإن كارين تكتب معتقدة أنّه لولا الحصار الإقتصادي الذي ضرب عليها ما كان أهلُها ليسلموها للمسلمين وكأن المسلمين ما بذلوا جهدا ولا أراقوا دماً وما كابدوا مشقّة، فقد أصبحت الطائف معزولة عن العالم وعن التموين والمؤونة، لذلك فالعامل الإقتصادي قد كان بارزاً في هذا الفتح، فتقول:" **كما شهدت تلك الفترة نهاية المعارضة الوثنية، في كانون الثاني[جانفي] عام 631م اضطرت الطائف– المعقل الوثني الحصين– إلى الاستسلام، أي بعد مرور سنة على حصار محمد لها... لذلك أصبحت الطائف معزولة، ويعاني سكانها من الضيق حتى أصبح وضعهم مستحيلاً**"[3].

وتكاد تكون ذات الألفاظ والحوادث والشخصيات مع تقديم أو تأخير أو زيادة أونقصان لبعض الألفاظ وبعض الشروحات أو الاختصارات بحسب ما يقتضيه السياق لكل واحد من هؤلاء، ومن ذلك ما ذكره الإمام السهيلي في قوله:"ولما وصل ﷺ إلى تبوك، أتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية فكتب رسول الله ﷺ لهم كتابا، فهو عندهم. فكتب ليحنة بن رؤبة بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ﷺ ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر". الروض الأنف، مصدر سابق، ج4 ص 300.

(1) ينظر الملحق رقم 7: خريطة المنطقة وطريق سير الموكب الطاهر إلى تبوك وما حولها.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص290. والنص الأصلي مختصراً كالتالي:

« But eventually the army arrived at Tabuk, about 250 miles north-west of Medina … while he was there he made pacts with the local rulers. The christian king Yuhunna of Eilat in modern Israel paid tribute to him, as did three Jewish settlements at Jarba and Adhruh in what is now Jordan and Maqna on the Red Sea coast … **It was a modest but significant**". Karen Armstrong:Ibid, p248.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص291.

والملاحظة الجديرة بالبيان والتوضيح أن المستشرقين عامة ينظرون إلى الفتوحات الإسلامية إما أنّها قامت على السيف وإرغام الطرف الآخر بالقوة والإكراه؛ وهذا ما لم يحدث في تاريخ الفتوحات الإسلامية كلها؛ وإما أن يُنْتَقص من قيمة الطرف الآخر

.....

.....

.....

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لتهوين ما يبذله الفاتحون من على عهده ﷺ إلى ما بعده من جهود وما تجلّت فيه من قيادات وعبقريات وكذا ما صاحب ذلك من تشريع وأحكام، ومثل هذا الأخير قد وقع من كارين في حديثها عن فتح الطائف؛ وللمزيد حول ما بذله المسلمون من جهود وما كابدوه من مشاق وما قدَّموه من جراح ودماء وكذا من أرواح وأشلاء تحت جُدُر وأسوار الطائف وقتال الرسول ﷺ لهم القتال الشديد، ينظر: السهيلي: الروض الأنف، ج7 ص336 وما بعدها والذي جاء وصف الفتح فيه بقوله:" فحاصرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم قتالاً شديداً".

أما النص الأصلي كما جاء على لسان قلم كارين فهو:

« It was also the end of the pagan opposition, in January 631the city of Taif the last pagan stronghold, **was forced to surrender just one year after Muhammed had abanded his siege**. Since the Hawazin had become Muhammed's allies after Hunayn, **they had been increasingly isolated** and harried until their position was impossible". Karen Armstrong:Ibid, p249.

المنهج الإسقاطي:

وهو منهج تتم فيه معالجة الحوادث التاريخية بما يتلاءم وواقع معيشة المستشرقين ويقيسونها عليه ويفسِّرونها على غرار ما يفسِّرون به حوادثهم اليومية وفي ظل خبراتهم ومعايشتهم لواقع مجتمعهم.

فلا عجب أن يجد الدارس منا بعض المصطلحات الخاصة بالقرن العشرين الميلادي أو الذي قبله أو بعده، تُطْلق في قاموس المستشرقين على حوادث ووقائع كانت في القرن السابع الميلادي أو الذي قبله أو الذي بعده بقليل، قياساً على ما عندهم من معايشة للواقع وما هو كائن كتفسير لتلك الوقائع.

فالقرآن كمثال أول لهذا الإسقاط الذي قامت به كارين على ما هو في واقع حالها الدراسي والعلمي، لا يعدو أن يكون حين ترجمته إلى لغات أخرى غير العربية شبيهاً بشعر شيكسبير[1] الجزل، فأنَّى لكلام البشر الدوني أن يلحق أو أن يقاس بكلام خالق البشر لولا اللوثة الفكرية الإستشراقية فتقول:" **أما فيما يتعلّق بالقرآن فإن الترجمة تشكّل مشكلة كبرى، فأجمل الأبيات الذي نظمها شكسبير تبدو في أغلب الأحيان غريبة الوقع في لغة أخرى، لأنه ليس بالامكان التعبير عن شعر جزل في مصطلح أجنبي، والعربية تحديداً لغة يصعب ترجمتها**"[2].

إذا كان هذا هو مقام القرآن في فكر كارين فما هو مقام الذي نزل عليه القرآن ﷺ في فكرها حين نزول هذا الأخير عليه؟

---

(1) شكسبير، وليم (972-1025هـ/1564- 1616م): يُعَدّ الشاعر والمسرحي الإنجليزي وليم شكسبير أشهر المسرحيين الذين عرفهم العالم؛ وُلد وليم شكسبير لأبوين من الطبقة الوسطى في بلدة تجارية صغيرة تسمى ستراتفورد ــ أبون ــ آفون، وكان الثالث من بين ثمانية أطفال في عائلته. كانت عائلة شكسبير ذات مكانة مرموقة في المدينة، وكان قد قسم وقته بين حياته الخاصة في ستراتفورد وبين حياته العامة في لندن، ومن المرجَّح أنه كان يقضي معظم وقته بعد عام 1612م، متنعمًا برفاهية بيته في ستراتفورد. مات شكسبير ، ودفن داخل كنيسة أبرشية ستراتفورد. الموسوعة العربية العالمية، ج15ص67.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص56. والنص الأصلي هو:

« In the case of the Qu'ran there is also the problem of translation. The beautiful lines of **Sheakespeare** frequently sound banal in another language because little of the poetry can be conveyed in a foreign idiom, and **Arabic is a language that is especially difficult to translate**". Karen Armstrong: Muhammad a biography of the prophet, p:49.

قال الكافرون بالقرآن حين نزوله على الرسول ﷺ وقد أنذرهم به، العديد من الأقوال والأوصاف غير اللائقة ومنها قولهم: إنّه لقول شاعر[1].

فما زال الْمُرِيبون في كل عصر يردِّدون هذه الفرية الموصوفة ما لم يجدوا لأنفسهم المريضة ما يشفيها من أسقام الجاهلية[2]، ولعقولهم الكليلة ما يرفع عنها حجب الجهل، وجاء المستشرقون ووجدوا في مثل هذا القول المصوّغ والمنفذ الذي يلجون منه للطعن، فكل واحد منهم يأتي بهذا الوصف بما يوافق هواه ويحقّق مراده.

---

(1) جاءت لفظة الشاعر على لسان الكافرين والمكابرين والمعاندين في العديد من المواضع من القرآن الكريم، وجاء الرد على كل لفظة بما يقتضيه السياق القرآني، ولقد علم الأوائل من كفار قريش ومن كان في فَلَكِهم وحِلْفِهم أن ما جاء به محمد ﷺ يفوق الخيال، خيال كل شاعر، ويفوق حتى قدراتهم العقلية وغريزتهم الشعرية رغم أنه بلسان عربي مبين. فقد ذكرت مثلاً لفظة الشاعر في قوله تعالى:﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[الأنبياء:5]، وقوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الحاقة:40-43]. ولقد ذكر المفسرون بعض اللمح في تفسيرهم لهذه الآيات منها قولهم:" وأوثر نفي الإيمان عنهم في جانب انتفاء أن يكون قول شاعر، ونفي التذكر في جانب انتفاء أن يكون قول كاهن، لأن نفي كون القرآن قول شاعر بديهي إذ ليس فيه ما يشبه الشعر من اتزان أجزاءه في المتحرك والساكن والتقفية المتماثلة في جميع أواخرالأجزاء، فادعاؤهم أنه قول شاعر بهتان متعمد ينادي على أنهم لا يرجى إيمانهم، وأما انتفاء كون القرآن قول كاهن فمحتاج إلى أدنى تأمل إذ قد يشبه في بادئ الرأي على السامع من حيث إنه كلام منثور مؤلف على فواصل ويؤلف كلام الكهان على أسجاع مثناة متماثلة زوجين زوجين، فإذا تأمل السامع فيه بأدنى تفكر في نظمه ومعانيه علم أنه ليس بقول كاهن، فنظمه مخالف لنظم كلام الكهان إذ ليست فقراته قصيرة ولا فواصله مزدوجة ملتزم فيها السجع، ومعانيه ليست من معاني الكهانة الرامية إلى الإخبار عما يحدث لبعض الناس من أحداث، أو ما يلم بقوم من مصائب متوقعة ليحذروها، فلذلك كان المخاطبون بالآية منتفيا عنهم التذكر والتدبر، وإذا بطل هذا وذاك بطل مدعاهم فحق أنه تنزيل من رب العالمين كما ادعاه الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم". ينظر: محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج29 ص132-133.

(2) من الذين شفوا من أسقام الجاهلية الشاعر الأزدي **الطفيل بن عمرو الدوسي**، حين حجّه، وقد حذّره الكفار من محمد ﷺ على أنه شاعر، فما أن سمع من رسول الله ﷺ الآي من القرآن حتى دُهِش وأسلم وقال ﷺ: والله ما سمعت قولاً أحسن منه ولا أمراً أعدلَ منه، إستشهد في اليمامة سنة 11هـ. للمزيد ينظر: السهيلي: الروض الأنف، ج3 ص 226-229، والزركلي: الأعلام، ج3 ص227.

ومن الذين علموا أن القرآن ليس بشعر غير أنهم لم يسلموا **عتبة بن ربيعة**، حين بعثت به قريش لرسول الله ﷺ لمحادثته ومراجعته في أمر الدين الجديد وعقد صفقة معه إن أمكن، فرجع مدهوشاً مما سمع من القرآن وهو يقول: سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، **والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة**. وللمزيد حول هذه الحادثة ينظر: السهيلي: الروض الأنف، ج3 ص60-61.

وكارين حين وصفها للحظات نزول الوحي على النبي ﷺ تشبِّهه بالشاعر التائه الذي يلتمَّس في خلجات نفسه منافذ الخروج من ذاتيته الضيقة إلى عالم الحقيقة فاقداً للوعي بما يحيط به، فتقول:" **كان يعرق بغزارة حتى في اليوم البارد، وهو ينسحب داخله بحثاً في روحه عن حل لمشكلة، فيما يشبه طريقة غوص الشاعر في أعماق نفسه بحثاً عن مستوى الإدراك في عقله**"(1).

وإذا ما تحوّلنا إلى حديث المستشرقين عن العلاقات الإجتماعية في المجتمع القرشي آنذاك وجدناهم يصوِّرونها أنها علاقات مصلحية فردية، وكذلك زاغت كارين وهي تتلمَّس طريقها في تصوير تلك العلاقات حيث تسقطها على واقع النّاس في القرن العشرين الميلادي وبالمنظار الغربي تحديداً، حيث العلاقات تربطها المصلحة ودون قيود ولا ضوابط وحيث تسود الفوضى، وعلاقات الزواج تربطها روابط الغرام على طريقة أفلام الغرب، فتقول:" **كان أبولهب عدواً لمحمد منذ البداية، ولإصلاح ذات البين بينه وبين محمد خطب لولديه إبنتي الرسول رقية وأم كلثوم، لكن بعد أن رفض محمد الاعتراف ببنات الله قرّر أبولهب أن يتحالف مع قريش وأجبر ولديه على أن يطلّقا زوجتيهما، فتقدَّم الشاب الوسيم المسلم عثمان بن عفّان طالباً يد رقية إذ أنّه كان معجباً بها منذ زمن لأنها كانت أجمل بنات محمد**"(2).

---

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص52. والنص بلغته الأصلية هو:

« He would perspire heavily,even on a cold day, as he turned inwards, **searching his soul for a solution** to a problem, in rather **the same way as a poet** has to open himself to the words that he must haul from the depths of himself to the conscious level of his mind". Karen Armstrong: Muhammad a prophet for our time, p: 45.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص139. والنص في أصله كالآتي:

« Abu Lahab hade been hostile to Muhammad from the start, but to try to mend relations with his nephew he had betrothed two of his sons to Muhammad's two daughters Ruqayyah and Umm Kulthum. But after Muhammad had finally refused to acknowledge the banat al-llah he decided to ally himself more closely with abd Shams, the clan of his wife, and he forced his sons to repudiate the two women. The young, elegant muslim convert **Uthman ibn Affan**, however, **had long admired Ruqayyah** who was the most beautiful of Muhammad's

فهل توقّف الفكر الإستشراقي عند هذا الحد من الخيال المفرط والمجانب للحقائق والوقائع؟ إن لفظة الليبرالية التي ظهرت كمنهج اقتصادي في العالم ثم اصبحت تطلق على كل فكر متنوّر حر في القرن العشرين، تجد طريقها في قاموس كارين حين حديثها عن وقائع السيرة النبوية القائمة في القرن السابع ولعلّ ذلك من التجنّي المفرط على حقائق التاريخ فتقول:"**فمحمد كان يتبنى الفكرة اليهودية– المسيحية القائلة: إن من يقرُّون بالدين الحق هم وحدهم من يستحقُّون الخلاص، كانت تلك هي الإجابة الليبرالية اللطيفة التي صاغها الموحِّدون للإلتفاف على مثل هذا السؤال**"(1).

ونفس المصطلح تستعمله كارين للتعبير عن التوجّه الفردي الحر الشائع في الغرب، وهي منغمسة في الحديث عن تطوير النظام الإسلامي للنظرة الفردية والقبلية ورفع مستوى المسلم وآفاقه من حيث الولاء والعمل لصالح الأمة وليس لنفسه ولا لقبيلته، فتسقط ذلك على واقعها وواقع المجتمع في القرن الحالي فتقول:" **فعلى الرغم من انهيار النظام القبلي فإن المثل العليا الجماعية كانت لا تزال معيارية، ولم يستطع محمد تجاهل هذه الحقيقة، وتقديم نزعة فردية قوية ترضي مثلنا الليبرالية العليا الغربية الحالية، لكنه خطا في ذلك الاتجاه**"(2).

---

daughters, and was now able to ask for her hand". Karen Armstrong: Muhammad a biography of the prophet, p:120.

(1) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص158. والنص بلغة كارين هو:

« Muhammad had adopted **the Jewish–Christian idea** that only those who professed the true faith could be saved. He had at his fingertips none of the **nice liberal answers** that monotheists have devised in recent years to get round this one".Ibid, p136.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص294. والنص في مصدره الأصلي كالآتي:

« Despite the decline of the tribal system old communal ideals were still normative and Muhammad could not ignore this fact and produce a full-blown individualism to satisfy our present **western liberal ideals** – but he had made a start". Ibid, p 251.

وغير بعيد عن استعمال هذا المصطلح كذلك نجد استعمال بعض المصطلحات ما كان لها من ظهور ولا من تداول إلا في الأزمنة المتأخرة، إلا أنّ مثل هذه المصطلحات تلقي بظلالها في كتابات المستشرقين عموماً، ولن تستنكف كارين أن تكون واحدة منهم، ومن تلك المصطلحات قولها مركز التمرّد للتعبير عن مسجد ضرار، فتثبت حديثها قائلة:"**ويبدو أنّه كان لديه سبب يدعوه إلى الاعتقاد بأن المسجد كان مركزاً للتمرد**"[1].

وقد أفرطت كارين كثيراً في استعمالها لمصطلحات لا تنطلي على الإسلام ولا تتماشى وعقائده ثم إن مبادئه تنبذ مثل تلك المفاهيم ولا توافقها لا في تنظيره ولا في تطبيقات تشريعاته، ومن هذه المصطلحات كلمة الإمبراطورية، والتي تعني حكم الفرد تشريعاً وتطبيقاً وكل ما في حدود حكمه فهو مِلْك له، وهذا ما لا يقول به الإسلام لا من حيث تشريعاته ولا من حيث تطبيقاته، فلا الرسول ﷺ إدَّعى ذلك ولا الخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم في ديار الإسلام حتى وقت قريب وزوال نظام الخلافة، وإن كان لبعضهم من الزلاَّت والشطط ما كان إلا أنّ واحداً منهم ما ادَّعى ما تقرُّ به ولا ما تحمله مفاهيم الإمبراطورية، ومن ذلك قولها في أكثر من موضع:" **فعندما شيِّدت الإمبراطورية الإسلامية في القرن السابع كانت أوروبا متخلفة وسرعان ما اجتاح الإسلام معظم العالم المسيحي**"[2]؛ وقولها:" **لأن توجيه إهانة إلى محمد كان يعتبر جريمة كبرى في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية**"[3]؛ وقولها:" **في الإمبراطورية الإسلامية لم يكن هناك قانون ضد محاولات الدعاية... وفي بعض أنحاء الإمبراطورية كان هناك تراث راسخ من الربيبة والفكر الحر ما دام ضمن حدود الحشمة ولا يعبِّر عن عدم الاحترام**"[4]؛ وقولها:" **وبعد عشر**

---

(1) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص291. والنص بالإنجليزي هو:

« Now he seems to have had reason to believe that **the mosque was a center of disaffection**".Ibid, p 248.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص13.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص22. وهو بالإنجليزي كما يلي:

« It was a capital offence in the **islamc empire** to insult Muhammad".Ibid, p 21.

(4) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص23. والنص الأصلي كالتالي:

سنوات لاحقة كان المسلمون قد سيطروا على كل الجزيرة العربية تقريباً، وأرسوا الأسس الجديدة لحكم عربي مكَّنهم فيما بعد من إدارة إمبراطورية ضخمة لمدة تزيد على أكثر من ألف عام"[1]؛ وقولها:" **فالنشاط السياسي يعتبر مسؤولية مقدَّسة، والنجاح اللاحق للإمبراطورية الإسلامية أصبح آية على أنه باستطاعة الجنس البشري كله الخلاص"**[2]؛ وقولها:" **ومع ذلك فقد استطاع بعض الحكام المسلمين إقامة إمبراطورية باتِّباعهم تلك المبادئ"**[3].

« There was no law against propaganda efforts by christians in the **Islamic empire**, provided that they did not attack the beloved figure of the Prophet Muhammad".Ibid, p 22.

(1) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص293. والنص الأصلي هو:

« Ten years later it dominated almost the whole of Arabia and had laid the foundations for a new Arab polity which would enable Muslims to govern **a huge empire** for over a thousand years".Ibid, p 250.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص294. ونصه الأصلي هو:

« Political activity would continue to be a sacred responsibility and the later success of **the Muslim empire** a sign that mankind as a whole could be redeemed". Ibid, p250.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص303. والنص بلسان كارين كالتالي:

« But sometimes a Muslim would be able **to build an empire** by showing that he was living and ruling by these principles". Ibid, p 258.

منهج النفي والافتراض واعتماد السقط والشاذ:

وهو الذي يعمد المستشرق فيه إلى نفي كل ما لا يخدم هدفه الذي سطَّره ابتداءً ولو كانت حقائق مثبتة ومجمع عليها، ويأتي بفرضيات تخدم ما وضعه كنتائج لبحثه ويجمع له من الأدلة كل سقطٍ وشاذٍ فيدلِّل بها ويدعو لما ذهب إليه بإصرار حتى يُصَدَّق.

والحقيقة المثبتة هي أن المستشرقين في علمهم صدق وحقيقة ما جاء به محمد ﷺ متساوون مع كفّار قريش والذين كانوا يحاجُّونه ﷺ من أجل المحاججة للتعجيز وتنفير النّاس من حوله، والمستشرقون يعرفون محمدَ ﷺ في كثير من الأحيان أكثر مِمّا يعرفه كثير من المنتسبين لدينه، كذلك كان كفار قريش يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ غير أنهم يحاجّون فيه وفي ما جاء به من الحق ليصدّوا قومهم عن سماع ذلك الحق أو على أقل تقدير تخويفهم حتى لا ينسلخوا من موروثهم الكنسي والحضاري الغربي.

فإذا كان كفار قريش قد حجبت عنهم أنوار الحقيقة ولم يبصروها، وفاتهم طعم الإيمان ولم يتذوّقوه فلحملهم لوثة العناد والمكابرة، كذلك حرم من تلك النعم كثير من المستشرقين لتغليف عقولهم بغلاف من التعالي والافتراءات واتباعهم للموروث الغربي الحاقد ولحملهم لوثة الفكر الكنسي ثم الإستشراقي المشحونة بالتعالُم والكِبر الزائف.

لذا فحين دراستنا لمنهج المستشرقين المؤسس على النفي والافتراض واعتماد السقط والشاذ فذلك لبيان بطلان ادِّعاءاتهم وافتراءاتهم الكثيرة والتي لا أساس لها لا من حيث الواقع التاريخي ولا من حيث الكيف والحال، وكثيراً ما يستعملون هذا المنهج في دراساتهم للإسلام ولتاريخه وكل ما له صلة به، بيد أنهم يعلمون في قرارات أنفسهم أنهم متجنُّون على الحقيقة التاريخية وعلى المنهج العلمي الذي يدَّعونه في أبحاثهم ودراساتهم.

وتبدأ كارين رحلتها مع هذا المنهج في اتباعها لما قاله رواد هذا المنهج حول إنكارها للحقائق المثبتة. فتحدِّثنا عن حياته ﷺ وهي متنكِّرة لكل الروايات معتمدة على سنن الذين من قبلها من مونتغمري واط وبرنارد لويس وغيرهم حيث تنكر أنها لا تعرف إلا القليل عن حياته ﷺ لأن

المصادر والمراجع تكاد تكون منعدمة، وهو شخصية مغمورة، فتقول:" **لا نعرف سوى النزر القليل عن مطلع حياة النبي محمد**"[1].

وإذا كان لا يحق للدارس للتاريخ والباحث عن الحقيقة فيه إلا أن يسأل مثل هؤلاء المستشرقين، كيف يمكن للباحث أن يستسيغ الكذب على نفسه وعلى الناس وعلى الحقيقة التاريخية التي يثبتونها تارة وينفونها أخرى؟ ألم تقل كارين:" **لقد اتبعت منهجاً مختلفاً بالأحرى، منطلقة من أننا نعرف عن محمد أكثر مما نعرف عن مؤسس أي من الأديان الرئيسية الأخرى، وبذلك فإن دراسة لحياته يمكننا أن تقدِّم لنا رؤية هامة في طبيعة التجربة الدينية**"[2].

وهي التي تقول لولا مجموعة الأساطير التي نسجت حول ولادته وما كان قبل الوحي لبقي محمد ﷺ شخصية مغمورة:" **فنحن لا نعرف عملياً شيئاً عن بداية حياة محمد قبل البدء بتلقي الوحي في سن الأربعين، وكان لا بد من ظهور أساطير عن ولادة محمد وطفولته وصباه وقد تم تدوينها، كما أن هناك مادة قليلة جدا عن مطلع الدعوة في مكة، ففي ذلك الوقت كان محمد شخصية مغمورة نسبياً لم يعتقد أحد أن دعوته جديرة أن ينوِّه إليها أحد**"[3].

فالحديث الملتوي أو المكذوب سرعان ما تنكشف خيوط نسيجه، والمتحدِّث الكذوب سرعان ما ينسى ما يحدِّث به لذا يجد من يتتبعه منافذ السقطات ويعدِّد له الهنَّات، وقد وقع مثل هذا لكارين، وهي تحدِّثنا بأحاديثها السابقة نست في لحظة من لحظات سبات الفكر الإستشراقي واستيقاظ العقل الحر غير المتجنِّي فيها أن نقضت كلامها السابق بكلام أثبتت فيه عكسه، فتقول:" **في تلك السنوات غير الحافلة بالأحداث–أي قبل أن يتلقى محمد نداء ربه– كانت مكانته في مكة قد تحسنت، لقد كان معروفاً بطيبته مع الفقراء والعبيد، وثمة حادثة نلمس ما لها من دلالة حين التأمل في الأحداث اللاحقة، ففي عام 605 قررت قريش ترميم الكعبة**"[4].

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص83.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص18.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص55.

(4) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص94.

ثم تأتي على ذكر الأحداث إلى أن نشب الخلاف بين القبائل كلها حول وضع الحجر الأسود، فرضوا أن يحكِّموا أول داخل للكعبة فكان يومها محمد ﷺ هو الداخل، فتصف كارين الموقف – ومن قبل إدَّعت عدم توفر المصادر ولا المعلومات حول حياته الأولى ﷺ ويكفينا أنها ترد هي على نفسها بنفسها– قائلة:" **فكان محمد أول قادم وكان قد عاد للتو من رحلة عمل، فذهب مباشرة إلى الكعبة كي يؤدي الطواف كالمعتاد لدى وصوله، كان قدومه مبعث ارتياح الجميع فصاحوا قائلين: هذا الأمين رضينا هذا محمد**"[1].

وتصير الصورة غير واضحة المعالم في فكر كارين حين تحدِّثنا عن القرآن والسور المبكرة منه، والتفسير اللامنطقي واللاعقلاني الذي اهتدت إليه، بحيث أنها اختلط عليها السقط والشاذ من الروايات مع كثير من الافتراض غير المنطقي فأنتجوا لديها منهجاً معوجّاً ونتائج سقيمة، فتفسِّر إسلام المؤمنين الأوائل وبخاصة النساء منهم بأنّهن استجبن لدعوة محمد ﷺ لأن القرآن الذي جاء به قد امتدح الأنثى في مجتمع كانت فيه غير ذات قيمة ورفع لها من وزنها القيمي الإجتماعي بعد أن كانت لا وزن لها فيه ولا قيمة، فتقول:"**ستجد تقريباً في كل السور المبكرة النزول في القرآن حديثاً عن الإناث... كان هذا الحضور القوي للإناث مثيراً للانتباه في مكة ذات المجتمع الشديد الذكورية، وقد يفسِّر ذلك لماذا كانت النساء من أول من استجاب لرسالة القرآن**"[2].

وأمر آخر لا يشذ مستشرق عن ذكره والتنويه به سواء بقصد أو بغيره وهو ما يسمّونه عندهم بالآيات الشيطانية، فلا بد لكل مستشرق أن يغرف من هذا المورد، فمنهم من يمجّه ويلفظه وهم قلّة ومنهم من يستسيغه ويتلذّذ به ويطرب للحديث عنه والتحديث به، ظناً منهم أن ذلك سوف يؤثر سلباً على رسالة الإسلام وسيرة نبيّه ﷺ، ثم يعرِّجون على كل سقط وواه من رواية فيأتون بها على أساس السند التاريخي، وقد أسهبت كارين في حديثها عن هذه الحادثة المكذوبة كثيرا[3]، كما أنها قد خصّصت لها في مقامات أخرى مباحث وفصول[4]، وقد أثبت المحققون من علماء

---

(1) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص95.

(2) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص55.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص62-67.

(4) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص125-154.

السير والتفسير والحديث أن مثل هذا لم يقع ولا ينبغي أن يقع كما أنه لا يليق بمقام النبوّة لأن فيه طعن في الرسول ﷺ وهو المعصوم في التلقّي والتبليغ[1].

---

(1) وقد جمع محمد الأمين الشنقيطي، ماتفرَّق عند علماء المسلمين من أقوال في هذا الأمر وهذا قوله في المسألة:" وقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة الغرانيق قالوا: سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النَّبي ﷺ قرأ سورة النجم بمكة، فلما بلغ: (أَفَرَءَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأخْرَى) ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى، فلما بلغ آخر السورة سجد وسجد معه المشركون والمسلمون. وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، وشاع في الناس أن أهل مكة أسلموا بسبب سجودهم مع النَّبي ﷺ، حتى رجع المهاجرون من الحبشة ظناً منهم أن قومهم أسلموا، فوجدوهم على كفرهم. وقد قدَّمنا في هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، ومثَّلنا لذلك بأمثلة متعددة، وهذا القول الذي زعمه كثير من المفسرين: وهو أن الشيطان ألقى على لسان النَّبي ﷺ، هذا الشرك الأكبر والكفر البواح الذي هو قولهم: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى، يُعنون: اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، الذي لا شك في بطلانه في نفس سياق آيات النجم التي تخللها إلقاء الشيطان المزعوم قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول لأن النَّبي ﷺ قرأ بعد موضع الإلقاء المزعوم بقليل قوله تعالى، في اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: (إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَ آبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) وليس من المعقول أن النَّبي ﷺ يسب آلهتهم هذا السب العظيم في سورة النجم متأخراً عن ذكره لها بخير المزعوم، إلا وغضبوا، ولم يسجدوا لأن العبرة بالكلام الأخير، مع أنه قد دلت آيات قرآنية على بطلان هذا القول، وهي الآيات الدالة على أن الله لم يجعل للشيطان سلطاناً على النَّبي ﷺ، وإخوانه من الرسل، وأتباعهم المخلصين كقوله تعالى: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) وقوله تعالى: (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) وقوله تعالى: (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالأٌّ خِرَةِ) وقوله: (وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ). وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ذلك الكفر البواح، فأي سلطان له أكبر من ذلك. ومن الآيات الدالة على بطلان ذلك القول المزعوم قوله تعالى في النَّبي ﷺ: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى) وقوله: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) وقوله في القرآن العظيم: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) فهذه الآيات القرآنية تدل على بطلان القول المزعوم.

مسألة: اعلم أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعاً، ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب، والمفسرون يروون هذه القصة عن ابن عباس من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. ومعلوم أن الكلبي متروك، وقد بين البزار رحمه الله: أنها لا تعرف من طريق يجوز ذكره إلا طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير، مع الشك الذي وقع في وصله، وقد اعترف الحافظ ابن حجر مع انتصاره، لثبوت هذه القصة بأن طرقها كلها إما منقطعة أو ضعيفة إلا طريق سعيد بن جبير. وإذا علمت ذلك فاعلم أن طريق سعيد بن جبير، لم يروها بها أحد متصلة إلا أمية بن خالد، وهو وإن كان ثقة فقد شك في وصلها. فقد أخرج البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب، ثم ساق حديث القصة المذكورة، وقال البزار: لا يرى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور، وقال البزار: وإنما يروى من طريق الكلبي، عن أبي صالح،

وتتحدّث أرمسترونغ عن معتقدات أهل الجاهلية من أمثال أبي جهل الذي تسميه بأبي الحكم وأبي سفيان، وتذهب في قولها إلى حدّ التأكيد بأن النبي ﷺ لم يكن في صراع مع كل معتقدات مثل هؤلاء من القرشيين وغيرهم، لأن الكثير من معتقداتهم كانت صحيحة إلا أنهم لم يكونوا يعرفون تطبيق تلك المعرفة في سلوكاتهم وتعاملاتهم، فتقول:" **لم يكن محمد (ﷺ) في صراع مع كل معتقدات أبي الحكم وأبي سفيان، وفي الحقيقة، كان الكثير من معتقداتهم صحيحة... والمشكلة أنهم لم يكونوا يترجمون معتقداتهم إلى أفعال، لقد كانوا يجحدون المعاني الحقيقية لآيات الله الخيرية في خلقه، والتي تطلب من البشر تقليدها في كل تعاملاتهم**"[1].

وهنا وجب الرد على مثل هذا القول المضلِّل والهدف الغائي، فالروايات التاريخية الصحيحة تبيِّن أن القرشيين عموماً وأهل الحل والعقد فيهم خاصة كانوا يعلمون العلم اليقيني ويفهمون ما تعنيه الرسالة السماوية، والتي طلب منهم مبلِّغها ﷺ أن يقولوا الشهادة فقط ويقرّون بها إقراراً جازماً وما سألهم في ذلك ولا على ذلك مالاً ولا جاهاً ولكنهم رفضوا ذلك لفهمهم لمعنى الشهادة ومقتضياتها.

وقد جاء في الكثير من الروايات الصحيحة أن أشراف قريش إجتمعوا عند عمه أبي طالب وأرادوا أن يكون عمه ﷺ هو الحكم بينهم:" فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال يا ابن أخي: هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك. قال فقال رسول الله ﷺ"نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم" قال فقال أبو جهل نعم وأبيك، وعشر

عن ابن عباس. والكلبي متروك. فتحصل أن قصة الغرانيق، لم ترد متصلة إلا من هذا الوجه الذي شك رواية في الوصل، ومعلوم أن ما كان كذلك لا يحتج به لظهور ضعفه، ولذا قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: إنه لم يرها مسندة من وجه صحيح. وقال الشوكاني في هذه القصة: ولم يصح شيء من هذا، ولا يثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته، بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله كقوله: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ) وقوله: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى). وقوله: (وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً)، فنفى المقاربة للركون فضلاً عن الركون، ثم ذكر الشوكاني عن البزار أنها لا تروى بإسناد متصل، وعن البيهقي أنه قال: هي غير ثابتة من جهة النقل، وذكر عن إمام الأئمة ابن خزيمة: أن هذه القصة من وضع الزنادقة وأبطلها ابن العربي المالكي، والفخر الرازي وجماعات كثيرة، وقراءته ﷺ سورة النجم وسجود المشركين ثابت في الصحيح، ولم يذكر فيه شيء من قصة الغرانيق. وعلى هذا القول الصحيح وهو أنها باطلة. محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان، مرجع سابق، ج5 ص235-237.

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص70-71.

كلمات قال: "**تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه**". قال فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: **أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً**، إن أمرك لعجب ثم قال بعضهم لبعض إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون فانطلقوا، وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، قال ثم تفرقوا"[1].

وعن الهجرة إلى الحبشة ووفد الهجرة، تجمع كارين لهذه الحادثة كل سقط وشاذ وتسند كل ذلك ببعض الافتراضات الخاطئة، لتضلِّل القارئ في جهة من جهات الحق فتغمطه وتعطيه الباطل من جهة ثانية على أنه الحق وحده، فتقول:" **لقد أصبح الوضع خطيراً بالنسبة للمسلمين في مكة، حتى أن محمداً** (ﷺ) **أرسل ضعافهم إلى الحبشة، حيث قبلهم ملكها المسيحي... لا بد وأنه كان أمراً بالغ الصعوبة على المسلمين**"[2].

فقد كان الوضع خطِراً كما وصفت كارين وهذا وجه الحقيقة في كلامها، إلا أن الافتراء بأن الرسول ﷺ قد بعث فقط بالضعفاء إلى الحبشة فهذا غمط للحق وسِتر للحقيقة التاريخية، فإن الرسول ﷺ قد خيّر الصحابة على الهجرة أو المكوث بمكة وبيّن لهم مخاطر البقاء بمكة بعد أن استفحل أمر قريش في الجهر بالعداوة للمسلمين، فهاجر الجمع الطيب طواعية دون إكراه، ثم إن من المهاجرين بنت رسول الله ﷺ مع زوجها عثمان بن عفان و لم يكونا من المستضعفين وغيرهم من الصحابة كذلك ذوي المكانة والجاه في قومهم من جميع بطون قبائل العرب[3].

وعن إسلام الجماعة الأولى من أهل يثرب تبلغ كارين مبلغاً حاداً من الاستعلاء الغربي والممزوج بشيء من الغرور اللامتناهي بالنظرة المتعالية حيث تجعل من اليهود الذين كانوا بيثرب أسياداً وأن كل من جاورهم من العرب فهم أذلة صاغرين، لذا فقد وجد هؤلاء النفر من عرب يثرب الخلاص من هذه الدونية بواسطة النبي العربي هذا، وهم الذين ألفوا الحياة الدينية المبنية على التوحيد في يثرب بجوار هؤلاء اليهود ، لذا قبلوا دعوة محمد ﷺ دون أي قيد أو شرط، فتقول:"**عندما قدّم محمد نفسه إلى حجاج يثرب الستّة خلال الحج عام** 620... **وأما رسالة**

---

(1) السهيلي: الروض الأنف، ج4 ص17.

(2) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص74.

(3) وللمزيد حول هذا الموضوع وتوضيحه ينظر: السهيلي: الروض الأنف، ج3 ص120-160.

التوحيد التي يدعو إليها محمد فما كان لهم أن تؤرقهم إذ كانوا قد عاشوا فترة طويلة إلى جانب اليهود وتآلفوا مع وجود فكرة إله واحد فقط... كانوا يشعرون بدونية أمام اليهود لأنهم لا يملكون كتاباً مقدّساً خاصاً بهم... لذلك شعروا بالنشوة لدعوة محمد: نبي مرسل للعرب ويُحضِر لهم قرآناً عربياً؛ أسلموا حالاً وانطلقوا باتجاه يثرب وبين جنوبهم آمال عراض"[1].

قد تُعمي الحقيقة الساطعة الأبصار من أن تراها أو أن تتبلّد معها الأذهان فتغيب عن مدارك الأفهام أكناهُها، وذلك ما وقع لكارين وهي تتحدّث عن النجاح الذي تحقّق على يد الرسول ﷺ في تبليغه لدعوة ربه متفجّعة على حوادث تاريخية كانت وانتهت والمتسبب فيها الإنسان، حين ذكرت اليهود وإجلاء الرسول ﷺ لهم من المدينة المنورة.

فبشعور منها مليء بالحقد أو من دون شعور تتأوّه على ذلك الخروج وتوعز في كلامها المحشو بالغمز على أساس أنهم كانوا مظلومين وأن قرار الطرد كان تعسُّفاً في حقهم قائلة:"**إن الصراع من أجل تجسيد كلمة الله في مجتمع إنساني أخذ المسلمين إلى حدود احتمالهم وفهمهم، وقد بلغوا أحياناً حد اليأس وأوشكوا عن التخلي عن محمد كلياً**[2]**، إلا أن نجاحه قد أثبت بلا**

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص168. وهو في أصله كالتالي:

« When Muhammad presented him self to the six pilgrims from Yathrib during the hajj of 620 … They **were not shocked by his monotheistic message**. They **had lived for so long beside the Jews** that they were used to the idea that there was only one God … For a very long time they had felt **inferior to the Jews** because they had **no scriptures of their own** … So they thrilled to Muhammad's claim that **he was a prophet for the Arabs** and had **brought them an Arabic Qu'ran**. They made their surrender to God at once, with great hopes for Yathrib". Karen Armstrong: Muhammad a biography of the prophet, p:144.

(2) تنقل كارين هذ الكلام إما بوعي منها أو من دون وعي-ولا نظن ذلك- دون أن تشير إليه وهو من كلام عروة بن مسعود الثقفي حليف قريش في صلح الحديبية، والذي أثار شجون المسلمين يومها بما يقوله ويردِّده حتى ردّ عليه أبوبكر رضي الله عنه رداً أفحمه وأقعده، جاء فيه:" قال يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا **وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك**

جدال أنه أفضل مدافع عن سياساته الغريبة المثيرة للجدل، فعندما اتخذ قرار القتال في بدر وطرد أو ذبح القبائل اليهودية، أو عقد معاهدة الحديبية لم يكن ملهماً مباشرة من الله بل كان عليه أن يطلب المساعدة والنصيحة وأن يستخدم فطنته الأصلية"[1].

وآخر مثال في بيان منهج النفي والافتراض واعتماد السقط والشاذ لدى أرمسترونغ هي تلك الأقاصيص التي جمعت خيوطها المشتتة والتي نسجتها حول الأيام الأخيرة من حياته وكذا لحظات وفاته ﷺ وما صاحب كل ذلك من أحداث.

تصف أيامه الأخيرة من عامه الذي لحق به ﷺ بالرفيق الأعلى فتقول:"**لكنه في عام 631 كان قد أصبح عجوزاً وبدأت صحته تتراجع**"[2]؛ وفي موقف آخر تقول:" **وعندما اشتد عليه المرض**

غدا. قال **وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد فقال: امصص بظر اللات، أنحن نتكشف عنه؟**". السهيلي: الروض الأنف، ج7 ص60.

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص293. والنص في أصله هو:

« The struggle to incarnate the Word of God in human society had also taken Muslims to the limits of their endurance and perception, so that they had sometimes **been on the brink of despair** and sometimes on the point of **abandoning Muhammad** altogether. But his success proved to be the best argument for his **extraordinary and controversial policies**. When Muhammad had made the decision to **fight at Badr**, to expel or massacre the **Jewish tribes** or to make the treaty at Hudaybiyah, **he had not been inspired directly by God but had had to ask for help and advice and use his own native wit**". Ibid, p 250.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص292. ورواية وجعه الذي قبض فيه ﷺ تكذِب مثل هذا القول فقد روى:" أبو مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال "يا أبا مويهبة أني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي"، فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال "السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى"، ثم أقبل علي، فقال "يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة". قال فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة قال:"لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة"، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه". السهيلي: المرجع السابق، ج7 ص557-558.

طلب من أبي بكر أن يؤم الصلاة بدلاً منه ويبدو أن عائشة قد قاومت هذ القرار، كان على محمد أن يتحدّث إليها بحدّة كي يحملها على طاعته"[1].

وعن موقف أمنا عائشة حين وفاة رسول الله ﷺ ترسم كارين صورة قلمية مشبهة إيّاها بتلك النسوة النادبات اللاتي يكترينهن أصحاب الفواجع والكُرب لندب الفقيد فتقول وهي كلها ازدراء وانتقاص:" **ثم اكتشفت أنه توفي فوضعت رأسه على الوسادة وبدأت تضرب صدرها وتصفع وجهها وأخذت تندب وتولول"**[2].

(1) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص300. والحادثة في كتب السيرة:" قال الزهري: وحدثني حمزة بن عبد الله بن عمر، أن عائشة قالت:لما استعز برسول الله ﷺ قال "مروا أبا بكر فليصل بالناس" قالت قلت: يا نبي الله إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن قال "مروه فليصل بالناس". قالت فعدت بمثل قولي، فقال: خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح فرفع الستر وفتح الباب فخرج رسول الله ﷺ فقام على باب عائشة فكاد المسلمون يفتتنون في صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه فرحا به وتفرجوا فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم قال فتبسم رسول الله ﷺ سرورا لما رأي من هيئتهم في صلاتهم وما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئة منه تلك الساعة قال: ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفرق من وجعه فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح". السهيلي: المرجع السابق، ج7 ص574-575.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص300. وقد ورد حديث وفاته ﷺ في السيرة:" سمعت عائشة تقول مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري وفي دولتي، لم أظلم فيه أحدا، فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجـــري، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي". السهيلي: المرجع السابق، ج7 ص 583-584.

منهج البناء والهدم:

وهو منهج حاصل كنتيجة حتمية من المنهج الذي سبقه، فيقوم فيه المستشرق بهدم كل حقيقة أو طمسها أو تشويهها على الأقل ثم يأتي بفرضيات لا أساس لها ويبني عليها أحكاماً فتصير بعد فترة حقيقة علمية متداولة عند المدرسة الإستشراقية وفي مناهجها الغربية.

تتحدّث كارين عن بداية الوحي وكيف كان المؤمنون الأوائل يتعاملون معه والكيفية التي كان النبي ﷺ يلقّنهم بها إياه، وهم في ذلك جماعة صغيرة كالحواريين مع عيسى عليه السلام وكلهم حماسة وتعاطف؛ ثم بعدها تنسف كارين هدماً كل الذي ذكرته بأن تجعل من الفئة المؤمنة تؤمن مقتنعة بأن محمدَ ﷺ إنما هو نبي العرب وحدهم لا غير فتقول:" **بدأ محمد (ﷺ) التحدّث عن الوحي لمجموعة صغيرة من أصدقائه وأقربائه المقرّبين، الذي أصبحوا حواريين متعاطفين ومتحمِّسين، مقتنعين أنّه نبي العرب الذي طال انتظاره**"[1].

وغير بعيد من هذه الصورة الهدمية التي أتت عليها كارين بأن جعلت من الدين الإسلامي ديناً قومياً خاصاً بالعرب دون غيرهم من العالمين وهي التي تعلم أفضل من غيرها من المستشرقين أن ذلك منافٍ للحقيقة التاريخية ومناقض لِما هو مكتوب كإشارات وتلميحات في الكتاب المقدّس وفي غيره عندهم، بأن تجعل من القرآن الكريم والاستماع إليه في جوٍ من الخشوع والتدبّر هو طقس من طقوس التأمّلات الروحية والتقاليد الموجودة والمتوارثة.

فهذه العملية لا تختلف عن تلك التي يقوم فيها ممارسو رياضة اليوجا بحبس أنفاسهم ويستشعرون بنشوة الراحة والأمل والانفراج أو كتلك الأنغام الموسيقية التي تجلب الراحة لعازفها أو مستمعها ونسيت أو تناست أن ذلك مثبت بأمر إلهي[2] لا دخل للبشر ولا لهرطقات اليوجا أو أنغام الموسيقى فتقول:" **ضبط الأنفاس ممارسة مهمّة في كل تقاليد التأمّل، وجد ممارسو اليوجا أن ذلك يجلب شعورا بالانفراج، يمكن مقارنته بما تجلبه الموسيقى لعازفها؛ يقرأ مرتلو القرآن**

---

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص49.

(2) يقول تعالى في حق القارئ للقرآن:﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾[المزمل:4]، وفي حق المستمع أو المستمعين للقرآن قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:206].

كلماته في زفير بطيء طويل، وعندما يتوقّفون لالتقاط النّفس يتركون صمتاً للتدبّر والتأمّل، من الطبيعي أن يضبط المستمعون أنفاسهم كذلك، ويجدوا في ذلك تأثيراً مهدِّئاً شافياً"[1].

والهجرة[2] في مخيِّلة كارين ما هي إلا مشروع من المشاريع الإقتصادية الكبرى أو حتى السياسية والتي أراد من ورائها المهاجرون العرب ومسؤول المشروع محمد ﷺ أن تكون خطة لفتح طريق إقتصادي جديد، إلا أن هذه الخطة قد باءت بالفشل وأهملها المؤرخون العرب تواطئاً مع محمد ﷺ، بعد أن أسهبت قبل ذلك في الكلام عن الحرية الدينية التي نَعِم بها المسلمون في جوار النّجاشي وأنّهم صاروا قادرين على ممارسة شعائرهم طالما اختاروا البقاء في الحبشة، فتقول مدّعية:"**إن قصة المشروع الحبشي كما وصلتنا غير مكتملة، فلربما كانت لدى محمد خطة إقتصادية أو سياسية لم تلق النجاح، وعندما بدأ مؤرخون مثل ابن إسحاق بالكتابة كانت يد النِّسيان قد طوت هذه الخطط**"[3].

تتحدّث كارين عن رحلتي الإسراء والمعراج بشيء من الإعجاب، وكيف لعبت تلك التجربة الدينية الدور البارز في حياة الأمة الإسلامية، ودورها البارز كذلك في تجسيد الورحانية في الإسلام، ولتلك الأهمية وذلك الدور فإن المسلمين يحتفلون بها من كل سنة قمرية في 27 من رجب.

لكن ذلك الإعجاب سرعان ما تنهار صورته تحت أنقاض المنهج الهدمي، ليتحوّل إلى شيء من العَجَب والتعجُب، فمحمد ﷺ في ذلك قد بلغ الحد الأقصى للمعرفة البشرية كما في التراث

---

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص54.

(2) في القليل من الأحيان ما تسلم الذهنية الإستشراقية من لوثة الإستشراق الحاقد على الإسلام عامة حين معالجة تاريخه ومهما كان مقام المستشرق إلا إذا أراد حقيقة البحث بنزاهة تامة وبمنهجية علمية صرفة وهذا لا ولن يكون وإلا لأصبح حينها مسلماً باطناً وظاهراً، وحقائق وقائع السيرة بيِّنة واضحة، وما خرج المهاجرون إلى الحبشة إلا بأمر من رسول الله ﷺ بعد أن رأى ما هم فيه من البلاء، وبعد أن خيّر المهاجرين وبيّن لهم أن بها ملكا عادلا ولا يظلم عنده أحد:" قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء. قال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه".السهيلي: الروض الأنف، ج3 ص120.

(3) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص142.

الهندوسي، فقد فسّرت كلمة سدرة في قوله تعالى:﴿ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾[النجم:14]، بأن:"**شجرة السدرة هنا ترمز على الحد الأقصى للمعرفة البشرية كما في التراث الهندوسي**"[1]؛ وهذه الرحلة ما هي إلا تجربة صوفية مشتركة بين جميع التراثات الصوفية الرئيسة، وقد عاشت مثل هذه التجربة"بيربيتوا **Perpetua الشهيدة المسيحية التي توفيت في قرطاج أثناء اضطهاد سيفيروس للمسيحيين في عام 203م**"[2].

هذه الشهيدة المسيحية التي رأت رؤيا نهايتها وهي الموت، إلا أن محمدَ ﷺ يختلف عنها فقط في أنّه ما كان في طريقه إلى الموت بل كان على وشك البدء بجانب جديد من رسالته:" **فعرفت على الفور أنها ستموت... وأنها كانت تعد نفسها لا من أجل العبور إلى حياة أبدية فحسب بل من أجل الشهادة التي كانت تعد التجربة الدينية النهائية في المسيحية الأولى؛ لكن محمداً لم يكن في طريقه إلى الموت إنما كان على وشك البدء بجانب جديد من رسالته التي كانت تتطلب انقطاعاً عن الماضي... فهو لم يتناول اللبن مثل بيربيتوا من الراعي الطيب بل من أنبياء الماضي العظام الذين سبقوه في رؤيا تعبر عن إحساسه بالاستمرارية مع الإيحاءات القديمة**"[3].

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص163. ولولا اللوثة الإستشراقية والمكر والحقد الدفين المتجذّر في أعماق النّفس الناشء من المحيط الإستشراقي لرجعت كارين إلى كتب التفسير والسيرة والحديث لأغنتها عن مثل هذا التخريج الذي لا ينم إلا عن ماضيها الكنسي والذي تبرأت منه والذي مازالت تأثيراته تنتابها حيناً بعد حين وعن منهجها الهدمي المعوج. فقد روى غير واحد من المفسرين عن ابن مسعود قال:" لما أسري برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها". وعن غيره قوله:""والسدرة" شجرة النبق، وقيل لها: سدرة المنتهى لأنه إليها ينتهي علم الخلق، قال هلال بن يساف: سأل ابن عباس كعبًا عن سدرة المنتهى وأنا حاضر، فقال كعب: إنها سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش وإليها ينتهي علم الخلائق، وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله". البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود (ت 516هـ): معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع المدينة المنورة، ط4، 1417 هـ/1997م، ج7 ص 405.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص165.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص164-166. ما كان إسراؤه ولا معراجه ﷺ رؤيا بل حقيقة، وما أعطاه الأنبياء عليهم السلام اللبن بل ناوله إيّاه جبريل عليه السلام:"عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: أتيت بالبراق (وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه) قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل ﷺ اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء". رواه الإمام مسلم، ج1 ص145.

وتستمر كارين في معالجتها لبعض حوادث السيرة مستعملة منهجها البنائي الهدمي حين تصف الحياة الإجتماعية للرسول ﷺ في بيته ومع أهله وذريته، فترسم له بمنهجها البنائي صورة مثالية للعطف الأبوي وخفض الجناح والحب والمودّة السائدة في بيت النبوة بشيء من الصدق والحقيقة، قائلة:" **كانت فاطمة هي البنت الوحيدة من خديجة التي بقيت على قيد الحياة، كان محمد يحب حباً شديداً ولدي علي الحسن والحسين، فكان يلاعبهما ويدعهما يصعدان على ظهره**"[1].

ثم تأتي على هذه الصورة المثالية عالية المقام حتى تنزل محمدَ ﷺ وأهله معه المقامات الوضيعة بمنهجها الهدمي، **حين تصف مارية القبطية**[2] رضي الله عنها **بالخليلة**، على ما هو شائع ومسموح به في قانون وشرائع الغرب، ثم تلك **الكراهية المتبدِّية** من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لإبنه ﷺ إبراهيم **غيرةً وحسداً** حين كان يخرج به للنزهة والفسحة بالمدينة على شكل الفسحة والسير في زماننا هذا، وحاشا أن يكون في بيت النبوة من ذلك شيء، بل هي وساوس المنهج الغربي وموازينه المعوجّة حين التقويم، فتقول:" **كان لدى محمد إبن رضيع جديد من خليلته مارية المصرية، إبراهيم الذي كان يحمله ويدور به في أنحاء المدينة، لكن عائشة لم تبد مودّة إزاءه، وحين كان محمد يسألها ألا تعتقدين أنّه يشبهني؟ كانت تجيبه: لا أرى فيه شبهاً منك**"[3].

والحج في منهج البناء لدى كارين هو تلك الشعيرة التعبدية التي يقوم بها كل مسلم قادر ولو مرة في العمر، هذه الشعيرة التي ما زالت قادرة على إلهام مشاعر المسلم الدينية مهما كانت لغته وجنسه، وشحذ جوانح حياته الروحية سواء كان فرداً أم عضواً من جماعة جاء كل ذلك في

---

(1) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص295.

(2) مارية القبطية(...-16هـ/...-637م) مارية بنت شمعون القبطية، أم إبراهيم من سراري النبي ﷺ مصرية الأصل، بيضاء. ولدت في قرية "حفن" من كورة "أنصنا" بمصر، وأهداها المقوقس القبطي (صاحب الاسكندرية ومصر) سنة 7هـ إلى النبي ﷺ هي وأخت لها تدعى"سيرين" فولدت له "إبراهيم" فقال: أعتقها ولدها. وأهدى أختها سيرين إلى حسان بن ثابت- الشاعر- فولدت له عبد الرحمن بن حسان. قال ياقوت: إن الحسن بن علي لما علم أن مارية من قرية حفن كلم معاوية فوضع عن أهل القرية خراج أرضهم. ولما توفي النبي ﷺ تولى الانفاق عليها أبو بكر ثم عمر. وماتت في خلافة عمر بالمدينة، فرؤي وهو يحشد الناس بنفسه لحضور جنازتها ودفنت بالبقيع. وإليها تنسب "مشربة أم إبراهيم" في العالية-بالمدينة-وكان أول نزولها فيها. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج5 ص255.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص295.

قولها:" **ينبغي على كل مسلم قادر القيام بالحج مرة في العمر وقد تبدو هذه الشعائر لشخص من الخارج غريبة شاذة–تماماً مثلما تبدو أية طقوس دينية أو اجتماعية أخرى– لكنّها ما زالت قادرة على إلهام تجربة دينية مركّزة، وغالباً ما يجد المسلمون الحج ذروة حياتهم الروحية سواء كانوا أفراداً أم أعضاء في الأمة**"[1].

فما أجمل هذا الوصف وما أحلى هذا الكلام المنبثق من الحقيقة والصدق في تتبع المنهج العلمي القويم.

والسؤال الذي يجب دائماً ألاّ يُنسى بعد كل مدح أو قول حقيقة تاريخية ثابتة من قِبَل أي مستشرق هو هل بقت تلك الحقيقة النّاصعة البيِّنة كما هي في أصلها لم تَشُبها أية شائبة و لم يعترها الطمس والنفي بعد ذلك أو على أقل تقدير الضبابية وظِلاَل الشك؟

والجواب لا يحتاج إلى عقل حَصِيف ولا إلى فكر عالِم، فإذا لم يستطع المستشرق من طمس الحقيقة فأقل إيمان المنهج الهدمي عنده أن يُلقي بظلال الشك ويجعل من ضبابية صورة الحقيقة هدفاً لايحيد عنه، وذلك ما وقع لكارين أرمسترونغ حيث تقول:" **في أيامنا هذه يجتمع الآلاف من الحجاج كل سنة في مكة وقسم منهم ليسوا عرباً... ومع دورانهم حول الكعبة بلباس الإحرام التراثي الذي يزيل كل الفوارق العرقية والطبقية**"[2].

توفي النبي محمد ﷺ وكم كانت الصدمة قوية حتى على أقرب النّاس إليه ﷺ وأفهم النّاس لدين الله، لأنّه كان يمثل همزة الوصل بين السماء والأرض، وحتى لحظة وفاته ﷺ كان هو الموجِّه لكل خطوة من خطوات الأمة وسياساتها، فهذا هو المشهد البنائي في تصور كارين لموت النبي ﷺ ولحظاته الأولى مع ردات الفعل الأولى من قبل الأمة وأفرادها فتقول:"**كانت الصدمة التي أحدثتها وفاة محمد أخطر أزمة تلم بالجماعة الإسلامية، وعليها أن تواجهها، فحتى هذه اللحظة كان محمد يوجِّه كل خطوة من خطواتهم، فهل يا ترى سيستمرون بدونه؟ وهل كان متصوّراً أنهم سيستمرون؟**"[3].

---

(1) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص296.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص302.

بعد هذا المشهد المقارب للحقيقة التاريخية يأتي المنهج المنافي لكل الحقائق معتمداً على معاول الهدم الغربية وأسلحته الناسفة للحقيقة التشكيكية والكاذبة في بعض الأحيان، فتخرج الحدث التاريخي عن مساره وتعطيه من الأبعاد التخمينية والافتراضات ما يجعله يتنافى والحقيقة ذاتها بما كانت عليه في ذلك الزمان والمحدودة بحدود المكان فتقول:" **فتساءل بعض المسلمين الملتزمين هل موت محمد يعني نهاية المشروع المحمدي**[1]**، وانقسم الذين أرادوا تعيين خليفة إلى معسكرات متنافسة**[2]**، وربما أن ذلك كان يعكس الانقسامات في الجماعة الإسلامية التي أقلقت محمداً في سنواته الأخيرة**"[3].

وآخر مثال في منهج البناء والهدم لدى كارين أرمسترونغ، هو حديثها عن الإسلام كشريعة وكيف استطاعت شريعة الإسلام بمبادئها السمحة أن ترقى بالمجتمع إلى التكامل وكيف استطاع بعد ذلك علماء وفقهاء الإسلام أن يستنبطوا الأحكام الشرعية ويكيّفوها بما يتلاءم وواقع المجتمع، وبخاصة تلك المتعلّقة بشعيرة الجهاد وكيف أنزلوا أحكامه على واقع النّاس فيه، فتقول:" **لم يكن الإسلام قوّة تقسيمية مهدِّدة بل أثبت أنه قادر على تكامل المجتمع، لقد طوّر الفقهاء المسلمون**

---

(1) تقصد كارين أرمسترونغ بكلامها هذا عمر بن الخطاب ﷺ وما شك عمر في استمرار الإسلام ودعوته كما هو التوهّم، والواقعة التاريخية في ذلك هي كما ترويها كتب السيرة:" عن أبي هريرة قال لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب، فقال إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي وإن رسول الله ﷺ ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات". السهيلي: الروض الأنف، ج7 ص 582.

(2) ما انقسم الصحابة رضي الله عنهم إلى معسكرات ولا إلى تكتّلات، بل اجتهد أهل الاجتهاد منهم واختلفت آراؤهم فيما أوصلتهم اجتهاداتهم ثم أجمعوا بعد ذلك على الصدِّيق ﷺ:" قال ابن إسحاق: ولما قبض رسول الله ﷺ انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل فأتى آت إلى أبي بكر وعمر فقال إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم ورسول الله ﷺ في بيته لم يفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله، قال عمر فقلت لأبي بكر انطلق بنا إلى **إخواننا هؤلاء من الأنصار**، حتى ننظر ما هم عليه". السهيلي: الروض الأنف، ج7 ص587.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

لاهوت الجهاد بما يتلاءم مع الظروف الجديدة، فدعوا إلى توحيد العالم في شكل حكم واحد"[1].

فبعد تأكيد هذه الحقيقة التاريخية والتي لا مراء فيها، تتدخل اللوثة الفكرية الإستشراقية وتستعلي على الفكر كله فتحجب معها الحقيقة فتطمسها، فيصبح الإسلام ذو القوّة الجامعة والقادرة على بلوغ التكامل بالمجتمع، صاحب القوة الجانِحة والمفرِّقة للعالم ويصبح الإسلام مصدر إزعاج ونواة الصراع في الأرض متخذاً في ذلك ذريعة تبليغ إرادة الله ولو كانت بالإجبار والقهر والقوة وهذا قولها:" **وكان واجب المسلمين الانخراط في صراع مستمر لجعل العالم يقبل بالمبادئ الإلهية وخلق مجتمع عادل، فالأمة دار الإسلام–كانت المنطقة التي فرضت فيها إرادة الله–أما بقية العالم فكانت دار حرب، أي المنطقة الدنيوية التي يجب أن تجبر على الاستسلام لحكم الله، فحتى يتم تحقيق هذا الهدف يجب أن ينخرط الإسلام في سعي أبدي لِما يشبه الحرب**"[2].

(1) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص305.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

الباب الثالث: كارين أرمسترونغ وكتاباتها في السيرة النبوية في الميزان.

الفصل الثالث: مفترق الطرق بين أرمسترونغ وبين المدرسة الإستشراقية الإنجليزية المعاصرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثالث: كارين أرمسترونغ وكتاباتها في السيرة النبوية في الميزان.

الفصل الثالث: مفترق الطرق بين أرمسترونغ وبين المدرسة الإستشراقية الإنجليزية المعاصرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدّمة:

إذا كان الواحد من بني الإنسان تعجبه بعض المواقف البشرية فيثني عليها وتزدهي نفسه لرؤيتها أو السماع عنها أو الحديث عنها وفيها، ويرى غيرها من المواقف المشينة فتعافها نفسه السوية، ويقع مثل هذا لكل إنسان فيه شيء من بقية الفطرة البشرية، فكيف بالذي له علم ولو بالنزر القليل من شرائع وديانة السماء حتى ولو مسّتها يد التحريف والتزييف؟ ثم كيف بالذي عنده من ديانة السماء شرعة واضحة غرّاء لم ولن تمسّها التغيّرات على مدى الدّهور والعصور لأن الذي خلق الخلق تكفّل بحفظها مصداقاً لقوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:9]؟

فيصبح في ذمة من يعرف هذا دَيْناً أن يقول لمن أحسن أحسنت ولمن أساء أسأت، وهو المخاطَبُ بنفس الوحي بأن يكون عادلاً في القول ومثله في الفعل، مصداقا لقوله تعالى:﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الأنعام:152]، فمن باب الإنصاف إذن أن نقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، والعدل يحكم القريب والبعيد والصديق والعدو؛ وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المائدة:8].

ولن يعدو الواحد منا إلا أن يكون عادلاً في قوله وفعله وشهادته على الآخرين حتى ولو كانوا من أكبر شانئيه، والمستشرقون في تعاملهم مع تاريخنا وإسلامنا هم كذلك، إلا من قال منهم الحقيقة أو قارب، لذا فشهادتنا عليهم تكون بالحق والعدل والمنهج العلمي وضوابطه، فمثلما كانت لهم مثالب فلهم محاسن، ومثل ما كانت لهم عورات مفضوحة في فكرهم وقد أتينا على ذِكرها أوذكر بعضها والتنبيه عليها لهم مواقف حميدة تستحِقُّ الذِكر والتنويه، وقد كانت لكارين أرمسترونغ مثالب وقفنا على أكثرها، ولها كذلك مواقف مفصلية شكلت في فكرها مفترق طرق

بينها وبين المدرسة الإستشراقية الغربية عموماً، وبينها وبين المدرسة الإستشراقية الإنجليزية التي تنتمي إليها على وجه الخصوص، في كتاباتها عن السيرة النبوية وهذا بيان بعض ذلك.

المبحث الأول: كارين والإسلام عامة.

حين تنقشع سحابات اللوثة الفكرية الإستشراقية الغربية عن الفكر الغربي ويتحرّر من قيودها، تتنوّر بصائر أصحابه فينظرون إلى الآخر نظرة تُقَارب الإعتدال والحقيقة، من ذلك ما كان مع كارين أرمسترونغ حين كتبت عن الإسلام عامة فكانت أحكامها ووقائع سردها عنه أقرب ما تكون من الواقع والمماثلة إن لم تكن هي كذلك.

تقر كارين أن الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ ما هو إلا استمرار لدين إبراهيم عليه السلام والذي يشارك ما كان قبله من يهودية ومسيحية، فهو الدين الثالث:" **فالناس الذين بدأوا يجدون إلهاماً في الزينية أو التاوية نجدهم غير متلهفين عادة لتلطيف نظرتهم إلى الإسلام، مع أنه الدين الثالث لإبراهيم والأكثر انسجاماً مع تراثنا المسيحي اليهودي**"[1].

ثم إن الذين قصروا نظرتهم ووجّهوا سموم أفكارهم حول الإسلام وإليه كان يحكمهم في ذلك جهلهم به مع ما ورثوا من حقد أعمى كان ولا يزال هو الموجّه مع المعرفة الضئيلة والضحلة عنه فتقول:" **إن الحقد القديم على الإسلام ما زال مستمراً في تصاعده على جانبي الأطلنطي ونادراً ما يتردّد الناس في التهجّم على هذا الدين وإن تكن معرفتهم له ضحلة**"[2].

وبعدها تثني بقول مشابه لما سبق ذكره جاء فيه أن:"**معظم الغربيين لا يعرفون ما يكفي عن التراث الإسلامي كي يقدّروا أهمية هذا الضغط الجديد ويضعوه ضمن منظور صحيح**"[3].

وعلى هذا الأساس فقد شكّل الإسلام تحدّياً كبيراً للغرب، رغم ظهور العديد من الأفكار والعقائد والإيديولوجيات المختلفة في العالم قديماً وحديثاً:" **إنه لمن السهل على المتتبع فهم**

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص13.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص15.

السبب الكامن وراء هذا العداء، حتى ظهور الاتحاد السوفيتي في قرننا لم يسبق أن شكّلت أية دولة أو إيديولوجيا تحدّياً مستمراً للغرب مثل التحدّي الذي شكّله الإسلام"[1].

وهذا أحد أسباب العداء ثم سبب ثاني وهو القوة الكامنة داخل الإسلام والميكانيزمات المكوِّنة له والمساعدة على النهوض والتجديد من جديد كلّما دعت الحاجة إلى ذلك:"**ولم تستطع أوروبا حتى بعد أن أسّست حضارتها العظيمة من أن تحدث تأثيراً على هذه الثقافة الديناميكية المقتدرة للإسلام"**[2].

وسبب ثالث في تعزيز هذا العداء ضد الإسلام وتأجيج مشاعر الكره والحقد ضده تلك الحملة المسعورة التي تقودها وسائل الإعلام الغربية والتي كانت ولازالت أحد بوابات الفتنة الكبرى والتي كان لها الدور الأعظم في تشويه وترويج الصورة والفكر المغلوطين عن الإسلام:"**ومن المؤسف أن وسائل الإعلام والصحافة الشعبية في الغرب لا تقدّم لنا دوماً العون الذي نحتاجه... وهكذا يبدو أن الصحافة تحرِّك فينا أحياناً نوازع تعصّبنا التقليدية القديمة"**[3].

ودليل رابع على تلك الكراهية الغربية المتأصِّلة في الذاكرة الجماعية لهم للإسلام وأهله هي تلك الصورة النمطية الناتجة عن الافتراضات والتخمينات لا الواقع، ولذلك وجب استحالة مثل تلك الأحكام مثاله في ذلك مثل استحالة تلك الأحكام على المسيحية في الغرب فتقول:"**فإصدار تعميمات عن الإسلام أمر محال مثل استحالة ذلك عن المسيحية لأن في كليهما مجالاً واسعاً من الأفكار والمُثل"**[4].

وتعطي كارين سبباً خامساً يمكن اعتباره كمسوِّغ للجور في الأحكام على الإسلام وذلك من خلال واقع المسلمين المنحط، ومن خلال فساد بعض أنماط الحكم في بعض البلاد الإسلامية وكذا بعض الممارسات الشاذة لبعض الفئات الإجتماعية، غير أن الإسلام، في ذلك براء:"**كثيرون يشعرون أن المجتمع الإسلامي في حالته الراهنة يقدِّم مسوِّغاً لنظرتنا النمطية الأحادية له، فالحياة**

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب ، ص15.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق ، ص13.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص15.

(4) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص16.

فيه تبدو رخيصة، والحكومات فاسدة أحياناً أو طاغية، والنساء مضطهدات ولهذا ليس غريباً أن يوجه الناس اللوم في ذلك إلى الإسلام"[1].

وبعد أن وضعت كارين نفسها موضع المحامي والمدافع عن الإسلام رداً للشبه الغربية تقرُّ بعدها أن للإسلام وفي الإسلام مميِّزات لا يمكن أن تكون في غيره من الشرائع والأديان، ولذا فهي تدعو قومها ومن ورائهم المستشرقين والأكاديميين إلى التعقّل حين إصدار الأحكام على الإسلام:" **لذا فإنه حكم غير دقيق وجائر أن نضع الإسلام في مجال غير مقدّس خاص به أو أن نفترض أن تأثيره كان سلباً، لأن ذلك يعتبر خيانة للتسامح والرحمة اللتين–كما يفترض– تميزان المجتمع الغربي**"[2].

ومن ذلك ما تميّز به من حركية مستمرة وديناميكية قارة ومنتظمة، وبرغم التقاءه مع بعض الشرائع في بعض القواسم المشتركة فإن له خصوصية مميّزة:" **فالإسلام – في حقيقة الأمر– يشارك اليهودية والمسيحية في كثير من المُثل والرؤى التي كانت تمدّهما بالإلهام، وبالتالي فقد ساعد الإسلام النّاس على تنمية قيم يشترك فيها مع ثقافتنا نحن**"[3].

ورغم هذا الإلتقاء مع غيره من الشرائع فقد فاقهم وتميّز عليهم، بأن كانت له نظريته الخاصة ببعض الأصول الإيمانية ومن ذلك نظرة الإسلام إلى أصل التوحيد وتنزيه الذات العلية عن الشرك والشبيه:" **حقاً إن التفسير الإسلامي للدين الوحداني تتجلى فيه عبقرية خاصة به ولديه أشياء كثيرة هامة يعلّمنا إياها**"[4].

وممَّ تميّز به الإسلام عن غيره كذلك من الشرائع السابقة وبقية الأفكار والإيديلوجيات الوضعية قدرته على التعايش مع الآخر مهما كانت صفته ومهما كان معتقده ووجهته واتجاهه في الحياة، وهذه سمة خاصة به لا لغيره:" **وفي عهد لويس التاسع هذا كان الغرب المسيحي، هو**

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص16.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص17.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(4) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

وحده من يرى أن من المحال التعايش مع الآخرين، بينما لم يكن الإسلام يؤمن بوجهة النظر هذه"[1].

كانت هذه زبدة مجموع أفكار كارين حول الإسلام جعلتها في صفحات كتابها الأولى وهي في ذلك صادقة إلى حد بعيد وموقنة بذلك يقيناً لا شوبة فيه.

إلا أنها لّما بدأت في تحليل أفكارها ونشرها في ثنايا الكتاب ما استطاعت أن تتنصّل من موروثها الثقافي والديني اللذين تلقتهما منذ لحظات حياتها الأولى، وقد جئنا على الكثير من تلك الأفكار المشبوهة حيناً والمسمومة حيناً آخر بالتوضيح والشرح والرد فيما سبق من البحث.

وتختم كارين ملاحظاتها وبياناتها حول الإسلام مبيِّنة أثره في نفسها لما وجدت فيه من التوافق النفسي والفكري وما ليس فيه من المتناقضات عكس غيره من الشرائع السماوية الأخرى المحرّفة الغربية فتقول:" **فمنذ أن استحوذ الإسلام على اهتمامي أصبح إدراكي لهذه الحقيقة يتزايد يوماً بعد آخر، بينما كنت جاهلة له تماماً قبل بضع سنوات خلت، لقد تبيّن لي أن الإسلام يشكل تراثاً باستطاعته التحدّث إليَّ... شكّل هذا تحدِّياً لكل شيء كنت أتبناه بدهياً عن الإسلام"**[2].

هذا الإدراك العميق لما في الإسلام من خصائص ومميّزات ثم التوافق النفسي والعقلي جعل كارين تنطق بالحقيقة الثابتة في الغرب كله عند الكثيرين من أبناءه فتقول:"**لم أعد مؤمنة بالمسيحية أو ممارسة لشعائرها ولم أعد أنتمي رسمياً إلى أي دين آخر، لكنّني أخذت أراجع أفكاري عن الإسلام وفي الوقت نفسه رحت أعيد النظر في التجربة الدينية ذاتها**"[3].

ولعلّ الخوف من المحيط هو الذي جعل جذوة النور والحقيقة تخبو إن لم تقتلها وتجعل من حامليها ينزوون في زوايا من ذواتهم ويعيشون على هامش الحياة، وقد صدق اللورد هيدلي حين وصف هذه الحالة في الغرب،فقال:" **إني أعتقد أنه يوجد ألوف من الرجال والنساء الذين يدينون**

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص22.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص17.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

بالإسلام في قلوبهم، ولكن مخالفة الإجماع وخوف الانتقاد العدائي والرغبة في اجتناب كل ضيق أوتغيير يحملهم على عدم الجهر بما في قلوبهم، قد سلكت الآن نفس هذا المسلك"[1].

المبحث الثاني: كارين والوحي (القرآن الكريم).

تتحدّث كارين أرمسترونغ عن الوحي والقرآن الكريم من غير تأثير المحيط أو تجاذب اللوثة الفكرية الإستشراقية بشيء من الإشراق النفسي والتوازن الروحي بما يحكمهما من ضوابط علمية ومنهجية على أساس أنه الروح الذي كان من بداية الخليقة، حين خلق الله آدم عليه السلام وقال لملائكة قدسه إني جاعل في الأرض خليفة.

فأصل الوحي واحد ومنبعه النور الإلهي وإن اختلفت صفات نزوله على الأنبياء عليهم السلام بما يتلاءم وحياة البشر على وجه البسيطة، فلم يكن ذلك الاتصال النوراني على جبل حراء إلا تتمة وختاماً لما كان من قبل، فتقول:" **لم يكن هناك جديد حول الوحي على جبل حراء، فهذا كان ببساطة الدين القديم لله الذي أوحاه مرة تلو مرة، وهو الدين الذي عُهد به إلى محمد... فدين الله الذي بدأ محمد يدعو إليه لم يبدأ على جبل حراء، بل بدأ في يوم الخلق. لقد جعل الله آدم خليفة له أو وكيلاً له على الأرض، ومن ثمّ أرسل نبياً تلو آخر إلى كل أمة على وجه الأرض**"[2].

ثم تسترسل في وصف الوحي الإلهي على أنه رسالة واحدة وإن اختلف حاملوها من الرسل، لأن الأساس فيها التسليم المطلق لله، فتقول:" **لقد كانت الرسالة هي ذاتها وبالتالي كانت جميع الأديان واحدة في أساسها**"[3].

ودليلها في ذلك الوحي الختامي الذي نزل على محمد ﷺ إذ أن القرآن لم يلغ الوحي السابق له لكل الأنبياء عليهم السلام بل جاء مكمِّلاً لرسائلهم:" **لم يدعُ القرآن أبداً إلى إلغاء الإيحاءات**

---

(1)محمد رشيد رضا: مجلة المنار القاهرة، المجلد17، العدد1، محرم 1332هـ/ ديسمبر1913م، ص34.

(2) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص102.

(3) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، نفس الصفحة.

السابقة، لأن هناك ديناً واحداً أساساً تراث واحد، وكتاب واحد مثله مثل أيّ كتاب آخر، فالأمر المهم هو التسليم لله"[1].

ومن ثَمَّ فمِمّا لا شكّ فيه أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبشرون أقوامهم مثلما كانوا ينذرونهم، فقد بشّر عيسى عليه السلام بالرسول محمد ﷺ الذي جاء وصفه بالفرقليط والذي معناه كثير الحمد:" **وهكذا فقد أشار القرآن إلى أن يسوع قد تنبأ بمجيء البارقليط Parclet الذي ترجمه بعض العرب "أحمد" الذي هو أحد تنوّعات إسم محمد"**[2].

ولعلّ كارين أرمسترونغ قد استوحت أفكارها السابقة حول الوحي من القرآن الكريم مصداقاً لقوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء:162-165]، وقوله تعالى:﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾[الصف:6].

وتجعل كارين من الوحي القرآني السبيل الوحيد والمرشد لكل أفعال وأقوال الرسول ﷺ مع ما كان يصاحب ذلك من صعوبة في التلقي والتحمّل:" **وبوحي إلهي كان محمد (ﷺ) يتحسّس طريقه لحل جديد كلية، مقتنعاً بأنه لا يتكلّم باسمه وإنما هو يردِّد كلمات الله الموحاة له، كان تلقي الوحي عملية شاقة مؤلمة"**[3].

---

(1) كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ص102.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص52.

ثم تصف كارين مراحل الوحي الأولى في حياته ﷺ وهو على جبل حراء، وكيف استقبل الرسول ﷺ ذلك، مع ما كان في الموقف من إثارة وكيفية رجوعه إلى بيته وكيف كان رد فعل الزوجة العاقلة، وكيف كان موقف الإطمئنان والمؤازرة مع ذكر الوسائط المعينة على التثبيت مستدلة بما رواه البخاري في صحيحه[1]؛ ثم كيف توالى نزول الوحي حتى نزلت سورة الضحى والتي كانت تطميناً وقرينة دالة على إتمام النِّعمة وإنجاز الوعد[2].

ثم تستخرج بعض اللطائف من ذكر القرآن الكريم للجنّة والنّار وتصويره ليوم الحساب وكيف استطاع الوحي القرآني أن يجعل من يوم الحساب محطة مهمّة في حياة النّاس عامة والمؤمنين بصفة خاصة بأسلوب ممتع وهادف:" **فصّل التراث الإسلامي كلاًّ من الجنة والجحيم ويوم الحساب، ولكن بقي القرآن متحفظاً ولغته غامضة ومحيِّرة فيما يخص تلك الغيبيات، الأكثر أهمية أن القرآن يدفع مستمعيه لمواجهة "الحساب" في الحاضر أيضا، فيوم الحساب ليس هو الآتي فقط في آخر الزمان، بل هو أيضا لحظة الحقيقة هنا والآن، فالتحقيق والمساءلة الحميمة... كل ذلك يدفع المستمعين للقرآن لمواجهة تبعات أعمالهم يوما بيوم؛ كيف يصبح حال الإنسان يوم الحساب عندما يدرك أنه أضاع حياته وأن الوقت أصبح متأخراً لتعويض ذلك؟**"[3].

---

(1) روى الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت:" قالت كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه قال والتحنث التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود بمثلها حتى فجئه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ فقال رسول الله ﷺ ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال:"اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم الآيات إلى قوله علم الإنسان ما لم يعلم" فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع قال لخديجة أي خديجة ما لي لقد خشيت على نفسي فأخبرها الخبر قالت خديجة كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق". صحيح البخاري، ج6 ص173.

(2) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص45-48.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص56.

وتستنطق كارين الكون كله من خلال الوحي القرآني[1] ثم تستدلُّ به على أنه آية معجزة لبني البشر جميعهم وهو حجاب لخالقه ولصانعه بما بثَّ فيه من أعاجيب خلقه وآياته بداية من تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر:"**الكون كله حجاب لصانعه، تعاقب الليل والنّهار، والشمس والقمر، والأمطار التي تجلب الحياة، وبديع خلق البشر، كل ذلك آيات من الخالق، إذا تأمّل البشر تلك الآيات باستمرار وبأساليب معرفية، لوعوا أن وراءها حقيقة تتجاوز إدراكهم، ولامتلؤوا بالعرفان لنعم تلك الحقيقة عليهم**"[2].

المبحث الثالث: كارين وشخص النبي محمد ﷺ.

تستهوي شخصية النبي محمد ﷺ كل دارس لجماليات وأخلاق الإنسانية، فهو مثال الكمال بين الخلق، والشخصية النموذجية التي نستلهم منها ونستقي الدروس والعبر لا للمسلمين وحدهم بل للإنسانية جمعاء:"**في شخصية محمد (ﷺ) النموذجية دروس مهمّة ليس فقط للمسلمين ولكن أيضاً للغربيين، حيث كانت حياته كلها جهاداً كما سوف نرى، وهذه الكلمة لا تعني الحرب المقدّسة، ولكنّها تعني كفاحاً؛ كدح محمد (ﷺ)-بكل معاني الكلمة- ليجلب السلام... ونحن نحتاج لمن هم مستعدّون لعمل ذلك اليوم**"[3].

والسبب في ذلك أن:"**جسّدت حياة النبي (ﷺ) (53ق.هـ إلى11هـ/570 إلى 632م) المثالية الإسلامية قديماً وحديثاً، حيث تكشف سيرته ما غمض منها من تدبير الله لشؤون العالم، وتصوّر التسليم الكامل لله، والذي يجب على كل إنسان السعي لتحقيقه**"[4].

---

(1) إستدلت في ذلك من قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم:32-34]؛ وقوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية:17-20]

(2) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص57.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص25.

(4) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص21.

وحال دراسة كارين لشخصه وشخصيته ﷺ وجدته شخصية متوازنة عقلانية وواقعية مهتمة بالمحور الأساس في التغيير في دنيا النّاس ألا وهي النفس البشرية فتقول:"**لم يحاول محمد (ﷺ) أن يفرض معتقدا دينياً تقليدياً–إنه لم يكن مسرفاً في الاهتمام بما وراء الطبيعة[الميتافيزيقا]– ولكن اهتمامه الأكبر كان تغيير قلوب وعقول النّاس**"[1].

ثم إن هذه الشخصية كانت متجاوزة للزمان كله فتصفه وهي كلها إعجاب فاق الحدود والتوقّعات وتعلّق قائلة:" **من المفارقات أن أصبح محمد (ﷺ) شخصية متجاوزة للزمان، لأنه كان مرتبطاً جذرياً بزمنه**"[2].

وآية آيات الإعجاز فيه التي كادت أن تفقد كارين قدراتها العقلية كيف لتلك الأعمال الجسام والمهام العظام التي خاضها محمد ﷺ في زمانه وتناولها بالقدر الكبير من الحكمة والنجاحات صدرت من رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب لو لم يكن حقيقة نبياً مرسلاً ومثبّتاً بوحي السماء، وأن ربه ما ودّعه لحظة ولا قلاه:"**مثل معظم العرب في ذلك العصر، لم يكن محمد (ﷺ) يستطيع القراءة أو الكتابة**"[3].

وفي حديثها عن شخص الرسول ﷺ في نفسه ومع محيطه حتى وهو قبل البعثة النبوية، ترسم له صورة تكاد تحلّق في عالم المثالية منه في عالم الحقيقة، ففي معرض حديثها عن شبابه وما اتصف به من أخلاق عالية وكعب رفيع فيها حتى أسموه بالأمين تقول:" **كان محمد (ﷺ) الشاب محبوباً في مكة، كان وسيماً متناسق الجسد، متوسط القامة... كان حاسماً مخلصاً في عمله... وثق النّاس فيه حتى سموه الأمين**"[4]. ومثل ذلك جاء وصفه في موسوعة تاريخ الأديان[5].

---

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، نفس الصفحة.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص26.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص52.

(4) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص37.

(5) "He grew up to be a very able young man and was known in Mecca as al-Am¯ın, the reliable one. He was handsome, with a compact, solid body of average height. His hair and beard were thick and curly, and he had a strikingly luminous

تردّ كارين شبهات القائلين بالمصلحة في أفعال محمد ﷺ وتثبت بالمنطق العقلي الصِرف أن شخصيته تستحقّ الإعجاب لِما فيها من دمث أخلاق وصفاء سريرة وحب صادق لأهله فتقول:" **نجح محمد (ﷺ) في تجارته بطريقة أعجبت خديجة لدرجة أنّها طلبت الزواج منه... وكان محمد (ﷺ) قريبها إختياراً مناسباً؛ أثار بعض نقاد محمد (ﷺ) بأن ذلك كان زواج منفعة، ولكن في الحقيقة أحبَّ محمد (ﷺ) خديجة ولم يتخذ زوجة أخرى شابة معها، مع أن ذلك كان مقبولاً في أعراف العرب**"[1].

ثم تتابع حديثها عن شخصه ومرحلة أخرى من عمره وما كان موصوفاً فيها بين قومه وأترابه فتقول:" **كان في الأربعين من عمره، رجل عائلة وتاجر محترم في مكة المدينة التجارية المزدهرة**"[2].

ومثلما كان تاجراً ناجحاً في مكة فقد كان أباً حنوناً عطوفاً محباً لأولاده وزوجه خديجة التي :"**أنجبت له ستة أبناء القاسم وعبد الله، وقد ماتا في الطفولة، وبناته الأربع: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، واللاتي أحبّهن محمد (ﷺ) حباً جارفاً، لقد كانت أسرة سعيدة**"[3].

وعن حديثها عن شخصه ﷺ كأوّل معلم في أمته وما غرس في أصحابه من أخلاق ثم ما سنّ بأفعاله وأقواله من سنن للأمة بعده وبخاصة لعلمائها من فهم لأداء دورهم على أحسن وجه ممكن:" **لقد فهم المسلمون ذلك دائماً، حيث كلّفهم القرآن برسالة هي بناء مجتمع عادل وكريم، يعامل كل فرد باحترام، لذلك كان الصلاح السياسي للمجتمع المسلم وما زال ذا أهمية عليا**"[4].

---

expression". Karen Armstrong: Muhammad, Encyclop edia of Religion,2nd edition,2005,Thomson Gale,U.S.A, Vol 9, pp 6220-6228.

(1) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص37.

(2) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص27.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص38.

(4) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص21.

فمنذ اللحظات الأولى للدعوة الإسلامية غرس فيهم ﷺ روح المثابرة والجد فقد:"**انتظر أتباع محمد (ﷺ) بلهفة كل تنزيل جديد، وبعد أن يتلوه عليهم، يحفظونه عن ظهر قلب، ويكتبه من يعرف الكتابة منهم**"(1).

فقد جعل بشخصه الطاهر ﷺ كل حركة وسكنة عبادة واستجابة لأمر الله، وتعلّم الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً ذلك منه، وخاصة علماء الأمة منهم، ثم الذين أخذوا العلم منهم، وانبرى لميدان العلم هذا نخبة من الكتّاب المهرة ولم يكونوا يريدون بكتاباتهم عرض الدنيا أو يمتهنوها كحرفة:" **منذ البداية لم تكن الكتابة عن النبي محمد (ﷺ) مجرد حرفة تاريخية أو أثرية، واستمرّت كذلك حتى اليوم**"(2).

ولعلّ أنّ كارين قد تأثّرت بهذا المنهج الإسلامي الذي يتحرّى فيه العلماء والكُتّاب الصدق والحق ويلتمسون الحقيقة لذاتها، فحين لمست بعد أن سمعت ورأت الهجمة الشرسة ضد الإسلام ونبي الإسلام ﷺ وقفت موقف الحق والدِّفاع مبيِّنة عورات ومساوئ الغرب في كتاباتهم عن الإسلام عموماً وعنه ﷺ بوجه خاص ومفنِّدة إيّاها قائلة:" **ولدينا في الثقافة الغربية تاريخ طويل من الرعب من الإسلام[إسلاموفوبيا] يرجع لأيام الصليبيين، فقد صمّم رهبان مسيحيون من أوروبا في القرن الثاني عشر على أنّ الإسلام دين عنف انتشر بالسيف، وأن محمدا (ﷺ) كان دجّالاً فرض دينه على العالم الرافض بقوة السلاح، وكانوا يَسمُونه فاسقاً ومنحرفاً جنسياً... وكان من الصعب على الغربيين رؤية محمد (ﷺ) في ضوء أكثر موضوعية... لا يمكننا أن نتحمّل إطلاق العنان لهذا النوع من التعصّب الأعمى لأننا بذلك نقدِّم هدية للمتعصبين الذين يستخدمون هذه الأقاويل لإثبات أن الغرب في حرب صليبية جديدة ضد العالم الإسلامي. لم يكن محمد (ﷺ) قط رجل عنف، لا بد أن نقترب من حياته بطريقة متوازنة حتى نستطيع تقدير إنجازاته المعتبرة**"(3).

---

(1) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، ص53.

(2) كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ص24.

(3) كارين أرمسترونغ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة.

لعله من قول النافلة أن يقال بأن لكل بداية نهاية ولكل مقدمة خاتمة مهما طال البحث أو قَصُر، وفي هذه الخاتمة والتي نرجو أن تكون مسك ختام وتجمع زبدة ما تفرّق بين طيّات وورقات البحث؛ فإن نتائج البحث جاءت إجابة للتساؤلات المطروحة في إشكالية البحث الكبرى وتوزَّعت بحسب فروعها وأُجْمِلها في النقاط التالية:

1- أن البحث قد استعرض العديد من آراء المستشرقين بعد أن طوّف ماسحاً لمراحل الإستشراق عموماً بدءً من نشأته الأولى في الدير والكنائس تحت قيادة القساوسة والرهبان ووصولاً به في وقتنا الراهن إلى ماهو عليه حيث أصبح علماً قائماً بذاته في الغرب.

2- أوّل ما بدأ به الغرب وعلى رأسه المستشرقون الأوائل أن انتهجوا خطّة عملية علمية قائمة على الرعاية الكنسية وتحت وصايتها، بأن باشروا التشويه والتشكيك في القرآن الكريم ولَمَّا لم يجدوا في ذلك بغيتهم، حوّلوا حملة التشويه إلى تاريخ الإسلام عموماً لِما وجدوا فيه من سقطات المشتغلين به من أبناء المسلمين فعملوا على توسيع نطاقها وجعلوها مناط دراساتهم ومحورهم الرئيس في كل إنتاج فكري وعلمي.

3- ولج المستشرقون ساحة السيرة النبوية العطرة – من خلال التاريخ الإسلامي- واعتمدوا على مجموعة خطط ومناهج وكلّها سقيمة ومعوجّة، إلا أنهم استطاعوا أن يبلغوا مقاصدهم وإن كانت آنية ومحدودة الأثر في لحظات سهو الأمة وسبات علمائها، ومن تلك الخطط والمناهج ما تَمَّ تفصيله عند الحديث عن كل مستشرق وإنتاجه الورقي-لا العلمي- ما يغنينا عن الحديث عنه ثانية.

4- وقف البحث على مجموعة من الحقائق كان منها أنّه مهما ادّعى المستشرق-أي مستشرق- الحياد والتجرد العلمي في كتاباته عن السيرة النبوية تحديداً لأنها نطاق البحث، فإن ذلك لن يكون، لدواعي كثيرة وضغوطات عديدة ونوازع متعدّدة تؤثّر فيه وتتجاذب بنات فكره، فيستحيل عليه إعطاء صورة مشرقة لحوادث السيرة العطرة.

5- أن المنهج المختل الذي يعتري سبيل الكتابة الإستشراقية في السيرة يعود لأصل نشوء ذلك المنهج وتطوره في بيئة لا تتماشى ومعطيات السيرة إن لم يكن في أصله مناقضاً وهادماً لها، وقد

وقفنا على مجموعة من المناهج المادية والتشكيكية والهدمية وغيرها وكلها من إنتاج بيئة وأفكار بعيدة عن بيئة الإسلام إن لم تكن معادية وحاقدة على الإسلام وبيئته.

6- عدم اعتماد تلك المناهج والدراسات على المصادر الأصلية للسيرة النبوية في أحسن أحوالها إن لم تسقطها كلية وقد تبيّن لنا ما قالوه في أصل أصول الدين الإسلامي ومنها السيرة النبوية ألا وهو القرآن الكريم فقد عدّوه تلفيقاً من كتب الشرائع السابقة إن لم يكن من تأليف النبي محمد ﷺ ومن تخيّلاته الخلاّقة، ولهذا شكّكوا في أمّيته ﷺ.

7- إعتمادهم على منهج الأثر والتأثر وذلك لتفريغ الإسلام وتاريخه من محتواه الذاتي الأصيل وربطه بمؤثرات واهية لا سند لها إلا الافتراض والتخمين والشك والسقط من الروايات والأحداث، لذلك فقد اجتهدوا وجَهِدوا وما بلغوا بغيتهم في اختراع الروايات التي تربط وقائع سير السيرة النبوية في سياق يوحي بصحّتها مثل التقاء النبي ﷺ بالرهبان وأثر أولئك في تكوين الفكرة الدينية عند الرسول ﷺ ثم تطويرها لتصبح بعد ذلك منهج دين جديد.

8- الإنكار الكلي لحقائق السيرة بدءً بشخص الرسول ﷺ فنزول الوحي ثم مراحل الدعوة بمكة وما كان فيها من أحداث جسام وكذا ما كان فيها من لطائف العناية الإلهية، وصولاً إلى الهجرة وبناء الدولة في المدينة وما وقع فيها من وقائع ثم ما صاحب تلك الوقائع من تشريع وأحكام وتطبيقات لتلك الأحكام مثاله إجلاء اليهود من المدينة في مراحله كلها وفرض الصيام والجهاد، وكيف تمّ تفسير الغزوات التفسير المادي والعلماني، وإبرام العهود ومراسلة الملوك والحكّام والفتوح التي شهدتها أرض شبه الجزيرة وما حولها والتشكيك في وسائلها، بأن جعلوا الدين الإسلامي دين سيف وقوة وسفك دماء.

9- القبول المطلق لكل الروايات والأحداث المتعلِّقة بالطرف الآخر، خصوم الإسلام، حتى ولو كان الخصم شخص واحد، وجمع ما يمكن من الأسانيد التي تسندها ولو اضطر المستشرق إلى الافتراء وقد وجدنا مثل ذلك عند مونتغمري واط وبرنارد لويس وبودلي وحتى عند كارين لأنها اتخذت في بعض محطّات ما كتبت من كتب هؤلاء المرجع والملاذ.

10- الإطراء والمدح مع إبداء التعاطف مع الجماعات أو الحركات المعارضة لشخص النبي محمد ﷺ أو لمشروع الأمة ككل، سواء كانت المعارضة هذه من اليهود أو الكفار أو حتى من المنافقين، لذا وجدنا أن الكثير من المستشرقين حين كتابتهم عن هؤلاء ومواقفهم ينشدون سبيلهم

ويتبعون منهجهم القذة بالقذة ويكرِّرون حتى ما قاله هؤلاء ويؤيِّدونهم فيما ذهبوا إليه من أقوال وسلوكات وأحكام.

11- الإنتهاك الصارخ من قبل المستشرقين للحقائق التاريخية المثبتة في حق شخصه ﷺ وفي حق حياته الخاصة والعامة، فقد رموه بأدوائهم وانسلّوا، فقالوا عنه ﷺ -وحاشاه أن يكون كذلك- أنه كان شهوانيا، ومغرما بالنساء، ومزواجاً، وأنّه كان مصاباً بداء الصرع والهلوسة وأنه كان يخالف ما يتلو من الآيات من القرآن وأنه يأتي بالآيات التي تخدم مصالحه وتحقِّق غاياته فيثبتها ويلغي غيرها، وأنه في أحسن أحواله فهو زعيم سياسي أو مصلح إجتماعي وإن كان كذلك فهو بطل من أبطال زمانه.

12- دراسات المستشرقين عموماً كانت جافة وقاسية وليس فيها لين لا من جانب تعاملها مع الحقائق التاريخية ولا من جانب تعاملها مع المقدّسات، فهي لم تراع هذا ولا ذاك، ولذا لا يمكن أن تكون بأي حال من الأحوال مصادر ولا مراجع يعتمد عليها حين كتابة السيرة النبوية إلا في القليل والنادر منها.

13- الذي يخرج من قاعدة المستشرقين ويكون بمثابة الشاذ الذي يحفظ ولا يقاس عليه تلك الكتابات التي يجتهد أصحابها قدر المستطاع في تقصي الحقائق والبحث عن المادة الصحيحة لتأسيس نظرة شاملة وعامة حول سَدَى حوادث السيرة فتعوزهم اللغة أو تضلّلهم ترجمة محرّفة مثل ما وقع مع بودلي وبعض مواقف كارين.

14- لايمكن بأي حال من الأحوال أن نطلب أو أن ننتظر من المستشرقين أن يكتبوا عن سيرة المصطفى ﷺ مثل ما يكتب الباحثون والعلماء المسلمون فذلك ما لا يكون وما لا يُطلب وإن كان ولا بد فعلى أقل تقدير أن يلتزموا بمناهجهم التي وضعوها هم ويطبّقونها حين كتابتهم عن تاريخ الأمم الأخرى وعن رجال الإصلاح فيها وعظمائها.

15- دعوة عامة لكل المستشرقين الذين لهم همُّ الكتابة عن العالم الإسلامي عموماً وسيرة النبي محمد ﷺ على وجه الخصوص أن يتخذوا من بعض المستشرقين من المعتدلين أو المقاربين للحقيقة العلمية وللمناهج العلمية أسوة لهم وقدوة، فلعلهم يهتدون في أن يعانقوا الحقيقة أو أن تعانقهم هي في محطة من محطّات الكتابة، ولقد أثبتت التجربة أن كل من طرح عنه التعصب المقيت والكره والبغض ثمّ دخل حِمَى السيرة النبوية إلا أسرته وصار واحدًا من محبي صاحبها ﷺ

إن لم يصبح أحد الأتباع المخلصين وذلك ما وقع للورد هيدلي الإنجليزي والذي أصبح بعدها سيف الرحمن رحمة الله الفاروق وأصبح من المنافحين عن الإسلام وعن رسوله ﷺ.

16- مثَّلت كارين المدرسة الإستشراقية الإنجليزية الحديثة والمعاصرة خير تمثيل حين التزمت بالمنهج والمادة المقدّمة في كتاباتها في المرحلة المبكِّرة من إنتاجها العلمي.

17- عدم تقصِّي كارين أرمسترونغ للحقيقة العلمية في ذكر حوادث السيرة النبوية بعدم رجوعها لمصادر السيرة إلا بما يحقِّق الغاية والهدفية لمسار المدرسة الإستشراقية عامة للترسبات التي ورثتها منها.

18- المنهج الجديد الذي اعتمدته كارين والمستوى الرفيع الذي ارتقت إليه كتاباتها بعد أن نضجت أفكارها واتسعت مدارها حول الإسلام عموماً وسيرة الرسول ﷺ على وجه الخصوص بعدما كانت ساقطة بأفكارها في حمإ اللوثة الإستشراقية حين كانت مقلّدة لكتابات المستشرقين المتعصبين وبخاصة كتابات مونتغمري واط والتي جعلت منهم كارين زادها المعتبر في رحلة كتابتها الأولى عن الإسلام ورسوله ﷺ.

19- مفترق الطرق الذي مثَّل المفصلية في حياة كارين العلمية بالحقائق التي أثبتتها في دراساتها حول السيرة النبوية والتي تدافع عنها في الكثير من المواطن من كتاباتها تبشر بانفتاح آفاق جديدة في نظرة الغرب للشرق ويمكن عدُّ ذلك بداية مصالحة للذات الغربية مع نفسها وإمكانية مدّ جسور التواصل للحديث عن إمكانية بداية المصالحة مع الآخر الذي يمثّله الشرق الإسلامي عموماً.

20- الجديد الذي قدّمته كارين في هذا المجال العلمي والفن المعرفي سواء من حيث المنهج البحثي أو مصدر المعلومة أو الإستشراف المستقبلي بأن جعلت من السيرة النبوية منبراً للتقارب الأممي ومن شخص صاحب السيرة ﷺ محور ونقطة البدء لهذا التقارب لأنّه الرجل الأمثل والأحق.

21- المطلوب من الشرقيين –المسلمين العرب- أن يمدّوا أيديهم لمثل هذه المحاولات عساها تثمر في يوم من الأيام بأن تولّد نظرة موحّدة بما يكفي فيها من عوامل وقواسم مشتركة على الأقل إن لم تكن متطابقة أصلاً، وأن ينتبهوا للسبات القاتل الذي يَغُطُّون فيه منذ وقت طويل فلو كانوا قائمين على أحوالهم وشؤونهم العلمية والتعليمية كما كان أسلافهم لما استطاع الغرب ولا غيره أن يغيّروا ولا أن يدسوا من أراجيفهم لا في تاريخنا ولا في مناهجنا ما هو كائن وماثل للعيان في حقيقة أمر الأمة وتاريخها بما في ذلك تاريخ رسولها محمد ﷺ.

جامعة الأمير بدر القادر للعلوم الإسلامية

الملاحـــق

- ✓الملحق رقم 01: صورة اللورد هيدلي، ص 362.
- ✓الملحق رقم 02: صورة اللورد هيدلي بلباس الإحرام، ص363.
- ✓الملحق رقم 03: صورة الغلاف الخارجي لنماذج من أعداد مجلة الإسلام، الخاصة بمسلمي الهند والصادرة بإنجلترا عام 1913م، ص364.
- ✓الملحق رقم 04: نماذج من أغلفة كتب اللورد هيدلي، ص365.
- ✓الملحق رقم 05: خريطة المملكة المتحدة السياسية، ص366.
- ✓الملحق رقم 06: نماذج من أغلفة كتب كارين الأصلية والمترجمة حول التجربة الدينية وعلاقات الشرائع السماوية، ص367.
- ✓الملحق رقم 07: خريطة طريق السير الموكب الطاهر إلى منطقة تبوك وما حولها، ص368.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

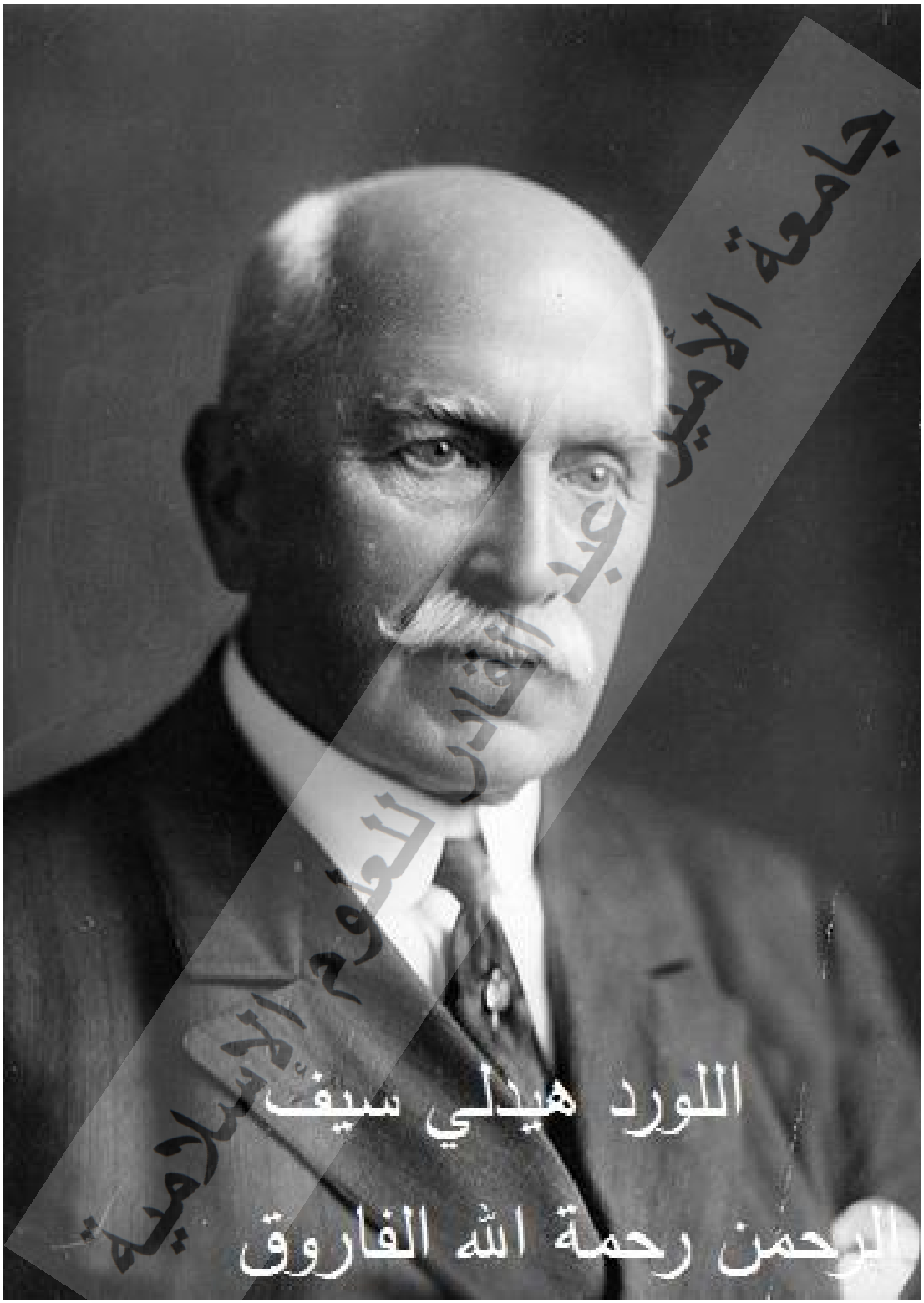

صورة اللورد هيدلي

اللورد هيدلي بلباس الإحرام رفقة خواجة كمال الدين و عبد المحيي عرب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نماذج من أعداد المجلة الإسلامية لسنة 1913م: العدد 01، العدد 02، العدد 03، العدد 11.

العدد الأول شهر فيفري 1913م.

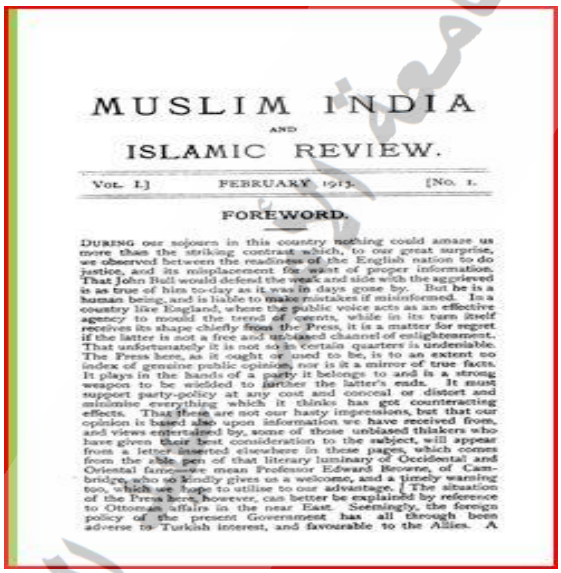

MUSLIM INDIA
AND
ISLAMIC REVIEW.

Vol. I.] FEBRUARY 1913. [No. 1.

FOREWORD.

DURING our sojourn in this country nothing could amaze us more than the striking contrast which, to our great surprise, we observed between the readiness of the English nation to do justice, and its replacement for want of proper information. That John Bull would defend the weak and side with the aggrieved is as true of him to-day as it was in days gone by. But he is a human being, and is liable to make mistakes if misinformed. In a country like England, where the public voice acts as an effective agency to mould the trend of events, while in its turn itself receives its shape chiefly from the Press, it is a matter for regret if the latter is not a free and unbiased channel of enlightenment. That unfortunately it is not so in certain quarters is undeniable. The Press here, as it ought or used to be, is to an extent no index of genuine public opinion, nor is it a mirror of true facts. It plays in the hands of a party it belongs to and is a strong weapon to be wielded to further the latter's ends. It must support party-policy at any cost and conceal or distort and misrepresent everything which it thinks has got counteracting effects. That these are not our hasty impressions, but that our opinion is based also upon information we have received from, and views entertained by, some of those unbiased thinkers who have given their best consideration to the subject, will appear from a letter inserted elsewhere in these pages, which comes from the able pen of that literary luminary of Occidental and Oriental fame—we mean Professor Edward Browne, of Cambridge, who so kindly gives us a welcome, and a timely warning too, which we hope to utilise to our advantage. The situation of the Press here, however, can better be explained by reference to Ottoman affairs in the near East. Seemingly, the foreign policy of the present Government has all through been adverse to Turkish interest, and favourable to the Allies. A

العدد الثاني شهر مارس 1913م.

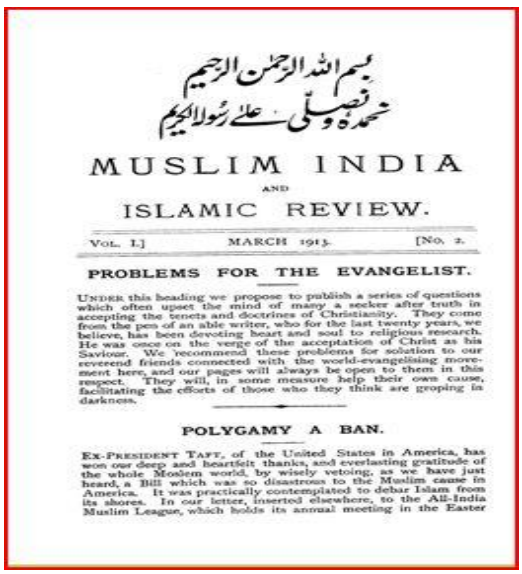

بسم الله الرحمن الرحيم
نحمده ونصلي على رسوله الكريم

MUSLIM INDIA
AND
ISLAMIC REVIEW.

Vol. I.] MARCH 1913. [No. 2.

PROBLEMS FOR THE EVANGELIST.

UNDER this heading we propose to publish a series of questions which often upset the mind of many a seeker after truth in accepting the tenets and doctrines of Christianity. They come from the pen of an able writer, who for the last twenty years, we believe, has been devoting heart and soul to religious research. He was once on the verge of the acceptation of Christ as his Saviour. We recommend these problems for solution to our reverend friends connected with the world-evangelising movement here, and our pages will always be open to them in this respect. They will, in some measure help their own cause, facilitating the efforts of those who they think are groping in darkness.

POLYGAMY A BAN.

EX-PRESIDENT TAFT, of the United States in America, has won our deep and heartfelt thanks, and everlasting gratitude of the whole Moslem world, by wisely vetoing, as we have just heard, a Bill which was so disastrous to the Muslim cause in America. It was practically contemplated to debar Islam from its shores. In our letter, inserted elsewhere, to the All-India Muslim League, which holds its annual meeting in the Easter

العدد الثالث شهر أفريل 1913م.

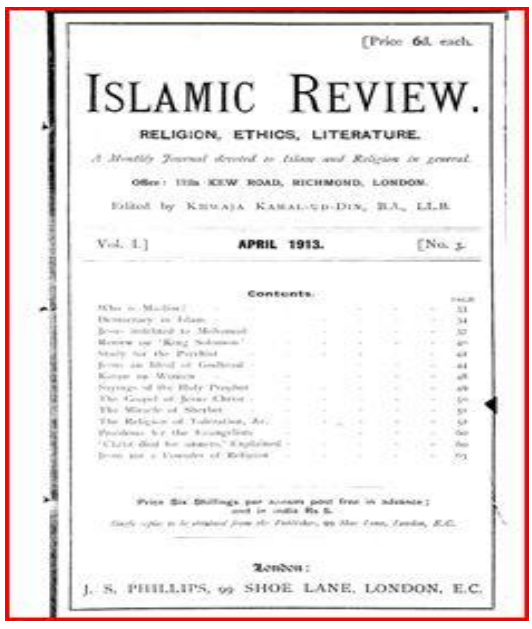

[Price 6d. each.

ISLAMIC REVIEW.

RELIGION, ETHICS, LITERATURE.

A Monthly Journal devoted to Islam and Religion in general.

Office: 11a KEW ROAD, RICHMOND, LONDON.

Edited by KHWAJA KAMAL-UD-DIN, B.A., LL.B.

Vol. I.] APRIL 1913. [No. 3.

Contents.

Price Six Shillings per annum post free in advance; and in India Rs. 5.

Single copies to be obtained from the Publisher, 99 Shoe Lane, London, E.C.

London:
J. S. PHILLIPS, 99 SHOE LANE, LONDON, E.C.

العدد الحادي عشر شهر ديسمبر 1913م والذي شرح فيه أسباب إسلامه.

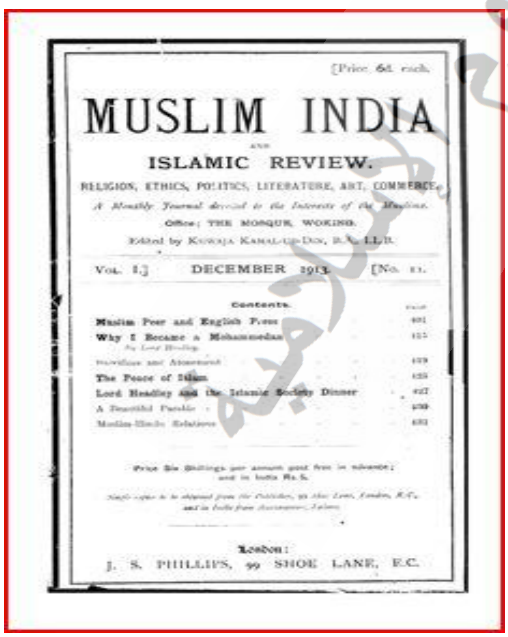

[Price 6d. each.

MUSLIM INDIA
AND
ISLAMIC REVIEW.

RELIGION, ETHICS, POLITICS, LITERATURE, ART, COMMERCE.

A Monthly Journal devoted to the Interests of the Muslims.

Office: THE MOSQUE, WOKING.

Edited by KHWAJA KAMAL-UD-DIN, B.A., LL.B.

Vol. I.] DECEMBER 1913. [No. 11.

Contents.

Muslim Peer and English Press
Why I Became a Mohammedan
The Peace of Islam
Lord Headley and the Islamic Society Dinner

Price Six Shillings per annum post free in advance; and in India Rs. 5.

Single copies to be obtained from the Publisher, 99 Shoe Lane, London, E.C., and in India from Ameer, Lahore.

London:
J. S. PHILLIPS, 99 SHOE LANE, E.C.

نماذج من الصور لأغلفة كتب اللورد هيدلي:

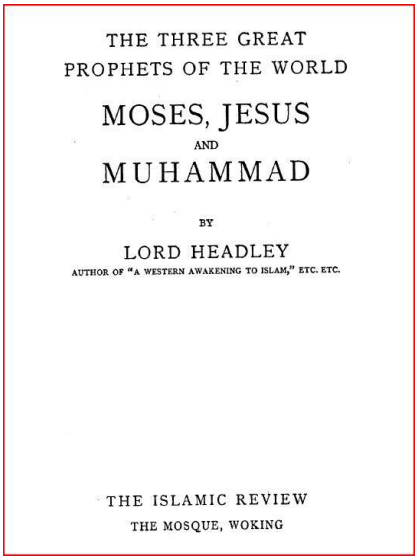

THE THREE GREAT
PROPHETS OF THE WORLD

MOSES, JESUS
AND
MUHAMMAD

BY

LORD HEADLEY
AUTHOR OF "A WESTERN AWAKENING TO ISLAM," ETC. ETC.

THE ISLAMIC REVIEW
THE MOSQUE, WOKING

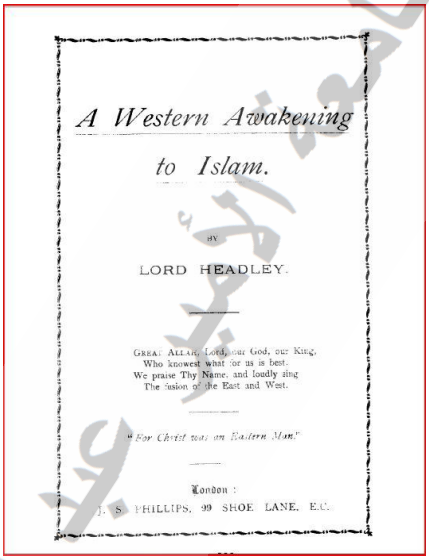

A Western Awakening

to Islam.

BY

LORD HEADLEY.

GREAT ALLAH, Lord, our God, our King,
Who knowest what for us is best.
We praise Thy Name, and loudly sing
The fusion of the East and West.

"For Christ was an Eastern Man"

London :
J. S. PHILLIPS, 99 SHOE LANE, E.C.

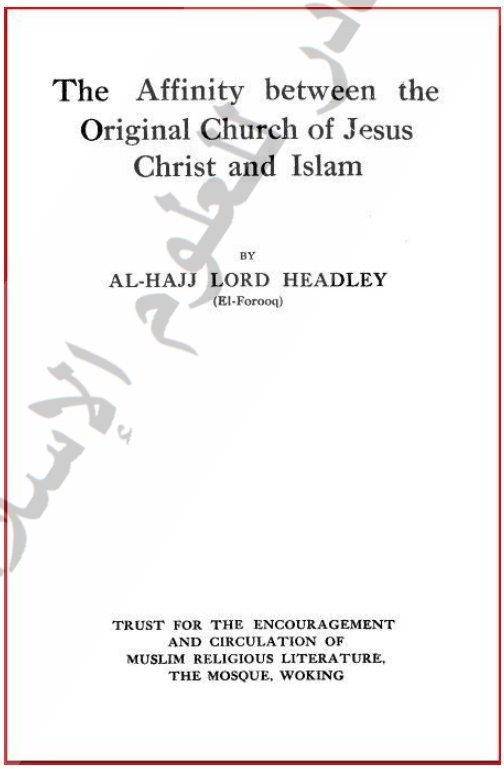

The Affinity between the Original Church of Jesus Christ and Islam

BY

AL-HAJJ LORD HEADLEY
(El-Forooq)

TRUST FOR THE ENCOURAGEMENT
AND CIRCULATION OF
MUSLIM RELIGIOUS LITERATURE,
THE MOSQUE, WOKING

خريطة المملكة المتحدة السياسية نقلاً عن الموقع المبين أدناه بتاريخ: الأحد:2009/11/01م.

http//www.expatries-France.com/dossier/Angleterre.htm

نماذج من أغلفة كتب كارين الأصلية والمترجمة حول التجربة الدينية وعلاقات الشرائع السماوية:

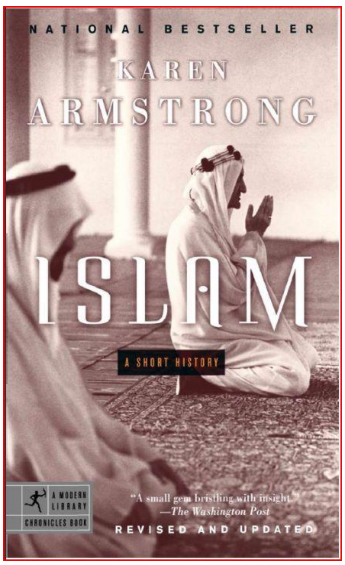

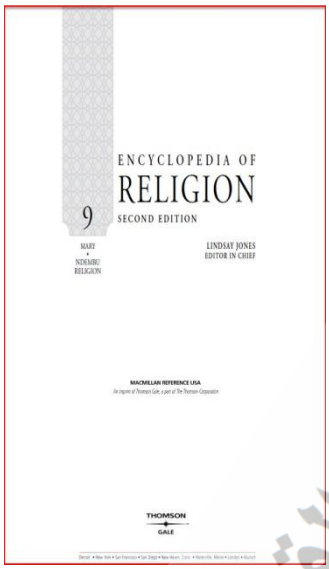

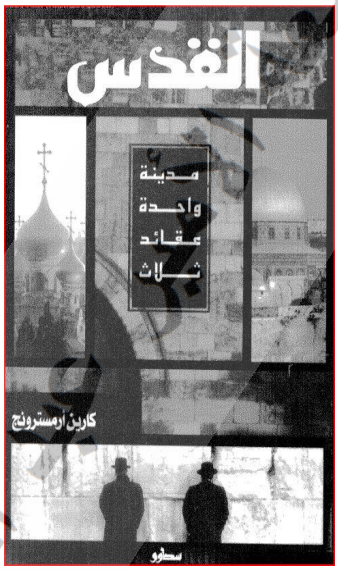

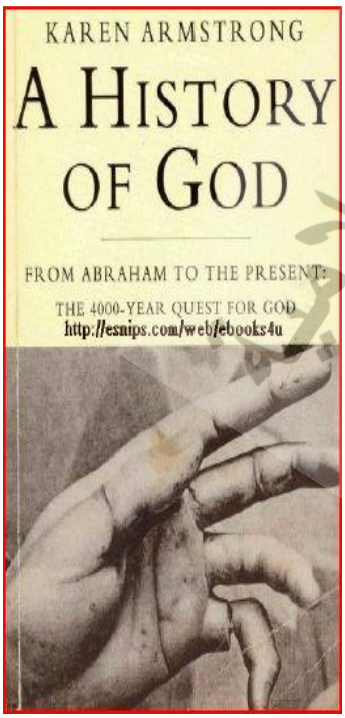

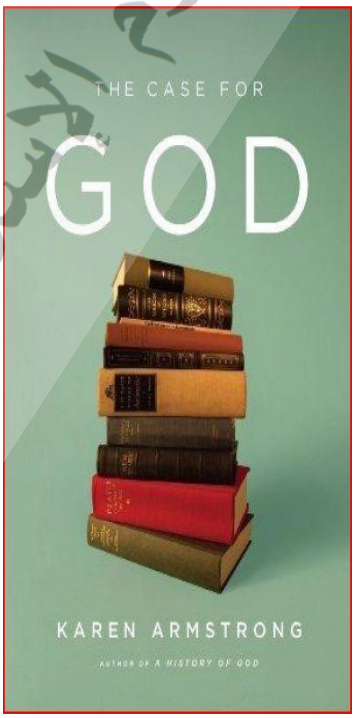

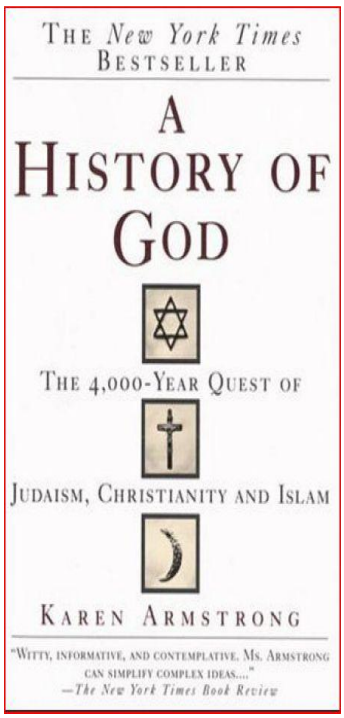

خريطة طريق سير الموكب الطاهر إلى منطقة تبوك وما حولها:

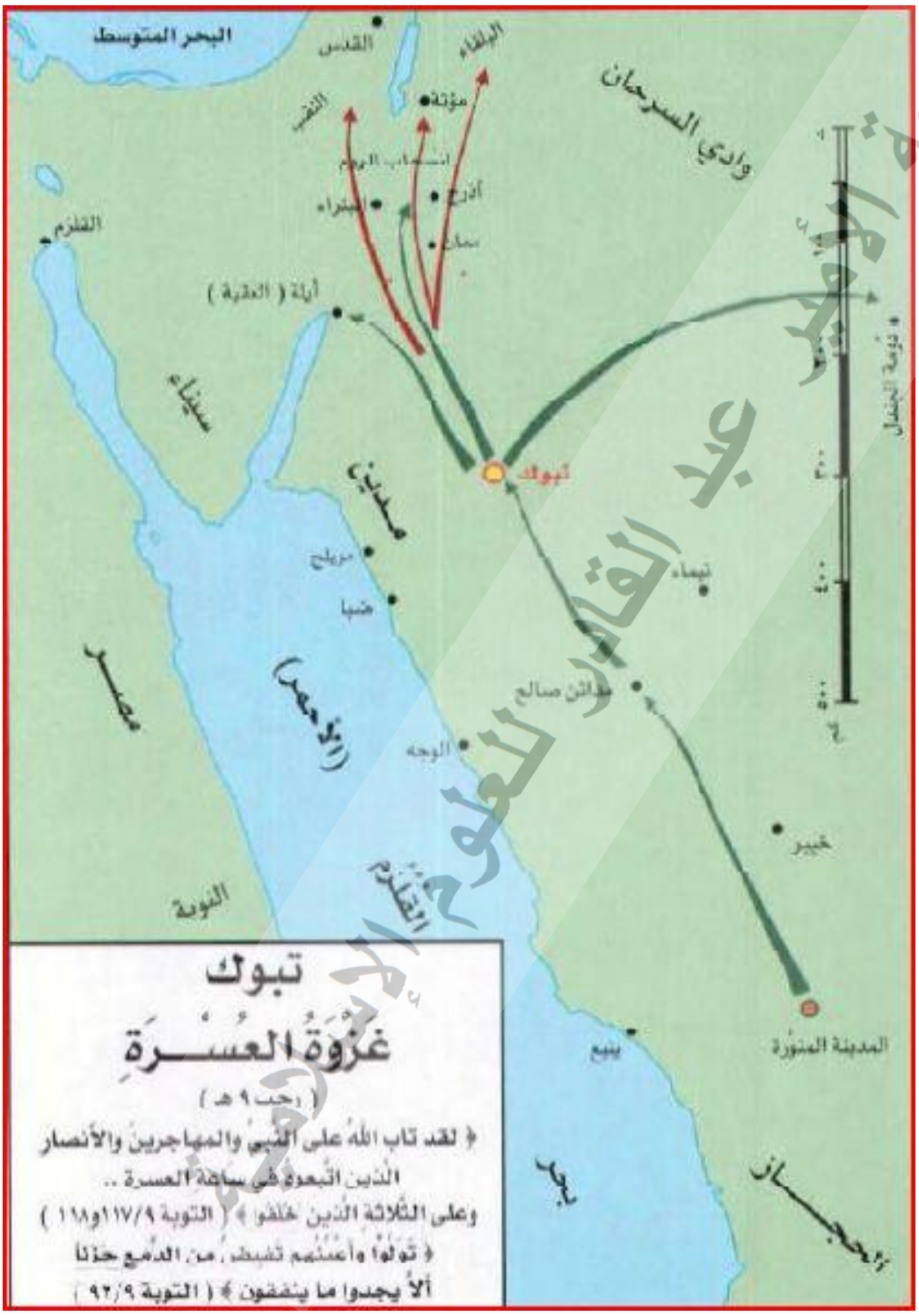

نقلا عن: شوقي أبو خليل: أطلس السيرة النبوية، دار الفكر دمشق، ط12، 2005م، ص40.

الملخص باللغات

الثلاثية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية والشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية– قسنطينة كليةالآداب والحضارة الإسلامية

نيابة كلية الآداب والحضارة الإسلامية لما

بعد التدرج والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

ملخص رسالة دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي

–عنوان الرسالة: **السيرة النبوية عند المستشرقين الإنجليز المعاصرين –كارين أرمسترونغ نموذجا–**

– للطالب: **دوادي فرادي**

– **نوقشت في رحاب جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بتاريخ: 04 محرم 1436هـ**

الموافق لـ:28 أكتوبر 2014 م أمام اللجنة المتكونة من :

الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
إبراهيم بحاز بكير	أستاذ التعليم العالي	جامعة غرداية
عبد العزيز فيلالي	أستاذ محاضر	جامعة قسنطينة –02–
محمد فرقاني	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر
يوسف عابد	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر
كمال بن مارس	أستاذ التعليم العالي	جامعة قالمة
محمد أوسكورت	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر

وبعد المناقشة منح الطالب درجة دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي بتقدير مشرف جدا.

ملخّص الرسالة

لا تُعدُّ السيرة النبوية والاستشراق من المواضيع الجديدة من حيث الدراسة، إذا ما قيست بزمان الاهتمام بها، لأن المستشرقين قد تعاملوا معها واشتغلوا بها منذ زمن بعيد وإلى وقتنا الحاضر.

وقد ظهرت، في التاريخ الحديث والمعاصر، بعض الدراسات الجادّة والمتميِّزة والتي تحمل النظرة الجديدة للمستشرقين فيما يتعلَّق بالمواضيع ذات الصلة الإسلامية عموماً والسيرة النبوية بشكل خاص؛ وكان العديد من تلك الأعمال والدراسات باللغة الإنجليزية تحديداً وهي ثمينة ومفيدة غير أنّها تحتاج إلى تحليل وتقويم وجهد كبير.

وحتى تتم عملية الدراسة المتمثّلة في التحليل والتقويم على الوجه المطلوب لكل مستشرق أو دارس غربي ولمنتوجه العلمي كان لا بد من الرجوع في الدراسة إلى الموروث العلمي والحضاري وأعمال أسلافه وسابقيه.

واعتباراً من هذا المنطلق، إخترت في دراستي هذه العديد من النماذج من أعمال المستشرقين الإنجليز المعاصرين، وخصوصاً ما كان له علاقة مباشرة بالسيرة النبوية فقط، وليس كل أعمالهم التي درسوا فيها الجوانب الإسلامية الأخرى، وجعلت عيِّنة الدراسة من تلك المدرسة أعمال كارين أرمسترونغ كمثال.

والسؤال المطروح: لماذا أعمال كارين أرمسترونغ بالتحديد؟

والجواب: إن نظرة تحليلية وتقويمية لأعمالها تعطينا ما اشتملت عليه تلك الأعمال من نظرة كاملة متكاملة ثم وجهة النظر الجديدة التي ارتأتها كارين في علم المنهج الإستشراقي، وكذا تطوّر بعض الأفكار والأراء في الغرب وتأثيراتها منذ الوقت الماضي إلى الآن.

كما قمت في هذه الدراسة بتحليل العديد من أعمال المستشرقين المشهورين في المدرسة الإنجليزية الحديثة والمعاصرة تحديداً، وأعمال كارين أرمسترونغ على وجه الدِّقة، وأتمنى أنّي قد وُفِقت في ذلك، مع ما يتطلّب مثل هذا العمل من جهد ومعرفة وسعة اطّلاع.

وقد قسّمت بحثي هذا إلى مقدمة وثلاثة أبواب، يحتوي كل باب على أكثر من فصل، مع خاتمة ضمّنتها نتائج البحث، وملاحق ومجموعة فهارس.

وإذا كان الشكر لله أولاً وأخيراً، فهو موصول بعد ثمّ، للدكتور: عبد العزيز فيلالي المشرف على هذه الدراسة، ولجميع موظفي ومسؤولي وأساتذة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، وللجنة الموقّرة التي ناقشت هذا العمل، هذا داخل الجزائر أما خارجها، فالشكر غير منقطع للدكتور: سهيل زكار وجميع أفراد عائلته بالشام، ولجميع موظفي ومسؤولي وأساتذة جامعة دمشق وكذا جميع موظفي ومسؤولي مكتبة الأسد الوطنية بسوريا؛ كما لا يفوتني أن أشكر جميع من مدَّ لي يد العون من قريب أو من بعيد. وأخصُّ بالشكر كذلك جميع أحبتي من عائلتي الصغيرة والكبيرة على حدٍّ سواء لما قدّموه لي من مساعدة واهتمام ودعم وأخصُّ منهم أمِّي.

وفي الأخير، أسأل العلي القدير الذي سهّل هذا العمل ويسّره حتى صار على الشكل الذي هو عليه، أن يتقبَّله خالصاً لوجهه الكريم وأن يفيد به ويمنحنا أجره وأجر من يقرأه وأجر خدمة سيرة نبيِّه محمد ﷺ. آمين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Le Résumé

ASSira ou «biographie du Prophète" et l'orientalisme n'est pas une nouvelle discipline parce que les spécialistes, du passé à nos jours, l'ont traité.

Dans les temps modernes, certaines études sérieuses ont apparu sur les méthodes et approches des orientalistes à l'égard de thèmes islamiques en général et le Sira en particulier.

Beaucoup de travaux ont été publiés, spécialement en anglais, en particulier sur le Sira et les orientalistes, précieuse et utile que ces travaux sont, il reste encore beaucoup à faire dans l'analyse et l'évaluation de l'orientaliste, principaux travaux sur le Sira.

Pour étudier le travail de tout chercheur individuel implique donc nécessairement aux travaux de ses prédécesseurs.

Sur cette considération que j'ai choisi pour le présent travail de nombreux travaux des orientalistes anglais contemporains, et en particulier, leur principaux ouvrages sur le Sira, mais tous leurs œuvres et les sujets qu'ils ont abordés, et j'ai choisi les œuvres de Karen Armstrong comme un exemple.

Pourquoi?

Une analyse et l'évaluation de ses œuvres nous donneraient une idée de l'approche globale, la nouvelle vue de l'état de la méthodologie, l'opinion des orientalistes, et de l'évolution de certaines idées et opinions

dans l'ouest et de leurs impacts et influences du passé jusqu'à l'heure actuelle.

Dans cette étude, j'ai une analyse critique des œuvres de nombreux orientalistes célèbres, notamment, Karen Armstrong, et j'espère réfuté avec succès les accusations portées par eux contre la vie et le caractère du prophète avec une érudition qui le traitement d'un tel sujet exige.

J'ai partagé ce travail en préface, trois sections contiennent chacun plus d'un chapitre, les résultats, index, bibliographie sélective et le contenu.

Je suis reconnaissant au Dr Abdalaziz Filali, directeur de cette étude, et à tous les membres du jury et aux autorités de l'université d'Emir Abdalkader en Algérie; Je suis également reconnaissant au Dr Souheil Zakkar, sa famille, les autorités de Damas université et Bibliothèque nationale Assad en Syrie. Je suis reconnaissant aussi à chaque membre de ma famille en particulier ma mère.

Puisse Allah faire de ce travail et cette étude utile et nous accorder sa bénédiction pour servir Sira. Amen

Resume

The Sira or "biography of the Prophet"and Orientalism is no new subject because scholars, from the past to our times, have dealt with it.

In modern days, some serious studies have appeared on the methods and approaches of the orientalists with regard to islamic themes in general and the Sira in particular.

Many works have appeared, specialy in English, specifically on the Sira and the Orientalists, valuable and useful as these works are, there still remains a good deal to be done in analysing and evaluating the main orientalist works on the Sira.

To study the work of any individual scholar thus necessarily involves to the works of his predecessors.

On this consideration I have selected for the present work many contemporary English orientalists works, and particularly, their principal works on the Sira not all their works and subjects they have dealt with, and I have selected Karen Armstrong's works as an example.

Why?

An analysis and evaluation of her works would give us an idea of the whole approach, the new view of the state of the orientalists' methodology, opinion, and the evolution of certain ideas and

opinions in the west and their impacts and influences from the past till the present time.

In this study I have critically analysed the works of many famous Orientalists, particularly, Karen Armstrong, and I hope successfully refuted the charges levelled by them against the life and character of the prophet with an erudition which the treatment of such a subject requires.

I have devided this work into preface, three sections every one contain more than one chapter, results, index, select bibliography and contents.

I am grateful to Dr abdalaziz filali, manager of this study, and the authorities of Emir Abdalkader univesity in Algeria; I am grateful also to Dr Souheil Zakkar, his family, the authorities of Damascus university and Assad National Library in Syria. I am thankful too to every member of my family particular my mother.

May Allah make this work and this study useful and grant us for the serving of the Sira. Amen

المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع:

01-المصادر العربية:

1-أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (384-458هـ/994-1065م):السنن الكبرى، مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الهند، ط1، 1344هـ.

2-أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (384-458هـ/994-1065م): دلائل النبوة تحقيق د. عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1405هـ.

3-أحمد بن حنبل(164-241هـ/780-855م): المسند الصحيح، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 1420هـ/1999م.

4-أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي(215-303هـ/830-915م): المجتبى من السنن(سنن النسائي) تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب سوريا، ط2، 1406هـ/ 1986م.

5-أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، شهاب الدين (773-852هـ/1372-1448م): تهذيب التهذيب، دار الفكر بيروت، ط1، 1404هـ/1984م.

6-أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، شهاب الدين (773-852هـ/1372-1448م): فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، ط2، 1978م.

7-أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، شهاب الدين (773-852هـ/1372-1448م): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الجيل بيروت، 1412هـ/1992م.

8-أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني(206-287هـ/821-900م): الآحاد والمثاني، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية الرياض، ط1، 1411هـ/1991م.

9-أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان أبو العباس شمس الدين (ت 681هـ/ 1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط1، 1971م.

10-أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري الطحاوي، أبو جعفر (ت321هـ/933م): أحكام القرآن الكريم، تحقيق: د. سعد الدين أونال، مركز البحوث الإسلامية إستنبول، ط1، 1418هـ/1998م.

11-أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ت321هـ/ 933م): شرح مشكل الآثار، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت ط1، 1415هـ /1994م.

12-الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عقبة بن الأزرق الغساني(ت250هـ/864م): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق:د.علي عمر، مكتبة مدبولي القاهرة، ط1، 1424هـ/2003م.

13-إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي(ت774هـ/1372م): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع المدينة المنورة، ط2، 1420هـ/ 1999م.

14-جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي(849-911هـ/1445-1505م): الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية بيروت، 1405هـ/1985م.

15-الحسين بن مسعود البغوي (ت 516هـ/1122م): معالم التنزيل، حققه محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع المدينة المنورة، ط4، 1417 هـ/ 1997م.

16-خليفة بن خياط العصفري (ت 240هـ/854م): تاريخ خليفة بن خيَّاط، تحقيق: د.سهيل زكار، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي دمشق، 1967م.

17-عبدالرحمن بن خلدون (ت808هـ/1406م): تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبطه خليل شحادة، راجعه: د.سهيل زكار دار الفكر بيروت، ط2، 1408هـ/ 1988م.

18-عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت 581هـ/1185م): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1421هـ/2000م.

19-عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (ت597هـ/ 1200م): صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعة جي، دار المعرفة بيروت، ط2، 1399هـ /1979م.

20-عبدالرزاق بن همام الصنعاني(126-211هـ/743-826م): المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي بيروت، ط2، 1403هـ.

21-عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي(ت235هـ/849م): المصنف في الأحاديث والآثار، ضبطه وعلّق عليه: سعيد اللحام، دار الفكر دمشق،1988م.

22-عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي(ت235هـ/849م): المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، ط1، 1409هـ.

23-عبد الملك بن هشام البصري، أبو محمد (ت 213هـ/828م): السيرة النبوية تحقيق ودراسة: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث طنطا مصر، ط1، 1416هـ/ 1995م.

24-علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي(384-456هـ/995-1063م): جوامع السيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار المعارف القاهرة، ط1، 1960م.

25-علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي(384-456هـ/995-1063م): الرد على ابن النغريلة اليهودي، تحقيق إحسان عباس، دار العروبة القاهرة، 1960م.

26-علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي(384-456هـ/995-1063م): الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: د. محمّد إبراهيم نصر، ود. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل بيروت، 1405هـ/ 1985م.

27-علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي(384-456هـ/995-1063م): رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م

28-علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي(384-456هـ/995-1063م): الناسخ والمنسوخ، تحقيق: عبد الغفار سليمان دار الكتب العلمية بيروت[د ت ط].

29-علي بن أحمد الواحدي النيسابوري(ت468هـ/1075م): أسباب النزول، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة، 1968م.

30-علي بن إسماعيل بن سيده أبو الحسن(398-458هـ/1007-1065م): المحكم والمحيط، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت 2000م.

31-علي بن إسماعيل بن سيده أبو الحسن(398-458هـ/1007-1065م): المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي بيروت،ط1، 1417هـ/1996م.

32-علي بن أبي بكر الهيثمي(ت807هـ/1404م): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر، دار الكتب العلمية بيروت، 1408هـ/ 1988م.

33-علي بن برهان الدين الحلبي(975-1044هـ/1567-1634م): السيرة الحلبية، المسمى إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة بيروت،[د ت ط].

34-علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين أبو القاسم الدمشقي الشافعي المعروف بابن عساكر (499-571هـ/1105-1175): تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر بيروت، 1415هـ/1995م.

35-علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الأثير(ت630هـ/1232م): الكامل في التاريخ، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، ط1، 1417هـ/1997م.

36-عياض بن موسى بن عياض اليحصبي(476-544هـ/1083-1149م): الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الكتاب العربي بيروت، 1404هـ/1984م.

37-لسان الدين بن الخطيب(713-776هـ/1313-1374م): الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة، 1973م.

38-محمد بن أحمد بن طلحة بن نوح بن الأزهر الأزهري، أبو منصور(282-370هـ/ 895-980م): تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط1، 2001م.

39-محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين أبو عبد الله القرطبي (671/600هـ /1204-1273م): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب الرياض، السعودية، 1423هـ/2003م.

40-محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي(ت748هـ/1374م): سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط9، 1413هـ/1993م.

41-محمد بن أحمد بن محمد المكي الحنفي ابن الضياء، أبو البقاء (ت854هـ /1450م): تاريخ مكة المشرّفة والمسجد الحرام والمدينة المنوّرة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم الأزهري وأيمن نصر الدين الأزهري، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1418هـ/1997م.

42-محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية(691-751هـ /1292-1350م): زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة بيروت، ط27، 1415هـ/1994م.

43-محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري(ت256هـ/869م): الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه،تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة بيروت، ط1، 1422هـ.

44-محمد بن جرير الطبري (224-310هـ/839-923م): تاريخ الأمم والملوك، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1407هـ.

45-محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله (168-230هـ/785-845م): الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط1، 1968م.

46-محمد بن عبد المنعم الحميري، أبو عبد الله(ت727هـ/1326م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، دار السراج بيروت، ط2، 1980م.

47-محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي أبو جعفر (ت297هـ/909م): العرش وما روي فيه، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، مكتبة الرشد الرياض المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ/ 1998م.

48-محمد بن علي الشوكاني(1173-1250هـ/1759-1834م): إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1404هـ/1984م.

49-محمد بن عمر بن واقد الواقدي، أبو عبد الله(ت207هـ/823م): المغازي، تحقيق:د. ماردسن جونس، دار عالم الكتب بيروت [د ت ط].

50-محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي(209-279هـ/824-892م): الجامع الصحيح، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي بيروت ط1، 1996م

51-محمد بن فتوح الحميدي، أبو عبدالله(420-488هـ/1029-1095م): الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: د. علي حسين البواب، دار ابن حزم بيروت ط2، 1423هـ/ 2002م.

52-محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس(ت734هـ/1333م): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق: محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو، دار ابن كثير دمشق[د ت ط].

53-محمد بن يوسف، أبو حيان الأندلسي(654-745هـ/1256-1344م): تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1422هـ/2001م.

54-محمد بن يوسف الصالحي الشامي(ت 942 هـ/1535م): سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1414هـ/1993م.

55-محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري(467-538هـ/1074-1143م): أساس البلاغة، دار الفكر دمشق 1399هـ /1979م.

56-مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (204-261هـ/820- 875م): صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت[د ت ط].

57-نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي أبو الليث الفقيه الحنفي(ت375هـ/ 985م) : بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي،دار الفكر بيروت[د ت ط].

58-يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت463هـ/ 1070م) الإستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الجيل بيروت، ط1، 1412هـ.

59-يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم القرطبي(ت 463هـ/ 1070م): الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، وزارة الأوقاف المصرية لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة، ط1، 1415هـ/1995م.

المصادر الأجنبية:

60-Karen Armstrong: Holy War: The Cruasades and Their Impacts on Today's World (1988).

61-Karen Armstrong: Muhammad: A Western Attemp to Understand Islam (1992).

62-Karen Armstrong: A Histotory of God: From Abraham to The Present, The 4000 Year Quest of Judaism, Christianiaty and Islam (1993).

63-Karen Armstrong: Jerusalem: One City, Three Faiths (1996).

64-Karen Armstrong: Islam, a Short History (2000).

65-Karen Armstrong: A Short History of Myth (2005).

66-Karen Armstrong:Muhammad: Prophet For Our Time (2007).

المصادر المترجمة:

67-بودلي: الرسول حياة محمد، ترجمة محمد محمد فرج وعبدالحميد جودة السحار، لجنة النشر للجامعيين مكتبة مصر القاهرة، ط1، 1945م،[وأعيد طبعه سنة1946م ثم عام 1989م من نفس الدار].

68-كارين أرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، محاولة جديدة لفهم الإسلام، ترجمة: محمد الجورا، دار الحصاد دمشق، ط1، 2002م.

69-كارين أرمسترونغ: تاريخ الأسطورة، ترجمة: وجيه قانصو، دار العربية للعلوم بيروت، ط1، 2008م.

70-كارين أرمسترونغ: الحرب المقدّسة، ترجمة: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي بيروت، ط1، 2004م.

71-كارين أرمسترونغ: القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، مطبعة سطور القاهرة، 1998م.

72-كارين أرمسترونغ: محمد ﷺ نبي لزماننا، ترجمة فاتن الزلباني، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط1، 1429هـ/2008م.

المراجع العربية:

73-أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة، [د ت ط] ط25.

74-أحمد سمايلوفتش: فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف القاهرة، 1980م.

75-أحمد الشرباصي: التصوف عند المستشرقين، سلسلة الثقافة الإسلامية، مطبعة نور الأمل القاهرة، 1966م.

76-إسحق موسى الحسيني: الإستشراق نشأته وتطوره وأهدافه، مطبعة الأزهر الشريف، الأزهر القاهرة، 1967م.

77-إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان القاهرة، ط2، 1998م.

78-إسماعيل علي محمد: مفتريات المستشرقين وعملائهم على الإسلام، دار النيل للطباعة والنشر المنصورة مصر، ط1، 1420هـ/1999م.

79-أكرم ضياء العمري: موقف الإستشراق من السيرة والسنة النبوية، دار إشبيليا للنشر والتوزيع الرياض، ط1، 1417هـ/1997م.

80-أنور الجندي: سموم الإستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، دار الجيل بيروت، ط2، 1405هـ/ 1985م.

81-بركات عبد الفتاح دويدار: الحركة الفكرية ضد الإسلام، مطبوعات جامعة أم القرى مكة المكرمة، 1406هـ.

82-جاسم سلطان: أداة فلسفة التاريخ، كتاب سلسلة القادة ومشروع النهضة عمان، [د ت ط].

83-جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية)، مطبعة الزعيم بغداد، 1961م

84-جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي بغداد، ط4، 1422هـ/2001م.

85-حسين مؤنس: تنقية أصول التاريخ الإسلامي، دار الرشاد القاهرة،ط3، 2005م.

86-حسين الهراوي: المستشرقون والإسلام، مطبعة المنار القاهرة، 1936م.

87-خالد كبير علاّل: أخطاء المؤرخ ابن خلدون في كتابه المقدّمة، دار الإمام مالك للكتاب الجزائر، ط1، 1426هـ/2005م.

88-ساسي سامي الحاج: نقد الخطاب الإستشراقي، الظاهرة الإستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، دار المدار الإسلامي بيروت، ط1، 2002م.

89-سعد الشاذلي: مذكرات حرب أكتوبر، دار بحوث الشرق أوسطية سان فراسيسكو، ط4، 2003م.

90-سهيل زكار: الحشاشون، دار الفكر العربي دمشق1971م.

91-السيد محمد فرج: الإستشراق، الذرائع النشأة والمحتوى، دار طويق للنشر والتوزيع الرياض، ط1.

92-شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، الشرق الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط2، 1421هـ/2001م.

93-شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين، دار الفكر دمشق، ط2، 1419هـ/1998م.

94-شوقي أبو خليل: أطلس السيرة النبوية، دار الفكر دمشق، ط12، 2005م.

95-صالح زهر الدين: الإسلام والإستشراق، دار الندوة الجديدة بيروت، 1991م.

96-صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، دار الوفاء مصر، 1424هـ/ 2003م.

97-صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان، تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، دار الكتاب الجديد بيروت، ط1، 1978م.

98-صلاح الدين المنجد: المنتقى من دراسات المستشرقين، دار الكتاب الجديد بيروت، ط1، 1978م.

99-طنطاوي جوهري: السر العجيب في تعدّد زوجات الحبيب، زوجات النبي ﷺ، دار صادق للنشر الإسكندرية، ط1، 1318هـ.

100-طه حسين: مقدمة الأدب الجاهلي، دار الكتاب اللبناني بيروت،[د ت ط] الأعمال الكاملة.

101-عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة، مطابع الصحافة العالمية القاهرة، ط1 1403هـ/1983م.

102-عائض القرني: لا تحزن، مكتبة العبيكان الرياض، ط22، 1427هـ/2007م.

103-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير الإستشراق والاستعمار، دار القلم دمشق، ط8، 1420هـ/2000م.

104-عبد الرحمن عميرة: الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الإستشراق، دار الجيل بيروت[د ت ط].

105-عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة بيروت، 1400هـ /1980م.

106-عبد الله علي العليان: الإستشراق بين الإنصاف والإجحاف، المركز الثقافي العربي بيروت، ط1، 2003م.

107-عبد الله محمد الأمين النعيم: الإستشراق في السيرة النبوية، دراسة تاريخية لآراء (وات-بروكلمان-فلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ط1، 1417هـ/1997م.

108-عبد الغني عبد الرحمن محمد: زوجات النبي وحكمة التعدد، مكتبة مدبولي القاهرة، ط1، 1408هـ/ 1988م.

109-عبد اللطيف الطيباوي: المسترقون الناطقون بالإنجليزية، ترجمة وتقديم: قاسم السمرائي، إدارة الثقافة والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض، 1411هـ/1991م

110-عبد المتعال محمد الجبري: الإستشراق وجه للاستعمار الفكري، مكتبة وهبة القاهرة، ط1، 1416هـ/ 1995م.

111-عبد المنعم الدالاتي: ربحت محمدا ولم أخسر المسيح، مؤسسة الرسالة دمشق، ط1، 1424هـ/ 2003م.

112-عرفان عبد الحميد فتاح: دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار عمّار عمان ط1، 1412هـ/1991م.

113-علي إبراهيم النملة: الإستشراق والدراسات الإسلامية، مكتبة التوبة الرياض،ط1، 1418هـ/1998م.

114-علي إبراهيم النملة: كنه الإستشراق، مناقشات في التعريف والنشأة والدوافع والأهداف بحث ضمن كتاب دراسات إستشراقية وحضارية، مركز الدراسات الإستشراقية والحضارية، المدينة المنورة، 1993م.

115-علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1988م.

116-علي محمد راضي: الأندلس والناصر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة، 1967م.

117-عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات، ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس، 1985م.

118-قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق تاريخية، عين للدراسات والبحوث القاهرة، ط1، 2001م.

119-لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، القسم الأول في تاريخ النصرانية وقبائلها في عهد الجاهلية، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت، 1912م.

120-مازن صلاح مطبقاني: الإستشراق المعاصر، دار إشبيليا الرياض، ط1، 2000م.

121-مازن صلاح مطبقاني: من قضايا الدراسات العربية الإسلامية في الغرب، منشورات قسم الإستشراق كلية الدعوة بالمدينة المنورة، 1417هـ/1996م.

122-مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مكتبة عمار القاهرة، ط1، 1970م.

123-مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر دمشق، ط1، 1412هـ/ 1991م.

124-محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، 1415هـ/1995م.

125-محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة القاهرة، ط11،[د ت ط].

126-محمد الدسوقي: الفكر الإستشراقي في ميزان النقد العلمي، بحث ضمن كتاب دراسات إستشراقية وحضارية، مركز الدراسات الإستشراقية والحضارية، المدينة المنورة، 1993م.

127-محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع تونس 1997م.

128-محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط2، 1982م.

129-محمد عزت طهطاوي: التبشير والإستشراق أحقاد وحملات، مطبعة الأميرية القاهرة، 1977م.

130-محمد عمارة: الشريعة والعلمانية الغربية، دار الشروق القاهرة، ط1، 1423هـ/ 2003م.

131-محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة، ط3، 1999م.

132-محمد قطب: التطور والثبات في حياة البشر، دار الشروق القاهرة، 1977م.

133-محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق القاهرة، ط9، 1422هـ/ 2001م.

134-محمد قطب: واقعنا المعاصر، دار الشروق القاهرة، ط1، 1418هـ/1997م.

135-محمد قطب: هل نحن مسلمون، دار الشروق القاهرة، ط6، 1423هـ/2003م

136-محمد كامل عبد الصمد: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط1، 1416هـ/1995م.

137-محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، نشأتها وتطوّرها ومصائرها، مؤسسة الرسالة بيروت، ط3.

138-محمد محمد الدهان: قوى الشر المتحالفة، الإستشراق التبشير الاستعمار، دار الوفاء المنصورة 1986م.

139-محمد محمد أبو ليلة: القرآن الكريم من منظور إستشراقي دراسة نقدية تحليلية، دار النشر للجامعات القاهرة، ط1، 1423هـ/2002م.

140-محمد محمد أبو ليلة: محمد ﷺ بين الحقيقة والافتراء، دار النشر للجامعات القاهرة، ط1، 1420هـ/1999م.

141-محمود حمدي زقزوق: الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف القاهرة [د ت ط].

142-مختار الوكيل: سفراء النبي ﷺ وكُتّابه ورسائله، دار المعارف القاهرة[د ت ط].

143-مصطفى السباعي: الإستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المكتب الإسلامي بيروت، 1979م، ط2.

144-مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي بيروت، ط3، 1405هـ.

145-ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، معهد الإنماء العربي بيروت، ط1، 1982م.
146-نذير حمدان: الرسول في كتابات المستشرقين المنصفة، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة، ط2 [د ت ط].
147-نور الدين عتر: منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر دمشق، ط3، 1418هـ/ 1997 م.
148-وهبة بن مصطفى الزحيلي: التفسير المنير، دار الفكر المعاصر بيروت، ط1، 1418هـ.

المراجع الأجنبية:

149-Al Hajj Lord Headley (Al Forooq):The Affinity Between The Original Church of Jesus christ and Islam, London.
150-Al Hajj Lord Headley (Al Forooq):The Three Great Prophets of The World; Moses, Jesus and Muhammad, 1st printed january 1923, London.
151-Al Hajj Lord Headley (Al Forooq): A Western Awakening To Islam, J.S Philips 99 Shoe Lane London
152-Gibb, H.R:Muhammadanism, 2nd ed, London 1953
153-Gibb, H.R: Mohammedunism Oxford London 1954
154-Lewis Bernard :The Jews of Islam, Princeton, Princeton University Press, 1986.
155-Margoliouth, D. S: Mohammed and the Rise of Islam, Ram Swarup, ([1905] 1985) 3d ed, London.
156-Muir (Sir)William: The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall, 3ed edition, London, 1984.

157-Muir (Sir)William: The Life Of Mahomet and History Of Islam,4 Vols, London, 1858-1861,(Reprinted, London, 1988).
158-Norman Daniel: Islam and The West: The Making of An Image, The Introduction, revised edition, Oxford, One world,1993.

159-Ronald Syme :The Roman Revolution, Oxford,N. York, 1987 (first published in 1939).

160-Tomas Arnold :The Caliphate, Lahor Karachi, 1966.

161-Watt, W.M:Muhammad Prophet and Statesman Oxford University Press, London 1967.

162-Watt, W.M: Muhammad, Prophet And Statesman, Oxford,1961.

المراجع الأجنبية المترجمة:

163-إدوارد سعيد: الإستشراق، المعرفة السلطة الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، ط2، 1984م.
164-أ.ج آربري: المستشرقون البريطانيون، تعريب محمد الدسوقي النويهي، لندن 1946م.
165-ألبرت ديتريش: الدراسات العربية في ألمانيا، فرانز شتاينر للنشر فسبادن، 1962م.
166-برنارد لويس: الإسلام والغرب، ترجمة قسم التأليف والترجمة بدار الرشيد دمشق، ط1، 1994م.
167-برنارد لويس: العرب في التاريخ، تحقيق وتعريب نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين بيروت، 1954م.
168-برنارد لويس وإدوارد سعيد: الإسلام الأصولي في فكر الغربيين، دار الجيل بيروت، ط1، 1414هـ/1994م.

169-توماس كارليل(1210-1299هـ/1795-1881م): محمد المثل الأعلى، ترجمة: محمد السباعي، مكتبة الآداب القاهرة، ط1 ،1993م.

170-جوستاف فون جرينباوم: حضارة الإسلام، ترجمة: توفيق عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1997م.

171-جون ب. ديكنسون: العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث، ترجمة: شعبة الترجمة باليونسكو كتاب عالم المعرفة، الكويت رقم112، أفريل 1987م.

172-جويدي م.أ: علم الشرق وتاريخ العمران، الزهراء للطباعة والنشر القاهرة، 1941م.

173-خوجة كمال الدين: المثل الأعلى في الأنبياء ﷺ، ترجمة: أمين محمود الشريف، دار الفكر المعاصر بيروت، ط1، 1409هـ/1989م.

174-رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية،المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه ترجمة مصطفى ماهر دار الكتاب العربي القاهرة[د ت ط].

175-غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط3، 1399هـ/ 1979م.

176-ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، تحقيق: ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة بيروت.[د ت ط].

177-مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية في تراث الإسلام، القسم الأول، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة الكويت، شعبان-رمضان 1398هـ/ أغسطس 1978م.

178-مونتغمري واط: محمد في المدينة؛ تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية بيروت [د ت ط].

179-مونتغمري واط: محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية بيروت [د ت ط]

180-هاملتون جب : الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ترجمة : هاشم الحسيني، دار ومكتبة الحياة بيروت، 1966م.

المجلاّت والمقالات والملتقيات والندوات والتقارير العربية:

181-إدريس مقبول: الدراسات الإستشراقية للقرآن الكريم رؤية إسلامية، ندوة تقويم الدراسات الإستشراقية المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة،16-1427/10/18هـ/7-9 /2006/11م.

182-جمعة علي الخولي: ردود على الشبهات الواردة في تعدّد الزوجات، ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية والسنة، راجعه عبد الله الأنصاري، منشورات المكتبة العصرية بيروت، ط1، 1401هـ/1981م.

183-عبد التواب هيكل: دحض الشبهات الواردة على تعدّد الزوجات في الإسلام، ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، الدوحة قطر، محرم 1400هـ، ط1، 1401هـ /1981م، ج2.

184-مجلة الأمة قطر، السنة الثالثة، عدد شعبان 1403هـ.

185-مجلة الأمة قطر، السنة الرابعة، عدد ذو الحجة 1404هـ.

186-مجلة الاجتهاد، السنة السادسة، عدد 22، عام 1414هـ/1994م.

187-مجلة التسامح، مسقط، السنة الثانية، العدد السادس(06) ربيع الأول 1425هـ/ 2004م.

188-مجلة الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، العدد 111، السنة32، سنة1420هـ.

189-مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، 1999م.

190-مجلة المشرق البيروتية التنصيرية، السنة 35 لعام 1937م.

191-محمد مهر علي: ترجمة معاني القرآن الكريم والمستشرقون، لمحات تاريخية وتحليلية، ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم، تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، 10-1423/02/12هـ/23-2002/04/25م.

192-مجلة المنار القاهرة، ع1، محرم 1332هـ/ ديسمبر1913م.

193-مجلة المنار القاهرة،ع9، رمضان 1346هـ/ مارس1928م.

194-مجلة المؤرخ العربي القاهرة، مج1 ع6، مارس 1998م.

المجلاّت والمقالات والملتقيات والتقارير الأجنبية:

195-The Atlantic Monthly –London- febrary, 1993.

196-The Daily Mail –London- 17/11/1913.

197-The Islamic Review issue for June–July 1923, London.

198- The Islamic Review issue for September 1923, London.

199-Islamic Revue –London- 1932-1935[08 vol]394

200-The Observer – London- 23/11/1913.

201-Report of The Inter departmental Commission of Inquiry of Oriental, Slavonic, European and African Studies (London, 1947).

202-Report of the Sub-Committee on Oriental,Slavonic, East European and African Studies London,1961.

الرسائل الجامعية:

203-مازن صلاح مطبقاني: الإستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، 1416 هـ/ 1995م.

المعاجم والمناجد والموسوعات العربية:

204-إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة، دار الدعوة للنشر القاهرة [د ت ط].

205-أحمد رضا: معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1958م.

206-إسماعيل بن حماد الجوهري(ت393هـ/1002م): الصحاح في اللغة تحقيق أحمد عبد الغفور عطار،دار العلم للملايين بيروت، ط4، 1407ه/1987م.

207-خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين بيروت، ط14، 1999م.

208-دائرة المعارف للبستاني، المطبعة الكاثوليكية بيروت، 1977م.

209-دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر بيروت، 1399هـ/ 1979م.

210-عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونبة، دار الشروق القاهرة، ط1، 2003م.

211-محمد بن مكرم بن منظور(ت711هـ/1311م): لسان العرب، دار صادر بيروت، ط1،[د ت ط].

212-الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع الرياض، ط2، 1999م.

213-الموسوعة العربية العالمية دمشق، ط1، 2003م.

214-موسوعة المستشرقين، بدوي، دار العلم للملايين بيروت، ط3، 1993م.

215-موسوعة المعارف الإسلامية، ليدن هولندا[د ت ط].

216-الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة د: مانع بن حمّاد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع الرياض، ط4، 1418هـ.

217-نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف القاهرة، ط4، 1980م.

218-نزار أباظة ومحمد رياض المالح: إتمام الأعلام(ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي)، دار صادر بيروت، ط1، 1999م.

219-ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله (ت626هـ/1228م): معجم البلدان، دار صادر بيروت، ط1، 1397هـ/1977م.

220-يحي مراد: معجم أسماء المستشرقين، دار الفكر العربي بيروت، ط1، 2007م.

المعاجم والمناجد والموسوعات الأجنبية:

221-Dictionnaire Encyclopédique Quillet, Paris, éd 1990

222-Encyclopaedia Judaica, Tomson Gale, N.Y, USA, 2nd ed, 2007.

223- Encyclopedia of religion, Lindsay Jones, editor in chief. USA, 2nd ed.2005.Vol.09

224-Encyclopedia of religion, Lindsay Jones, editor in chief. USA, 2 nd ed.2005.Vol.10

225- Encyclopedia Universalis, Paris 1996 corpus, vol.09.

226-Larrousse Encyclopedique en couleurs, France Loisirs Paris,vol.16

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة الفهارس.

- ✓فهرس الآيات القرآنية.
- ✓فهرس الأعلام.
- ✓فهرس الأماكن.
- ✓فهرس المحتويات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات القرآنية.

1- سورة البقرة:[23-24].....ص183
2- سورة البقرة:[35-36].....ص95
3- سورة البقرة:[67-73].....ص311
4- سورة البقرة:[120].....ص83
5- سورة البقرة:[124].....ص284
6- سورة البقرة:[125].....ص298
7- سورة البقرة:[126].....ص284
8- سورة البقرة:[127].....ص298
9- سورة البقرة:[127-128].....ص285
10- سورة البقرة:[128].....ص142
11- سورة البقرة:[132].....ص142
12- سورة البقرة:[133].....ص285
13- سورة البقرة:[142-145].....ص184
14- سورة البقرة:[158].....ص281
15- سورة البقرة:[190].....ص190
16- سورة البقرة:[227].....ص219
17- سورة البقرة:[273].....ص199
18- سورة النّساء:[77].....ص190
19- سورة النساء:[162-165].....ص348
20- سورة النساء:[163-164].....ص260
21- سورة النساء:[163-165].....ص293
22- سورة المائدة:[08].....ص342
23- سورة المائدة:[67].....ص148

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

24- سورة المائدة:[69].....ص213
25- سورة المائدة:[89].....ص213
26- سورة الأنعام:[50].....ص284
27- سورة الأنعام:[71-73].....ص311
28- سورة الأنعام:[116-121].....ص311
29- سورة الأنعام:[152].....ص342
30- سورة الأنفال:[30].....ص198
31_ سورة الأنفال:[30-33].....ص158
32- سورة التوبة:[05].....ص190
33- سورة التوبة:[13].....ص199
34- سورة التوبة:[25].....ص216
35- سورة التوبة:[36].....ص190
36- سورة التوبة:[40].....ص198
37- سورة التوبة:[42].....ص216
38- سورة التوبة:[43-103].....ص216
39- سورة الحجر:[09].....ص342
40- سورةالنّحل:[90].....ص183
41- سورةالنّحل:[103].....ص140
42- سورةالنّحل:[103].....ص141
43- سورة الإسراء:[76].....ص199
44- سورة مريم:[52].....ص309
45- سورة طه:[25].....ص309
46- سورة طه:[26].....ص309
47- سورة طه:[39].....ص309
48- سورة طه:[84].....ص308

49- سورة الأنبياء:[5].....ص218
50- سورة الأنبياء:[5].....ص319
51- سورة الأنبياء:[36].....ص154
52- سورة الأنبياء:[73].....ص006
53- سورة الأنبياء:[73].....ص009
54- سورة الأنبياء:[107]..... ص187
55- سورة الفرقان:[4-5]..... ص140
56- سورة الفرقان:[41-43].....ص160
57- سورة النّمل:[34].....ص29
58- سورة النّمل:[42].....ص142
59- سورة القصص:[30].....ص309
60- سورة القصص:[86].....ص248
61- سورة القصص:[86-88].....ص161
62- سورة العنكبوت:[48].....ص146
63- سورة الأحزاب:[28-29].....ص228
64- سورة الأحزاب:[40].....ص006
65- سورة الأحزاب:[40].....ص009
66- سورة الأحزاب:[52].....ص226
67- سورة ص:[4-8].....ص154
68- سورة الشورى:[16].....ص79
69- سورة الشورى:[52].....ص248
70- سورة الشورى:[52].....ص293
71- سورة محمد:[13].....ص199
72- سورة الفتح:[1-2].....ص308
73- سورة الفتح:[16].....ص190

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

74- سورة الحجرات:[13].....ص63
75- سورة الحجرات:[13].....ص142
76- سورة الطور:[48].....ص219
77- سورة النّجم:[05-10].....ص335
78- سورة النّجم:[14].....ص335
79- سورة الحشر:[08].....ص198
80- سورة الحشر:[09].....ص187
81- سورة الممتحنة:[01].....ص198
83- سورة الصف:[06].....ص348
84- سورة الصف:[06].....ص289
85- سورة الصف:[11].....ص189
86- سورة الأعلى:[08].....ص308
87- سورة الأعلى:[18-19].....ص285
88- سورة الضحى:[1-11].....ص211
89- سورة الضحى:[1-11].....ص349
90- سورة الضحى:[05].....ص308
91- سورة الشرح:[01].....ص308
92- سورة الكافرون:[1-6].....ص153
93- سورة المسد:[1-2].....ص201
94- سورة المسد:[1-5].....ص212

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام.

(أ):

إبراهيم (عليه السلام): 142-194

إبراهيم (ابن النبي ﷺ): 145

إبراهيم بن عزرا: 60

ابن اسحاق: 151-158-190-271-277-334-335-339

ابن حزم الأندلسي: 30-31-53-60-185-205-212-231-316

ابن الخطيب: 46

ابن رشد: 57-68

ابن سعد: 156-200-214-312-314

ابن النغريلة اليهودي: 30-31

إبن هشام: 49-146-150-151-200-316

أبو بكر(الصديق): 138-145-213-214-215-310-312-331-332-336-339

أبو جهل: 312-328

أبو سفيان: 148-194-195-200-231-312-328

أبو طالب: 48-49-161-246-283-311-312-329-334-339

أبو لهب: 201-202-212-309-321

أجناز جولد تسيهر: 42-139-168-191

ادلارد أوف باث: 61

آدم: 94-95-194-307-308-309-347

ادوارد هنري بالمر: 72

آربري: 34-35-80

إسماعيل (عليه السلام): 142-194-284-285-298-303-307-311

ألفارو القرطبي: 66
ألفرد تنيسون (اللورد): 257
ألفرد غيوم: 271-277
ألفونسو السادس: 54
ألويس سبرنجر: 130
أم أسامة: 223
أم جميل: 212
أم كلثوم: 145-321-352
آنتوني وود: 34
أنجل جنثالث بالنثيه: 54-55
أندرو واط: 134
أنور السادات: 266
أوربان الثاني: 58-69

(ب):

بحيرا: 144-182
البخاري: 138-148-185-194-195-202-223-224-230-242-281-283-310-315-349
برنارد لويس: 36-62-121-127-157-164-165-166-167-168-169-171-174-176-178-179-180-181-186-192-196-201-202-205-206-325
بطرس (المحترم): 27-51-57-58-65-258
بلال: 138-145-310-315
بندلي جوزي: 139-151-152
بودلي: 87-127-203-210-216-228-229
بيتروس فينيرابليس: 51

بيربيتوا: 335-336
بيرون: 34

(ت):

تشارلز ولسون(الكابتن): 73
توري: 140
تولستوف: 151
توماس أرنولد: 131-171-172
توماس إدوارد لورانس: 91
توماس الإكويني: 42-103
توماس براون: 60
توماس كارليل: 255
توماس ووكر أرنلد: 168

(ث)

ثورنتون (المستر): 34
ثيودور نولدكة: 110

(ج)

جربر دوربياك: 42
جربير: 57
جرونباوم: 171
جون اسبنسر درمنجهام: 208
جون سلدن: 76
جون لويس بروكهارت: 208
جيرارد دي كريمون: 57

(ح)

حارثة: 48-49-220-221-222-223-224

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحجاج بن يوسف الثقفي: 45
حسان: 213-214
الحسن بن علي: 47-223-311-336
الحسين بن علي: 336
الحسيني: 30
الحكم بن عبد الرحمن: 53
حكيم بن حزام: 223
الحلاج: 79
حليمة بنت الحارث(السعدية): 224

(خ)

خديجة(بنت خويلد): 138-145-156-195-211-220-222-223-228-245-247-276-277-281-336-349-352

(د)

دافيد صامويل مرجليوث: 130-139-140-171
دانتي: 111-112
دانيال أوف مورلي: 61
دبليو فلهاوسن: 163
الدميري: 133
دنلوب(المستشار الإنجليزي): 111
دوزي رينهارت: 55
دي ساسي الفرنسي: 90-91
دي ميسفيل(الأسقف): 84

(ر)

رقية(بنت النبي ﷺ): 145-190-321-352
رودي بارت: 35-65-114-122-123-125

رودنسون: 36-221
روفائيل الراهب: 70-71
رونالد سايم: 165
ريتشارد بيرتون: 208
ريتشارد بيل: 130
ريموند لول: 67-68

(ز)

الزركلي: 9-29-34-41-45-46-48-50-53-55-57-62-69-71-72-74-79-80-91-209-214-220-221-222-229-231-278-310-311-314-315-320-337
زويمر: 67-109-110
الزيات: 40
زيد بن ثابت: 214
زينب(إبنة النبيﷺ): 145-352
زينب(أم المؤمنين): 214-229

(س)

ساسي سالم الحاج: 75
سامي الكعكي: 266-267-268
ستوري: 41
سراقة بن مالك: 200
سعد بن الربيع: 188
سعدى بنت ثعلبة : 222
سنوك هرجرونيه: 209
السهروردي الحلبي: 79-80

سهيل زكار: 156-174-195
السهيلي: 49-150-158-161-185-190-194-215-216-230-277-286-289-291-312-313-316-317-320-329-330-331-332-333-334-338-339
سيفيروس: 335

(ش)

شاخت: 36-76-77-162
شكسبير: 319

(ص)

صفوان(الصحابي): 229
صلاح الدين الأيوبي: 69
صمويل كلارك: 34
صمويل هنتنجتون: 176

(ط)

الطيباوي: 85-116-135-167-255

(ع)

عائشة(أم المؤمنين): 213-214-216-223-226-228-229-230-245-287-308-332-333-337-349
العباس: (عم النبي ﷺ) 195-246
عبد الحميد جودة السحار: 210
عبد الرحمن بن عوف: 188-190
عبد الله (ابن النبي ﷺ): 145-352
عبد الله (والد النبي ﷺ): 156
عبد الله علي العليان: 102
عبد الله بن مسعود: 314

عثمان بن عفان: 190-214-310-312-314-321-330
العقيقي: 62-73
علي بن أبي طالب: 311-315-336-339
عمرو بن العاص: 231
عيسى(عليه السلام): 236-239-288-289-308-309-310-333

(ف)

فرنسيس(القديس): 74

(ك)

كاره دوفو: 42

(ل)

لامانس: 141-199-200
لود وليم: 40-151
لويس شيخو: 222
لويس ماسينيون: 79-80-171-172
ليون كايتاني: 162-221

(م)

مارية القبطية (المصرية): 145-336-337
ماكسيم رودنسون: 36-221
مالك بن نبي: 42-52-103-111
مالك (الإمام): 133
محمد الجورا: 254-262-267-279
محمد الكامل(السلطان الأيوبي): 74
محمد عناني: 80-262-268-281
محمد محمد فرج: 210

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مسطح: 214
مشال(ميكل) أنجلوحويدي: 20
مونتغمري واط: 127-128-129-130-131-132-133-134-135-136-137-138-141-145-159-162-183-184-263-265-275-276-325
ميخائيل سكوت: 57-61
ميخائيل الصباغ: 71

(ن)

النابغة (أم عمرو بن العاص): 231
نابليون بونابرت: 70-71-90
النجاشي: 335
نقولا ترك: 71
نيكلسون: 80

(هـ)

هاملتون جب: 115-121-131-132-165-171-194
الهراوي: 40
هرقل: 148-194
هند بنت عتبة: 231
هنري جاكسون: 172
هنري جيمس(سير): 72
هنري كوربان: 79
هيدلي (اللورد): 127- 203- 233-234-235-236-237-238-239-240-241-242-243-244-245-246-247-248-256-273-346

(و)

وجيه قانصو: 270.

ورقة بن نوفل: 138-140-182-276-277-281-291-313.
ولفرد كانتول سميث: 108
وليام هايتر(السير): 121
وليم بدول: 62
وليم لود: 101
وليم موير: 76-130-139.

(ي):

يحنة بن رؤبة: 316.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأماكن

(أ)

أذرح: 316.
الأردن: 208-259.
إسبانيا: 34-51- 60-135.
الاسكندرية: 69-131-226-237-336
اشبيلية: 46- 53.
ألمانيا: 36- 122-130-134-139-162-171.
إنجلترا (انكلترة) بريطانيا: 34-59-60-61-62-69-73-75-121-129-162-170-171-174-255-256-257-261-273.
الأندلس: 27-30-31-46-50-52-53-54-55-56-57-60-61-62-66-67-163-
أوروبا: 28-29-37-42-49-50-51-52-53-54-55-58-59-60-61-67-72-74-103-118-120-129-233-253-266-267-323-344- 353
إيطاليا:58-70-111.

(ب)

باريس: 67-120-135-180-208-257.
البحر الأحمر: 91-316
برومسغروف: 256.
بلاط الشهداء(معركة): 49.
البندقية: 70.
بيرمنغهام: 256.
بيزا: 70.

(ت)

تبوك: 215- 216-316.

تونس: 70-80-151-212.
تركيا: 73-174-175-178-209.

(ج)

جبل حراء: 153-292-347-349.
جبل الصفا: 202
جبل طارق: 50.
جبل لبنان: 151
جرباء: 316.
الجزائر: 90-135.

(ح)

الحبشة: 190-231-310-315-327-329-330-334.

(د)

دولويش: 258.
دومة الجندل: 222.
دير كلوبي: 27-51-67.

(ر)

روسيا(الاتحاد السوفياتي): 49-137- 148- 174-304
روما: 36-57-61-84-258.

(س)

سوريا: 73-162-174-185-259-279

(ش)

الشام: 45-50-70- 144-145-148-162-195-208-220-222-246-278-310-313-316
شبه الجزيرة الإيبيرية: 27-66

شبه الجزيرة العربية: 35-186-190-221-295-296-302-303-305-306-313-317-323.
الشرق الأوسط: 37- 109-130-166-167-169-170-171-173-267
شمال افريقيا: 35-67-269

(ص)

صحراء سيناء: 72-73

(ط)

الطائف: 45-153-213-317
طليطلة: 46-53-54-57-60-61-67.

(ع)

العراق: 45-79-80-94.

(ف)

فرنسا: 41-50-55-58-69-70-79-80-94-135-164-169-170-171-172-174-257.
فلسطين: 27-69-71-73-77-80-84-91-139-167-168-169-174-179.
فيينا:50-67-120-162-171.

(ق)

القدس: 68-69-73-80-134-151-166-182-183-217-259-268-287
قرطاج: 335.
قرطبة: 30-46-53

(ك)

كاليفورنيا: 165-71-261
كريس فايف: 134.
كشمير:235.

(ل)

لبنان:41-58-91-151-183-221-222

لندن:34-60-124-130-131-134-156-165-166-168-178-234-236-238-256-257-271-295-319

لوزان: 175-208.

(م)

المحيط الأطلسي: 35- 49.

المدينة: 45-49-60-70-105-113-121-130-135-148-159-161-173-188-192-198-200-201

مراكش: 50.

مرسيليا: 70.

مسقط: 208

مصر: 35-70-71-72-73-237.

مكة: 45-129-199-221-224-237-243-247-248-278-351-352.

(هـ)

الهند: 235

(و)

وادي تهامة: 216.

وايلدمور: 256.

الولايات المتحدة الامريكية: 110-121-122-165-168-170-173-261

وورسسترشاير: 256

(ي)

يثرب: 161-182-201-284-285-287-300-330

اليونان: 67- 77- 93- 306.

فهرس المحتويات.

المقدّمة:.....ص5-24

الباب الأول: مسحة تاريخية حول الإستشراق.

الفصل الأول: أصل الإستشراق ونشأته:.....ص27

المبحث الأول: تعريف الإستشراق.....ص29

المطلب الأول: الإستشراق في تعريف الغربيين.....ص32

المطلب الثاني: الإستشراق في تعريف العرب والمسلمين.....ص39

المطلب الثالث: الإستعراب.....ص45

المطلب الرابع: الإستغراب.....ص47

المبحث الثاني: نشأة الإستشراق.....ص48

المطلب الأول: النشأة من حيث الزمان.....ص48

المطلب الثاني: النشأة من حيث المكان.....ص53

المطلب الثالث: النشأة من حيث الدافع.....ص57

المطلب الرابع: النشأة في إنجلترا.....ص60

المبحث الثالث: دوافع الإستشراق.....ص64

المطلب الأول: الدافع الديني.....ص65

المطلب الثاني: الدافع العلمي.....ص66

المطلب الثالث: الدافع الاقتصادي.....ص69

المطلب الرابع: الدافع الاستعماري.....ص72

المطلب الخامس: الدافع السياسي.....ص75

المطلب السادس: الدافع التاريخي.....ص77

المطلب السابع: الدافع الذاتي أو الاغترابي.....ص79

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الرابع: أهداف الإستشراق.....ص82
المطلب الأول: الهدف الديني.....ص83
المطلب الثاني: الهدف العلمي.....ص85
المطلب الثالث: الهدف الاقتصادي.....ص88
المطلب الرابع: الهدف الاستعماري.....ص89
المطلب الخامس: الهدف السياسي.....ص90
المطلب السادس: الهدف التاريخي.....ص93
المطلب السابع: الهدف الذاتي أو الاغترابي.....ص95
الفصل الثاني: الإستشراق في الميزان.....ص97
المبحث الأول: الإستشراق بين الإنصاف والإجحاف.....ص98
المطلب الأول: القسم المفرط في المدح.....ص99
المطلب الثاني: القسم المفرط في القدح.....ص102
المطلب الثالث: القسم الوسط.....ص106
المبحث الثاني: وسائل الإستشراق وأساليبه.....ص109
المبحث الثالث: مناهج الإستشراق.....ص114
المبحث الرابع: تمويل الإستشراق.....ص119
المطلب الأول: التمويل المالي للمؤسسات الإستشراقية.....ص120
المطلب الثاني: تمويل المجتمع للمؤسسات الإستشراقية.....ص123
المطلب الثالث: تمويل المؤسسات العلمية والتعليمية للمؤسسات الإستشراقية.....ص124
المطلب الرابع: التمويل للمؤسسات الإستشراقية بنظام الإعارة بالكتب.....ص125

الباب الثاني: رواد المدرسة الإستشراقية الإنجليزية الحديثة والمعاصرة وأهم مصنفاتهم في السيرة النبوية.

الفصل الأول: المستشرقون الإنجليز غير المنصفين للسيرة النبوية.....ص128

المبحث الأول: المستشرق مونتغمري واط.....ص128
المطلب الأول:أسس ومبادئ المنهج الإستشراقي في كتابة السيرة النبوية.....ص129
المطلب الثاني:مونتغمري واط: المولد، النشأة والحياة العلمية والعملية.....ص134
المطلب الثالث:منهج مونتغمري واط في كتابته للسيرة النبوية.....ص135

المبحث الثاني: المستشرق برنارد لويس.....ص163
المطلب الأول: برنارد لويس: المولد، النشأة والحياة العلمية والعملية.....ص164
المطلب الثاني: منهج برنارد لويس في كتابته للسيرة النبوية.....ص179

الفصل الثاني: المستشرقون الإنجليز المعتدلون في كتابتهم للسيرة النبوية.....ص202

المبحث الأول: المستشرق بودلي.....ص204
المطلب الأول: التعريف ببودلي وكتابه.....ص207
المطلب الثاني: الوحي والقرآن من تأليف محمدﷺ ص211
المطلب الثالث: الطعن في الصحابة.....ص219
المطلب الرابع: خصوبة أراضي ديار بني سعد ومراعيهم.....ص224
المطلب الخامس: الغريزة الشهوانية في أواخر حياة محمد ﷺ.....ص225
المطلب السادس: قوله أن رسول الله ﷺ كان فاشلا في التجارة.....ص226
المطلب السابع: تشكيكه واتهامه في براءة الطاهرة عائشة.....ص228

المبحث الثاني: المستشرق هيدلي(سيف الرحمن رحمة الله الفاروق).....ص232
المطلب الأول: التعريف باللورد هيدلي.....ص234

المطلب الثاني: هيدلي وصفاء العقيدة.....ص241
المطلب الثالث: هيدلي ومنهجه في بيان أخلاق الرسول ﷺ ص243
المطلب الرابع: هيدلي ومنهجه في ردّه فرية استعمال الرسول ﷺ للسيف والقوة.....ص244
المطلب الخامس: هيدلي ومنهجه في ردّه فرية شهوانية الرسول ﷺ ص245
المطلب السادس: هيدلي ومنهجه في ردّه فرية عبادة الرسول ﷺ للأصنام.....ص245
المطلب السابع: مآخذ هيدلي في كتابته للسيرة النبوية.....ص247

الباب الثالث: كارين أرمسترونغ وكتاباتها في السيرة النبوية في الميزان.

الفصل الأول: التعريف بكارين أرمسترونغ وبمنتوجها العلمي.....ص251

المبحث الأول: كارين أرمسترونغ: المولد، النشأة والحياة العلمية.....ص256

المبحث الثاني: دراسة وصفية لمنتوج أرمسترونغ العلمي.....ص265

الفصل الثاني: ترسبات الموروث الحضاري الإستشراقي في فكر أرمسترونغ.....ص272
ـ مهنج الأثر والتأثر.....ص276
ـ المنهج العلماني.....ص290
ـ المنهج المادي.....ص304
ـ المنهج الإسقاطي.....ص318
ـ منهج النفي والافتراض واعتماد السقط والشاذ..... ص324
ـ منهج البناء والهدم.....ص333

الفصل الثالث: مفترق الطرق بين أرمسترونغ وبين المدرسة الاستشراقية الإنجليزية المعاصرة.....ص341
المبحث الأول: كارين والإسلام عامة.....ص343
المبحث الثاني: كارين والوحي (القرآن الكريم).....ص347
المبحث الثالث: كارين وشخص النبي محمد ﷺ.....ص350
الخاتمة.....ص354
الملاحق.....ص360
قائمة المصادر والمراجع.....ص369
قائمة الفهارس.....ص391

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية